



مركز
للبحوث والتحريات الكمبيوترية

اصبهان

للغلام



عليه
صلى
عليه
وآله
وسلم

www. **Ghaemiyeh** .com
www. **Ghaemiyeh** .org
www. **Ghaemiyeh** .net
www. **Ghaemiyeh** .ir

الأمم

في تفسيرين كما جلا الله المنزلة

العلامة الفقيه المفسر

الشيخ كاظم حكايم الشيرازي

١٥

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل

كاتب:

آيت الله ناصر مكارم شيرازى

نشرت فى الطباعة:

مدرسه الامام على بن ابي طالب (عليه السلام)

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

٥	الفهرس
٣٢	الامثل فى تفسير كتاب الله المنزل المجلد ١٠
٣٢	اشاره
٣٣	اشاره
٣٧	[اتمه سورة طه]
٣٧	الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ٤٢ الى ٤٨]
٣٧	اشاره
٣٧	التفسير
٣٧	اشاره
٣٧	أول لقاء مع فرعون الجبار:
٤١	بحوث
٤١	اشاره
٤١	١- قدره الله العجيبه
٤٢	٢- التعامل المناسب مع الأعداء
٤٢	٣- هل يوحى إلى غير الأنبياء؟
٤٣	٤- سؤال و جواب
٤٥	الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ٤٩ الى ٥٥]
٤٥	اشاره
٤٥	التفسير
٤٥	اشاره
٤٥	من ركبما؟
٥١	ملاحظات
٥٢	الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ٥٦ الى ٦٤]
٥٢	اشاره

التفسير ٥٢

اشاره ٥٢

فرعون يهـىء نفسه للجوله الأخيره: ٥٢

الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ٦٥ الى ٦٩] ٥٨

اشاره ٥٨

التفسير ٥٨

اشاره ٥٨

موسى عليه السلام ينزل إلى الساحه: ٥٨

بحثنان ٦٢

اشاره ٦٢

١- ما هي حقيقه السحر؟ ٦٢

٢- الساحر لا يفلح أبدا ٦٣

الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ٧٠ الى ٧٦] ٦٥

اشاره ٦٥

التفسير ٦٥

اشاره ٦٥

الانتصار العظيم لموسى عليه السلام: ٦٥

بحوث ٧١

اشاره ٧١

١- العلم أساس الإيمان و الوعي ٧١

٢- لن نؤثر ك على البيئات ٧٢

٣- من هو المجرم؟ ٧٢

٤- جبر البيئه خرافه ٧٣

الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ٧٧ الى ٧٩] ٧٤

اشاره ٧٤

التفسير ٧٤

٧٤ اشارة

٧٤ نجاه بنى إسرائيل و غرق الفراعنه:

٧٨ الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ٨٠ الى ٨٢]

٧٨ اشارة

٧٨ التفسير

٧٨ اشارة

٧٨ طريق النجاه الوحيد:

٨٣ الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ٨٣ الى ٩١]

٨٣ اشارة

٨٤ التفسير

٨٤ اشارة

٨٤ صخب السامرى:

٩٠ بحوث

٩٠ اشارة

٩٠ ١-شوق اللقاء!

٩١ ٢-الحركات المناوئه لنهضة الأنبياء!

٩٢ ٣-مراحل القيادة

٩٣ ٤-سؤال و جواب؟

٩٥ الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ٩٢ الى ٩٨]

٩٥ اشارة

٩٥ التفسير

٩٥ اشارة

٩٥ نهايه الشامرى المريره:

١٠٢ بحثان

١٠٢ اشارة

١٠٢ ١-يجب الثبات أمام الحوادث الصعبه

٢-من هو السامري؟ ١٠٣

الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ٩٩ الى ١٠٤] ١٠٤

اشاره ١٠٤

التفسير ١٠٤

اشاره ١٠٤

أسوأ ما يحملون على عاتقهم! ١٠٤

الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ١٠٥ الى ١١٢] ١٠٩

اشاره ١٠٩

التفسير ١٠٩

اشاره ١٠٩

مشهد القيامة المهول: ١٠٩

بحثان ١١٤

اشاره ١١٤

١-الفرق بين الظلم و الهضم ١١٤

٢-مراحل القيامة ١١٥

الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ١١٣ الى ١١٤] ١١٧

اشاره ١١٧

التفسير ١١٧

بحثان ١١٩

اشاره ١١٩

١-لا تعجل حتى في تلقى الوحى! ١١٩

٢-أطلب المزيد من العلم ١٢٠

الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ١١٥ الى ١٢٢] ١٢٣

اشاره ١٢٣

التفسير ١٢٣

اشاره ١٢٣

آدم و مكر الشيطان: ١٢٣

هل ارتكب آدم معصيه؟ ١٢٨

الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ١٢٣ الى ١٢٧] ١٣٠

اشاره ١٣٠

التفسير ١٣٠

اشاره ١٣٠

المعيشه الضنكا: ١٣٠

بحوث ١٣١

اشاره ١٣١

١- الغفله عن ذكر الحق و آثارها ١٣١

٢- عمى البصر و عمى البصيره! ١٣٤

٣- الإسراف فى المعصيه ١٣٤

٤- ما هو الهبوط؟ ١٣٤

الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ١٢٨ الى ١٣٠] ١٣٨

اشاره ١٣٨

التفسير ١٣٨

اشاره ١٣٨

اعتبروا بتاريخ الماضين: ١٣٨

الآيات [سوره طه (٢٠): الآيات ١٣١ الى ١٣٥] ١٤٣

اشاره ١٤٣

التفسير ١٤٣

سوره الأنبياء ١٤٨

اشاره ١٤٨

فضل سوره الأنبياء: ١٥٠

محتوى السوره: ١٥٠

الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١ الى ٥] ١٥٣

١٥٣ اشارة

١٥٣ التفسير

١٥٣ اشارة

١٥٣ أعمار متنوّعه:

١٥٨ ملاحظه:

١٥٨ اشارة

١٥٨ هل القرآن محدث؟

١٦٠ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٦ الى ١٠] ..

١٦٠ اشارة

١٦٠ التفسير

١٦٠ اشارة

١٦٠ كلّ الأنبياء كانوا بشرا:

١٦١ من هم أهل الذكر؟

١٦٥ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١١ الى ١٥] ..

١٦٥ اشارة

١٦٥ التفسير

١٦٥ اشارة

١٦٥ كيف وقع الظالمون في قبضه العذاب؟

١٦٨ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١٦ الى ١٨] ..

١٦٨ اشارة

١٦٨ التفسير

١٦٨ اشارة

١٦٨ خلق السماء و الأرض ليس لهوا:

١٧١ بحث

١٧١ اشارة

١٧١ الهدف من الخلق:

الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١٩ الى ٢٥] - ١٧٥

اشاره ١٧٥

التفسير ١٧٥

اشاره ١٧٥

الشرك ينبع من الظن: ١٧٥

برهان التمانع: ١٧٧

سؤال: ١٧٩

الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٢٦ الى ٢٩] - ١٨٣

اشاره ١٨٣

التفسير ١٨٣

اشاره ١٨٣

الملائكة عباد مكرمون مطيعون: ١٨٣

الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٣٠ الى ٣٣] - ١٨٧

اشاره ١٨٧

التفسير ١٨٧

اشاره ١٨٧

علامات أخرى لله في عالم الوجود: ١٨٧

بحثان ١٩١

اشاره ١٩١

١- تفسير قوله تعالى: كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ١٩١

٢- السماء سقف محكم ١٩٢

الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٣٤ الى ٣٥] - ١٩٥

اشاره ١٩٥

التفسير ١٩٥

اشاره ١٩٥

الموت يترتب بالجميع: ١٩٥

الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٣٦ الى ٤٠] - - - - - ٢٠٠

اشاره - - - - - ٢٠٠

التفسير - - - - - ٢٠٠

اشاره - - - - - ٢٠٠

خلق الإنسان من عجل! - - - - - ٢٠٠

ملاحظتان - - - - - ٢٠٣

الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٤١ الى ٤٥] - - - - - ٢٠٤

اشاره - - - - - ٢٠٤

التفسير - - - - - ٢٠٤

الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٤٦ الى ٤٧] - - - - - ٢٠٨

اشاره - - - - - ٢٠٨

التفسير - - - - - ٢٠٨

اشاره - - - - - ٢٠٨

موازن العدل في القيامة: - - - - - ٢٠٨

الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٤٨ الى ٥٠] - - - - - ٢١٢

اشاره - - - - - ٢١٢

التفسير - - - - - ٢١٢

اشاره - - - - - ٢١٢

لمحه من قصص الأنبياء: - - - - - ٢١٢

الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٥١ الى ٥٨] - - - - - ٢١٦

اشاره - - - - - ٢١٦

التفسير - - - - - ٢١٦

اشاره - - - - - ٢١٦

تخطيط إبراهيم عليه السلام لتطعيم الأصنام: - - - - - ٢١٦

ملاحظتان - - - - - ٢٢٠

اشاره - - - - - ٢٢٠

- ٢٢٠ ١-الصنميه فى أشكال متعدده
- ٢٢١ ٢-قول عبده الأصنام و جواب إبراهيم
- ٢٢٢ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٥٩ الى ٦٧]
- ٢٢٢ اشاره
- ٢٢٢ التفسير
- ٢٢٢ اشاره
- ٢٢٢ إبراهيم و برهانه المبين:
- ٢٢٩ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٦٨ الى ٧٠]
- ٢٢٩ اشاره
- ٢٢٩ التفسير
- ٢٢٩ اشاره
- ٢٢٩ عند ما تصير النار جته:
- ٢٣٣ بحوث
- ٢٣٣ اشاره
- ٢٣٣ ١-السعى للخير و الشر
- ٢٣٣ ٢-الفتى الشجاع
- ٢٣٤ ٣-إبراهيم و نمرود
- ٢٣٦ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٧١ الى ٧٣]
- ٢٣٦ اشاره
- ٢٣٦ التفسير
- ٢٣٦ اشاره
- ٢٣٦ هجره إبراهيم من أرض الوثنيين
- ٢٤٢ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٧٤ الى ٧٥]
- ٢٤٢ اشاره
- ٢٤٢ التفسير
- ٢٤٢ اشاره

- ٢٤٢ نجاه لوط من أرض الفجار:
- ٢٤٥ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٧٦ الى ٧٧].
- ٢٤٥ اشاره
- ٢٤٥ التفسير
- ٢٤٥ اشاره
- ٢٤٥ نجاه نوح من القوم الكافرين:
- ٢٤٧ ملاحظه
- ٢٤٨ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٧٨ الى ٨٠].
- ٢٤٨ اشاره
- ٢٤٨ التفسير
- ٢٤٨ اشاره
- ٢٤٨ قضاء داود و سليمان عليهما السلام:
- ٢٥٢ بحث
- ٢٥٤ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٨١ الى ٨٢].
- ٢٥٤ اشاره
- ٢٥٤ التفسير
- ٢٥٤ اشاره
- ٢٥٤ الرياح تحت إمره سليمان:
- ٢٥٨ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٨٣ الى ٨٤].
- ٢٥٨ اشاره
- ٢٥٨ التفسير
- ٢٥٨ اشاره
- ٢٥٨ أيوب و نجاته من المصاعب:
- ٢٥٩ بحوث
- ٢٥٩ اشاره
- ٢٥٩ ١-لمحه من قصه أيوب

الآيتان [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٨٥ الى ٨٦] ٢٦٢

اشاره ٢٦٢

التفسير ٢٦٢

اشاره ٢٦٢

إسماعيل و إدريس و ذو الكفل عليه السلام: ٢٦٢

إدريس و ذو الكفل عليهما السلام: ٢٦٣

الآيتان [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٨٧ الى ٨٨] ٢٦٤

اشاره ٢٦٤

التفسير ٢٦٤

اشاره ٢٦٤

نجاه يونس من السجن المرعب: ٢٦٤

بحوث ٢٦٥

اشاره ٢٦٥

١-قضه يونس عليه السلام ٢٦٥

٢-ما معنى الظلمات هنا؟ ٢٦٦

٣-أى أولى تركه يونس؟ ٢٦٦

٤-درس مصيرى ٢٦٧

الآيتان [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٨٩ الى ٩٠] ٢٦٩

اشاره ٢٦٩

التفسير ٢٦٩

اشاره ٢٦٩

نجاه زكريا من الوحده: ٢٦٩

الآيه [سوره الأنبياء (٢١): آيه ٩١] ٢٧١

اشاره ٢٧١

التفسير ٢٧١

اشاره ٢٧١

٢٧١ مريم السيده الطاهره:

٢٧٢ ملاحظات

٢٧٤ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٩٢ الى ٩٤]

٢٧٤ اشاره

٢٧٤ التفسير

٢٧٤ اشاره

٢٧٤ امه واحده:

٢٧٨ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٩٥ الى ٩٧]

٢٧٨ اشاره

٢٧٨ التفسير

٢٧٨ اشاره

٢٧٨ الكافرون على أعتاب القيامة:

٢٨٠ معنى بعض الكلمات:

٢٨١ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ٩٨ الى ١٠٣]

٢٨١ اشاره

٢٨١ التفسير

٢٨١ اشاره

٢٨١ حصب جهنم!

٢٨٢ فإذا سأل سائل ما الهدف من إلقاء الأصنام في جهنم؟

٢٨٦ الآية [سوره الأنبياء (٢١): آيه ١٠٤]

٢٨٦ اشاره

٢٨٦ التفسير

٢٨٦ اشاره

٢٨٦ يوم تطوى السماء!

٢٨٨ الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١٠٥ الى ١٠٦]

٢٨٨ اشاره

٢٨٨	التفسير
٢٨٨	اشاره
٢٨٨	سيحكم الصالحون الأرض:
٢٩١	بحوث
٢٩١	اشاره
٢٩١	١-روايات حول ثوره المهدي عليه السلام
٢٩٢	٢-بشاره حكومه الصالحين في مزامير داود
٢٩٣	٣-حكم الصالحين قانون تكويني
٢٩٧	الآيات [سوره الأنبياء (٢١): الآيات ١٠٧ الى ١١٢]
٢٩٧	اشاره
٢٩٧	التفسير
٢٩٧	اشاره
٢٩٧	التبى رحمه للعالمين:
٣٠٢	نهايه سوره الأنبياء
٣٠٣	سوره الحج
٣٠٣	اشاره
٣٠٥	مضمون سوره الحج:
٣٠٦	فضيله تلاوه سوره الحج:
٣٠٨	الآيتان [سوره الحج (٢٢): الآيات ١ الى ٢]
٣٠٨	اشاره
٣٠٨	التفسير
٣٠٨	اشاره
٣٠٨	زلزله البعث العظيم:
٣٠٩	مسائل مهمه
٣١٢	الآيتان [سوره الحج (٢٢): الآيات ٣ الى ٤]
٣١٢	اشاره

٣١٢	التفسير
٣١٢	اشاره
٣١٢	أتباع الشيطان!
٣١٣	ملاحظات
٣١٣	اشاره
٣١٣	١-الجدال في الحقّ و الباطل
٣١٤	٢-جدال الباطل سبيل الشيطان
٣١٤	٣-لماذا أى شيطان كان؟
٣١٥	٤-تفسير عبارته كُتِبَ عَلَيْهِ
٣١٦	الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٥ الى ٧]
٣١٦	اشاره
٣١٦	التفسير
٣١٦	اشاره
٣١٦	دليل المعاد في عالم الأجنّه و التبات:
٣١٨	ملاحظات
٣٢٠	بحوث
٣٢٠	اشاره
٣٢٠	١-مراحل حياه الإنسان السبع
٣٢٢	٢-المعاد الجسماني
٣٢٣	٣-ما هو «أرذل العمر»؟
٣٢٥	الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٨ الى ١٠]
٣٢٥	اشاره
٣٢٥	التفسير
٣٢٥	اشاره
٣٢٥	الجدال بالباطل مزه أخرى:
٣٢٨	الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ١١ الى ١٤]

- ٣٢٨ اشارة
- ٣٢٨ التفسير
- ٣٢٨ اشارة
- ٣٢٨ الواقف على حاقه وادى الكفر
- ٣٣٣ الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ١٥ الى ١٧]
- ٣٣٣ اشارة
- ٣٣٣ سبب النزول
- ٣٣٤ التفسير
- ٣٣٤ اشارة
- ٣٣٤ البعث نهايه جميع الخلافات:
- ٣٣٤ بحوث
- ٣٣٤ اشارة
- ٣٣٤ ١-ارتباط الآيات
- ٣٣٧ ٢-من هم المجوس؟
- ٣٣٨ ٣-من هم الصابئه؟
- ٣٣٩ ٤-مجموعه المنحرفين عن التوحيد
- ٣٤٠ الآية [سوره الحج (٢٢): آيه ١٨]
- ٣٤٠ اشارة
- ٣٤٠ التفسير
- ٣٤٠ اشارة
- ٣٤٠ الوجود كله يسجد لله:
- ٣٤١ بحثان
- ٣٤١ اشارة
- ٣٤١ ١-فى كيفيه السجود العام!
- ٣٤٢ ٢-هل سجود الملائكه تشريعى؟
- ٣٤٢ أجوبه عن استفسارات

- الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ١٩ الى ٢٤] ٣٤٤
- اشاره ٣٤٤
- سبب النزول ٣٤٤
- التفسير ٣٤٥
- اشاره ٣٤٥
- خصمان متقابلان! ٣٤٥
- الآيه [سوره الحج (٢٢): آيه ٢٥] ٣٤٨
- اشاره ٣٤٨
- التفسير ٣٤٨
- اشاره ٣٤٨
- الذين يصدون عن بيت الله الحرام! ٣٤٨
- ملاحظات ٣٤٩
- اشاره ٣٤٩
- ٤- ما الذي تعنيه هذه الآيه بالمسجد الحرام؟ ٣٥١
- الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٢٦ الى ٢٨] ٣٥٣
- اشاره ٣٥٣
- التفسير ٣٥٣
- اشاره ٣٥٣
- الدعوة العمقه للحج! ٣٥٣
- بحوث ٣٥٩
- اشاره ٣٥٩
- ١- ما هي الأيام المعلومات؟ ٣٥٩
- ٢- ذكر الله في أرض «منى» ٣٦٠
- ٣- فلسفه الحج و أسراره العميقه! ٣٦١
- اشاره ٣٦١
- ١- البعد الأخلاقي للحج: ٣٦١

٣٦٢٢-البعد السياسى للحجّ

٣٦٣٣-البعد الثقافى للحجّ

٣٦٥٤-البعد الاقتصادى للحجّ

٣٦٦٤-ما هو مصير لحوم الأضاحى فى عصرنا؟

٣٦٨ الأيتان [سوره الحج (٢٢): الآيات ٢٩ الى ٣٠]

٣٦٨ اشاره

٣٦٨ التفسير

٣٦٨ اشاره

٣٧٣ مسأله: ما معنى قَوْل الزُّور ؟

٣٧٤ الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٣١ الى ٣٣]

٣٧٤ اشاره

٣٧٤ التفسير

٣٧٤ اشاره

٣٧٤ تعظيم شعائر الله دليل على تقوى القلوب:

٣٨٠ الأيتان [سوره الحج (٢٢): الآيات ٣٤ الى ٣٥]

٣٨٠ اشاره

٣٨٠ التفسير

٣٨٠ اشاره

٣٨٠ بشرّ المحبتين:

٣٨٣ الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٣٦ الى ٣٨]

٣٨٣ اشاره

٣٨٣ التفسير

٣٨٣ اشاره

٣٨٣ لماذا الأضحيه؟

٣٨٩ الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٣٩ الى ٤١]

٣٨٩ اشاره

التفسير ٣٨٩

اشاره ٣٨٩

أول حكم بالجهاد: ٣٨٩

بحوث ٣٩٤

اشاره ٣٩٤

١- فلسفه تشريع الجهاد ٣٩٤

٢- من هم الذين وعدهم الله بالنصر؟ ٣٩٥

٣- «المحسنين»، «المخبتين»، «أنصار الله» ٣٩٧

الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٤٢ الى ٤٥] ٣٩٨

اشاره ٣٩٨

التفسير ٣٩٨

اشاره ٣٩٨

بئر معطله و قصر مشيدا! ٣٩٨

ملاحظه ٤٠٠

الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٤٦ الى ٤٨] ٤٠١

اشاره ٤٠١

التفسير ٤٠١

اشاره ٤٠١

السير في الأرض و العبره: ٤٠١

الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٤٩ الى ٥١] ٤٠٥

اشاره ٤٠٥

التفسير ٤٠٥

اشاره ٤٠٥

الرزق الكريم: ٤٠٥

الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٥٢ الى ٥٤] ٤٠٧

اشاره ٤٠٧

٤٠٧ التفسير

٤٠٧ اشاره

٤٠٧ وساوس الشياطين في مساعي الأنبياء:

٤٠٨ بحوث

٤٠٨ اشاره

٤٠٨ ١-المراد من إلقاءات الشيطان

٤١٠ ٢-أسطورة الغرائب المختلفة!

٤١٣ ٣-الفرق بين الرسول و النبي!

٤١٤ الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٥٥ الى ٥٩]

٤١٤ اشاره

٤١٤ التفسير

٤١٤ اشاره

٤١٤ الزرق الحسن:

٤١٨ الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٦٠ الى ٦٢]

٤١٨ اشاره

٤١٨ سبب النزول

٤١٩ التفسير

٤١٩ اشاره

٤١٩ من هم المنتصرون؟

٤٢٢ الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٦٣ الى ٦٦]

٤٢٢ اشاره

٤٢٢ التفسير

٤٢٢ اشاره

٤٢٢ دلائل الله في ساحه الوجود:

٤٢٥ ملاحظات

٤٢٥ اشاره

- ٤٢٥ ١-الصفات الخاصه بالله:
- ٤٢٥ ٢-الآيات تدلّ على توحيد الله و على المعاد
- ٤٢٦ ٣-تسخير الأرض و السماء للإنسان:
- ٤٢٧ الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٦٧ الى ٧٠]
- ٤٢٧ اشاره
- ٤٢٧ التفسير
- ٤٢٧ اشاره
- ٤٢٧ لكل أمة عباده:
- ٤٣٠ الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٧١ الى ٧٤]
- ٤٣٠ اشاره
- ٤٣٠ التفسير
- ٤٣٠ اشاره
- ٤٣٠ معبودات أضعف من ذبابه!
- ٤٣٤ بحث
- ٤٣٤ اشاره
- ٤٣٤ مثال واضح لبيان نقاط الضعف:
- ٤٣٥ سؤال و جواب:
- ٤٣٧ الآيات [سوره الحج (٢٢): الآيات ٧٥ الى ٧٨]
- ٤٣٧ اشاره
- ٤٣٧ سبب النزول
- ٤٣٨ التفسير
- ٤٣٨ اشاره
- ٤٣٨ خمسہ تعاليم بناءه و مهمته:
- ٤٤٥ سوره المؤمنین
- ٤٤٥ اشاره
- ٤٤٧ فضيله سوره المؤمنون:

- ٤٤٨ مضمون سوره المؤمنين:
- ٤٥٠ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١ الى ١١]
- ٤٥٠ اشاره
- ٤٥٠ التفسير
- ٤٥٠ اشاره
- ٤٥٠ صفات المؤمنين البارزه:
- ٤٥٨ ملاحظات
- ٤٥٨ اشاره
- ٤٥٨ ١- إختيار الفعل الماضى «أفلح» لنجاح المؤمنين، تأكيد أقوى
- ٤٥٨ ٢- الزوجه الدائمه و المؤقته
- ٤٥٩ ٣- الخشوع روح الصلاه
- ٤٦١ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١٢ الى ١٦]
- ٤٦١ اشاره
- ٤٦١ التفسير
- ٤٦١ اشاره
- ٤٦١ مراحل تكامل الجنين فى الرحم:
- ٤٦٤ بحوث
- ٤٦٤ اشاره
- ٤٦٤ ١- اتباع المبدأ و المعاد بدليل واحد
- ٤٦٥ ٢- آخر مرحله فى تكامل جنين الإنسان فى الرحم
- ٤٦٦ ٣- كساء اللحم فوق العظام
- ٤٦٧ ٤- اللباس صيانه للعظام!
- ٤٦٨ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١٧ الى ٢٢]
- ٤٦٨ اشاره
- ٤٦٨ التفسير
- ٤٦٨ اشاره

٤٦٨ مژه أخرى مع علائم التوحيد:

٤٧٥ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٣ الى ٢٥] -

٤٧٥ اشاره

٤٧٥ التفسير

٤٧٥ اشاره

٤٧٥ منطق الجبناء المغرورين:

٤٧٨ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٢٦ الى ٣٠] -

٤٧٨ اشاره

٤٧٨ التفسير

٤٧٨ اشاره

٤٧٨ خاتمه حياه قوم معاندين:

٤٨١ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٣١ الى ٤١] -

٤٨١ اشاره

٤٨٢ التفسير

٤٨٢ اشاره

٤٨٢ المصير المؤلم لقوم ثمود:

٤٨٥ تعليقات:

٤٨٥ اشاره

٤٨٥ ١- الحياه المترفه و أثرها المشؤوم

٤٨٦ ٢- «لتراب» و «العظام»

٤٨٦ ٣- ما معنى الغناء؟

٤٨٧ ٤- مصير عام

٤٨٨ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٢ الى ٤٤] -

٤٨٨ اشاره

٤٨٨ التفسير

٤٨٨ اشاره

- ٤٨٨ هلاك الأقسام المعاندين الواحد بعد الآخر:
- ٤٩١ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٥ الى ٤٩] -
- ٤٩١ اشاره
- ٤٩١ التفسير
- ٤٩١ اشاره
- ٤٩١ قيام موسى و هلاك الفراعنه:
- ٤٩٤ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): آيه ٥٠] -
- ٤٩٤ اشاره
- ٤٩٤ التفسير
- ٤٩٤ اشاره
- ٤٩٤ آيه أخرى من آيات الله:
- ٤٩٤ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٥١ الى ٥٤] -
- ٤٩٤ اشاره
- ٤٩٤ التفسير
- ٤٩٤ اشاره
- ٤٩٤ جميع الامه يد واحده:
- ٥٠٢ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٥٥ الى ٦١] -
- ٥٠٢ اشاره
- ٥٠٢ التفسير
- ٥٠٢ اشاره
- ٥٠٢ المسارعون فى الخيرات:
- ٥٠٦ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٦٢ الى ٦٧] -
- ٥٠٦ اشاره
- ٥٠٦ التفسير
- ٥٠٦ اشاره
- ٥٠٦ قلوب فى الجهل مغموره!:

الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٤٨ الى ٧٤]	٥١١
اشاره	٥١١
التفسير	٥١١
اشاره	٥١١
أعدار المنكرين المختلفه:	٥١١
بحوث	٥١٤
اشاره	٥١٤
١-التمسك بالحقّ أو بالأهواء النفسيه	٥١٤
٢-صفات القائد	٥١٥
٣-لماذا لا يميل أكثر الناس إلى الحقّ؟	٥١٦
الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٧٥ الى ٨٠]	٥٢١
اشاره	٥٢١
التفسير	٥٢١
اشاره	٥٢١
طرق التوعيه الإلهيه المختلفه:	٥٢١
الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٨١ الى ٩٠]	٥٢٦
اشاره	٥٢٦
التفسير	٥٢٦
اشاره	٥٢٦
القرآن يدعو الضمائر إلى التحكيم:	٥٢٦
ملاحظات	٥٢٩
اشاره	٥٢٩
١-معنى عدد من الكلمات	٥٢٩
٢-تأكيد المعاد بالاستناد إلى قدره الله الشامله	٥٣٠
٣-اختلاف نهايات الآيات	٥٣٠
الآيتان [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٩١ الى ٩٢]	٥٣٢

٥٣٢ اشارة

٥٣٢ التفسير

٥٣٢ اشارة

٥٣٢ الشرك يجز العالم نحو الدمار:

٥٣٥ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٣ الى ٩٨] -

٥٣٥ اشارة

٥٣٥ التفسير

٥٣٥ اشارة

٥٣٥ تعوذوا بالله من همزات الشياطين:

٥٣٧ ملاحظتان

٥٣٧ اشارة

٥٣٧ ١- ما معنى همزات الشياطين؟

٥٣٨ ٢- ردّ السيئه بالحسنه

٥٣٩ الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ٩٩ الى ١٠٠] -

٥٣٩ اشارة

٥٣٩ التفسير

٥٣٩ اشارة

٥٣٩ طلب المستحيل:

٥٤٠ بحوث

٥٤٠ اشارة

٥٤٠ ١- من هو المخاطب في قوله تعالى: رَبِّ ارْجِعُونِ؟

٥٤١ ٢- تفسير عباره فيمَا تَزَكُّتْ

٥٤٢ ٣- ما الذى تنفيه «كلاً»؟

٥٤٢ ٤- ما هو عالم البرزخ؟

٥٤٧ البرزخ و الاتصال بعالم الأرواح

٥٤٧ صورته عن عالم البرزخ

الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠١ الى ١٠٤] ٥٥١

اشاره ٥٥١

التفسير ٥٥١

اشاره ٥٥١

جانب من عقاب المسيئين: ٥٥١

ملاحظات ٥٥٥

اشاره ٥٥٥

١-اليوم الذى لا يعتنى فيه بالأنساب: ٥٥٥

٢-حكايه الأصمعى المؤثره: ٥٥٦

٣-تناسب العقاب مع الذنب ٥٥٨

الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١٠٥ الى ١١١] ٥٥٩

اشاره ٥٥٩

التفسير ٥٥٩

اشاره ٥٥٩

لا تكلمون! ٥٥٩

الآيات [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١١٢ الى ١١٦] ٥٦٢

اشاره ٥٦٢

التفسير ٥٦٢

اشاره ٥٦٢

الدنياو عمرها القصير: ٥٦٢

بحث ٥٦٥

اشاره ٥٦٥

الموت ليس نهايه الحياه: ٥٦٥

الآيتان [سوره المؤمنون (٢٣): الآيات ١١٧ الى ١١٨] ٥٦٨

اشاره ٥٦٨

التفسير ٥٦٨

٥٦٨ اشارة

٥٦٨ المفلحون و الخائبون:

٥٨٧ تعريف مركز

سرشناسه: مکارم شیرازی، ناصر، - ۱۳۰۵

عنوان و نام پدیدآور: الامثل فی تفسیر کتاب الله المنزل / تالیف ناصر مکارم شیرازی؛ [با همکاری جمعی از فضلا]

وضعیت ویراست: [ویرایش ۲]

مشخصات نشر: قم: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)، ۱۴۲۱ق. = ۱۳۷۹.

مشخصات ظاهری: ج ۲۰

شابک: ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۳-X(دوره)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۹-۱(ج.۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۳-۲(ج.۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۸-۳(ج.۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۲-۴(ج.۴)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۷-۵(ج.۵)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۱-۶(ج.۶)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۶-۷(ج.۷)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۰-۸(ج.۸)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۵-۹(ج.۹)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۴۴-۱۰(ج.۱۰)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۲-۱۱(ج.۱۱)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۷-۱۲(ج.۱۲)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۱-۳(ج.۱۳)؛ ۹۶۴-۶۶۳۲-۵۰-۵(ج.۱۵)

وضعیت فهرست نویسی: فهرست نویسی قبلی

یادداشت: کتاب حاضر ترجمه و تلخیص "تفسیر نمونه" است

یادداشت: کتاب حاضر در سالهای مختلف توسط ناشرین مختلف منتشر گردیده است

یادداشت: کتابنامه

موضوع: تفاسیر شیعه -- قرن ۱۴

شناسه افزوده: مدرسه الامام علی بن ابی طالب(ع)

رده بندی کنگره: BP۹۸/م ۷ ۷۰۴۴۷ ۱۳۷۹

رده بندی دیویی: ۲۹۷/۱۷۹

شماره کتابشناسی ملی: م ۷۹-۱۰۳۹۱

[الآيات (٢٠): الآيات ٢٢ الى ٢٨]

اشاره

إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَبَيِّنَا فِي ذِكْرِي (٢٢) إِذْهَبَا إِلَى فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَى (٢٣) فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَئِنَّا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى (٢٤) قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى (٢٥) قَالَا لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَ أُرِي (٢٦) فَأَلْيَاهُ فَقُولَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تَعَذِّبْهُمْ قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ وَالسَّلَامُ عَلَيَّ مَنْ اتَّبَعَ الْهُدَى (٢٧) إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مَنْ كَذَّبَ وَ تَوَلَّى (٢٨)

التفسير

اشاره

أول لقاء مع فرعون الجبار:

الآن وقد أصبح كل شيء مهيباً، وكل الوسائل قد جعلت تحت تصرف موسى، فقد خاطب الله سبحانه موسى و هارون بقوله: إِذْهَبْ أَنْتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي الْآيَاتِ الَّتِي تَشْمَلُ الْمَعْجَزَاتِ الْكَبِيرَاتِ لِمُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، كما تشمل كل آيات الله و تعليماته التي هي بذاتها دليل على أحقيته دعوته، خاصه و أن هذه التعليمات العظيمة المحتوى ظهرت على يد رجل قضى أهم سنّ حياته في «رعى الأغنام»!

و من أجل رفع معنوياتهما، و التأكيد على بذل أقصى ما يمكن من المصاعى و الجهود، فقد أضاف سبحانه قائلا: **وَلَا تَبْتَئُوا فِي ذِكْرِي وَ تَنْفِذِ أَوْامِرِي**، لأنَّ الضعف و اللين و ترك الحزم سيذهب بكلَّ جهود كما أدراج الرياح، فأثبتنا و لا- تخافا من أى حادثه، و لا تهنا أمام أى قدره.

بعد ذلك، يبيّن الهدف الأصل لهذه الحركه، و النقطه التى يجب أن تكون هدفا لتشخيص المسار، فيقول: **إِذْهَبَا إِلَىٰ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ طَغَىٰ** فإنه سبب كلِّ الشقاء و التعاسه فى هذه المنطقه الواسعه، و ما لم يتم إصلاحه فسوف لا ينجح أى عمل، لأنَّ عامل تقدّم الأُمّه أو تخلفها، سعادتها أو شقائها و بؤسها هو قاداتها و حكّامها، و لذلك يجب أن يكونوا هدفكما قبل الجميع.

صحيح أنّ هارون لم يكن فى ذلك الحين حاضرا فى تلك الصحراء، و لكن الله أطلعه على هذه الحوادث كما ذكر المفسرون، و قد خرج من مصر لاستقبال أخيه موسى لأداء هذه المهمّه، إلاَّ أنه لا مانع مطلقا من أن يخاطبا معا، و توجه إليهما مأموريه تبليغ الرساله، فى الوقت الذى لم يحضر غير أحدهما.

ثمَّ بيّنت الآيه طريقه التعامل المؤثره مع فرعون، فمن أجل أن تنفذا إليه و تؤثرا فيه فقولاً **لَهُ قَوْلًا لَّيِّنًا لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ** و الفرق بين «يتذكّر» و «يخشى» هنا هو أنّكما إذا واجهتماه بكلام لطيف، رقيق، ملائم، و تبيينان فى الوقت ذاته المطالب بصراحه و حزم، فيحصل أحد الاحتمالين: أن يقبل من صميم قلبه أدلتكما المنطقيّه و يؤمن، و الاحتمال الآخر هو أن يخاف على الأقل من العقاب الإلهى فى الدنيا أو الآخره، و من زوال ملكه و قدرته، فيذعن و يسلم و لا يخالفكما.

و يوجد احتمال ثالث أيضا، و هو أنه لا- يتذكّر و لا يخشى، بل سيستمر فى طريق المخالفه و المجابهه، و قد أشير إلى ذلك بكلمه «لعلّ» و فى هذه الصوره فإنَّ الحجّه قد تمّت عليه، و على كلِّ حال فإنَّ القيام بهذا العمل لا يخلو من فائده.

لا شك أن الله تعالى يعلم عاقبه عمله، إلا أن التعبيرات المذكورة آنفا درس لموسى و هارون و كل المصلحين و المرشدين إلى طريق الله (١).

و مع هذه الحال، فقد كان موسى و هارون قلقين من أن هذا الرجل القوي المتغطرس المستكبر، الذى عمّ رعبه و خشونته كل مكان، قد يقدم على عمل قبل أن يبلغ موسى عليه السلام و هارون عليه السلام الدعوه، و يهلكهما، لذلك قالَا رَبَّنَا إِنَّا نَخَافُ أَنْ يُفْرِطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى .

«يفرط» من مادّه فرط-على وزن شرط-أى السبق و العجله، و لذلك يقال للشخص الذى يردّ محلّ الماء أولا: فارط، و نقرأ

فى كلام الإمام على عليه السلام أما قبور الموتى بجبانه الكوفه: «أنتم لنا فرط سابق» (٢).

على كل حال، فإنّ موسى و هارون كانا مشفقين من شيئين: فإما أن يقسو فرعون و يستخدم القوه قبل أن يسمع كلامهما، أو أنه يقدم على هذا العمل بعد سماعه هذا الكلام مباشره، و كلتا الحالين تهدّد مهمتهما بالخطر.

إلا أن الله سبحانه قد أجابهما بحزم: ف قَالَ لَا تَخَافَا إِنِّي مَعَكُمَا أَسْمِعُ وَ أَرَى و بناء على هذا، فمع وجود الله القادر معكما فى كل مكان، الله الذى يسمع كل شىء، و يرى كل شىء، و هو حاميكما و سندكما، فلا معنى للخوف و الرعب.

ثمّ يبيّن لهما بدقه كيفيه إلقاء دعوتهما فى محضر فرعون فى خمس جمل قصار قاطعه غيّه المحتوى، ترتبط أولها بأصل المهمه، و الثانيه ببيان محتوى المهمه، و الثالثه بذكر الدليل و السند، و الرابعه بترغيب الذين يقبلونها، و أخيرا فإنّ الخامسه تكفّلت بتهديد المعارضين.

فتقول أولا: فَأَيُّهَا قَوْلَا إِنَّا رَسُولَا رَبِّكَ و الجميل هنا أنّهما بدل أن يقولوا:

(ربنا) فإنّهما يقولان (ربك) ليثيروا عواطف فرعون و إحساساته تجاه هذه النقطه

ص: ٧

١-١ - لقد بحثنا فى معنى (لعل) و بأى معنى وردت فى القرآن بصوره مفصّله فى ذيل الآيه (٨٤) من سوره النساء.

٢-٢ - نهج البلاغه، الكلمات القصار رقم ١٣٠.

بأن له رباً، وأنهما رسولا، و يكونان قد أفهماه بصورة ضمته أن ادعاء الربوبية لا يصح من أى أحد، فهي مختصة بالله.

ثم تقول: فَأَرْسِلْ مَعَنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَا تُعَذِّبْهُمْ الصَّحِيحَ أَنَّ دَعْوَةَ مُوسَى لَمْ تَكُنْ مِنْ أَجْلِ نَجَاةِ بَنِي إِسْرَائِيلَ مِنْ قَبْضِهِ الْفِرَاعَنِي فَقَطْ، بَلْ كَانَتْ -و بشهادة سائر آيات القرآن- تهدف أيضاً إلى نجاه فرعون و الفراعنة أنفسهم من قبضه الشرك و عباده الأوثان. إلا- أَنَّ أَمْرَهُ هَذَا الْمَوْضُوعُ، وَ ارْتِبَاطُهُ الْمُنْطَقِي بِمُوسَى كَانَ السَّبَبُ فِي أَنْ يُضَعَّ إِصْبَعُهُ عَلَى هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ بِنَفْسِهِ، لِأَنَّ اسْتِغْلَالَ وَ اسْتِعْبَادَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ كُلِّ ذَلِكَ التَّعْذِيبِ وَ الْأَذَى لَمْ يَكُنْ أَمْرًا يُمْكِنُ تَوْجِيهِهِ.

ثم أشارت إلى دليلهما و وثيقتهما، فتقول: قولاً له: قَدْ جِئْنَاكَ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكَ فَإِنَّا لَا نَتَكَلَّمُ اعْتِبَاطًا أَوْ جَزَافًا، وَ لَا نَتَحَدَّثُ مِنْ دُونِ أَنْ نَمْتَلِكَ الدَّلِيلَ، وَ بِنَاءٍ عَلَى هَذَا، فَإِنَّ الْعَقْلَ يَحْكُمُ بِأَنْ تَفَكَّرَ فِي كَلَامِنَا عَلَى الْأَقْلَ، وَ أَنْ تَقْبَلَهُ إِنْ كَانَ صَاحِحًا وَ مُنْطَقِيًّا.

ثم تضيف الآية من باب ترغيب المؤمنين: وَ السَّلَامُ عَلَيَّ مِنْ اتَّبَعَ الْهُدَى .

و هذه الجملة يمكن أن تشير أيضاً إلى معنى آخر، و هو أَنَّ السَّلَامَةَ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا، وَ الْعَالَمِ الْآخِرِ مِنَ الْآلَامِ وَ الْعَذَابِ الْإِلَهِيِّ الْأَلِيمِ، وَ مِنْ مَشَاكِلِ الْحَيَاةِ الْفَرْدِيَّةِ وَ الْجَمَاعِيَّةِ، مِنْ نَصِيبِ أَوْلِيَاءِكَ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الْهُدَى الْإِلَهِيَّ، وَ هَذِهِ فِي الْحَقِيقَةِ هِيَ النَتِيْجَةُ النَّهَائِيَّةُ لِدَعْوَةِ مُوسَى.

و أخيراً، فَإِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُهُمَا أَنْ يَفْهَمَا الْعَاقِبَةَ الْمَشْؤُومَةَ لِلتَّمَرُّدِ عَلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ وَ عَصْيَانِهَا، بِقَوْلِهِمَا لَهُ: إِنَّا قَدْ أُوحِيَ إِلَيْنَا أَنَّ الْعَذَابَ عَلَيَّ مِنْ كَذَّبٍ وَ تَوَلَّى .

من الممكن أن يتوهم متوهم عدم تناسب هذه العبارة و الحوار الملائم للذين كانا قد امرا بهما. إلا أَنَّ هَذَا خَطَأٌ مُحْضٌ، فَأَيُّ مَانِعٍ مِنْ أَنْ يَقُولَ طَبِيبٌ حَرِيصٌ بِأَسْلُوبٍ مُنَاسِبٍ لِمَرِيضِهِ: كُلِّ مَنْ يَسْتَعْمَلُ هَذَا الدَّوَاءَ سَيَشْفَى وَ يَنْجُو، وَ كُلِّ مَنْ يَتْرَكُهُ فَيَسْتَنْزِلُ بِهِ الْمَوْتَ.

إن هذا بيان لنتيجة التعامل غير المناسب مع واقع ما، ولا يوجد فيه تهديد خاص، ولا شدّة في التعامل. وبتعبير آخر: فإنّ هذه حقيقة يجب أن تقال لفرعون بدون لفّ و دوران، وبدون أى تغطيه و توريه.

بحوث

اشاره

١- قدره الله العجيبه

لقد رأينا كثيرا-على مرّ التاريخ-أناسا أقوياء هبوا للوقوف بوجه الحقّ، إلا أنّ الله سبحانه لم يستخدم و يعبئ جنود الأرض و السّماء من أجل سحقهم و تدميرهم فى أى مورد من الموارد، بل إنّه يغلبهم بسهولة و بساطه، و بصوره لا-تخطر على ذهن أحد، خاصه و أنّه فى كثير من الموارد يبعث هؤلاء نحو أسباب موتهم، و يؤكل مهمّه إعدامهم إليهم أنفسهم! و نرى فى قصّه فرعون هذه، أنّ عدوّه الأصلي-أى موسى-قد تربّى فى أحضانها، و هو الذى رعاها، و نشأ فى كنفه! و من الطبعي أنّ ذلك كان بتخطيط الله سبحانه.

و الأروع من ذلك أنّ قابله موسى عليه السّلام-طبقا لنقل التواريخ-كانت من الأقباط، و النجّار الذى صنع صندوق نجاته كان من الأقباط أيضا، و الذين أخرجوا الصندوق من الماء كانوا من حرّاس فرعون، و الذى فتح الصندوق كانت امرأه فرعون، و استدعيت أمّ موسى من قبل أتباع فرعون لتكون مرضعه له، و كانت مطارده موسى عليه السّلام بعد حادثه قتل الرجل القبطى قد تمّت من قبل الفراعنه، و كانت سبب هجرته إلى مدين ليقضى فتره من التعليم و التكامل فى مدرسه النّبي «شعيب» نعم، عند ما يريد الله سبحانه أن يظهر قوّته فهكذا يفعل، ليعلم كلّ العصاه و المتمرّدين أنّهم أصغر من أن يقفوا أمام إرادته الله و مشيئته.

ص: ٩

٢- التعامل المناسب مع الأعداء

إنَّ أول أوامر القرآن من أجل النفوذ إلى قلوب الناس-مهما كانوا ضالِّين و منحطِّين-هو التعامل المناسب المقترن بالمحبِّه و العواطف الإنسانيه،أمَّا التوسُّل بالعنف فإنَّه يتعلَّق بالمراحل التاليه حينما لا يؤثِّر التعامل برفق،فالهدف هو جذب الناس ليتذكَّروا،و ليبصروا طريقهم،أو أن يخافوا من العواقب المشؤومه للعمل السيء لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى .

إنَّ كلَّ عقيدته يجب أن تمتلك جاذبيته،و لا تبعد الأفراد عنها بدون مبرر، و قصص و وقائع الأنبياء و أئمَّه الدين عليهم السَّلام تبيِّن بوضوح أنَّهم لم ينحرفوا عن هذا المنهج و المسير أبدا طوال حياتهم.

نعم،من الممكن أن لا تؤثر أساليب المحبِّه و اللطف في القلوب الداكنه عند بعض الناس،و يكون الطريق مقتصرًا على استعمال العنف في المكان المناسب،إلَّا أنَّه ليس قانونًا عامًّا و أساسيًا للبدء في العمل،فإنَّ المحبِّه هي البدايه و المسلك الأوَّل،و هذا هو الدرس الذي تذكره لنا الآيه آنفه الذكر.

مِمَّا يلفت النظر أنَّنا نقرأ في بعض الروايات:إنَّ موسى كان مأمورًا بأن ينادى فرعون بأحسن أسمائه،فربَّما يؤثِّر ذلك في قلبه المظلم.

٣- هل يوحى إلى غير الأنبياء؟

لا- شكَّ أنَّ للوحى في القرآن الكريم معانى مختلفه:فقد جاء أحيانا بمعنى الصوت الواطئ،أو القول همسا.و هذا هو المعنى الأصلي لهذا اللفظ في اللغه العربيه.

و جاء أحيانا بمعنى الإشاره الرمزيه إلى شىء ما،مثل: فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ أَنَّ

و أحيانا بمعنى الإلهام الغريزي، مثل أَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ (٢).

و أحيانا بمعنى الأمر التكويني، الأمر الذي يصدر بلسان الخلقه، مثل يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا (٣).

و ورد أحيانا بمعنى الإلهام الذي يلقي في قلوب المؤمنين، و إن لم يكونوا أنبياء أو أئمه، مثل: إِذْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰ (٤).

إِلَّا أَنَّ أَهَمَّ مَوَارِدِ اسْتِعْمَالِهِ فِي الْقُرْآنِ الْمَجِيدِ هِيَ الدَّعَاةُ الْإِلَهِيَّةُ الْخَاصَّةُ بِالْأَنْبِيَاءِ، مِثْل: إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَىٰ نُوحٍ وَ النَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ (٥).

فبناء على هذا، فإنَّ لكلِّه الوحي معنى واسعاً و جامعاً يشمل هذه الموارد، و لهذا فسوف لا نعجب من استعمال كلمه الوحي في شأن أم موسى.

٤- سؤال و جواب

من الممكن أن يتساءل البعض عند قراءه هذه الآيات، و هو: لماذا يقلق موسى و يضطرب و يتردد مع تلك الوعود الإلهية، إلى أن يقول الله سبحانه له بصراحه: اذهبا فإنني معكما أسمع كل الكلام، و أرى كل شيء، و لا مجال للقلق مطلقاً؟ و يتضح جواب هذا السؤال من أن هذه المهمه كانت ثقيه جداً، فإنَّ موسى عليه السلام-الذي كان راعياً للأغنام- يريد أن يذهب مع أخيه فقط إلى حرب رجل قوى مقتدر، و متمرد عاص، و الذي يحكم بلداً قوياً في ذلك الزمان. ثم إنَّ

ص: ١١

١-١ - مريم، ١١

٢-٢ - النحل، ٦٨.

٣-٣ - الزلزال، ٥.

٤-٤ - سورة طه، ٣٨.

٥-٥ - النساء، ١٦٣.

هذه الدعوه تبدأ من دعوه فرعون نفسه، لا أن يذهب أولًا إلى الآخرين ليعدّ الأنصار و الجيوش، بل يجب أن يقدحوا أول شراره في قلب فرعون، وهذه في الحقيقة مهمه معقّده جدّا، و صعبه للغاية.

إضافه إلى أنّ للعلم و المعرفة درجات و مراتب، فكثيرا ما يعلم الإنسان بشيء يقينا، إلاّ أنّه يرغب أن يصل إلى مرحله علم اليقين و الاطمئنان المطلق، كما أنّ إبراهيم مع إيمانه القطعي بالمعاد، فإنّه طلب من الله أن يريه مشهدا من إحياء الموتى في هذه الدنيا، ليطمئن أكثر.

ص: ١٢

اشاره

قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَىٰ (٤٩) قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَىٰ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَىٰ (٥٠) وَقَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَىٰ (٥١) قَالَ عَلَّمَهَا
عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَىٰ (٥٢) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَيْلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً
فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّن لِّبَاتٍ شَتَّىٰ (٥٣) كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ (٥٤) مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ
وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَىٰ (٥٥)

التفسير

اشاره

من ربكما؟

لقد حذف القرآن المجيد هنا-و كما هي طريقته-بعض المطالب التي يمكن فهمها بمعونه الأبحاث الآتية،و توجه مباشرة إلى
محاوره موسى و هارون مع فرعون،و المبحث في الواقع هكذا:

إن موسى بعد تلقى الوحي و الرساله،و خطه عمل كامله في كفيته التعامل مع

فرعون، تحرك من تلك الأرض المقدسه، والتقى أخاه هارون-على حد قول المفسرين-قرب مصر، ثم توجهها معا نحو فرعون، وتمكنا من الدخول إلى قصر فرعون الأسطوري برغم المشاكل الكثيره.

فلما أصبح موسى أمام فرعون وجها لوجه، أعاد تلك الجمل الدقيقه المؤثره التي علمه الله إياها أثناء الأمر بالرساله: إنا رسول ربك فأرسل معنا بنى إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآيه من ربك والسلام على من اتبع الهدى. و اعلم أيضا إنا قد أوحى إلينا أن العذاب على من كذب وتولى .

فلما سمع فرعون هذا الكلام، كان أول رد فعله أن قال فمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى .

و العجيب أن فرعون المغرور و المعجب بنفسه لم يكن مستعدا حتى أن يقول: من ربى الذى تدعيانه؟ بل قال: من ربكما؟! فأجابه موسى مباشرة بجواب جامع جدا، وقصير فى الوقت نفسه، عن الله:

قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى

ففى هذه العبارة الموجزه إشاره إلى أصلين أساسيين من الخلقه و الوجود، وكل واحد منهما دليل و برهان مستقل يوصل إلى معرفه الله:

الأول: إن الله سبحانه قد وهب لكل موجود ما يحتاجه، وهذا أمر فى غاية الأهميه مما يقتضى تأليف عدّه كتب، بل إن كثيرا من الكتب قد ألقت فى هذا المجال.

إننا إذا دققنا قليلا فى النباتات و الحيوانات التى تعيش فى كل منطقته، سواء الطيور، أو الحيوانات البحرية، أو الحشرات و الزواحف، فسنرى أن لكل منها انسجاما تاما مع محيطها الذى تعيش فيه، وكل ما تحتاجه فهو موجود تحت تصرفها، فإن هيكل الطيور قد هيئها للطيران من ناحيه شكلها و وزنها و حواسها المختلفه، وكذلك تكوين و بناء الحيوانات التى تعيش فى أعماق البحار.

و الثانى: مسأله هدايه و إرشاد الموجودات، و قد جعلها القرآن باستعماله (ثم)

فى الدرجه الثانيه بعد تأمين الاحتياجات.

إنّ من الممكن أن يمتلك الإنسان أى شىء من أسباب الحياه، إلاّ أنّه يجهل كيفيه الاستفادة منها، والمهمّ أن يعرف طريقه استعمالها، وهذا هو الشىء الذى نراه فى الموجودات المختلفه بوضوح، وكيف أنّ كلّ منها يستغلّ طاقته بصوره دقيقه فى إدامه حياته، كيف يبنى بيتا، وكيف يتكاثر، وكيف يربّى أولاده ويخفيهم ويبعدهم عن متناول الأعداء، أو يعلمهم كيف يواجهون الأعداء؟ و البشر- أيضا- لديهم هذه الهدايه التكوينيّه، إلاّ أنّ الإنسان لمّا كان موجودا يمتلك عقلا و شعورا، فقد جعل الله سبحانه هدايته التكوينيّه مع هدايته التشريعيّه بواسطه الأنبياء متلازمه و مترامنه، بحيث إنّ إذا لم ينحرف عن ذلك الطريق، فإنّه سيصل حتما إلى مقصده. و بتعبير آخر فإنّ الإنسان نتيجه لامتلا- كه العقل و الإراده، فإنّ له واجبات و مسؤوليات، و بعد ذلك مناهج تكاملية ليس للحيوانات مثلها، و لذلك فإنّه إضافة إلى الهدايه التكوينيّه محتاج إلى الهدايه التشريعيّه.

و خلاصه القول: إنّ موسى عليه السّلام يريد أن يفهم فرعون أنّ عالم الوجود هذا غير منحصر فيك، و لا فى أرض مصر، و لا يختص بالحاضر أو الماضى، فإنّ لهذا العالم ماضيا و مستقبلا لم أكن و لم تكن فيه، و تلاحظ مسألتان أساسيتان فى هذا العالم:

تأمين الحاجات، ثمّ استغلال الطاقات و القوى فى طريق رقى الموجودات، فإنّها تستطيع جيدا أن تدلّك على ربّنا، و تعرّفك به، و كلّما أمعنت النظر فى هذا المجال فستحصل على دلالات و براهين كثيره على عظمته و قدرته.

فلمّا سمع فرعون هذا الجواب الجامع الجميل، ألقى سؤالاً آخر قالَ ﴿فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى﴾. و هناك بحث بين المفسّرين فى مراد فرعون من هذه الجملة، فقد أظهرها وجهات نظر مختلفه! ١- فقال بعضهم: إنّ موسى عليه السّلام لمّا ذكر فى آخر جمله من كلامه شمول العذاب الإلهي للمكذّبين بالتوحيد، فإنّ فرعون سأل: إذن فلما ذا لم يبتل أولئك

الأقوام المشركين الماضين، بمثل هذا العذاب؟ ٢- وقال بعض: إن موسى لما قال: إن رب العالم هو رب الجميع، سأل فرعون: فلما ذا كان الأسلاف من قومنا و كل الأقوام الماضيه مشركين؟ فهذا يبين أن الشرك و عباده الأصنام ليس عملا خاطئا! ٣- وقال آخرون: لَمَّا كان معنى كلام موسى هو أن الجميع سينال نتيجة أعماله في النهايه، و سيعاقب أولئك الذين عصوا الأوامر الإلهيه، فسأل فرعون:

فما هو مصير الأقوال الماضيه الذين هلكوا و اندثروا؟ على كل حال، أجابه موسى عليه السلام بقوله: **قَالَ عَلَّمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (١)** و بناء على هذا فإن حساب هؤلاء و كتبهم محفوظه، و سينالون في النهايه ثواب و عقاب أعمالهم، فإن الحافظ لهذا الحساب هو الله الذى لا يخطئ و لا ينسى، و بملاحظه ما بينه موسى من أصل التوحيد و التعريف بالله، فإن من الواضح جدا أن حفظ هذا الحساب لدى من أعطى كل موجود حاجته بدقه، ثم هداه ليس أمرا صعبا.

و للمفسرين آراء مختلفه فى الفرق بين (لا- يضل) و (لا ينسى) إلا أن الظاهر هو أن (لا يضل) إشارة إلى نفي أى نوع من الخطأ من قبل الله سبحانه، و (لا ينسى) إشارة إلى نفي النسيان، أى أنه سبحانه لا يشبهه فى حساب الأفراد عند بدايه العمل، و لا يتلى بنسيان حفظ حسابهم و أعمالهم، و على هذا فإن موسى قد نبه بصوره ضمته على إحاطه علم الله بكل شىء، لينتبه فرعون إلى هذه الحقيقه، و هى أن أى شىء من عمله لا يخفى على الله و إن كان بمقدار رأس الإبره، و سوف ينال عقابه أو ثوابه.

فى الحقيقه، إن الإحاطه العلميه لله هى نتيجة الكلام الذى قاله موسى من

ص: ١٦

١- ١) - لقد ذكر «كتاب» هنا بصيغه النكره، و هذه إشارة إلى عظمه الكتاب الذى ثبت فيه أعمال العباد، كما نقرأ فى آيه أخرى: **لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا الْكُفَى-٤٩.**

قبل، و هو أنّ الله الذى أعطى كلّ موجود حاجته ثمّ هداه، مّطلع على حال كلّ أحد، و كلّ شىء.

ولما كان جانب من حديث موسى عليه السلام حول مسأله التوحيد و معرفه الله، فإنّه يبيّن هنا فصلا آخر فى هذا المجال، فيقول:
الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَ سَيْلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى . و فى مجموع هذه الآيه إشارة إلى أربعة أنواع من نعم الله الكبرى.

١- الأرض التى هى مهد استقرار الإنسان و مهاده، و يستطيع الإنسان العيش عليها براحه و أمان ببركه قانون الجاذبيه، و كذلك الطبقة الغازيه العظيمة التى تحيط بالأرض.

٢- الطرق و السبل التى أوجدها الله فى الأرض، و التى تربط جميع مناطقها بعضها بالبعض الآخر، كما رأينا غالبا وجود طرق و وديان بين سلسله الجبال التى تناطح السماء يستطيع الإنسان أن يمرّ من خلالها و يصل إلى مقصده.

٣- الماء الذى هو أساس الحياه، و مصدر كلّ البركات، و الذى أنزل من السماء ٤- الأعشاب و النباتات المختلفه التى تخرج من الأرض بفعل هذا الماء، و يشكل قسم منها المواد الغذائيه للإنسان، و قسم يستفيد منه الإنسان فى صنع الأدوية، و قسم آخر يصنع ملابسه، و قسم آخر لوسائل الحياه كالأبواب، و حتّى البيوت التى تبنى من الخشب، و السفن، و كثير من وسائل النقل الأخرى، بل يمكن القول: إنّ هذه النعم الأربع الكبرى تشكل حسب الترتيب الذى ورد فى الآيه أولويات حياه الإنسان، فقبل كلّ شىء يحتاج الإنسان إلى محلّ سكن و هدوء، و بعده إلى طرق المواصلات، ثمّ الماء، ثمّ المحاصيل الزراعيه.

ثمّ أشار إلى خامس النعم و آخرها من سلسله النعم الإلهيه هذه، فقال: كُلُوا وَ ارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ، و هو إشاره إلى ثرواتكم و منتوجاتكم الحيوانيه، و التى تشكل

جانبا مهمًا من المواد الغذائية و الملابس و وسائل الحياه،هى أيضا من بركات هذه الأرض و ذلك الماء النازل من السماء.

و فى النهايه،و بعد أن أشار إلى كل هذه النعم،قال: إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى .

مما يستحقّ الانتباه أنّ «النهى» جمع «نهي» و هى فى الأصل مأخوذه من مادّه «نهي»مقابل الأمر،و تعنى العقل الذى ينهى الإنسان عن القبائح و السيئات، و هذه إشاره إلى أنّ كلّ تدبّر و تفكّر من أجل فهم أهميته هذه الآيات ليس كافيا،بل إنّ العقل و الفكر المسؤول هو الذى يستطيع أن يدرك و يطلع على هذه الحقيقه.

و بما أنّ هذه الآيات دلّت على التوحيد بخلق الأرض و نعمها،فقد بينت مسأله المعاد بالإشاره إلى الأرض فى آخر آيه من هذه الآيات أيضا فقالت:

مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَ فِيهَا نُعِيدُكُمْ وَ مِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى

و إنّه لتعبير بليغ حقًا، و مختصر أيضا،عن ماضى البشر و حاضره و مستقبله،فكلّنا قد جئنا من التراب، و كلّنا نرجع إلى التراب،و منه نبعث مرّه أخرى! إنّ رجوعنا إلى التراب،أو بعثنا منه أمر واضح تماما،لكن فى كيفيته بدايتنا من التراب تفسيران:الأول:إنّنا جميعا من آدم و آدم من تراب.و الآخر:إنّنا أنفسنا قد خلقنا من التراب،لأنّ كلّ المواد الغذائية التى كوّنت أجسام آبائنا و أمهاتنا قد أخذت من هذا التراب.

ثمّ إنّ هذا التعبير يتّبه كلّ العتاه المتمرّدين،و المتّصّفين بصفات فرعون،كى لا ينسوا من أين أتوا،و إلى أين يذهبون؟فلما ذا كلّ هذا الغرور و العصيان و الطغيان من موجود كان بالأمس ترابا،و سيكون غدا ترابا أيضا؟

١- كلمتي «المهد» و«المهاد» تعنيان المكان المهيأ للجلوس و المنام و الاستراحة، و في الأصل تطلق كلمه المهد على المكان الذي ينام فيه الطفل، فكأنّ الإنسان طفل وضع في مهد الأرض، و قد توفّرت في هذا المهد كلّ وسائل الحياه.

٢- كلمه «أزواجاً» التي أخذت من مادّه «زوج» يمكن أن تكون إشاره إلى أصناف و أنواع النباتات، كما يمكن أن تكون إشاره خفيّه إلى مسأله الزوجيّه في عالم النباتات، و التي سنتحدّث عنها في ذيل آيه مناسبه إن شاء الله تعالى.

٣-

ورد عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم حديث في اصول الكافي في تفسير (أولو النهي)، جاء فيه: «إنّ خياركم أولو النهي» قيل: يا رسول الله، و من أولو النهي؟ قال: «هم أولو الأخلاق الحسنه، و الأحلام الرزينه، و صله الأرحام، و البره بالأمهات و الآباء، و المتعاهدين للفقراء و الجيران و اليتامى، و يطعمون الطعام، و يفشون السلام في العالم، و يصلّون و الناس نيام غافلون» (١).

و

في حديث آخر نقل عن أمير المؤمنين عليه السّلام، أنّ رجلاً سأل: يا ابن عمّ خير خلق الله، ما معنى السجده الأولى؟ فقال: «تأويله: اللهمّ إنك منها خلقتني - يعني من الأرض - و رفع رأسك و منها أخرجتنا، و السجده الثانيه و إليها تعيدنا، و رفع رأسك من الثانيه و منها تخرجنا تاره أخرى» (٢).

ص: ١٩

١-١ (١) - اصول الكافي، الجزء الثاني، باب «المؤمن و علاماته و صفاته» الحديث ٣٢.

٢-٢ (٢) - بحار الأنوار، ج ٨٥ ص ١٣٢

اشاره

وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَىٰ (٥٦) قَالَ أَجئتُنَا لِنُخْرِجَنَّا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَىٰ (٥٧) فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرِ مِثْلِهِ فَأَجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى (٥٨) قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى (٥٩) فَتَوَلَّىٰ فِرْعَوْنُ فَجَمَعَ كَيْدَهُ ثُمَّ أَتَىٰ (٦٠) قَالَ لَهُمْ مُوسَىٰ وَيَلْكُكُمْ لَا تَفْتُرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحِتُكُمْ بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَىٰ (٦١) فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَىٰ (٦٢) قَالُوا إِنَّ هَٰذَا لَلسَّاحِرَانِ يُرِيدَانِ أَنْ يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ الْمُثَلَىٰ (٦٣) فَأَجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ ائْتُوا صَفًا وَقَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنْ اسْتَعْلَىٰ (٦٤)

التفسير

اشاره

فرعون يهيء نفسه للجوله الأخيره:

تعكس هذه الآيات مرحله أخرى من المواجهه بين موسى و فرعون، و يبدأ

القرآن الكريم هذا الفصل بهذه الجملة: وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَ أَبَى وَ من المسلّم أنّ المراد من هذه الآيات هنا ليس كلّ المعجزات التي ظهرت على يد موسى عليه السّلام طيله حياته في مصر. بل مرتبطه بالمعجزات التي أراها فرعون في بدايه دعوته، معجزه العصا، و اليد البيضاء، و محتوى دعوته السماويه الجامعه، و التي كانت بنفسها دليلا حيا على أحقيته، و لذلك تطالعنا بعد هذه الحادته مسأله المواجهه بين السّحره و موسى عليه السّلام و معجزاته الجديده.

و الآن، لنر ماذا قال فرعون الطاغى المستكبر العنود فى مقابل موسى و معجزاته، و كيف اتّهمه كما هى عادته كلّ المتسلطين و الحكّام المتعنتين: قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى وَ هو إشاره إلى أنّنا نعلم أنّ مسأله النبوه و الدعوه إلى التوحيد، و إظهار هذه المعجزات تشكّل بمجموعها خطّه منسيقه للانتصار علينا، و بالتالى إخراجنا مع الأقباط من أرض آباءنا و أجدادنا، فليس هدفك الدعوه إلى التوحيد، و لا نجاه و تخلص بنى إسرائيل، بل هدفك الوصول إلى الحكم و السيطرة على هذه الأرض، و إخراج المعارضين! إنّ هذه التهمه هى نفس الحربه التي يستخدمها الطواغيت و المستعمرون على امتداد التاريخ، و يلوحون بها و يشهرونها كلّما رأوا أنفسهم فى خطر، و من أجل إثارة الناس لصالحهم يثيرون مسأله تعرّض مصالح البلد للخطر، فالبلد يعنى حكومه هؤلاء العتاه، و وجوده يعنى وجودهم! و يعتقد بعض المفسرين أنّ الهدف من جلب بنى إسرائيل إلى مصر، و الاحتفاظ بهم فى هذه الأرض لم يكن من أجل استغلال قواهم كعبيد و حسب، بل إنّهم فى الوقت نفسه كانوا لا يريدون لبنى إسرائيل، الذين كانوا قوما أقوياء، أن يتحوّلوا إلى قوه و مصدر خطر. و كذلك لم يكن الأمر بقتل الذكور للخوف من ولاده موسى فقط، بل للوقوف أمام قوتهم و الحدّ منها، و هذا عمل يقوم به كلّ الأقوياء الظالمين، و بناء على هذا فإنّ خروج بنى إسرائيل -حسب طلب موسى-

يعنى اقتدار هذه الأمة، و فى هذه الحاله سيتعرّض سلطان الفراعنه و عرشهم إلى الخطر.

و النقطه الأخرى فى هذه العبارة القصيره، هى أنّ فرعون قد اتّهم موسى بالسحر، و هذا هو ما اتّهم به كلّ الأنبياء عند إظهار معجزاتهم البيّنه، كما نقرأ ذلك فى الآيتين (٥٢-٥٣) من سوره الذاريات: كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَلَتَوَصَّوْنَا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ .

و تجدر الإشارة إلى هذه المسأله أيضاً، و هى أنّ إثارة المشاعر الوطنيه و حبّ الوطن فى مثل هذه المواضع أمر مدروس بدقّه كامله، لأنّ أغلب الناس يحبّون أرضهم و وطنهم كحبّهم أنفسهم، و أرواحهم، و لذلك جعلوا هذين الأمرين فى مرتبه واحده، كما فى بعض آيات القرآن: وَ لَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ اقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ أَوْ احْرُجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ مَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٌ مِنْهُمْ (١).

ثمّ أضاف فرعون بأن لا- تظن بأننا نعجز عن أن نأتى بمثل هذا السحر فلنأتينك بسحرٍ مثله، و لكى يظهر حزماً أكثر فإنّه قال: فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَ بَيْنَكَ مَوْعِداً لَّا نُخْلَفُهُ نَحْنُ وَ لَا أَنْتَ مَكَاناً سُوًى .

و ذكر البعض فى تفسير مكاناً سُوًى: إنّ المراد هو أن تكون فاصلته عنّا و عنك متساويه، و قال بعضهم: أن تكون فاصلته متساويه بالنسبه إلى الناس، أى أن يكون المكان فى وسط المدينه تماما، و قال بعض: المراد أن تكون الأرض أرضاً مكشوفه و مسطحه يشرف عليها الجميع، و أن يتساوى فى ذلك العالى و الدانى. و يمكن أن تعتبر كلّ هذه المعانى مجتمعه فيها.

و ينبغى التذكير بأنّ الحكّام الطغاه، و من أجل أن يهزموا خصمهم فى المعركه، و يرفعوا معنويات أتباعهم و أعوانهم الذين ربّما وقعوا تحت تأثيره (كما فى قصّه

ص: ٢٢

موسى و معجزاته فلا- يبعد أن يكونوا قد وقعوا تحت تأثيره)فإنهم يعيدون إليهم المعنويات و القوّه، و يتعاملون فى الظاهر مع أمثال هذه المسائل بصرامه و شدّه، و يثيرون الصخب حولها! إلا أن موسى لم يفقد هدوء أعصابه، و لم يدع للخوف من عنجهيته فرعون إلى قلبه طريقاً، بل قال بحزم: **قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمَ الزَّيْنَةِ وَ أُنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحَىٰ (١)**.

إنّ التعبير ب يَوْمُ الزَّيْنَةِ إشاره إلى يوم عيد كان عندهم لا نستطيع تعيينه بدقه، إلا أن المهمّ هو أنّ الناس كانوا يعطلون أعمالهم فيه، و كانوا حتما مستعدّين للمشاركة فى مثل هذا «المشهد».

على كلّ حال، فإنّ فرعون بعد مشاهدته معجزات موسى العجيبه، و تأثيرها النفسى فى أنصاره، صمّم على مواجهه موسى عليه السّلام بالاستعانه بالسّحره، و لذلك وضع الاتفاق المذكور مع موسى فتولّى فرعون فجمع كيدّه ثمّ أتى .

فى هذه الجملة القصيره تلخصت حوادث جمّه جاءت بشكل مفصّل فى سورتي الأعراف و الشعراء، لأنّ فرعون بعد تركه ذلك المجلس و مفارقه موسى و هارون، عقد اجتماعات عديده مع مستشاريه الخاصين، و أتباعه المستكبرين، ثمّ دعا السّحره من جميع أنحاء البلاد إلى الحضور فى العاصمه، و رغّبهم بمرغبات كثيره من أجلّ مواجهه موسى عليه السّلام، و امور أخرى ليس هنا مجال بحثها، إلا أن القرآن الكريم قد جمعها كلّها فى هذه الجمل الثلاث: فتولّى فرعون، فجمع كيدّه، ثمّ أتى (٢).

و أخيراً حلّ اليوم الموعود، و وقف موسى أمام جميع الحاضرين، الذين كان بعضهم السّحره، و كان عددهم-على رأى بعض المفسّرين-إثنين و سبعين

ص: ٢٣

-
- ١-١) -«الضحى» فى اللغه بمعنى زياده أشعه الشمس، أو ارتفاع الشمس، و الواو فى جمله (و أن يحشر الناس)دالّه على المعنيه.
- ٢-٢) -بالرغم من أن (تولّى)فسّرت هنا بالافتراق عن موسى، أن عن ذلك المجلس، إلا أن من الممكن أن تعكس-مع ملاحظه معناها من الناحيه اللغويه-حاله الاعتراض و الغضب لدى فرعون. و موقفه المعادى تجاه موسى.

ساحرا، وقال آخرون إنهم بلغوا أربعمائه، و ذكر البعض أعدادا أكبر أيضا. و كان قسم من ذلك الجمع عبارته عن فرعون و أنصاره و حاشيته، و أخيرا القسم الثالث الذى كان يشكّل الأكثرية، و هم الناس المتفرّجون.

هنا توجه موسى إلى السّحره، أو إلى الفراعنه، و السّحره، و قال لهم موسى وَيَلْكُم لَا تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيَسْحَتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَنْ افْتَرَى. و واضح أنّ مراد موسى من الافتراء على الله سبحانه هو أن يجعلوا شخصا أو شيئا شريكا له، أو ينسبوا معجزات رسول الله إلى السحر، و يظنّوا أنّ فرعون إلههم و معبودهم، و من المحتمّ أنّ الله سبحانه سوف لا يدع من ينسبون هذه الأكاذيب إلى الله، و يسعون بكلّ قواهم لإطفاء نور الحقّ، بدون عقاب.

إنّ كلام موسى المتين الذى لا يشبه كلام السّحره بوجهه، بل إنّ نبرته كانت نبره دعوه كلّ الأنبياء الحقيقيين، و نابعه من صميم قلب موسى الطاهر، فأثرت على بعض القلوب، و أوجدت اختلافا بين ذلك الحشد من السّحره، فبعض كان يناصر المواجهه و المبارزه، و بعض تردّد فى الأمر، و احتمل أن يكون موسى عليه السلام نبيا إليها، و أثرت فيهم تهديداته، خاصّه و أنّ لباس موسى و هارون البسيط كان لباس رعاه الأغنام، و عدم مشاهدته الضعف و التراجع على محيّاها بالرغم من كونهما وحيدين، كان يعتبر دليلا آخر على أصاله أقوالهما و صدق نواياهما، و لذلك فإنّ القرآن يقول: فَتَنَّا زُجُرًا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ وَ أَسْرُوا النَّجْوَى .

إنّ من الممكن أن تكون هذه المسارّه و النجوى أمام فرعون، و يحتمل أيضا أن لا تكون أمامه، و هناك احتمال آخر، و هو أنّ القائمين على إداره هذا المشهد قد تناجوا فى خفاء عن الناس.

إلاّ أنّ أنصار الاستمرار فى المواجهه انتصروا أخيرا و أخذوا زمام المبادرة بيدهم، و شرعوا فى تحريك السّحره بطرق مختلفه، فأولا قالوا إنّ هذان

و بناء على هذا فلا يجب أن تخافوا مواجهتهما، لأنكم كبار و أساتذته السحر فى هذه البلاد العريضة، و لأن قوتكم و قدرتكم أكبر منهما! ثم إنهما يريدان أن يُخْرِجَاكُمْ مِنْ أَرْضِكُمْ بِسِحْرِهِمَا الوطن الذى هو أعز من أنفسكم، إضافة إلى أنهما لا يقنعان بإخراجكم من أرضكم، بل إنهما يريدان أيضا أن يجعلوا مقدساتكم أضحوكة و محلا للسخرية و يذهبوا بطريقَتكم المثلَى (٢).

و الآن حيث أصبح الأمر كذلك، فلا تدعوا للتردد إلى أنفسكم طريقا مطلقا، بل فَاجْمِعُوا كَيْدَكُمْ ثُمَّ اتُّوا صَيْفًا لَأَنَّ الْوَحْدَةَ رَمَزَ انتصاركم فى هذه المعركة المصيريّة الحاسمه و قَدْ أَفْلَحَ الْيَوْمَ مَنِ اسْتَعْلَى .

ص: ٢٥

١ - ١) - إن هذه الجملة من ناحيه الإعراب هي: (إن) مخففة من (أن) و لذلك لم تعمل عملها فيما بعدها، إضافة إلى أن رفع اسم (إن) ليس قليلا فى لغة العرب.

٢ - ٢) - «الطريقه» تعنى العاده و الأسلوب المتبع، و المراد منها هنا المذهب. و (مثلَى) من مادّه (مثل). و هى هنا تعنى العالى و الأفضل، أى الأشبه بالفضيله.

اشاره

قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّمَا أَنُتَلِّقِي وَ إِنَّمَا أَنُكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ (٦٥) قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا حِبَالُهُمْ وَعِصْوَاهُمْ يُجَالِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ إِنَّهَا تَسْعَىٰ (٦٦) فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَىٰ (٦٧) فَلَمَّا لَا تَخَفُ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَىٰ (٦٨) وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ (٦٩)

التفسير

اشاره

موسى عليه السلام ينزل إلى الساحه:

لقد اتحد السِّحْرُ ظاهراً، وعزموا على محاربه موسى عليه السِّلام وواجهته، فلما نزلوا إلى الميدان قالوا يا موسى إِنَّمَا أَنُتَلِّقِي وَ إِنَّمَا أَنُكُونُ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَىٰ .

قال بعض المفسرين: إن اقتراح السِّحْرِ، هذا إمّا أن يكون من أجل أن يسبقهم موسى عليه السِّلام، أو إنه كان احتراماً منهم لموسى، وربما كان هذا الأمر هو الذى هبّ السبيل إلى أن يدعوا لموسى عليه السِّلام و يؤمنوا به بعد هذه الحادته.

إلا أن هذا الموضوع يبد و بعيدا جدا، لأن هؤلاء كانوا يسعون بكل ما أوتوا من قوه لأن يسحقوا و يحطموا موسى و معجزته، و بناء على هذا فإن التعبير آنف الذكر ربما كان لإظهار اعتمادهم على أنفسهم أمام الناس.

غير أن موسى عليه السلام بدون أن يبدى عجله، لاطمئنانه بأن النصر سوف يكون حليفه، بل و بغض النظر عن أن الذي يسبق إلى الحلبه فى هذه المجابهات هو الذى يفوز قال بل ألقوا . و لا شك أن دعوه موسى عليه السلام هؤلاء إلى المواجهه و عمل السحر كانت مقدمه لإظهار الحق، و لم يكن من وجهه نظر موسى عليه السلام أمرا مستهجنا، بل كان يعتبره مقدمه لواجب.

فقبل السحره ذلك أيضا، و ألقوا كل ما جلبوه معهم من عصى و حبال للسحر فى وسط الساحة دفعه واحده، و إذا قبلنا الزوايه التى تقول: إنهم كانوا آلايف الأفراد، فإن معناها أن فى لحظه واحده ألقيت فى وسط الميدان آلايف العصى و الحبال التى ملئت أجوافها بمواد خاصه فإذا جبالهم و عصيةيهم يُحْيِلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ! أجل، لقد ظهرت بصوره أفاع و حيات صغيره و كبيره متنوعه، و فى أشكال مختلفه و مخيفه، و نقرأ فى الآيات الأخرى، من القرآن الكريم فى هذا الباب:

سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَ اسْتَرْهَبُوهُمْ وَ جَاءُوا بِسِحْرِ عَظِيمٍ

(١)

و بتعبير الآيه (٤٤) من سوره الشعراء: وَ قَالُوا بِعِزَّةِ رَبِّهِمْ إِنَّا لَنَرُّوهُم بِالْغَالِبِينَ .

لقد ذكر كثير من المفسرين أن هؤلاء كانوا قد جعلوا فى هذه الحبال و العصى موادا كالزئبق الذى إذا مسته أشعه الشمس و ارتفعت حرارته و سخن، فإنه يولد لهؤلاء -نتيجه لشده فورانه- حركات مختلفه و سريعه، إن هذه الحركات لم تكن سيرا و سعيا حتما، إلا أن إحياءات السحره التى كانوا يلقنونها الناس، و المشهد

ص: ٢٧

الخاص الذي ظهر هناك، كان يظهر لأعين الناس و يجسد لهم أنّ هذه الجمادات قد ولجتها الروح، وهي تتحرك الآن. (و تعبير سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ إِيَّاهُ إشارة إلى هذا المعنى أيضا، وكذلك تعبير يُحَيِّلُ إِلَيْهِ يمكن أن يكون إشارة إلى هذا المعنى أيضا).

على كلّ حال، فإنّ المشهد كان عجيبا جدّا، فإنّ السّحره الذين كان عددهم كبيرا، و تمرسهم و اطلاعهم في هذا الفن عميقا، و كانوا يعرفون جيدا طريقه الاستفاده من خواص هذه الأجسام الفيزيائية و الكيميائية الخفيّة، استطاعوا أن ينفذوا إلى أفكار الحاضرين ليصدّقوا أنّ كلّ هذه الأشياء الميته قد ولجتها الروح.

فعلت صرخات السرور من الفراعنه، بينما كان بعض الناس يصرخون من الخوف و الرعب، و يتراجعون إلى الخلف.

في هذه الأثناء فأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خَيْفَهُ مُوسَى و كلمه «أوجس» أخذت من مادّه (إيجاس) و في الأصل من (وجس) على وزن (جس) بمعنى الصوت الخفي، و بناء على هذا فإنّ الإيجاس يعني الإحساس الخفي و الداخلي، و هذا يوحي بأنّ خوف موسى الداخلي كان سطحيًا و خفيفا، و لم يكن يعني أنّه أولى اهتماما لهذا المنظر المرعب لسحر السّحره، بل كان خائفا من أن يقع الناس تحت تأثير هذا المنظر بصورة يصعب معها إرجاعهم إلى الحقّ.

أو أن يترك جماعه من الناس الميدان قبل أن تنتهي الفرصه لموسى لإظهار معجزته، أو أن يخرجوهم من الميدان و لا يتضح الحقّ لهم، كما نقرأ

في خطبه الإمام على عليه السّلام الرقم (٦) من نهج البلاغه: «لم يوجس موسى عليه السّلام خيفه على نفسه، بل أشفق من غلبه الجهال و دول الضلال» (١). و مع ما قيل لا نرى ضروره لذكر الأجوبه الأخرى التي قيلت في باب خوف موسى عليه السّلام.

ص: ٢٨

١-١) - لقد قال الإمام على عليه السّلام هذا الكلام في وقت كان قلعا من انحراف الناس، و يشير إلى هذه الحقيقه، و هي أنّ قلقي ليس نابعا من شكّي في الحقّ.

على كلِّ حال، فقد نزل النصر و المدد الإلهي على موسى في تلك الحال، و بين له الوحي الإلهي أنّ النصر حليفه كما يقول القرآن: قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى .

إنَّ هذه الجملة و بتعبيرها المؤكّد قد أثلجت قلب موسى بنصره المحمّم-فإنَّ(إنَّ) و تكرار الضمير، كلُّ منهما تأكيد مستقل على هذا المعنى، و كذلك كون الجملة اسميّه-و بهذه الكيفيّة، فقد أرجعت لموسى اطمئنانه الذي تزلزل للحظات قصيره.

و خاطبه الله مرّه أخرى بقوله تعالى: وَ أَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَ لَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى .

«تلقف» من ماده «لقف» بمعنى البلع، إلّا- أنّ الراغب يقول في مفرداته: إنَّ معناها في الأصل تناول الشيء بحذق، سواء في ذلك تناوله باليد أو الفمّ. و فسرها بعض اللغويين بأنّها تناول بسرعه.

و ممّا يلفت النظر أنّه لم يقل (لق عصاك) بل يقول (لق ما في يمينك) و ربّما كان هذا التعبير إشارة إلى عدم الاهتمام بالعصا، و إشارة إلى أنّ العصا ليست مسأله مهمّه، بل المهم إرادة الله و أمره، فإنّه إذا أراد الله شيئاً، فليست العصا فقط، بل أقل و أصغر منها قادر على إظهار مثل هذه المقدّره! و هنا نقطه تستحقّ الذكر أيضاً و هي: إنّ كلمه (ساحر) في الآيه وردت أوّلاً نكره، و بعدها معرفه بألف و لام الجنس، و ربّما كان هذا الاختلاف لأنّ الهدف في المرتبه الأولى هو عدم الاهتمام بعمل هؤلاء السّحره، و معنى الجملة: إنّ العمل الذي قام به هؤلاء ليس إلّا مكر ساحر. أمّا في المورد الثّاني فقد أرادت التأكيد على أصل عام، و هو أنّه ليس هؤلاء السّحره فقط، بل كلّ ساحر في كلّ زمان و مكان و أينما وجد سوف لا ينتصر و لا يفلح.

١- ما هي حقيقة السحر؟

بالرغم من أننا تحدّثنا بصوره مفصّله فيما مضى عن هذا الموضوع، إلاّ- أننا نرى أن نذكر على سبيل الإيضاح باختصار أنّ «السحر» في الأصل يعنى كلّ عمل و كلّ شيء يكون مأخذه خفياً، إلاّ أنّه يقال في التعبير المألوف للأعمال الخارقة للعادة التي تؤدّى باستعمال الوسائل المختلفه. فتسمّى سحراً أيضاً فأحيانا يتخذ جانب الحيله و المكر و خداع النظر و الشعوذه.

و أحيانا يستفاد من عوامل التلقين و الإيحاء.

و أحيانا يستفاد من خواص الأجسام و المواد الفيزيائية و الكيمياءيه المجهوله.

و أحيانا بالاستعانه بالشياطين.

و كلّ هذه الأمور جمعت و اندرجت في ذلك المفهوم اللغوى الجامع.

إنّنا نواجه على طول التاريخ قصصا كثيره حول السحر و السّحره، و في عصرنا الحاضر فإنّ الذين يقومون بهذه الأعمال ليسوا بالقليلين، إلاّ- أنّ كثيرا من خواص الأجسام و الموجودات التي كانت خافيه على الناس فيما مضى، قد اتّضحت في زماننا الحاضر، بل كتبوا كتباً في مجال آثار الموجودات المختلفه العجيبه، فكشفت كثيرا من سحر السّاحرين و سلبته من أيديهم.

فمثلاً، إننا نعرف في علم الكيمياء الحديته أجساما كثيره و زنها أخفّ من الهواء، و إذا ما وضعت داخل جسم فإنّ من الممكن أن يتحرّك ذلك الجسم، و لا يتعجّب من ذلك أحد، فحتّى الكثير من وسائل لعب الأطفال اليوم ربّما كانت تبدو سحراً في الماضي! اليوم يعرضون في «السيرك» فعاليات تشبه سحر السّحره الماضين بالاستفاده من كيفيّة الإضاءة و توليد النور، و المرايا، و خواص الأجسام

الفيزياويه و الكيمياويه، و يحدثون مشاهد غريبه و عجيبيه بحيث يفتح المتفرجون أفواههم أحيانا من التعجب.

طبعاً، إن أعمال المرئيين الخارقة للعادة لها قصه أخرى عجيبيه جداً.

و على كل حال، فإنه لا مجال لإنكار وجود السحر، أو اعتباره خرافه سواء فى الأزمنه الماضيه أو هذه الأيام.

و الملاحظه التى تستحق الانتباه، هى أن السحر ممنوع فى الإسلام، و يعدّ من الذنوب الكبيره، لأنه فى كثير من الأحيان سبب لضلال الناس، و تحريف الحقائق، و تزلزل عقائد السذج. و من الطبيعى أن لهذا الحكم الإسلامى -ككثير من الأحكام الاخرى- موارد استثناء، و من جملتها تعلّم السحر لإبطال ادعاء المدّعين للنبوّه، أو لإزاله أثره ممّن رأوا منه الضرر و الأذى. و قد تحدّثنا حول هذه المسأله بصوره مفصّله فى ذيل الآيتين ١٠٢-١٠٣ من سوره البقره.

٢- السّاحر لا يفلح أبداً

يسأل الكثيرون: إنّ السّاحر إذا كانوا يقدرّون على القيام بأعمال خارقه للعادة و شبيهه بالمعجزه، فكيف يمكن التفرّيق و التمييز بين أعمال هؤلاء و بين المعجزه؟ و الجواب عن هذا السؤال بملاحظه نقطه واحده، و هى: إنّ عمل السّاحر يعتمد على قوّه الإنسان المحدوده، و المعجزه تستمدّ قوتها و تنبع من قدره الله الأزلّيه غير المتناهيه، و لذلك فإنّ أى ساحر يستطيع أن يقوم بأعمال محدوده، و إذا أراد ما هو أعظم منها فسيعجزه، فهو يستطيع أن يؤدّى ما تمرّن عليه كثيراً من قبل، و تمكّن منه و سيطر عليه، و أصبح مطلعاً و عارفاً بكلّ دقائق و زوايا و عقد ذلك العمل، إلّا- أنّه سيكون عاجزاً فيما عداه، فى حين أنّ الأنبياء لمّا كانوا يستمدّون العون من قدره الله الأزلّيه، فإنّهم قادرّون على القيام بأى عمل خارق

للعاده، في الأرض، و السماء، و من كل نوع و شكل.

السِّاحر لا- يستطيع أن يقوم بالعمل الخارق وفق اقتراح الناس، إلا أن يكون ذلك الاقتراح مطابقا لما تمرّن عليه (و أحيانا يتفوقون مع أصدقائهم بأن ينهضوا من بين الناس و يقترحوا ابتداء القيام بالعمل المتفق عليه سابقا) إلا أن الأنبياء كانوا يقومون مرارا و تكرارا بمعاجز مهمه كان يطلبها أناس يبتغون الحقّ دعما للنبوّه و دليلا على صحتها، كما سنلاحظ ذلك أيضا في قصه موسى هذه.

و مع ما مرّ، فإنّ السحر لما كان عملا منحرفا، و نوعا من الخدعه و المكر، فإنّه يحتاج إلى وضع روجي ينسجم معه، و السِّاحره- بدون استثناء- أفراد خدّاعون ماكرون يمكن معرفتهم بسرعه من خلال مطالعه نفسياتهم، في حين أن إخلاص و طهاره و صدق الأنبياء عليهم السلام أمور مقرونه بمعاجزهم، و تضاعف من تأثيرها.

(دققوا ذلك).

و ربّما لهذه الأسباب تقول الآيه: **وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى** لأنّ قوّته محدوده، و أفكاره و صفاته منحرفه.

إنّ هذا الموضوع لا- يختص بالسِّاحره الذين هبّوا لمحاربه الأنبياء، بل هو صادق في شأن السِّاحره بصورة عامه، لأنّهم سوف يفتضحون بسرعه، و لا يفلحون في عملهم.

ص: ٣٢

اشاره

فَأَلْقَى السِّحْرَهُ سِجْدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى (٧٠) قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَلِيلَ أَنْ أَدْنَا لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ
فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَأَصْلَبُنَّكُمْ فِي جُدُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمُنَّ أَنَّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَ أَبْقَى (٧١) قَالُوا لَنْ نُؤْتِيَكَ عَلَيَّ
مِنْ جَاءَنَا مِنَ الْبَيْنَاتِ وَ الَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَ مَا
أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى (٧٣) إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَ لَا يَحْيَى (٧٤) وَ مَنْ يَأْتِهِ
مُؤْمِنًا فَقَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى (٧٥) جَنَّاتٌ عَرِدْنَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ
تَزَكَّى (٧٦)

التفسير

اشاره

الانتصار العظيم لموسى عليه السلام:

انتهينا في الآيات السابقة إلى أن موسى أمر أن يلقي عصاه ليبطل سحر السّاحرين، وقد عقبنا هذه المسألة في هذه الآية، غايه الأمر أن العبارات و الجمل

التي كانت واضحة قد حذفت، و هي (أَنَّ موسى قد ألقى عصاه، فتحوّلت إلى حيّه عظيمه لقت كلّ آيات و أدوات سحر السّحره، فعلت الصيحه و الغوغاء من الحاضرين، فاستوحش فرعون و ارتبك، و فغر أتباعه أفواههم من العجب.

فأيّقن السّحره الذين لم يواجهوا مثل هذا المشهد من قبل، و كانوا يفترقون جيدا بين السحر و غيره، إنّ هذا الأمر ليس إلاّ معجزه إلهيّة، و إنّ هذا الرجل الذي يدعوهم إلى ربّهم هو رسول الله، فاضطربت قلوبهم، و تبين التحوّل العظيم في أرواحهم و وجودهم).

و الآن نسمع بقيه الحديث من لسان الآيات:

فَأَلْقَى السَّحْرَةَ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَ مُوسَى

إنّ التعبير ب(القي)- و هو فعل مبنى للمجهول- ربّما كان إشاره إلى أنّهم قد صدّقوا موسى، و تأثروا بمعجزته إلى الحدّ الذي سجدوا معه دون إرادته.

و نقطه أخرى يلزم ذكرها و تستحقّ الالتفات، و هي أنّهم لم يقتنعوا بمجرّد الإيمان القلبي، بل رأوا أنّ من واجبه إظهار هذا الإيمان بصورة جيّئه، بتعايير لا- يشوبها أى إبهام، أى التأكيد على ربوبيه ربّ موسى و هارون، حتّى يرجع أولئك الذين ضلّوا بسبب سحرهم، و لا تبقى على عاتقهم مسؤوليه من هذه الجبهه.

من البديهي أنّ عمل السّحره هذا قد وجّه صفعه قويّه إلى فرعون و حكومته الجّباره المستبده الظالمه، و هزّ كلّ أركانها، لأنّ الإعلام كان قد ركز على هذه المسأله مدّه طويله فى جميع أنحاء مصر، و كانوا قد جلبوا السّحره من كلّ أرجاء البلاد، و وعد هؤلاء بكلّ نوع من المكافئات و الجوائز و الامتيازات إذا ما غلبوا و انتصروا فى المعركه! إلاّ أنّه يرى الآن أنّ أولئك الذين كانوا فى الصّفّ الأوّل من المعركه، قد استسلموا فجأه للعدو بصوره جماعيه، و لم يسلموا و حسب، بل أصبحوا من المدافعين الصليبين عنه، و لم تكن هذه المسأله فى حسابان فرعون أبدا، و لا شكّ أنّ

جمعا من الناس قد اتبعوا السِّحْرَ و آمنوا بدين موسى. و لذلك لم ير فرعون بداً إلا أن يجمع كيانه و يلملم ما تبقى من هيئته و سلطانه عن طريق الصراخ و التهديد و الوعيد الغليظ، فتوجّه نحو السِّحْرَ و قال [□] آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ .

إنّ هذا الجِبَارَ المستكبر لم يكن يدعى الحكومه على أجسام و أرواح الناس و حسب، بل كان يريد أن يقول: إنّ قلوبكم تحت تصرّفى أيضاً، و يجب على أحدكم إذا أراد أن يصمّم على أمر ما أن يستأذنى، و هذا هو العمل الذى يؤكّد عليه كلّ الفراعنه على امتداد العصور.

فالبعض -كفرعون مصر- يجريها على لسانه حمقا عند اضطرابه و قلقه، و البعض احتفظ بهذا الحقّ لنفسه و يبيّنه بصورة غير مباشره عن طريق وسائل الإعلام، و طوابير العملاء، و يعتقد بأنّ الناس يجب أن لا يعطوا الاستقلال له فى التفكير، بل إنّ فى بعض الأحيان قد يسلب الناس الحريه باسم حريه التفكير.

و على كلّ حال، فإنّ فرعون لم يكتف بذلك، بل إنّهُ أَلْصَقَ بِالسَّاحِرِينَ التَّهْمَةَ و قال: [□] إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمْ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ .

لا- شكّ أنّ فرعون كان على يقين و معرفه تامّه بكذب كلامه و بطلانه، و لم يكن بالإمكان أن تحدث مثل هذه المؤامره فى جميع أنحاء مصر و يجهل جنوده و شرطته بالأمر، و كان فرعون قد ربّى موسى عليه السّلام فى أحضانها، و غيبته عن مصر كانت من المسلّمات لديه، فلو كان كبير سحره مصر لكان معروفاً بذلك فى كلّ مكان، و لا يمكن أن يخفى أمره. إلاّ أنّنا نعلم أنّ الطغاه لا يتورعون عن إصاق أى كذب و تهمة بخصومهم عند ما يرون مركزهم الذى حصلوا عليه بغير حقّ يتعرّض للخطر.

ثمّ إنّهُ لم يكتف بهذا، بل إنّهُ هدّد السِّحْرَ أشدّ تهديداً، التهديد بالموت، فقال:

فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَ أَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَ لَأَصْلَبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَ لَتَعْلَمَنَّ آيُنَا [□]

في الحقيقة إنَّ جملة آيتنا أَشَدُّ عَذَابًا إِشَارَه إِلَى تهديد موسى عليه السَّلام له من قبل، و كذلك تهديده للسحره في البدايه وَيَلْكُم لَا- تَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسَدِّحَتَكُمْ بِهِ عَذَابٍ. و التعبير مِنْ خِلَافٍ إِشَارَه إِلَى قطع اليد اليمنى مع الرجل اليسرى أو بالعكس، و ربّما كان إختيار هذا النوع من التعذيب للسحره، لأنَّ موت الإنسان يكون أكثر بطأً و أَشَدَّ عَذَابًا فِي هذه الحاله، أى أَنَّ التزيف سيكون أبطأ، و سيعانون عذاباً أَشَدَّ، و ربّما أراد أن يقول: سأجعل بدنكم ناقصاً من جانبيه.

أما التهديد بالصلب على جذوع النخل، فربّما كان لأنَّ النخله تعدّ من الأشجار العاليه، و كلّ شخص -سواء البعيد أو القريب- يرى المعلق عليها.

و الملاحظه التي تستحقّ الذكر أنّ الصلب في عرف ذلك الزمان لم يكن كما هو المتعارف عليه اليوم، فلم يكونوا يضعون حبل الإعدام في رقبه من يريدون صلبه، بل كانوا يشدّون به الأيادي أو الأكتاف حتّى يموت المصلوب بعد تحمّل العذاب الشديد.

لكن نرى ماذا كان ردّ فعل السَّحَره تجاه تهديدات فرعون الشديده؟ إنَّهم لم يخافوا و لم يهربوا من ساحه المواجهه، أثبتوا صمودهم في الميدان بصوره قاطعه، و قالوا لَنْ نُؤْتِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيْتَاتِ وَ الَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ لَكِن، ينبغى أن تعلم بأنك تقدر على القضاء في هذه الدنيا، أما في الآخره فنحن المنتصرون، و ستلاقي أنت أَشَدَّ الْعِقَابِ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا .

و على هذا، فإنَّهم قد بيّنوا هذه الجملة الثلاث الراسخه أمام فرعون:

الأولى: إننا قد عرفنا الحقّ و اهتدينا، و لا نستبدله بأى شيء.

١ - ١) - من المعلوم أنّ (في) في جملة وَ لَأَصِيبُنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ تعنى (على)، أى أعلّقكم على جذوع النخل، إلاّ- أنّ الفخر الرازى يعتقد أنّ (في) هنا تعطى نفس معناها، لأنّ (في) للظرفيه، و الظرفيه تناسب كلّ شيء، و نعلم أنّ خشبه الإعدام كالظرف و الوعاء بالنسبه للفرد الذى يعلّق للإعدام. إلاّ أنّ هذا التوجيه لا يبدو صحيحاً.

و الأخرى: إننا لا نخاف من تهديداتك مطلقا.

□
و الثالثه: حكومتك و سعيك سوف يدومان إلا أياما قليله من الدينا! ثم أضافوا بأننا قد ارتكبنا ذنوبا كثيره نتيجة السحر، ف إننا
آمنا برَبِّنا لِيَعْفِرَ لَنَا خَطَايَاَنَا وَ مَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَ اللَّهُ خَيْرٌ وَ أَبْقَى وَ خلاصه القول: إن هدفنا هو الطهاره من الذنوب
الماضيه، و من جملتها محاربه نبي الله الحقيقي، فنحن نريد أن نصل عن هذا الطريق إلى السعاده الأبدية، فإذا كنت تهددنا بالموت
في الدنيا، فإننا نتقبل هذا الضرر القليل في مقابل ذلك الخير العظيم! و هنا ينقدح سؤال، و هو: إن السِّحْرَ قد أتوا بأنفسهم إلى
حلبه الصراع ظاهرا، بالرغم من أن فرعون قد وعدهم وعودا كبيره، فكيف عبّرت الآية بالإكراه؟ و نقول في الجواب: إننا لا نملك
أى دليل على أن السِّحْرَ لم يكونوا مجبورين منذ البدايه، بل إن ظاهر جملة يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَاحِرٍ عَلِيمٍ (١)، أن السِّحْرَ العلماء
بالفن كانوا ملزمين بقبول الدعوه، و من الطبيعي أن هذا الأمر يبدو طبيعيا في ظلّ حكمه فرعون المستبدّه، بأن يجبر أفرادا في
طريق تحقيق نيّاته، و وضع الجوائز و أمثال ذلك لا- ينافي هذا المفهوم، لأننا رأينا- كثيرا- حكومات ظالمه مستبدّه تتوسّل
بالتربغيبات الماديه إلى جانب استعمال القوّه.

و يحتمل أيضا أن السِّحْرَ عند أول مواجهه لهم مع موسى عليه السِّلام تبين لهم من خلال القرائن أن موسى عليه السِّلام على
الحقّ، أو أنهم على أقل تقدير وقعوا في شكّ، و نشب بينهم نزاع و جدال، كما نقرأ ذلك في الآية (٦٢) من هذه السوره:

□
فَتَنَازَعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ، فأطلع فرعون و أجهزته على ما جرى، فأجبروهم على الاستمرار في المجابهه.

ثم و اصل السِّحْرَ قولهم بأننا إذا كنا قد آمنّا فإن سبب ذلك واضح ف

ص: ٣٧

إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ

و مصيبيته الكبرى فى الجحيم هى أنه لا يَمُوتُ فِيهَا ولا يَحْيَى بل إِنَّهُ يتقلَّب دائما بين الموت و الحياه، تلك الحياه التى هى أمر من الموت، و أكثر مشقه منه.

وَ مَنْ يَأْتِهِ مُؤْمِنًا قَدْ عَمِلَ الصَّالِحَاتِ فَأُولَئِكَ لَهُمُ الدَّرَجَاتُ الْعُلَى. جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى

و هناك بحث بين المفسرين فى أن الجمل الثلاث الأخيره تابعه لكلام السحره أمام فرعون، أم أنها جمل مستقله من جانب الله سبحانه جاءت تتمه لكلامهم؟ فبعضهم اعتبرها تابعه لكلام السحره، و ربما كان الابتداء ب(أنه) التى هى فى الواقع لبيان العله، يؤيد وجهه النظر هذه.

إلا- أن التفصيل الذى جاء فى هذه الآيات الثلاث حول مصير المؤمنين الصالحين، و الكافرين المجرمين، الذى ينتهى بجمله وَ ذَلِكَ جَزَاءُ مَنْ تَزَكَّى و كذلك الأوصاف التى جاءت فيها حول الجنه و النار، تؤيد الرأى الثانى، و هو أنها من كلام الله، لأن السحره ينبغى أن يكونوا قد تلقوا حظا وافرا من المعرفه و العلوم الإلهيه فى هذه الفتره القصيره بحيث يستطيعون أن يقضوا بهذا الجزم و القطع، و عن علم و اطلاع و وعى من أمر الجنه و النار و مصير المؤمنين و المجرمين. إلا- أن نقول: إن الله سبحانه قد أجرى هذا الكلام على ألسنتهم لإيمانهم، و إن كان هذا لا يفرق عندنا و لا يختلف من ناحيه التريبه الإلهيه و النتيجة سواء كان الله تعالى قد قال ذلك، أو أن السحره قد تعلموه من الله، خاصه و أن القرآن ينقل كل ذلك بنغمه متناسقه.

١- العلم أساس الإيمان و الوعي

إنَّ أهمَّ مسأله تلاحظ في الآيات-محلَّ البحث-هي تحوُّل السيِّحره السريع العميق قبال موسى عليه السِّلام، فإنَّهم عند ما وقفوا بوجه موسى عليه السِّلام كانوا أعداء ألداء، إلاَّ أنَّهم اهتزَّوا بشدَّه عند مشاهدته أوَّل معجزه من موسى، فانتهبوا و غيَّروا مسيرهم حتَّى أثاروا دهشه الجميع.

إنَّ هذا التغيير السريع من الكفر إلى الإيمان، و من الانحراف إلى الاستقامه، و من الاعوجاج إلى الطريق المستقيم، و من الظلمه إلى النور، قد جعل الجميع في دهشه، و ربَّما كان هذا الأمر غير قابل للتصديق حتَّى من قبل فرعون نفسه، و لذا سعى إلى إيهاام الناس بأنَّ هذا الأمر قد دبر من قبل، و اتفق عليه مسبقا، في حين أنَّه كان يعلم في أعماقه أنَّ هذا الاتِّهاام كذب محض.

أى عامل كان السبب في هذا التحوُّل العميق السريع؟ و أى عامل أضاء قلوبهم بنور الإيمان الوهاج، إلى درجه أبدوا استعدادهم فيها لأن يضعوا كلَّ وجودهم في خدمه هذا العمل، بل وضعوه فعلا على ما نقل التاريخ، لأنَّ فرعون قد نفَّذ تهديده، و قتل هؤلاء بطريقه وحشيّه؟ هل نجد هنا عاملا غير العلم و الوعي؟ إنَّ هؤلاء لَمَّا كانوا عالمين بفتون السحر و أسرارهِ، و أيقنوا بوضوح تامَّ أنَّ عمل موسى لم يكن سحرا، بل هو معجزه إلهيّه، غيَّروا مسيرهم بتلك الشجاعه و الحزم، و من هنا نعلم جيدا أنَّه من أجل تغيير الأفراد المنحرفين، أو المجتمع المنحرف، و إيجاد انقلاب في المسيره ينبغي توعيتهم قبل كلِّ شيء (١).

ص: ٣٩

(١- ١) - لقد بحثنا هذا الموضوع في ذيل الآيات ١٢٣-١٢٦ من سوره الأعراف.

٢- لن نُؤثرك على البيّنات

مما يلفت النظر أنّ هؤلاء اختاروا أكثر التعابير منطقيّة إزاء فرعون و كلامه غير المنطقي، فقالوا أولاً: إنّنا قد رأينا أدلّه واضحاً على أحقيّته موسى و دعوته الإلهيّة، و سوف لا نكثرث بأى شيء و لا نقدّمه على هذه الدلالات البيّنه، و أكدوا هذا الأمر فيما بعد بجمله وَ الَّذِي فَطَرْنَا و ربّما كان هذا التعبير بحدّ ذاته- مع ملاحظه كلمه (فطرنا)- إشاره إلى ما هم عليه من الفطره التوحيديه، فكأنّهم قالوا: إنّنا نشاهد نور التوحيد من أعماق وجودنا و أرواحنا، و كذلك بالدليل العقلي، و مع هذه الآيات البيّنات كيف نستطيع أن نترك هذا الصراط المستقيم، و نسير في طريقك المنحرف؟ و يلزم الالتفات إلى هذه النكته أيضاً، و هي أنّ جمعا من المفسّرين لم يعتبروا جمله وَ الَّذِي فَطَرْنَا قسماً، بل عدّوها عطفاً على مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ و بناء على هذا سيصبح معنى جمله: إنّنا سوف لن نُؤثرك أبداً على هذه الأدلّه الجليه، و على الله الذي خلقنا.

غير أنّ التفسير الأوّل يبدو أقرب للصحّه، لأنّ عطف هاتين الجملتين بعضهما على بعض غير مناسب. «فلاحظوا بدقّه»!

٣- من هو المجرم؟

بملاحظه الآيات الشريفة التي تقول: إِنَّهُ مَنْ يَأْتِ رَبَّهُ مُجْرِمًا فَإِنَّ لَهُ جَهَنَّمَ و التي يظهر منها خلود العذاب، يتبادر هذا السؤال: ترى هل لكلّ مجرم هذا المصير؟ إلاّ أنّه بالالتفات إلى أنّ الآيه التاليه قد بينت النقطة المقابله لذلك، و جاءت فيها كلمه «المؤمن» يتّضح أنّ المراد من المجرم هنا هو الكافر، إضافة إلى أنّه ورد في القرآن كثيراً استعمال هذه الكلمه بمعنى الكافر.

فمثلا- نقرأ فى شأن قوم لوط الذين لم يؤمنوا بنبيهم أبدا: **وَ أَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطْرًا فَاَنْظُرْ كَيْفَ كَانَ لِعَاقِبَةِ الْمُجْرِمِينَ (١)** و نقرأ فى سورة الفرقان فى الآيه ٣١:

وَ كَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ .

٤- جبر البيئه خرافه

تبين قصه السحره فى الآيات المذكوره أن القول بأن البيئه تملئ أو تفرض على صاحبها مساره فى الحياه ليس سوى و هم فارغ، فإنّ الإنسان فاعل مختار، و صاحب إرادته حرّه، فإذا صمّم فى أى وقت فإنه يستطيع أن يغيّر مسيره من الباطل إلى الحق، حتّى لو كان كلّ الناس فى تلك البيئه غارقين فى الذنوب و الضلال، فالسحره الذين كانوا لسنين طويله فى ذلك المحيط الملوّث بالشرك، و كانوا يرتكبون بأنفسهم و يعملون الأعمال المتوغّله فى الشرك عند ما صمّموا على قبول الحقّ و الثبات عليه بعشق، لم يخافوا أى تهديد، و حقّقوا هدفهم، و على قول المفسّر الكبير العلامة الطبرسى: (كانوا أوّل النهار كفّارا سحره، و آخر النهار شهداء برره) (٢).

و من هنا يتّضح- أيضا- مدى ضعف و عدم واقعيّته أساطير الماديين، و خاصه الماركسيين حول نشأه الدين و تكوّنه، فإنّهم اعتبروا أساس كلّ حركه هو العامل الاقتصادى، فى حين أنّ الأمر هنا كان بالعكس تماما، لأنّ السحره قد حضروا حلبه الصراع نتيجة ضغط أجهزه فرعون من جانب، و الإغراءات الاقتصاديه من جانب آخر، إلّا أنّ الإيمان بالله قد محا كلّ هذه الأمور، فقد انهار المال و الجاه الذى وعدهم فرعون به عند أعتاب إيمانهم، و وضعوا أرواحهم العزيزه هديّه لهذا العشق!

ص: ٤١

١- (١) - الأعراف، ٨٤.

٢- (٢) - مجمع البيان، ج ٤، ص ٤٦٤. ذيل الآيه (١٢٦) من سورة الأعراف.

اشاره

وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاصْرَبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرْكًا وَلَا تَحْشَىٰ (٧٧) فَاتَّبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ بِجُنُودِهِ فَغَشِيَهُمْ مِنَ اللَّيْلِ مَا عَشَيْتُهُمْ (٧٨) وَأَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَمَا هَدَىٰ (٧٩)

التفسير

اشاره

نجاه بنى إسرائيل و غرق الفراعنه:

بعد حادثه المجابهه بين موسى و السحرة، و انتصاره الباهر عليهم، و إيمان جمع عظيم منهم، فقد غزا موسى عليه السّلام و دينه أفكار الناس فى مصر، بالرغم من أنّ أكثر الأقباط لم يؤمنوا به، إلاّ أنّ هذا كان ديدنهم دائماً، و كان بنو إسرائيل تحت قياده موسى مع قلّه من المصريين فى حاله صراع دائم مع الفراعنه، و مرّت أعوام على هذا المنوال، و حدثت حوادث مرّه موحشه و حوادث جميله مؤنسه، أورد بعضها القرآن الكريم فى الآيه (١٢٧) و ما بعدها من سوره الأعراف.

و تشير الآيات التى نبحتها إلى آخر فصل من هذه القصّه، أى خروج بنى إسرائيل من مصر، فنقول: وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَتَهَيَّأْ بِنُو

إسرائيل للتوجه إلى الوطن الموعود (فلسطين)، إلا أنهم لما وصلوا إلى سواحل النيل علم الفراعنه بهم، فتعقبهم فرعون في جيش عظيم، فرأى بنو إسرائيل أنفسهم محاصرين بين البحر و العدو، فمن جهة نهر النيل العظيم، و من جهة أخرى العدو القوى الشفاك الغاضب.

إلا أن الله الذى كان يريد إنقاذ هذه الأمة المظلومه المحرومه المؤمنه من قبضه الظالمين، و أن يهلك الظالمين فى البحر، أمر موسى أن امض بقومك فاضرب لهم طريقاً فى البحر ييساً طريقاً متى ما مضيت فيه ف لا تخاف دركاً و لا تخشى .

الطريف هنا أن الطريق لم يفتح و حسب، بل كان طريقاً يابسا صلبا بأمر الله، مع أن مياه النهر أو البحر إذا ما انحسرت جانبا فإن قيعانها تبقى عادة غير قابله للعب عليها.

يقول الراغب فى مفرداته: «الدرك» أقصى عمق البحر، و يقال للحبل الذى يوصل به حبل آخر ليدرك به الماء «درك»، و كذلك يقال للخساره التى تصيب الإنسان «درك» و يقال «دركات النار» فى مقابل درجات الجنة أى حدودها و طبقاتها السفلى.

و لكن مع ملاحظه أن بنى إسرائيل -و طبقا للآيه (٦١) من سوره الشعراء- لما علموا بخبر مجيء جيش فرعون، قالوا لموسى: إنا لم ندر كون، و هذا يعنى أن المراد من الدرك فى الآيه هنا، أن جيش فرعون سوف لن يصل إليكم، و المراد من (لا تخشى) أن أى خطر لا يهددكم من ناحيه البحر.

و بذلك فإن موسى و بنى إسرائيل قد ساروا فى تلك الطرق التى فتحت فى أعماق البحر بعد انحسار المياه عنها. فى هذه الأثناء وصل فرعون و جنوده إلى ساحل البحر فدهشوا لهذا المشهد المذهل المثير غير المتوقع، و لذلك أعطى فرعون أمرا لجنوده باتباعهم، و سار هو أيضا فى نفس الطريق: فَأَتَبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ

مِمَّا لَا رَيْبَ أَنَّ جَيْشَ فِرْعَوْنَ كَانَ مَكْرَهَا فِي الْبِدَايَةِ عَلَى أَنْ يَسِيرَ فِي هَذَا الْمَكَانِ الْخَطِيرِ الْمَجْهُولِ، وَيَتَعَقَّبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ، وَكَانَتْ مَشَاهِدُهُ مِثْلَ هَذِهِ الْمَعْجِزَةِ الْعَجِيبَةِ كَافِيَةً عَلَى الْأَقْلَى أَنْ يَمْتَنِعُوا عَنِ الْإِسْتِمْرَارِ فِي السَّيْرِ فِي هَذَا الطَّرِيقِ، إِلَّا أَنَّ فِرْعَوْنَ الَّذِي رَكِبَ الْغُرُورَ وَالْعَصِيْبِيَّةَ رَأْسَهُ، وَغَرِقَ فِي بَحْرِ الْعِنَادِ وَالْحِمَاقَةِ، لَمْ يَهْتَمَّ لِهَذِهِ الْمَعْجِزَةِ الْكَبِيرَةِ، وَآمَرَ جَيْشَهُ فِي الْمَسِيرِ فِي هَذِهِ الطَّرِيقِ الْبَحْرِيَّةِ الْمَرْبِيَّةِ حَتَّى دَخَلَ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ آخِرَ جُنْدِي فِرْعَوْنَ، فِي وَقْتِ خُرُوجِ مِنَ الْجَانِبِ الْآخِرِ آخِرَ فَرْدٍ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ.

فِي هَذِهِ الْأَثْنَاءِ صَدَرَ الْأَمْرُ لِأَمْوَاجِ الْمِيَاهِ أَنْ تَرْجِعَ إِلَى حَالَتِهَا الْأُولَى، فَوَقَعَتْ عَلَيْهِمُ الْأَمْوَاجُ كَمَا تَسْقُطُ الْبَنَائِيَّةُ الشَّامِخَةُ إِذَا هَدَّمتْ قَوَاعِدُهَا فَغَشَّيَتْهُمْ مِنَ الْيَمِّ مَا غَشَّيَتْهُمْ (٢). وَبِذَلِكَ فَقَدْ غَاصَ مَلِكُ جَبَّارِ ظَالِمٍ مَعَ جُنُودِهِ وَجَيْشِهِ الْفَهَّارِ فِي وَسْطِ أَمْوَاجِ الْمَاءِ، وَاصْبَحُوا طَعْمَهُ جَاهِزَهُ لِسَمَكِ الْبَحْرِ!.

أَجَلْ، وَ أَضَلَّ فِرْعَوْنُ قَوْمَهُ وَ مَا هَدَى .

صَحِيحٌ أَنَّ جَمْلَةَ (أَضَلَّ) وَ جَمْلَةَ (مَا هَدَى) تَعْطَى مَعْنَى وَاحِدًا تَقْرِيبًا، وَرَبَّمَا كَانَ هَذَا هُوَ السَّبَبُ فِي أَنْ يُعْتَبَرَهَا بَعْضُ الْمَفْسِّرِينَ تَأَكِيدًا، إِلَّا أَنَّ الظَّاهِرَ أَنَّ هُنَاكَ تَفَاوُتًا فِيمَا بَيْنَهُمَا، وَهُوَ أَنَّ (أَضَلَّ) إِشَارَةٌ إِلَى الْإِضْلَالِ، وَ (مَا هَدَى) إِشَارَةٌ إِلَى عَدَمِ الْهَدَايَةِ بَعْدَ وَضُوحِ الضَّلَالَةِ.

وَ تَوْضِيحٌ ذَلِكَ: إِنَّ الْقَائِدَ قَدْ يَخْطِئُ أحيانًا، وَ يَجْزُّ أَتْبَاعَهُ إِلَى طَرِيقٍ مَنَحْرَفٍ، إِلَّا أَنَّهُ بِمَجْرَدِ أَنْ يَنْتَبِهَ إِلَى خَطْئِهِ يَعِيدُهُمْ إِلَى طَرِيقِ الصَّوَابِ. إِلَّا أَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ

ص: ٤٤

١ - ١) - وَ هُنَاكَ اِحْتِمَالٌ آخَرَ فِي تَفْسِيرِ الْجَمْلَةِ آتِفَهُ الذِّكْرُ، وَ هُوَ أَنَّ الْبَاءَ فِي (بِجُنُودِهِ) قَدْ تَكُونُ بِمَعْنَى (مَعَ)، وَ يَصِحُّ مَجْمُوعُ الْجَمْلَةِ بِهَذَا الْمَعْنَى: إِنَّ فِرْعَوْنَ قَدْ عَقَّبَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مَعَ جُنُودِهِ، مَعَ أَنَّهُ لَا يَوْجَدُ اخْتِلَافَ بَيْنَ هَذَيْنِ التَّفْسِيرِينَ.

٢ - ٢) - «الْيَمِّ» يَعْنِي الْبَحْرَ وَ النَّهْرَ الْعَظِيمَ. وَ يُعْتَقَدُ بَعْضُ الْمُحَقِّقِينَ أَنَّ هَذِهِ لُغَةٌ مِصْرِيَّةٌ قَدِيمَةٌ وَ لَيْسَتْ عَرَبِيَّةً. وَ لِمَزِيدِ الْإِيضَاحِ رَاجِعْ هَامِشَ ذَيْلِ الْآيَةِ (١٣٦) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ.

عنيدا إلى الحدّ الذي لم يبيّن لقومه الحقيقه حتّى بعد وضوح الضلال، و مشاهدته، و استمرّ في توجيه هؤلاء إلى المتاهات حتّى هلك و إيّاهم.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الجملة تنفى كلام فرعون الوارد في الآية (٢٩) من سورة غافر حيث يقول: **وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ** فإنّ هذه الحوادث بينت أنّ هذه الجملة كذبه كبيره كأكاذيبه الأخرى.

ص: ٤٥

اشاره

يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ وَوَعَدْنَاكُمْ لَجَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوَى (٨٠) كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَلَا تَطْغَوْا فِيهِ فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحِلِّ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَى (٨١) وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى (٨٢)

التفسير

اشاره

طريق النجاه الوحيد:

تعقيبا على البحث السابق في نجاه بنى إسرائيل بصوره إعجازه من قبضه الفراعنه،خاطبت هذه الآيات الثلاث بنى إسرائيل بصوره عامه،و في كل عصر و زمان،و ذكرتهم بالنعم الكبيره التي منحها الله إياهم،و أوضحت طريق نجاتهم.

فقال أولاً: يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ أَنْجَيْنَاكُمْ مِنْ عَدُوِّكُمْ ، و من البديهي أنّ أساس كل نشاط و مجهود إيجابي هو التخلص من قبضه المتسلطين،و الحصول على الحريه و الاستقلال،و لذلك أشير إلى هذه المسأله قبل كل شىء.

ثم تشير إلى واحده من النعم المعنويه المهمه، فتقول: **وَإَعِدْنَاكُمْ الْجَانِبَ الطَّوْرِ الْأَيْمَنَ**، و هذه إشاره إلى حادثه ذهاب موسى عليه السلام مع جماعه من بني إسرائيل إلى مكان ميعادهم في الطور، ففي ذلك المكان أنزل الله سبحانه ألواح التوراه على موسى و كلمه، و شاهدوا جميعا تجلّى الله سبحانه (١).

و أخيرا أشارت إلى نعمه ماديه مهمه من نعم الله الخاصه ببني إسرائيل، فتقول: **وَ نَزَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَ السَّلْوى** ففي تلك الصحراء كنتم حيارى، و لم يكن عندكم شىء من الطعام المناسب، فأدر ككم لطف الله، و رزقكم من الطعام الطيب اللذيذ ما كنتم بأمس الحاجة إليه.

و للمفسرين بحوث كثيره فيما هو المراد من (المَنَّاءَ و السلوى)، بينهاها في ذيل الآيه (٥٧) من سوره البقره، بعد ذكر آراء المفسرين الآخرين و قلنا: إنه ليس من البعيد أن يكون «المَنَّاء» نوعا من العسل الطبيعي كان موجودا في الجبال المجاوره لتلك الصحراء، أو نوعا من السكريات المولده للطاقيه من نباتات خاصه كانت تنمو في أطراف تلك الصحراء. و السلوى نوع من الطيور المحلله اللحم شبيها بالحمام. و لمزيد التوضيح راجع تفسير الآيه (٥٧) من سوره البقره.

ثم تخاطبهم الآيه التاليه بعد ذكر هذه النعم الثلاث العظيمه، فتقول **كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَ لَا تَطْغَوْا فِيهِ**.

الطغيان في النعمه هو أن يتخذ الإنسان هذه النعم و سيله للذنب و الجحود و الكفران و التمرد و العصيان، بدل أن يستغلها في طاعه الله و سعاده، تماما كما فعل بنو إسرائيل حيث تمتعوا بكل هذه النعم ثم ساروا في طريق الكفر و الطغيان و المعصيه. و لذلك حذرتهم الآيه بعد ذلك فقالت:

ص: ٤٧

فَيَحِلُّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي وَمَنْ يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ

«هوى» فى الأصل بمعنى السقوط من المكان المرتفع، و الذى تكون نتيجه الهلاك عاده، إضافة إلى أنه هنا إشاره إلى السقوط الرتبى و البعد عن قرب الله، و الطرد من رحمته.

و لَمَّا كان من الضرورى أن يقترن التحذير و التهديد بالترغيب و البشاره دائما، لتساوى كفتا الخوف و الرجاء، حيث تشكّلان العامل الأساسى فى تكامل الإنسان، و لفتح أبواب التوبه و الرجوع بوجه التائبين، فقد قالت الآيه التاليه:

وَإِنِّي لَغَفَّارٌ لِّمَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَىٰ

كلمه (غفار)، صيغه مبالغه، و توحى أن الله سبحانه لا يقبل هؤلاء التائبين و يشملهم برحمته مرّه واحده فقط، بل سيعمّم عفوهم و مغفرته مرّات و مرّات.

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ أول شرط للتوبه هو ترك المعصيه، و بعد أن تتطهّر روح الإنسان من هذه التلوّث، فإنّ الشرط الثانى هو أن يغمرها نور الإيمان بالله و التوحيد، و فى المرحله الثالثه يجب أن تظهر بر أعم الإيمان و التوحيد-و التى هى الأعمال الصالحه و المناسبه-على أغصان وجود الإنسان.

و بخلاف سائر آيات القرآن التى تتحدّث عن التوبه و الإيمان و العمل الصالح فقط فقد أضافت هذه الآيه شرط رابع، و هو قوله: ثُمَّ اهْتَدَىٰ. و قد ذكر المفسّرون لهذه الجمله تفسيرات عديده، يبدو أنّ اثنين منها هما الأوفق و الأدقّ:

الأوّل: إنّها إشاره إلى أنّ الاستمرار فى طريق الإيمان و التقوى و العمل الصالح، يعنى أنّ التوبه تمحو ما مضى و تكون سببا للنجاه، و هى مشروطه بأن لا يسقط النائب مرّه أخرى فى هاويه الشرك و المعصيه، و أن يراقب نفسه دائما كيلا تعيده الوسوس الشيطانيه و أهواؤه إلى مسلكه السابق.

و الثانى: هذه الجمله إشاره إلى لزوم قبول الولايه، و الالتزام بقياده القاده

الرَّبَّانِيَّينَ، أَى أَنَّ التَّوْبَةَ وَ الْإِيْمَانَ وَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ كَلَّ ذَلِكَ سَيَكُونُ سَبِيْبًا لِلنَّجَاةِ وَ الْفَلَاحِ إِذَا كَانَ فِي ظَلِّ هِدَايَةِ الْقَادَةِ الرَّبَّانِيَّينَ، فَفِي زَمَانٍ تَحْتَ قِيَادَةِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ فِي زَمَانٍ آخَرَ تَحْتَ لُؤَاءِ نَبِيِّ الْإِسْلَامِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ، وَ مَرَّه تَحْتَ لُؤَاءِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، أَمَّا الْيَوْمُ فَيَنْبَغِي أَنْ نَنْصُوبَ تَحْتَ لُؤَاءِ الْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِأَنَّ أَحَدَ أَرْكَانِ الدِّينِ قَبُولُ دَعْوَةِ النَّبِيِّ وَ الْإِنضْوَاءِ تَحْتَ قِيَادَتِهِ ثُمَّ قَبُولُ قِيَادَةِ خَلِيفَتِهِ وَ نَائِبِهِ.

يُنْقَلُ الْعَلَامَةُ الطَّبْرَسِيَّةُ فِي ذِيْلِ هَذِهِ الْآيَةِ عَنِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ أَنَّهُ قَالَ: «ثُمَّ اهْتَدَى إِلَى وَ لَا يَتَنَا أَهْلَ الْبَيْتِ» ثُمَّ أَضَافَ: «فَوَ اللَّهُ لَوْ أَنَّ رَجُلًا عَبَدَ اللَّهَ عَمْرَهُ مَا بَيْنَ الرُّكْنِ وَ الْمَقَامِ، ثُمَّ مَاتَ وَ لَمْ يَجِءْ بِوَلَايَتِنَا لِأَنَّ كِبَةَ اللَّهِ فِي النَّارِ عَلَى وَجْهِهِ». وَ قَدْ نَقَلَهَا الْعَلَامَةُ الْحَاكِمُ «أَبُو الْقَاسِمِ الْحَسْكَانِيُّ» - مِنْ كِبَارِ مَحَدِّثِي أَهْلِ السَّنَةِ (١) وَ قَدْ رُوِيَ رَوَايَاتٌ عَدِيدَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ وَ عَنِ الْإِمَامِ زَيْنِ الْعَابِدِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَ لَكِي نَعْلَمُ أَنَّ تَرْكَ هَذَا الْأَصْلِ - إِلَى أَى حَدِّ هُوَ - مَهْلِكٌ لِتَارِكِهِ، يَكْفِي أَنْ نَبْحَثَ الْآيَاتِ التَّالِيَةَ، وَ كَيْفَ أَنَّ بَنِي إِسْرَائِيلَ قَدْ ابْتَلَوْا بِعِبَادَةِ الْعَجَلِ وَ الشَّرْكَ وَ الْكُفْرِ نَتِيجَةً تَرْكِهِمْ وَ لَا يَهُ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ خُرُوجِهِمْ عَنِ نَهْجِهِ وَ نَهْجِ خَلِيفَتِهِ هَارُونَ عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وَ مِنْ هُنَا يَتَضَحُّ أَنَّ مَا قَالَهُ الْعَلَامَةُ الْأَلُوسِيُّ فِي تَفْسِيرِ رُوحِ الْمَعَانِي بَعْدَ ذِكْرِ جَمَلِهِ مِنْ هَذِهِ الرُّوَايَاتِ:

«لَا - شَكَّ عِنْدَنَا فِي وَجُوبِ مَحَبَّةِ أَهْلِ الْبَيْتِ، وَ لَكِنْ هَذَا لَا يَرْتَبُ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ وَ عَصْرِ مُوسَى» كَلَامُ وَاهٍ، لِأَنَّ الْبَحْثَ أَوَّلًا لَيْسَ حَوْلَ الْمَحَبَّةِ، بَلْ حَوْلَ قَبُولِ الْوَلَايَةِ وَ الْقِيَادَةِ وَ ثَانِيًا: لَيْسَ الْمُرَادُ مِنْ انْحِصَارِ الْوَلَايَةِ بِأَهْلِ الْبَيْتِ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بَلْ فِي عَصْرِ مُوسَى كَانَ هُوَ وَ أَخُوهُ قَائِدَيْنِ، فَكَانَ يَلْزَمُ قَبُولَ وَ لَايَتَهُمَا، أَمَّا فِي عَصْرِ النَّبِيِّ فَتَلْزَمُ

ص: ٤٩

قبول ولايته، و في عصر أئمه أهل البيت يلزم قبول ولايتهم عليهم السلام.

و يتضح أيضا أنّ المخاطب في هذه الآية و إن كانوا بنى إسرائيل، إلاّ أنّه لا ينحصر فيهم و لا يختص بهم، فإنّ كلّ فرد أو جماعه تطوى هذه المراحل الأربعة فستشملها مغفره الله سبحانه و عفوه.

ص : ٥٠

وَمَا أَغْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى (٨٣) قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلَيَّ أَثَرِي وَ عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ
 بَعْدِكَ وَ أَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعَدًّا حَسَنًا أَ فَطَالَ عَلَيْكُمْ الْعَهْدُ
 أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا لِمَ أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا وَ لَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ
 الْقَوْمِ فَقَدْ تَفَنَّاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عَجَلًا جَسَدًا لَهُ خُورٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَ فَلَا
 يَرَوْنَ إِلَّا- يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا- وَ لَا- يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا (٨٩) وَ لَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَ إِنَّ رَبَّكُمْ
 الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَ أَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١)

صخب السامري:

ذكر في هذه الآيات فصل آخر من حياة موسى عليه السلام و بنى إسرائيل، و يتعلق بذهاب موسى عليه السلام مع و كلاء و ممثلى بنى إسرائيل إلى الطور حيث موعدهم هناك، ثم عباده بنى إسرائيل للعجل فى غياب هؤلاء.

كان من المقرر أن يذهب موسى عليه السلام إلى «الطور» لتلقى أحكام التوراه، و يصطحب معه جماعه من بنى إسرائيل لتتضح لهم خلال هذه الرحله حقائق جديده حول معرفه الله و الوحي.

غير أن شوق موسى عليه السلام إلى المناجاه مع الله و سماع ترتيل الوحي كان قد بلغ حدًا بحيث نسي فى هذا الطريق -حسب الروايات- كل شىء حتى الأكل و الشرب و الاستراحه، فطوى هذا الطريق بسرعه، و وصل لوحده قبل الآخرين إلى ميقات الله و ميعاده. هنا نزل عليه الوحي: **وَ مَا أَعْجَلَمَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى؟** فأجاب موسى على الفور: **قَالَ هُمْ أَوْلَاءُ عَلِيٍّ أَثْرَى وَ عَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى** فليس شوق المناجاه و سماع كلامك لوحده قد سلب قرارى، بل كنت مشتاقا إلى أن آخذ منك أحكام التوراه بأسرع ما يمكن لأؤذيها إلى عبادةك، و لأنال رضاك عنى بذلك... أجل إننى عاشق لرضاك، و مشتاق لسماع أمرك.

و فى هذا اللقاء امتدت مدّه الإشراقات و التجليات المعنويه الإلهيه من ثلاثين ليله إلى أربعين، و أدت الأجواء المهيأه لانحراف بنى إسرائيل دورها، فالسامري، ذلك الرجل الفطن و المنحرف صنع باستعماله الوسائل التى سنشير إليها فيما بعد عجلا، و دعا تلك الجماعه إلى عبادة، و أوقعهم فيها.

لا شك فى أن الأرضيات، كمشاهده عباده المصريين للعجل، أو مشاهده مشهد عباده الأصنام -العجل بعد عبور نهر النيل، و طلب صنع صنم كهؤلاء، و كذلك تمديد مدّه ميعاد موسى، و انتشار شائعه موته من قبل المنافقين، و أخيرا

جهل هذه الامه، كل ذلك كان له أثر في ظهور هذه الحادته و الانحراف الكبير عن التوحيد، لأن الحوادث الاجتماعيه لا تقع عادة بدون مقدمات، غايه ما هناك أن هذه المقدمات تكون تاره واضحه و عليه، و أخرى مستوره و خفيه.

على كل حال، فإن الشرك في أسوأ صورته قد أحاط ببني إسرائيل، و أخذ بأطرافهم، خاصة و أن كبار القوم كانوا مع موسى في الجبل، و كان زعيم الامه هارون وحيدا دون أن يكون له مساعدون أكفاء مؤثرون.

و أخيرا أخبر الله موسى في الميعاد بما جرى لقومه و السامري إذ تحكى الآيه التاليه ذلك فتقول: **قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ .**

غضب موسى عند سماعه هذه الكلمات غضبا التهب معه كل وجوده، و ربما كان يقول لنفسه: لقد تحملت المصائب و المصاعب خلال هذه السنين الطويله، و أرهقت نفسي و واجهت كل الأخطار في سبيل أن تركز هذه الامه إلى التوحيد، فكيف ذهبت جهودى أدراج الرياح بمجرد أن غبت عنها عدّه أيام فرجع موسى إلى قومه غضبان أسفاً .

و ما أن وقعت عينه على ذلك المنظر القبيح، منظر عباده العجل قال **أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعِدًّا حَسِينًا .** و هذا الوعد الحسن إما أن يكون وعد بنى إسرائيل بنزول التوراه و بيان الأحكام السماويه فيها، أو الوعد بالنجاه و الإنتصار على الفراعنه و وراثته حكومه الأرض، أو الوعد بالمغفره و العفو للذين يتوبون و يؤمنون و يعملون الصالحات، أو أنه كل هذه الأمور.

ثم أضاف: **أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ** و هو يشير إلى أنه: هبوا أن مدّه رجوعى قد طالت من ثلاثين إلى أربعين يوما، فإن هذا الزمن ليس طويلا، ألا يجب عليكم أن تحفظوا أنفسكم في هذه المدّه القصيره؟ و حتى لو نأيت عنكم سنين طويله فينبغى أن تلتزموا بالتعاليم الإلهيه التى تعلمتموها و تؤمنوا بالمعجزات التى

رأيتموها: أم أَرَدْتُمْ أَنْ يَحْلَ عَلَيَّكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (١) فقد عاهدتكم على أن تثبتوا على خطّ التوحيد و طريق طاعه الله الخالصه، و أن لا تنحرفوا عنه قيد أنمله، إلا أنكم نسيتم كلّ كلامي في غيابي، و كذلك تمردتم على طاعه أمر أخي هارون و عصيتموه.

فلَمَّا رأى بنو إسرائيل أنّ موسى عليه السلام قد عَنَّفَهُمْ بِشِدَّةٍ و لا- مهم على فعلهم و تَبَّهُوا إِلَى قَبْحِ مَا قَامُوا بِهِ مِنْ عَمَلٍ، هَبُوا لِلاَعْتِدَارِ فِ قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلِكِنَا (٢) فلم نكن في الواقع قد رغبتنا و صممتنا على عباده العجل و لَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ .

و للمفسرين آراء فيما فعله بنو إسرائيل، و ما فعله السامري، و ما هو معنى الآيات- محلّ البحث- على نحو الدقّه، و لا يبدو هناك فرق كبير في النتيجة بين هذه الاختلافات.

فذهب بعضهم: إن «قذفناها» تعني أننا ألقينا أدوات الزينة التي كنّا قد أخذناها من الفراعنه قبل الحركة من مصر في النار، و كذلك ألقى السامري ما كان معه أيضا في النار حتّى ذاب و صنع منه عجلا.

و قال آخرون: إن معنى الجملة أننا ألقينا أدوات الزينة بعيدا عنّا، فجمعها السامري و ألقاها في النار ليصنع منها العجل.

و يحتمل أيضا أن تكون جملة فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ إشارة إلى مجموع الخطّة التي نفذها السامري.

ص: ٥٤

١- ١) -من البديهي أن لا أحد يصمّم على أن يحلّ عليه غضب الله، بل المراد من العبارة أنكم في وضع كأنكم قد صممتم مثل هذا التصميم في حقّ أنفسكم.

٢- ٢) -«ملك» و«ملك» كلاهما تعني تملك الشيء، و كأنّ مراد بنو إسرائيل أننا لم نتملك هذا العمل، بل وقعنا تحت تأثيره حتّى اختطف قلوبنا و ديننا من أيدينا. و اعتبر بعض المفسرين هذه الجملة مرتبطة بجماعه قليله من بنو إسرائيل لم تعبد العجل، و يقال إن ستمائه ألف شخص من هؤلاء أصبحوا من عبده العجل، و بقي منهم إثنا عشر ألف فقط على التوحيد. لكن يبدو أنّ التفسير الذي قلنا أعلاه هو الأصحّ.

و على كل حال، فإنّ كبير القوم إذا لام من تحت إمرته على ارتكابهم ذنبا ما، فإنّهم يسعون إلى نفي ذلك الذنب عنهم، و يلقونه على عاتق غيرهم، و كذلك عبّاد العجل من بنى إسرائيل، فإنّهم كانوا قد انحرفوا بإرادتهم و رغبتهم عن التوحيد إلى الشرك، إلّا أنّهم أرادوا أن يلقوا كلّ التبعه على السامرى.

على كلّ، فإنّ السامرى ألقى كلّ أدوات زينه الفراعنه و حليهم التى كانوا قد حصلوا عليها عن طريق الظلم و المعصيه - لم يكن لها قيمه إلّا- أن تصرف فى مثل هذا العمل المحرّم- فى النار فأخرج لهم عجلاً جسداً له خوارٌ (١) فلما رأى بنو إسرائيل هذا المشهد، نسوا فجأه كلّ تعليمات موسى التوحيدية فقالوا هذا إلهكم و إله موسى .

و يحتمل أيضا أن يكون قائل هذا الكلام هو السامرى و أنصاره و المؤمنون به.

و بهذا فإنّ السامرى قد نسى عهده و ميثاقه مع موسى، بل مع إله موسى، و جرّ الناس إلى طريق الضلال: «فَنسى».

و لكن بعض المفسّرين فسّروا «النسيان» بالضلال و الانحراف، أو أنّهم اعتبروا فاعل النسيان موسى عليه السلام و قالوا: إنّ هذا كلام السامرى، و هو يريد أن يقول: إنّ موسى نسى أنّ هذا العجل هو ربكم، إلّا أنّ كلّ ذلك مخالف لظاهر الآيه، و ظاهرها هو ما قلناه من أنّ المراد هو أنّ السامرى قد أودع عهده و ميثاقه مع موسى و ربّ موسى فى يد النسيان، و اتّخذ طريق عباده الأصنام.

و هنا قال الله سبحانه توبيخا و ملامه لعبده الأوثان هؤلاء: أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَ لَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا فَإِنَّ الْمَعْبُودَ الْوَاقِعَى يَسْتَطِيعُ عَلَى الْأَقْلَى أَنْ يَلْبِىَ طَلِبَاتِ عِبَادِهِ وَ يَجِيبَ عَلَى أَسْئَلَتِهِمْ، فهل يمكن أن يكون سماع حوار العجل من هذا الجسد الذهبى لوحده، ذلك الصوت الذى لا يشعر بأية

ص: ٥٥

(١- ١) - «الخوار» صوت البقره و العجل، و يطلق أحيانا على صوت البعير.

إرادته، دليلاً على جواز عبادة العجل، وصحة تلك العبادة؟ و على فرض أنه أجابهم عن أسئلتهم، فإنه لا يعدو أن يكون كإنسان عاجز لا يملك نفع غيره و لا ضرره، بل و حتى نفسه، فهل يمكن أن يكون معبوداً و هو على هذا الحال؟ أى عقل يسمح بأن يعبد الإنسان تمثالاً- لا- روح له يظهر منه بين الحين و الآخر صوت غير مفهوم، و يعظمه و يخضع أمامه؟ و لا- شك أن هارون، خليفه موسى و نبي الله الكبير، لم يرفع يده عن رسالته فى هذا الصخب و الغوغاء، و أدى واجبه فى محاربه الانحراف و الفساد قدر ما يستطيع، كما يقول القرآن: **وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ ثَمَّ أَضَاف: وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ .**

لقد كنتم عبداً فحررركم، و كنتم أسرى فأطلقكم، و كنتم ضالين فهداكم، و كنتم متفرقين مبعثرين فجمعكم و وحدكم تحت رايه رجل ربانى، و كنتم جاهلين فألقى عليكم نور العلم و هداكم إلى صراط التوحيد المستقيم، فالآن فاتبعونى و أطيعوا أمرى .

أنسيتم أن أخى موسى قد نصي بنى خليفه له و فرض عليكم طاعتي؟ فلما ذا تنقضون الميثاق؟ و لماذا ترمون بأنفسكم فى هاويه الفناء؟ إلا- أن بنى إسرائيل تمسكوا بهذا العجل عنادا، و لم يؤثر فيهم المنطق السليم القوى لهذا الرجل، و لا أدله هذا القائد الحريص، و أعلنوا مخالفتهم بصراحه:

قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ

(١)

و الخلاصه: إنهم ركبوا رؤوسهم و قالوا: الأمر هو هذا و لا شىء سواه، و يجب أن نعبد العجل حتى يرجع موسى و نطلب منه الحكم و القضاء، فلعله يسجد معنا

ص: ٥٦

١- ١) - (لن نبرح) من مادّه (برح) بمعنى الزوال، و إنّ ما نراه فى أنّ معنى جمله (برح الخفاء) أى الظهور و الوضوح لأنّ زوال الخفاء ليس إلاّ الظهور، و لَمَّا كانت (لن) تدلّ على النفي، فإنّ معنى جمله (لن نبرح) أننا سنستمر فى هذا العمل.

للعجل! و على هذا فلا تتعب نفسك كثيرا، و كفّ عَنَّا يدك! و بهذا لم يدعن بنو إسرائيل لأمر العقل و لا لأمر خليفه قائدهم و زعيمهم أيضا.

و لكن، كما كتب المفسّرون- و القاعده تقتضى ذلك أيضا- فإنّ هارون لمّا أدّى رسالته فى هذه المواجهه، و لم يقبل أكثر بنى إسرائيل كلامه، ابتعد عنهم بصحبه القلّه الذين اتّبعوه، لئلا يكون اختلاطهم بهؤلاء دليلا على إمضاء طريقهم المنحرف.

و العجيب أنّ بعض المفسرين ذكروا أنّ هذا التبدّل و الانحراف فى بنى إسرائيل قد حدث فى أيّام قليله فحسب، فبعد أن مضت (٣٥) يوما على ذهاب موسى عليه السّلام إلى ميقات ربّه، شرع السامرى بعمله، و طلب من بنى إسرائيل أن يجمعوا كلّ أدوات الزينه التى أخذوها كعماريه من الفراعنه و ما أخذوه منهم بعد غرقهم، و وضعوها جميعا فى اليوم السادس و الثلاثين و السابع و الثلاثين و الثامن و الثلاثين فى موقد النّار، و أذابوها ثمّ صنعوا منها تمثال العجل، و فى اليوم التاسع و الثلاثين دعاهم السامرى إلى عبادته، فقبلها جماعه عظيمه- و على بعض الرّوايات ستمائه ألف شخص- و فى اليوم التالى، أى فى نهايه الأربعين يوما، رجع موسى (١).

و لكن افترق عنهم هارون مع القلّه من المؤمنين الثابتين، و الذين كان عددهم قرابه اثنى عشر ألفا، فى حين أنّ الأغلبه الجاهله كادوا أن يقتلوه!

ص: ٥٧

١- شوق اللقاء!

قد يكون قول موسى عليه السّلام فى جواب سؤال الله تعالى له حول استعجاله إلى الميقات حيث قال: وَعَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى [١] عجيبا لدى من لم يعرف شأن جاذبيه عشق الله، إلا أن الذين أدركوا هذه الحقيقه بكلّ وجودهم، و الذين إذا اقترب موعد الوصال اشتدّ لهيب العشق فى أفئدتهم، يعلمون جيدا أيّه قوّه خفيّه كانت تجرّ موسى عليه السّلام إلى ميقات الله، و كان يسير سريعا بحيث تخلف عنه قومه الذين كانوا معه.

لقد كان موسى عليه السّلام قد تذوق حلاوه الوصال و الحبّ و المناجاه مع الله مرارا، فكان يعلم أنّ كلّ الدنيا لا تعدل لحظه من هذه المناجاه.

أجل... هذا هو طريق الذين تجاوزوا مرحله العشق المجازى نحو مرحله العشق الحقيقى... عشق المعبود الأزلى المقدّس و الكمال المطلق، و الحسن و اللطف الذى لا- نهايه له، و كلّ ما عند المحسنين الصالحين جميعا عنده بمفرده، بل إنّ جمال و حسن المحسنين كلّهم و مضه بسيطه من إحسانه الدائم الخالد. فى إلهنا الكبير من علينا بذره من هذا العشق المقدّس.

يقول الإمام الصادق عليه السّلام- كما روى عنه- «المشتاق لا- يشتهى طعاما، و لا يلتذّ شرابا، و لا يستطيب رقادا، و لا يأنس حميما، و لا يأوىّ دارا... و يعبد الله ليلا و نهارا، راجيا بأن يصل إلى ما يشتهى إليه... كما أخبر الله عن موسى بن عمران فى ميعاد ربّه بقوله: و عَجَلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى» (١).

ص: ٥٨

من الطبيعي أن توجد في مقابل كل ثورة حركه مضاده تسعى إلى تحطيم نتائج الثورة، و إلى إرجاع المجتمع إلى مرحله ما قبل الثورة، و ليس سبب ذلك معقدا و لا- غامضا، لأنّ انتصار ثورة ما لا- يعنى فناء كل العناصر الفاسده من الفتره السابقه دفعه واحده، بل تبقى حثالات منهم تبدأ نشاطها من أجل الحفاظ على وجودها و كيانها، و مع اختلاف ظروف و مقدار و كفيته هؤلاء، فإنهم يقومون بأعمال تناهض الثورة سرّا أم علانيه.

و فى حركه موسى بن عمران الثوريه نحو توحيد و استقلال و حريه بنى إسرائيل، كان السامرى زعيم هذه الحركه الرجعيه المضاده، فقد كان عالما- كبقية قاده الحركات الرجعيه- بنقاط ضعف قومه جيدا، و كان يعلم أنّه قادر على أن يستغلّ هذه النقاط فيثير الفتنة فيهم، فسعى أن يصنع من أدوات الزينه و الذهب التى هى آلهه عبيد الدنيا، و تجلب اهتمام عوام الناس، عجلا على هيئه خاصه، و جعله فى مسير حركه الريح- أو بالاستعانه بأية وسيله أخرى- ليخرج منه صوت. و ذلك بانتهاز فرصه مناسبه- و هى غيبه موسى لعدّه أيام- و نظرا إلى أنّ بنى إسرائيل بعد النجاه من الغرق، و مرورهم على قوم يعبدون الأصنام، طلبوا من موسى صنما، و الخلاصه أنّه استغلّ كل نقاط الضعف النفسى، و الفرض المكانيه و الزمانيه المناسبه، و بدأ خطته المضاده للتوحيد. و قد نظّم هذه المواد بمهاره فائقه بحيث حرّف فى مدّه قصيره أغلبيه الجهله من بنى إسرائيل عن خطّ التوحيد إلى طريق الشرك.

و بالرغم من أنّ هذه الخطه قد أحبطت بمجرّد رجوع موسى و قوّه إيمانه و منطقته بنور الوحي، و لكن إذا لم يرجع موسى فما ذا كان سيحدث؟ إنهم إمّا كانوا سيقتلون أخاه هارون حتما، أو سيحجمونه بحيث لا يصل صوته إلى أحد.

أجل... إنّ كلّ ثورة تحارب فى البدايه بهذه الصوره، فيجب الحذر دائما،

و مراقبه تحركات الشرك الرجعيه،و القضاء على المؤامرات و هي في و كرها و مهدها.

و كذلك يجب الالتفات إلى هذه الحقيقه،و هي أنّ كثيرا من الثورات الحقيقه تعتمد في البدايه-ولأسباب مختلفه-على فرد أو أفراد معينين،بحيث أنّهم إذا فقدوا و غابوا عن الساحة سيعود الخطر و يهدّد الثوره من جديد،و لذلك يجب السعي من أجل خلق الموازين الثقافيه الثوريه في عمق المجتمع بأسرع ما يمكن، و كذلك تربيه الناس بشكل لا- تهزّم العواصف المضاده للثوره،بل يقفون كالجبل الأصمّ أمام كلّ حركه رجعيه متخلفه.

و بتعبير آخر،فإنّ واحده من وظائف القاده المخلصين أن ينقلوا الموازين و المعايير منهم إلى المجتمع،و لا شك أنّ هذا الأمر المهمّ يحتاج إلى مضي زمان، إلاّ أنّه يجب السعي لاختصار هذا الزمن إلى أقلّ ما يمكن.

أمّا من كان السامري؟و كيف كانت عاقبه أمره؟فستحدّث عنه في الآيات المقبله إن شاء الله تعالى.

٣-مراحل القباذه

لا شك أنّ هارون عليه السّلام لم يأل جهدا في أداء رسالته عند غياب موسى عليه السّلام،إلاّ أنّ جهل الناس من جهه،و ترسّبات مرحله العبوديه و الرقّ و عباده الأصنام من جهه أخرى،قد أفشلت جهوده،فهو قد نفّد واجبه-حسب الآيات محل البحث-على أربع مراحل:

الأولى:إنّه تبه هؤلاء و أعلمهم أنّ هذا العمل يشكّل تيار انحرافي،و هو موضع اختبار خطير للجميع لتصحو العقول الغافله،و ليعي الناس و يفكروا لئلا يغلبوا على أمرهم،إذ قال لهم: يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ .

الثانيه:إنّه ذكرهم بنعم الله المختلفه عليهم منذ بدء ثوره موسى عليه السّلام إلى زمان

نجاتهم من قبضه الفراعنه، خاصه و إنه وصف الله بصفه رحمته العامه، ليكون الأثر أعمق، و ليؤمل هؤلاء في غفران هذا الذنب الكبير: وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ .

الثالثه: إنه نبههم على مقام نبوته و خلافته لأخيه موسى فَاتَّبَعُونِي .

و أخيراً فإنه عرفهم بواجباتهم الإلهيه وَ أَطِيعُوا أَمْرِي .

٤- سؤال و جواب؟

لقد أورد المفسر المعروف «الفخر الرازي» هنا إشكالا و هو ينتظر جوابه و الرد عليه و هو أنه قال: إن الرافضه تمسكوا

بقوله صلى الله عليه و آله و سلم لعلي «أنت مني بمنزله هارون من موسى» ثم إن هارون ما منعتة التقيته في مثل هذا الجمع، بل صعد المنبر و صرح بالحق و دعا الناس إلى مبايعه نفسه و المنع من متابعه غيره، فلو كانت أمه محمّد صلى الله عليه و آله و سلم على الخطأ لكان يجب على علي عليه السلام أن يفعل ما فعله هارون و أن يصعد على المنبر من غير تقيته و لا- خوف و أن يقول: فاتبعوني و أطيعوا أمرى. فلما لم يفعل ذلك علمنا أن الأمه كانت على الصواب.

إلا أن الرازي غفل في هذا الباب عن مسألتين أساسيتين:

١- إن ما يقوله من أن عليا عليه السلام لم يقل شيئا في شأن خلافته التي لا ينازع فيها خطأ محض، لأن في أيدينا وثائق كثيره تؤكد أن الإمام قد بين هذا الموضوع في موارد مختلفه، تاره بصراحه، و أخرى تلميحا، و تلاحظ في نهج البلاغه أمثله مختلفه كالخطبه الشقشقيه- الخطبه الثالثه- و الخطبه ١٤٧، ١٥٤، ٩٤، ٨٧، و كلها تتحدث في هذا المجال.

و قد ذكرنا في تفسيرنا هذا ذيل الآيه (٦٧) من سوره المائده بعد ذكر قصه الغدير، روايات عديده، و أن عليا عليه السلام قد استدلل و استند إلى حديث الغدير مرارا لإثبات موقعه و خلافته. و لمزيد التوضيح راجع ذيل الآيه (٦٧) من سوره المائده.

٢- لقد كانت هناك ظروف خاصه بعد وفاه النبي صلى الله عليه و آله و سلم، فإن المنافقين الذين

كانوا يعدّون الأيام يوماً بعد يوم و هم يترقّبون وفاه النّبي و كانوا قد أعدّوا أنفسهم ليطعنوا الإسلام الفتى طعنه نجلاء، و لذا نرى أنّ أصحاب الردّه-المناوئين للإسلام- قد ثاروا مباشرة في زمان أبي بكر، و لولا اتّحاد المسلمين و فطنتهم و حذرهم لكان من الممكن أن ينزلوا بالإسلام ضربات قاسيه، و من أجل ذلك سكت على عليه السّلام عن حقّه لئلاّ يستغلّ العدو هذا الأمر.

ثمّ إنّ هارون-مع أنّ موسى كان على قيد الحياه-قال بصراحه ردّا على ملامه أخيه له على تقصيره: إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ (١) و هو يوحى بأنّه أيضاً قد تراجع بعض الشىء نتيجة الخوف من الاختلاف.

ص: ٦٢

اشاره

قَالَ يَا هَٰرُونَ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بَنِيَّ أُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَ لَمْ تَزُقْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨)

التفسير

اشاره

نهاية السامري المريه:

تعقيبا على البحث الذي تناولته الآيات السابقة حول تقريع موسى و ملامته لبني إسرائيل الشديده على عبادتهم العجل، تعكس هذه الآيات التي نبحتها في

البدايه-محاورة موسى عليه السلام مع أخيه هارون عليه السلام، ثم مع السامري.

فخاطب أولاً أخاه هارون قال يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعن أ فلم أقل لك أن أخلفني في قومي و أ صلح و لا تتبع سبيل المفسدين (١)؟ فلما ذا لم تهب لمحاربه عباده العجل هذه؟ بناء على هذا، فإن المراد من جمله ألا تتبعن هو: لماذا لم تتبع طريقه عملي في شدة مواجهه عباده الأصنام؟ أما ما قاله بعض المفسرين من أن المراد هو: لماذا لم تثبت معي على التوحيد مع الذين ثبتوا، و لم تأت معي إلى جبل الطور، فيبدو بعيدا جدا، و لا يتناسب كثيرا و الجواب الذي سيديده هارون في الآيات التاليه.

ثم أضاف: أ فعصيت أمرى؟ لقد كان موسى عليه السلام يتحدث بهذا الكلام مع أخيه و هو في فوره و سوره من الغضب، و كان يصرخ في وجهه، و قد أخذ برأسه و لحيته يجزه إليه. فلما رأى هارون غضب أخيه الشديد قال له-من أجل تهدئته و ليقلل من فورته، و كذلك ليبين عذره و حجته في هذه الحادثه ضمنا... قال يا بن أم لا تأخذ بلحيتي و لا برأسي إني خشييت أن تقول فرقت بين بني إسرائيل و لم تزقب قولي .

كان هارون في الحقيقه يشير إلى كلام موسى عليه السلام الذي وجهه إليه عند توجهه إلى الميقات، و كان محتواه الدعوه إلى الإصلاح-الآيه (١٤٢) من سوره الأعراف فهو يريد أن يقول: إنني إذا كنت قد أقدمت على الاشتباك معهم كان ذلك خلاف أمرك، و كان من حقك أن تؤاخذني. و بهذا أثبت هارون براءته، و خاصه مع ملاحظه جمله الأخرى التي وردت الآيه (١٥٠) من سوره الأعراف: إن القوم استضعفوني و كادوا يقتلونني .

ص: ٦٤

و هنا ينقدح السؤال التالي و هو: لا شك أنّ كلاً من موسى و هارون نبي، فكيف يوجّه موسى عليه السلام هذا العتاب و اللهجه الشديده إلى أخيه، و كيف نفسّر دفاع هارون عن نفسه؟! و يمكن القول في الجواب: إنّ موسى عليه السلام كان متيقّناً من براه أخيه، إلاّ أنّه أراد أن يثبت أمرين بهذا العمل.

الأول: أراد أن يفهم بنى إسرائيل أنّهم قد ارتكبوا ذنبا عظيما جدّا، و أى ذنب؟! الذنب الذى ساق هارون الذى كان نبيا عظيما إلى المحكمه، و بتلك الشده من المعامله، أى إنّ المسأله لم تكن بتلك البساطه التى كان يتصوّرها بنو إسرائيل. فإنّ الانحراف عن التوحيد و الرجوع إلى الشرك، و ذلك بعد كلّ هذه التعليمات، و بعد رؤيه كلّ تلك المعجزات و آثار عظمه الحقّ، أمر لا يمكن تصديقه، و يجب الوقوف أمامه بكلّ حزم و شدّه.

قد يشقّ الإنسان جيبه، و يلطم على رأسه عند ما تقع حادثه عظيمه أحيانا، فكيف إذا وصل الأمر إلى عتاب أخيه و ملامته، و لا شك أنّ هذا الأسلوب مؤثّر فى حفظ الهدف و ترك الأثر النفسى فى الأناص المنحرفين، و بيان عظمه الذنب الذى ارتكبه. كما لا شكّ فى أنّ هارون-أيضا- كان راضيا كلّ الرضى عن هذا العمل.

الثانى: هو أن تثبت للجميع براه هارون من خلال التوضيحات التى يبيدها، حتّى لا يتّهموه فيما بعد بالتهاون فى أداء رسالته.

و بعد الانتهاء من محادثه أخيه هارون و تبرئه ساحته، بدأ بمحاكمه السامرى:

لماذا فعلت ما فعلت، و ما هدفك من ذلك؟ قال فما خطبك يا سامرى؟ فأجابه و قال بصيرت بما لم يبيصروا به فقبضت قبضه من أثر الرسول فبذتها و كذلك سؤلت لى نفسى .

ترى ما كان مقصود السامرى من كلامه هذا؟! للمفسرين قولان مشهوران...

الأول: إنّ مراده هو: إننى رأيت جبرئيل على فرس، عند مجىء جيش

فرعون إلى ساحل البحر، يرغب ذلك الجيش في المسير في تلك الطرق اليابسه في البحر، و كان يسير أمامهم، فقبضت شيئا من تراب قدمه، أو «مركبه» وأذخرته لهذا اليوم، فألقيته داخل العجل الذهبي، و ما هذا الصوت إلا من أثر ذلك التراب الذي أخذته.

الثانى: إننى آمنت -بدايه الأمر- بقسم من آثار الرسول (موسى)، ثم شككت فيها فألقيتها بعيدا و ملت إلى عباده الأصنام، و كان هذا عندى أجمل و أحلى.

فعلى التفسير الأول فإن كلمه «الرسول» تعنى جبرئيل، و على التفسير الثانى تعنى «موسى» عليه السّلام. «و الأثر» فى التفسير الأول بمعنى تراب القدم، و فى الثانى يعنى بعض تعليمات موسى عليه السّلام. و «نبذتها» على التفسير الأول بمعنى إلقاء التراب داخل العجل، و على الثانى ترك تعليمات موسى عليه السّلام. و أخيرا فإن بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا تشير -طبق التفسير الأول إلى جبرئيل الذى كان قد تجلّى فى هيئته فارس- و ربّما رآه بعض آخر لكنّهم لم يعرفوه -إلا أنها تشير- وفقا للتفسير الثانى إلى ما كان لديه من معلومات خاصّه عن دين موسى عليه السّلام.

و على كلّ حال، فإنّ لكلّ واحد من هذين التفسيرين أنصارا، و له نقاط واضحه أو مبهمه، لكن -كمحصّله نهائيه- يبدو أنّ التفسير الثانى هو الأفضل و الأنسب من عدّه جهات، خاصّه و أنّا نقرأ

فى حديث ورد فى كتاب (الإحتجاج) إنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّلام لمّا فتح البصره أحاط الناس به -و كان من بينهم «الحسن البصرى» و قد جلبوا معهم ألواحا يكتبون فيها ما يقوله أمير المؤمنين على عليه السّلام، فقال له أمير المؤمنين بأعلى صوته: «ما تصنع؟» قال: أكتب آثاركم لنحدّث بها بعدكم، فقال أمير المؤمنين: «أما إنّ لكلّ قوم سامريا، و هذا سامرى

هذه الآئه! إلاً أنه لا يقول: لا مساس، و لكنّه يقول: لا قتال» (١).

و يستفاد من هذا الحديث أنّ السامرى كان رجلاً- منافقاً، فإنّ توسّيل لإغواء الناس و إضلالهم ببعض المطالب و المقولات الصحيحة التى تعلّمها سابقاً، و هذا المعنى ينسجم و التفسير الثانى أكثر.

من الواضح أنّ جواب السامرى عن سؤال موسى عليه السّلام لم يكن مقبولاً بأى وجه، و لذلك فإنّ موسى عليه السّلام أصدر قرار الحكم فى هذه المحكمه، و حكم بثلاثه أحكام عليه و على عجله، فأولاً: قالَ فَادْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ أى يجب عليك الابتعاد عن الناس و عدم الاتّصال بهم إلى آخر العمر، فكلّما أراد شخص الاقتراب منك، فعليك أن تقول له: لا تتّصل بى و لا تقربنى.

و بهذا الحكم الحازم طرد السامرى من المجتمع و جعله فى عزله تامه. منزويًا بعيداً عنهم! قال بعض المفسّرين: إنّ جملة لا مِسَاسَ إشاره إلى أحد القوانين الجزائيه فى شريعته موسى عليه السّلام التى كانت تصدر فى حقّ من يرتكب جريمه كبيره، و كان ذلك الفرد يبدو كموجود شرّير نجس قدر، فلا يقربه أحد و لا يقرب أحداً (٢).

فاضطرّ السامرى بعد هذه الحادثه أن يخرج من جماعه بنى إسرائيل و يترك دياره و أهله، و يتوارى فى الصحراء، و هذا هو جزاء الإنسان الذى يطلب الجاه و يريد إغواء جماعه عظيمه من المجتمع ببدعه و أفكاره الضّاله، و يجمعهم حوله، و يجب أن يحرم مثل هذا و يعزل، و لا يتّصل به أى شخص، فإنّ هذا الطرد و هذه العزله أشدّ من الموت و الإعدام على مثل السامرى و أضرابه. لأنّه يعامل معاملة النجس الملوّث فيطرد من كلّ مكان.

و قال بعض المفسّرين: إنّ موسى دعا على السامرى و لعنه بعد ثبوت جرمه

ص: ٦٧

١- ١) -نور الثقلين الجزء ٣ ص ٣٩٢.

٢- ٢) -تفسير فى ظلال القرآن. المجلد الخامس ص ٤٩٤.

و خطئه، فابتلاه الله بمرض غامض خفى جعله ما دام حيًا لا يمكن لأحد أن يمسه، وإذا مسه فسيبتلى بالمرض. أو أن السامري قد ابتلى بمرض نفسي و وسواس شديد، والخوف من كل إنسان، إذ كان بمجرد أن يقترب منه أى إنسان يصرخ (لا تمسنى) (١).

و العقاب الثانى: إن موسى عليه السلام قد أسمع و أعلمه بجزائه فى القيامة فقال:

وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ

(٢)

و الثالث: وَ انْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنْهَرِفَنَّهُ ثُمَّ لَنْنَسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا .

و هنا يأتى سؤالان:

الأول: إن جملة لَنْهَرِفَنَّهُ تدل على أن العجل كان جسمًا قابلاً للاشتعال، و هذا يؤيد عقيدته من يقولون: إن العجل لم يكن ذهبيًا، بل تبدل إلى موجود حتى بسبب تراب قدم جبرئيل.

و نقول فى الجواب: إن ظاهر جملة جَسَدًا لَهُ خُورًا هو أن العجل كان جسدًا لا-روح فيه، كان يخرج منه صوت يشبه خوار العجل، بالطريقه التى قلناها سابقا. أما مسأله الإحراق فمن الممكن أن تكون لأحد سبيين:

أحدهما: إن هذا التمثال لم يكن ذهبيًا خالصًا، بل يحتمل أن يكون من الخشب، ثم إلى بالذهب.

و الآخر: إنه على فرض أنه كان من الذهب فقط، فإن إحراقه كان للتحقير و الإهانة و تعريه شكله الظاهرى و إسقاطه، كما تكرر هذا الأمر فى تماثيل الملوك

ص: ٤٨

(١-١) - تفسير القرطبي، الجزء ٦، ص ٤٢٨١.

(٢-٢) - (لن تخلفه) فعل مبنى للمجهول نائب فاعله السامري، و ضميره مفعول ثان، و فاعل الفعل فى الأصل هو الله، و معنى الجملة فى الجملة: إن لك موعدًا لا يخلفه الله لك.

المستكبرين الجبابرة فى عصرنا! بناء على هذا فإنهم بعد حرقه كسروه قطعاً صغيره بآلات معينه، ثم ألقوا ذرّاته فى البحر.

و السؤال الآخر هو: هل يجوز إلقاء كل هذا الذهب فى البحر، ألا يعدّ إسرافاً؟ و الجواب: قد يكون مثل هذا التعامل مع الأصنام واجبا فى بعض الأحيان، إذا أريد منه تحقيق هدف أهمّ و أسمى، كتحتطيم و سحق فكره عباده الأصنام، لئلا يبقى بين الناس مادّه الفساد، و تكون باعثاً للوسوسه فى صدور بعض الناس.

و بعبارة أوضح: فإنّ موسى عليه السّلام لو أبقى الذهب الذى استعمل فى صناعه العجل، أو قسّمه بين الناس بالسويّه، فربّما نظر إليه الجاهلون يوماً ما نظره تقديس، و تحيا فيهم من جديد فكره عباده العجل، فيجب أن تتلف هذه المادّه الغاليه الثمن فداء لحفظ عقيدته الناس، و ليس هناك أسلوب آخر لذلك و بهذا فإنّ موسى بطريقته الحازمه و تعامله الجازم الذى اتّخذه مع السامرى و عجله استطاع أن يقطع مادّه عباده العجل، و أن يمحو آثارها من العقول، و سنرى فيما بعد كيف أثر هذا التعامل القاطع مع عباده العجل فى عقول بنى إسرائيل (١).

و شخص موسى فى آخر جمله، و مع التأكيد الشديد على مسأله التوحيد، حاكميه نهج الله، فقال: **إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا** فليس هو كالأوثان المصنوعه التى لا تسمع كلاما، و لا تجيب سائلا، و لا تحلّ مشكله، و لا تدفع ضرّاً.

ص: ٦٩

١-١) -نقرأ نظير هذا التعامل القاطع من أجل قلع جذور الأفكار المنحرفه فى شأن مسجد ضرار فى القرآن كإشاره سريعه، و فى التاريخ و الحديث بصوره مفصّله، بأنّ النّبى صلى الله عليه و آله و سلم قد أمر أولاً بحرق مسجد ضرار، و أن يهدموا الباقي منه، و يجعلوا مكانه محللاً لأوساخ و قاذورات و فضلات الناس (و لمزيد التوضيح راجع التفسير الأمثل فى ذيل الآيات ١٠٧-١١٠ من سورة التوبه).

فى الواقع، إن جملة وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا جاءت فى مقابل وصف العجل و جهله و عجزه الذى ذكر قبل عدّه آيات.

بحثان

اشاره

١- يجب الثبات أمام الحوادث الصعبة

إن طريقه موسى عليه السلام فى مقابله انحراف بنى إسرائيل فى عبادتهم العجل، يمكن أن تكون مثلا يقتدى به فى كل زمان و مكان فى مجال مكافحه الانحرافات الصعبة المعقده.

فلو أن موسى عليه السلام كان يريد أن يقف أمام مئات الآلاف من عبده العجل و يواجههم بالموعظه و النصيحه و قدر من الاستدلال فقط لما حالفه الفوز و النجاح، فقد كان عليه أن يقف بحزم هنا أمام ثلاثه أمور: أمام أخيه، و السامرى، و عبده العجل، فبدأ أولاً بأخيه فأخذ بمحاسنه و جزه إليه و صرخ فى وجهه، فهو فى الحقيقه قد شكّل محكمه له- و إن كانت قد ثبتت برائته فى النهايه- حتى يحسب الآخرون حسابهم.

ثم توجه إلى المسبب الأصلي لهذه المؤامره- أى السامرى- فحكمه بحكم كان أشد من القتل، و هو الطرد من المجتمع و عزله و تبديله إلى موجود نجس ملوث يجب أن يتعد عنه الجميع، ثم تهديده بعقاب الله الأليم.

ثم جاء إلى عبده العجل من بنى إسرائيل، و وضح لهم بأن ذنبكم كبير لا توبه منه إلا أن تشهر السيوف و يقتل بعضكم بعضا ليتطهر هذا المجتمع من الدماء الفاسده، و بهذه الطريقه يعدم جماعه من المذنبين بأيديهم، ليتوارى هذا الفكر الخطر المنحرف عن عقول هؤلاء، و قد بينا شرح هذه الحادثه فى ذيل الآيات ٥١-٥٤ من سوره البقره تحت عنوان: «توبه لم يسبق لها مثيل».

و هكذا فإنه توجه أولاً إلى قائد المجتمع ليرى هل كان في عمله قصور أولاً؟ و بعد ثبوت براءته توجه إلى سبب الفساد، ثم إلى أنصار الفساد و مبتغيه!

٢- من هو السامري؟

إن أصل لفظ (سامري) في اللغة العبرية (شمري) و لما كان المعتاد أن يبدل حرف الشين إلى السين عند تعريب الألفاظ العبرية كما في تبديل «موشى» إلى «موسى»، و «يشوع» إلى «يسوع»، نفهم من ذلك أن السامري كان منسوباً إلى «شمرون»، و شمرون هو ابن يشاكر النسل السابع ليعقوب.

و من هنا يتضح أن اعتراض بعض المسيحيين على القرآن المجيد- بأن القرآن قد عرّف شخصاً كان يعيش في زمان موسى و أصبح زعيماً و مروّجاً لعباده العجل باسم السامري المنسوب إلى «السامره»، في حين أن السامره لم يكن لها وجود أصلاً في ذلك الزمان- لا أساس له، لأنه كما قلنا منسوب إلى شمرون لا السامره (١).

على كل حال، فإن السامري كان رجلاً أنانياً منحرفاً و ذكياً في الوقت نفسه، حيث استطاع أن يستغل نقاط ضعف بني إسرائيل و أن يوجد- بجرأه و مهاره خاصه- تلك الفتنة العظيمة التي سببت ميل الأغلبية الساحقه إلى عباده الأصنام، و كذلك رأينا أيضاً أنه لاقى جزاء هذه الأنانيه و الفتنة في هذه الدنيا.

ص: ٧١

اشاره

كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ آبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا (٩٩) مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَمِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا (١٠٠)
خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا (١٠١) يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا (١٠٢) يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ
إِلَّا عَشْرًا (١٠٣) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا يَوْمًا (١٠٤)

التفسير

اشاره

أسوأ ما يحملون على عاتقهم!

مع أن الآيات السابقة كانت تتحدّث حول تاريخ موسى و بنى إسرائيل و الفراعنه و السامرى الملىء بالحوادث، و قد بينت فى آياتها بحوثا مختلفه، فإنّ القرآن الكريم بعد الانتهاء منها يستخلص نتیجه عامه فيقول: كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ آبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ ثُمَّ يضيف وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا قرآنا مليئا بالدروس و العبر، و الأدلّه العقليه، و أخبار الماضين و ما يتبّه المقبلين و يحذّرهم.

إنّ قسماً مهمّاً من القرآن المجيد يبيّن تاريخ و قصص الماضين، و ذكر كلّ هذه الوقائع التاريخيّة التي جرت على السابقين في القرآن الذي هو كتاب يهتمّ بتربيته الإنسان ليس أمراً اعتباطيّاً عبثيّاً، بل الغايه منه الاستفادة من الأبعاد المختلفه في تأريخ هؤلاء، عوامل الانتصار و الهزيمة، و الساعده و الشقاء، و الاستفادة من التجارب الكثيره المخفيه في طيات تاريخ أولئك السابقين.

و بصوره عامّه، فإنّ من أكثر العلوم اطمئنانا و واقعته هي العلوم التجريبيه التي تخضع للتجارب في المختبر، و تظهر نتائجها الدقيقه. و التأريخ مختبر كبير لحياه البشر، و في هذا المختبر سرّ شموخ الأمم و سقوطها، نجاحها و فشلها، سعادتها و تعاستها، فكّلها وضعت تحت التجربه و ظهرت نتائجها أمام أعيننا، و نحن نستطيع بالاستفاده من تلك التجارب أن نتعلّم قسماً من معارفنا الأكثر اطمئنانا في مجال أمور حياتنا.

و بتعبير آخر، فإنّ حاصل حياه الإنسان -من جهه- هو التجربه، و لا شيء غيرها، و التأريخ -إذا كان خالياً من كلّ أشكال التحريف- هو حاصل حياه آلاف السنين من عمر البشر جمعت في مكان واحد في متناول الباحثين و الدارسين.

و لهذا السبب يؤكّد أمير المؤمنين على عليه السّلام في مواظبه الحكيمه لولده الإمام الحسن عليه السّلام على هذه النقطه بالذات،

فيقول:

«أى بنى، إنّي و إن لم أكن عمّرت عمر من كان قبلي، فقد نظرت في أعمالهم، و فكّرت في أخبارهم، و سرت في آثارهم حتّى عدت كأحدهم، بل كأنتي بما أنتهي إليه من أمورهم قد عمّرت مع أولهم إلى آخرهم، ففرفت صفو ذلك من كدره، و نفعه من ضرره، فاستخلصت لك من كلّ أمر نخيله» (١).

بناء على هذا، فإنّ التأريخ مرآه يعكس الماضي، و حلقة تربط الحاضر

ص: ٧٣

بالماضى، و يوسع و يطيل من عمر الإنسان بمقداره.

التاريخ معلّم يحكى لنا عن سرّ و رمز عزّه الأمم و سقوطها، فيحذر الظالمين، و يجسّد المصير المشؤوم للظالمين السابقين الذين كانوا أشدّ منهم قوه، و يبشّر رجال الحقّ و يدعوهم للاستقامه و الثبات، و يحمسهم و يحفّزهم على المضى فى مسيرهم.

التاريخ هو المشعل الذى يضىء مسير حياه البشر، و يفتح الطرق و يعبدها لحركه الجيل الحاضر.

التاريخ مربّى الجيل الحاضر، و هم سيصنعون تاريخ الغدّ.

و الخلاصه، فإنّ التاريخ أحد أسباب الهدايه الإلهيه.

و لكن ينبغى الانتباه جيدا، فبمقدار ما يكون التاريخ الصحيح بناء ملهما مربيا نجد أنّ التواريخ المزيفه مدعاه للضلال و الانحراف، و من هذا المنطلق فإنّ مرضى القلوب سعوا دائما إلى تضليل البشر و صدّهم عن سبيل الله، بتحريف التاريخ، و ينبغى أن لا ننسى أنّ التحريف فى التاريخ كثير (1).

و يلزم بيان هذه الملاحظه أيضا، و هى أنّ كلمه (ذكر) هنا، و فى آيات كثيره أخرى من آيات القرآن الكريم تشير إلى القرآن نفسه، لأنّ آياته سبب لتذكّر و تذكير البشر، و الوعى و الحذر.

و لهذا السبب فإنّ الآيه التاليه تتحدّث عن الذين ينسون حقائق القرآن و دروس التاريخ و عبره، فتقول: مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا .

نعم... إنّ الإعراض عن الله سبحانه يجرّ الإنسان إلى مثل هذه المتاهات التى تحمله أعباء ثقيله من أنواع الذنوب و الانحرافات الفكرية و العقائديه و كلمه (وزر) عاده تعنى بحدّ ذاتها الحمل الثقيل، و ذكرها نكره يؤكّد تأكيدا أكبر على

ص: ٧٤

١-١) -لقد بحثنا فى مجال التاريخ و أهميته فى بدايه سوره يوسف و نهايتها و كذلك فى ذيل الآيه (١٢٠) من سوره هود.

ثم تضيف: خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا و الملفت للنظر هنا أَنَّ ضَمِير (فيه) في هذه الآية يعود إلى (الوزر) أى أَنَّ هَوْلَاء سَيَقُونَ دَائِمًا فِي وَزْرِهِمْ وَ مَسْئُولِيَتِهِمْ وَ حَمْلِهِمُ الثَّقِيلِ (و لا دليل لدينا كى نقدر شيئا هنا و نقول: إِنَّ هَوْلَاء سَيَخْلُدُونَ فِي الْعَذَابِ أَوْ فِي الْجَحِيمِ) و هذا بنفسه إشاره إلى مسأله تجسّم الأعمال، و إِنَّ الْإِنْسَانَ يَرَى الْجِزَاءَ الْحَسَنَ أَوْ الْعِقَابَ فِي الْقِيَامَةِ طَبَقًا لِتِلْكَ الْأَعْمَالِ الَّتِي قَامَ بِهَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا.

ثم تتطرق الآيات إلى وصف يوم القيامة و بدايته، فتقول: يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَ نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا وَ كما أشرنا سابقا، فإنه يستفاد من آيات القرآن أَنَّ نِهَائِهِ هَذَا الْعَالَمِ وَ بَدَايَةِ الْعَالَمِ الْآخِرِ سَتَتَمَّانَ بِحَرَكَتَيْنِ عَنِيفَتَيْنِ فَجَائِئَتَيْنِ، وَ عَبَّرَ عَنْ كُلِّ مِنْهُمَا بـ (نَفْخَةِ الصُّورِ)، وَ سَنَبَّيْنَا ذَلِكَ فِي سُورَةِ الزُّمَرِ ذِيْلَ الْآيَةِ ٦٨ إِنْ شَاءَ اللَّهُ تَعَالَى.

لفظه «زرق» جمع «أزرق» تأتي عاده بمعنى زرقه العين، إلا أنها تطلق أحيانا على القاتم جسده بسبب الشده و الألم، فإنّ البدن عند تحمّل الألم و التعب و العذاب يضعف، و يفقد طراوته، فيبدو قاتما و كأنه أزرق.

و فسّر بعضهم هذه الكلمه بمعنى «العمى»، لأنّ الأشخاص زرق العيون يعانون و يتلون عاده بضعف شديد فى البصر، و ذلك يقترن عاده بكون كلّ شعر بدنهم أيضا. إلا أنّما ذكرناه آنفا من تفسير ربّما كان هو الأنسب.

فى هذه الحال يتحدّث المجرمون فيما بينهم بإخفات حول مقدار مكوّثهم و بقائهم فى عالم البرزخ، فبعضهم يقول: لم تلبثوا إلا عشر ليال، أو عشره أيام بلياليها: يَتَخَفَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا عَشْرًا (١).

لا- شكّ أنّ مدّه توقّف هؤلاء كانت طويله، إلاّ أنّها تبدو قصيره جدّاً في مقابل عمر القيامة. وإنّ تخافتهم هذا بالكلام إمّا هو للرعب و الخوف الشديد الذى ينتابهم عند مشاهدته أهوال القيامة، أو أنه نتيجة شدّه ضعفهم و عجزهم.

و احتمال بعض المفسّرين أن تكون هذه الجملة إشارة إلى مكثهم فى الدنيا، و الذى يعدّ أيّاماً قلائل بالنسبة للآخره و حوادثها المخفيه.

ثمّ يضيف: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ سواء تكلموا بهمس أم بصراخ، و بصوت خفى أم عال إذ يقول أمثلهم طريقه إن لبثتم إلا يوماً .

و من المسلّم به أنّه: لا العشر مدّه طويله، و لا اليوم كذلك، إلاّ أنّ هناك تفاوتاً بينهما، و هو أنّ اليوم الواحد إشارة إلى أقلّ أعداد الآحاد، و العشره إشارة إلى أقلّ أعداد العشرات، و لذلك فإنّ الأوّل يشير إلى مدّه أقل، و لذلك عبّر القرآن عمّن قال به ب أمثلهم طريقه لأنّ قصر عمر الدنيا أو البرزخ فى مقابل عمر الآخره، و كذلك كون كفيتهما و حالهما لا شىء أمام كفيته و حال الآخره، و يكون أنسب مع أقلّ الأعداد. (فلاحظوا بدقه).

(١)

جاءت هنا بصيغه المذكر، فإنّ المضاف إليه هو (ليال) و الذى يجب أن يكون مؤنثاً حتماً، إمّا لو كان المضاف إليه (أيام) فكان يجب أن يقال: عشره. إلاّ أنّ بعض أدباء العرب نقل بأنّ العدد إذا ذكر مطلقاً و حذف تمييزه فلا تجرى القاعده السابقه، و بناء على هذا فإنّ (عشرا) هنا إشارة إلى عشره أيام.

ص: ٧٤

اشاره

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١٠٥) فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (١٠٦) لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا (١٠٧) يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا (١٠٨) يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا (١٠٩) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠) وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا (١١١) وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١١٢)

التفسير

اشاره

مشهد القيامة المهول:

تتابع هذه الآيات الكلام في الآيات السابقة عن الحوادث المرتبطة بانتهاء الدنيا و بدايه القيامة.

و يظهر من الآيه الأولى أنّ الناس كانوا قد سألوا النبي صلى الله عليه و آله و سلم عن مصير الجبال

عند انتهاء الدنيا، وربما كان ذلك لأنهم لم يكونوا يصدّقون إمكانيه تصدّع و زوال هذه الجبال العظيمة التي امتدّت جذورها في أعماق الأرض و شمخت رؤوسها إلى السّماء، وإذا كان بالإمكان قلعها من مكانها فأى هواء أو طوفان له مثل هذه القدره، و لذلك يقول: وَ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ وَالْجَوَابِ: فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا (١).

يستفاد من مجموع آيات القرآن حول مصير الجبال أنّها تمرّ عند حلول القيامة بمراحل مختلفه:

في ترجف و تهتزّ أولاً: يَوْمَ تَرْجُفُ الْأَرْضُ وَالْجِبَالُ (٢).

ثمّ تتحرّك: وَ تَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا (٣).

و في المرحلة الثالثه تلاشى و تتحوّل إلى كُثبان من الرمل: وَ كَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيبًا مَهِيلاً (٤).

و في المرحلة الأخيره سيزحزحها الهواء و الطوفان من مكانها و يبعثرها في الهواء و تبدو كالصوف المنفوش: وَ تَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ (٥) ثمّ تقول الآية: إِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ بعد تلاشى الجبال و تطاير ذرّاتها يأتي أمره إلى الأرض فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا (٦) لا ترى فيها عوجاً و لا أمتاً (٧) و في ذلك الحين

ص: ٧٨

١ - ١) - «نسف» في اللغة تعنى وضع الحبوب الغدائيه في الغربال و غربلتها، أو ذرها في الهواء لينفصل الحبّ عن القشر، و هنا إشاره إلى تلاشى الجبال و تهشمها، ثمّ تناثرها في الهواء.

٢ - ٢) - سورة المزل، ١٤.

٣ - ٣) - سورة الطور، ١٠.

٤ - ٤) - سورة المزل، ١٤.

٥ - ٥) - سورة القارعه، ٥.

٦ - ٦) - «القاع»: الأرض المستويه، و فسّره البعض بأنّه المكان الذي يجتمع فيه الماء. و أمّا «الصفصف» فقد فسّرت أحيانا بأنّها الأرض الخاليه من كلّ أنواع النباتات، و أحيانا بمعنى الأرض المستويه. و يستفاد من مجموع هذين الوصفين أنّ كلّ الجبال و النباتات ستمحى من على وجه الأرض في ذلك اليوم و ستبقى الأرض مستويه خاليه.

٧ - ٧) - «العوج» بمعنى الاعوجاج، و «الامت» أى الأرض المرتفعه و الريه، و بناء على هذا فإنّ معنى الآية هو أنّه لا يرى في ذلك اليوم أى ارتفاع و انخفاض على وجه الأرض.

يدعو الداعي الإلهي جميع البشر إلى الحياه و الاجتماع فى المحشر للحساب فيلبي الجميع دعوته و يتبعونه يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ
لَا عِوَجَ لَهُ .

هل إن هذا الداعي (إسرافيل) أم ملك آخر من ملائكة الله المقربين؟ القرآن لم يشخص و يحدّد ذلك بدقه، و كائنا من كان فإنّ
أمره نافذ لا يقدر أى أحد على التخلف عنه.

و جملة «لا عوج» أى يمكن أن تكون وصفا لدعوه هذا الداعي، أو وصفا لاتباع المدعويين، أو لكليهما. و ممّا يلفت النظر أنّه كما أنّ
سطح الأرض يصبح صافيا و مستويا بحيث لا يبقى فيه أى اعوجاج، فإنّ أمر الله و الداعي أيضا كلّ منهما صاف و مستقيم
جلي، و أتباعه واضح لا سبيل لأى انحراف و اعوجاج إليه.

عند ذلك: «وَ خَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا» (١). إنّ هدوء الأصوات أو خشوعها هذا إمّا هو لهيمنة العظمه
الإلهيه على عرصه المحشر حيث يخضع لها الجميع، أو خوفا من الحساب و نتيجته الأعمال، أو لكليهما.

و بما أنّ بعض الغارقين فى الذنوب و المعاصي قد يحتمل أن تنالهم شفاعه الشافعين و تنجيهم، فإنّه يضيف مباشرة: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ
الشَّفَاعَةُ إِلَّا- مَنْ أَدْنَىٰ لَهُ الرَّحْمَنُ وَ رَضِيَٰ لَهُ قَوْلًا- و هذا إشاره إلى أنّ الشفاعه هناك ليست اعتباريه و عشوائيه، بل إنّ هناك
تخطيطا دقيقا لها، سواء ما يتعلّق بالشافعين أو المشفوع لهم، و ما دام الأفراد لا يملكون الأهليه و الاستحقاق للشفاعه، فلا معنى
حينئذ لها.

و الحقيقه هى أنّ جماعه ينظرون إلى الشفاعه بمنظار خاطئ، فهم يتصورون أنّها لا تختلف عن أساليب الدنيا و مراوغاتها، فى
حين أنّ الشفاعه فى منطق الإسلام مرحله تربويه متقدّمه، و عامل مساعد لهؤلاء الذين يطوون طريق الحقّ

ص: ٧٩

١- ١) - «الهمس»- كما يقول الراغب فى مفرداته- يعنى الصوت الخفى و المنخفض. و فسّره بعضهم بأنّه الصوت الخفى للقدم
الحافيه، و البعض بحركه الشفاء من دون أن يسمع معها صوت، و لا يوجد تفاوت كبير بين هذه المعانى.

بجدّ و سعى إلاّ أنّهم يبتلون أحيانا بالنقائص و الزلّات، و لعلّ من الممكن أن يعلو غبار اليأس و القنوط قلوبهم نتيجة هذه الزلّات و الهفوات، هنا تأتي إليهم الشفاعة كقوّه محرّكه و تقول: لا- تياسوا، و استمروا فى طريقكم، و لا- تكفوا أيديكم عن السعى و الاجتهاد فى هذا المسير، و إذا ما بدر منكم زلل و هفوات فإنّ هناك شفعاء سيشفعون لكم عند الله الرحمن الذى وسعت رحمته كلّ شىء فيأذن لهم بالشفاعة.

أنّ الشفاعة ليست دعوه للتقاعس، أو الفرار من تحمّل المسؤوليّه، أو أنّها ضوء أخضر لارتكاب المعاصى، بل هى دعوه إلى الاستقامه فى طريق الحقّ، و اجتناب الذنوب قدر الإمكان.

و مع أنّنا قد أوردنا بحث الشفاعة بصوره مفصّله فى ذيل الآيه (٤٧-٤٨) من سوره البقره، و فى ذيل الآيه (٢٥٥) من سوره البقره، لكن لا بأس من أن نضيف هنا قصّه جميله:

فقد روى العالم الزباني المرحوم «ياسرى»-أحد علماء طهران المحترمين- أنّ شاعرا يسمّى «حاجبا» كان قد ابتلى بأفكار العوام فى مسأله الشفاعة، فنظّم شعرا قال فيه:

يا حاجب إن كانت معاملتك مع على فى المحشر، فأنا ضامن لك النجاه و اعمل ما شئت من الذنوب.

فرأى أمير المؤمنين عليا عليه السّلام فى المنام، و كان مغضبا، و قال له: لم تحسن قول الشعر، فقال: فما ذا أقول؟ فقال: أصلح شعرك و قل: يا حاجب: إن كانت معاملتك مع على فى المحشر فاستح منه و قلل من ذنوبك و معاصيك.

و لَمّا كان حضور الناس فى عرصات القيامة للحساب و الجزاء لا- بدّ معه من علم الله سبحانه بأعمالهم و سلوكهم و معاملاتهم، فإنّ الآيه التاليه تضيف: يَعْلَمُ مَا

فهو يعلم ما قَدَّم المجرمون و ما فعلوه فى الدنيا، و هو مَطَّلَع على كَلِّ أفعالهم و أقوالهم و نياتهم فى الماضى و ما سيلاقونه من الجزء فى المستقبل، إلاَّ أَنَّهُمْ لا يحيطون بعلم الله. و بهذا فَإِنَّ إحصاه علم الله سبحانه تشمل العلم بأعمال هؤلاء و بجزائهم، و هذان الركنان فى الحقيقة هما دعامة القضاء التام العادل، و هو أن يكون القاضى عالما و مَطَّلَعاً تماماً على الحوادث التى وقعت، و كذلك يعلم بحكمها و جزائها.

فى ذلك اليوم: وَ عَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ .

«العنت» من ماده العنوه، و قد وردت بمعنى الخضوع و الذلَّة، و لذلك يقال للأسير: «عانى»، لأنَّه خاضع و ذليل فى يد الأسر. و إذا رأينا الخضوع قد نسب إلى الوجوه هنا، فلأنَّ كَلِّ الإحساسات النفسية، و من جملةتها الخضوع، تظهر آثارها أولاً على وجه الإنسان. و احتمال بعض المفسِّرين أنَّ الوجوه هنا تعنى الرؤساء و الزعماء و أولياء الأمور الذين يقفون فى ذلك اليوم أدلاء خاضعين لله. إلاَّ أنَّ التفسير الأوَّل أقرب و أنسب.

إنَّ انتخاب صفتي «الحى و القيوم» هنا من بين صفات الله سبحانه، لأنَّهما يناسبان النشور أو الحياه و قيام الناس جميعاً من قبورهم «يوم القيامة».

و تختتم الآيه بالقول: وَ قَدْ حَاقَ بِمَنْ حَمَلَ ظُلْمًا فَالظلم و الجور كالحمل العظيم الذى يثقل كاهل الإنسان، و يمنعه من السير و الرقى إلى نعم الله الخالده، و إنَّ الظالمين -سواء منهم من ظلم نفسه أو ظلم الآخرين- لما يرون بأعينهم فى ذلك اليوم خفيفى الأحمال يهرعون إلى الجنَّة، و هم قد جثوا حول جهنم ينظرون

١-١) -احتمل بعض المفسِّرين أنَّ ضمائر الجمع فى الجملة الأولى تعود إلى الشافعين، و احتمال البعض أيضاً أنَّ الضمير فى (به) يعود إلى أعمال المجرمين و نتائجها، و لكن ما ذكرناه أعلاه هو الأصح كما يبدو. دَقَّقُوا ذلك.

إلى أهل الجنّة يتملّكهم اليأس والخيبه والحسره.

ولمّا كانت طريقه القرآن غالباً هي بيان تطبيقى للمسائل، فإنّه بعد أن بيّن مصير الظالمين فى ذلك اليوم، تطرّق إلى بيان حال المؤمنين فقال: **وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا (١)**.

التعبير بـ **مَنْ الصَّالِحَاتِ** إشاره إلى أنّهم إن لم يستطيعوا أن يعملوا كلّ الصالحات فليقوموا ببعضها، لأنّ الإيمان بدون العمل الصالح كالشجره بلا ثمره، كما أنّ العمل الصالح بدون إيمان كالشجره من دون جذر، إذ قد تبقى عدّه أيام لكنّها تجفّ آخر الأمر، ولذلك ورد قيد **وَهُوَ مُؤْمِنٌ** بعد ذكر العمل الصالح فى الآيه.

قاعده: لا- يمكن أن يوجد العمل الصالح بدون إيمان، ولو قام بعض الأفراد غير المؤمنين-أحياناً- بأعمال صالحه، فلا شكّ أنّها ستكون ضئيله و محدوده و استثنائيه، و بتعبير آخر: فإنّ العمل الصالح من أجل أن يستمر و يتأصل و يتعمّق يجب أن يروى من عقيدته سالمه و إعتقاده صحيح.

بحثان

إشاره

١- الفرق بين الظلم و الهضم

قرأنا فى الآيه الأخيره من الآيات محلّ البحث أنّ المؤمنين الصالحين لا- يخافون ظلماً و لا- هضماً، و قال بعض المفسرين: إنّ «الظلم» إشاره إلى أنّ هؤلاء لا يخافون مطلقاً من أن يظلموا فى تلك المحكمه العادله و يؤاخذوا على ذنوب لم

ص: ٨٢

(١- ١) - «الهضم» فى اللغه بمعنى النقص، و إذا قيل لجذب الغذاء إلى البدن: هضم، فلأنّ الغذاء يقلّ ظاهراً و تبقى فضلاته.

يرتكبها و«الهضم» إشاره إلى أنهم لا يخافون-أيضا-نقصان ثوابهم، لأنهم يعلمون أن ما يستحقونه من الثواب يصل إليهم دون زياده أو نقصان.

و احتمال بعضهم أن الأول يعنى أنهم لا يخافون من محو حسناتهم، والثانى إشاره إلى أنهم لا يخافون نقصان حتى مقدار قليل منها، لأن الحساب الإلهى دقيق جدا.

و يحتمل أيضا أن للمؤمنين الصالحين زلات و هفوات أيضا، و أن الكاتبين لا يكتبون أكثر مما صدر منهم، و لا ينقصون شيئا من ثواب أعمالهم الصالحه.

إن التفاسير المتقدمه لا تتقاط فيما بينها، و يمكن أن تكون الجمله آنفه الذكر إشاره إلى كل هذه المعانى أيضا.

٢-مراحل القيامة

وردت الإشاره فى الآيات-محلّ البحث-إلى سلسله من الحوادث التى تقع عند حلول القيامة و بعدها:

١-رجوع الأموات إلى الحياه: يَوْمٌ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ .

٢-جميع المجرمين و حشرهم: نَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ .

٣-تلاشى جبال الأرض، ثم تبعثها فى كل مكان، و استواء سطح الأرض تماما: يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا .

٤-استماع الجميع لدعوه داعى الله، و انقطاع جميع الأصوات: يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ

٥-عدم تأثير الشفاعه فى ذلك اليوم بدون إذن الله: يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ

٦-إعداد الله تعالى جميع خلقه للحساب بعلمه المطلق غير المتناهى يَعْلَمُ

مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ...

٧- خضوع الجميع في مقابل حكمه: وَعَنْتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ....

٨- يأس الظالمين: وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا.

٩- رجاء المؤمنين لطف الله ورحمته: وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ....

ص: ٨٤

اشاره

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا (١١٣) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا (١١٤)

التفسير

قل: رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا الآيات محلّ البحث-فى الواقع-إشاره إلى مجموع ما مرّ فى الآيات السابقه حول المسائل التربويه المرتبطه بالقيامه و الوعد و الوعيد،فتقول:

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا وَصَرَّفْنَا فِيهِ مِنَ الْوَعِيدِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا

التعبير ب(كذلك)إشاره إلى المطالب التى بينت قبل هذه الآيه، و هذا يشبه تماما أن يذكر إنسان لآخر أموراً من شأنها التوعيه و العبره، ثم يضيف:هكذا ينبغى التذكير و الوعظ،و على هذا فلا حاجه إلى التفاسير التى ذكرت و البعيده هنا عن معنى الآيه).

كلمه «عربي» وإن كانت بمعنى اللغة العربية، إلا أنها هنا إشاره إلى فصاحه القرآن و بلاغته و سرعه إيصاله للمفهوم و المراد من جهتين:

الأولى: إن اللغة العربية- بشهاده علماء اللغة فى العالم- واحده من أبلغ لغات العالم، و أدبها من أقوى الآداب.

و الثانية: إن جملة (صرفنا) أحيانا تشير إلى التعبيرات القرآنيه المختلفه حول حادثه واحده، فمثلا نراه يبين مسأله الوعيد و عقاب المجرمين من خلال ذكر قصص الأمم السابقيه و حوادثها تاره، و تاره أخرى على هيئة خطاب موجّه للحاضرين، و ثالثه بتجسيد حالهم فى مشهد القيامة، و هكذا.

إن اختلاف جملة لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ مع جملة يُخِذْتُ لَهُمْ ذِكْرًا قد يكون من جهه أن الجملة الأولى تقول: إن الهدف هو إيجاد و غرس التقوى بصورة كامله.

و فى الجملة الثانية: إن الهدف هو أن التقوى و إن لم تحصل كامله، فليحصل على الأقل الوعى و العلم فعلا، ثم تكون فى المستقبل مصدرا و ينبوعا للحركه نحو الكمال.

و يحتمل أيضا أن تكون الجملة الأولى إشاره إلى إيجاد و تحقيق التقوى بالنسبه لغير المتقين، و الثانية إلى التذكّر و التذكير بالنسبه للمتقين، كما نقرأ فى الآيه (٢) من سورة الأنفال: إِذَا تَلَّيْتُ عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا .

فى الآيه آنفه الذكر إشاره إلى أصليين مهمين من أصول التعليم و التريبه المؤثره:

أحدهما: مسأله الصراحه فى البيان، و كون العبارات بليغه واضحه تستقرّ فى القلب.

و الآخر: بيان المطالب بأساليب متنوعه، لئلا تكون سيبا للتكرار و الملل، و لتنفذ إلى القلوب.

أما الآيه التاليه فتضيف قائله: فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ و من المحتمل أن

يكون ذكر كلمه «الحق» بعد كلمه «الملك»، هو أنّ الناس ينظرون إلى الملك بمنظار سىء و تداعى فى أذهانهم صور الظلم و الطغيان و الجور و الاستعلاء و التجبر التى تكون فى الملوك غالباً، و لذا فإنّ الآيه تصف الله الملك سبحانه مباشرة ب«الحق».

و بما أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم كان يعجل فى إبلاغ الوحي و ما ينزل به من القرآن لاهتمامه به و تعشقه أن يحفظه المسلمون و يستظهروه، و لم يتمهّل أن يتمّ جبرئيل ما يلقى عليه من الوحي فيبلغه عنه، فإنّ الآيه محلّ البحث تذكره بأنّ يتمهّل فتقول: **وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِنْ قَبْلِ أَنْ يُقْضَىٰ إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا**.

و يستشفّ من بعض آيات القرآن الأخرى أنّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم كانت تتنابه حاله نفسيه خاصه من الشوق عند نزول الوحي، فكانت سببا فى تعجله كما فى قوله تعالى: **لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ فَإِذَا قَرَأَهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ (١)**.

بحثان

اشاره

١- لا تعجل حتى فى تلقى الوحي!

لقد تضمّنت الآيات الأخيره دروسا تعليميه، و من جملتها النهى عن العجله عند تلقى الوحي، و كثيرا ما لوحظ بعض المستمعين يقفون كلام المتحدّث أو يكملونه قبل أن يتمه هو، و هذا الأمر ناشئ عن قله الصبر أحيانا، أو ناشئ عن الغرور و إثبات وجود أيضا، و قد يكون العشق و التعلق الشديده بشىء يدفع الإنسان- أحيانا- إلى هذا العمل، و فى هذه الحاله ينبعث عن حافر مقدّس، غير أنّ هذا الفعل نفسه- أى العجله- قد يحدث مشاكل أحيانا، و لذلك فقد نهت الآيات

ص: ٨٧

آنفه الذكر عن العجله حتى و لو كان المراد أو الهدف من هذا الفعل صحيحا، و أساسا لا تخلو الأعمال التي تنجز باستعجال من العيب و النقص غالبا. و من المسلم به أنّ فعل النبي لَمَّا كان عليه من مقام العصمه- كان مصونا من الخطأ، إلاّ أنّه ينبغي عليه أن يكون في كلّ شيء مثالا و قدوة للناس، ليفهم الناس أنّه إذا كان الاستعجال في تلقّي الوحي غير محبذ، فلا ينبغي الاستعجال في الأمور الأخرى من باب أولى أيضا.

و لا ينبغي أن نخلط بين السرعة و العجله طبعاً- فالسرعه تعنى أنّ الخطه قد نظمت بدقه كامله، و حسبت جميع مسائلها، ثم تجرى بنودها بدون فوات وقت.

أمّا العجله فتعنى أنّ الخطه لم تنضج تماما بعد، و تحتاج إلى تحقيق و تدقيق، و على هذا فإنّ السرعة مطلوبه، و العجله أمر غير مطلوب.

و قد ذكرت احتمالات أخرى في تفسير هذه الجملة، و منها أنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان لا يطيق تأخر الوحي، فعلمته الآيه أن يتمهل فإنّ الله ينزل عليه و حيه عند الاقتضاء و الحاجه إليه.

و قال بعض المفسرين: إنّ آيات القرآن نزلت على قلب النبي صلى الله عليه و آله و سلم في ليله القدر دفعه واحده، و نزلت مرّه أخرى بصوره تدريجيّه على مدى (٢٣) سنه، و لذلك فإنّ النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان يسبق جبرئيل عند النزول التدريجي للآيات، فأمره القرآن أن لا تعجل في هذا الأمر، و دع الآيات تنزل نزولا تدريجيّا كلّ في موقعها و زمانها.

إلاّ أن التفسير الأوّل يبدو أقرب للصواب.

٢- أطلب المزيد من العلم

لَمَّا كان النهي عن العجله عند تلقّي الوحي موهما النهي عن الاستزاده في طلب العلم، فقد عبّبت الآيه بعد ذلك بالقول مباشره: وَ قُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا لتقف

أما هذا التصور الخاطيء، أى أنّ العجله ليست صحيحه، لكن من الضرورى الجّد و السعى من أجل الارتواء من منهل العلم! و قال بعض المفسّرين: إنّ الجملة الأولى أمرت النبى صلى الله عليه و آله و سلم ألاّ يعجل فى فهم كلّ جوانب الآيات قبل تبينها فى الآيات الاخرى، و فى الجملة الثانيه صدر الأمر بأن يطلب من الله سبحانه علما أكثر فيما يتعلّق بأبعاد آيات القرآن المختلفه.

و على كلّ حال، فإذا كان النبى صلى الله عليه و آله و سلم مأمورا أن يطلب زياده العلم من ربّه إلى آخر عمره مع غزاره علمه، و روحه المليئه و عيا و علما، فإنّ واجب الآخرين واضح جدّا، و فى الحقيقه، فإنّ العلم من وجهه نظر الإسلام لا يعرف حدّا، و زياده الطلب فى كثير من الأمور مذمومه إلاّ فى طلب العلم فإنّها ممدوحه، و الإفراط قبيح فى كلّ شىء إلاّ فى طلب العلم.

فالعلم ليس له حدّ مكانى، فيجب الاجتهاد لتحصيله و لو كان فى الصين أو الثريا، و ليس له حدّ زمانى فهو يستمرّ من المهد إلى اللحد.

و لا يعرف حدّا من جهه المعلّم، فإنّ الحكمه ضالّه المؤمن أينما وجدها أخذها، و إذا ما سقطت جوهره من فم ملوث فاسق فإنّه يلتقطها.

و لا حدّ فى الإسلام لمقدار السعى و الاجتهاد، فهو يغوص فى أعماق البحر ليكتسب العلم، و قد يضحى بروحه فى طريق تحصيل العلم. و على هذا فإنّ كلمه (خريج) أو (أنهى دراسته) لا- معنى لها فى منطق الإسلام، فإنّ المسلم الحقيقى لا- يعرف نهايه فى تحصيله للعلوم، فهو دائما طالب جامعى، و طالب علم، حتّى لو أصبح أكثر الأساتذه تفوّقا و أفضلهم.

الطريف أنّنا نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّه قال لأحد أصحابه:

«إنّ لنا فى كلّ جمعه سرورا» قال: قلت: و ما ذاك؟ قال: «إذا كان ليله الجمعة و افى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم العرش، و افى الأئمه عليهم السّلام و وافينا معهم، فلا ترد أرواحنا بأبداننا

إلا بعلم مستفاد، ولو لا ذلك لأنفدنا» (١).

وقد ورد هذا المضمون في روايات عديدة بعبارات، مختلفه، وهو يوضح أنّ النبي و الأئمه يضاف و يزداد على علمهم إلى نهايه العالم: و نقرأ

في روايه أخرى عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «إذا أتى على يوم لا أزداد فيه علما يقربني إلى الله فلا بارك الله لي في طلوع شمسه» (٢).

و كذلك نقرأ

في حديث آخر عنه صلى الله عليه و آله و سلم: «أعلم الناس من جمع علم الناس إلى علمه، و أكثر الناس قيمه أكثرهم علما، و أقلّ الناس قيمه أقلهم علما» (٣). و هذا هو قدر العلم و قيمته في منظار التعليمات الإسلاميه.

ص: ٩٠

١-١) - تفسير نور الثقلين، الجزء ٣، ص ٣٩٧.

٢-٢) - تفسير مجمع البيان، و نور الثقلين، و الصافي في ذيل الآيات مورد البحث.

٣-٣) - سفينه البحار، الجزء ٢، ص ٢١٩ (ماده علم).

اشاره

وَ لَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا (١١٥) وَ إِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ (١١٦) فَكُنَّا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ (١١٧) إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَىٰ (١١٨) وَ أَنْتَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَىٰ (١١٩) فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَّا يَبْئِيسُ (١٢٠) فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَ طَفِقَا يَخْصِمَا يَخْصِمَا مِنْ وَرْقِ الْجَنَّةِ وَ عَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ (١٢١) ثُمَّ اجْبَلَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَىٰ (١٢٢)

التفسير

اشاره

آدم و مكر الشيطان:

كان القسم الأهم من هذه السوره فى بيان قصه موسى عليه السلام و بنى إسرائيل، و المواجهه بينهم و بين فرعون و أنصاره، إلا أن هذه الآيات و ما بعدها تتحدث عن

قصه آدم و حواء، و عداة و محاربه إبليس لهما. و ربّما كانت إشاره إلى أنّ الصراع بين الحقّ و الباطل لا ينحصر بأمس و اليوم، و موسى عليه السّلام و فرعون، بل كان منذ بدايه خلق آدم و سيستم كذلك.

و بالرغم من أنّ قصه آدم و إبليس قد وردت مرارا في القرآن، إلاّ أنّها تمتزج في كلّ مورد بملاحظات و مسائل جديده، و هنا تتحدّث أوّلا عن عهد الله إلى آدم فتقول: **وَلَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِنْ قَبْلِ فَنَسَىٰ وَ لَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا** .

هناك عدّه آراء في ماهية العهد المذكور، فقال البعض: إنّ أمر الله بعدم الاقتراب من الشجره الممنوعه، و هناك روايات متعدّده تؤيّد هذا المعنى. في حين أنّ بعض المفسّرين احتملوا احتمالات أخرى يمكن اعتبارها بمشابه الأغصان و الأوراق لهذا المعنى، كما خطر الله لآدم بأنّ الشيطان عدوّ مبین له، و يجب أن لا يتبعه.

و أمّا «النسيان» هنا فمن المسلم أنّه ليس بالمعنى المطلق، لأنّه لا معنى للعتاب و الملامه في النسيان المطلق، بل إنّّه إمّا بمعنى الترك كما نستعمل ذلك في مكالماتنا اليوميّه، فقد نقول لمن لم يف بعهدّه: أنسيت عهدك؟ أى إنّك كالناسى. أو أنّه بمعنى النسيان الذى يطرأ نتيجة قلّه الانتباه و شرود الذهن.

و المراد من «العزم» هنا هو التصميم و الإراده القويّه الصلبيه التى تحفظ الإنسان من الوقوع تحت تأثير وساوس الشيطان القويّه.

و على كلّ حال، فلا شكّ أنّ آدم لم يرتكب معصيه، بل بدر منه ترك الأولى، أو بتعبير آخر، فإنّ مرحله وجود آدم في الجنّه لم تكن مرحله تكليف، بل كانت مرحله تجريبه للاستعداد للحياه في هذه الدنيا و تقبل المسؤوليه، خاصه و إنّ نهى الله هنا كان نهيا إرشاديا، لأنّه قد أخبره بأنّه إن أكل من الشجره الممنوعه فسيبتلى بالشقاء. و قد أوردنا تفصيل كلّ ذلك، و كذلك المراد من الشجره الممنوعه و أمثال ذلك في ذيل الآيات ١٩-٢٢ من سوره الأعراف.

ثم أشارت إلى جانب آخر من هذه القصة، فقالت: وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَ مِنْ هُنَا يَتَّضِحُ مَقَامَ آدَمَ الْعَظِيمِ، آدَمَ الَّذِي سَجَدَ لَهُ الْمَلَائِكَةُ، وَأَبَدَتْ هَذِهِ الْمَخْلُوقَاتُ الْعَظِيمَةَ احْتِرَامَهَا إِيَّاهُ. كَمَا أَنَّ عَدَاوَةَ إِبْلِيسَ تَجَلَّتْ لَهُ ضَمَنًا مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ إِذْ لَمْ يَخْضَعْ لِآدَمَ وَ لَمْ يَعْظُمَهُ.

لَا شَكَّ أَنَّ السَّجْدَةَ لَا تَعْنِي السَّجْدَةَ الْخَاصَّةَ بِعِبَادَةِ اللَّهِ، وَ لَا أَحَدٌ أَوْ مَوْجُودٌ يَسْتَحِقُّ أَنْ يَكُونَ مَعْبُودًا مِنْ دُونِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ بِنَاءٍ عَلَى هَذَا فَإِنَّ هَذِهِ السَّجْدَةَ كَانَتْ لِلَّهِ، غَايَةَ مَا هُنَاكَ أَنَّهَا كَانَتْ مِنْ أَجْلِ خَلْقِ هَذَا الْمَوْجُودِ الْعَظِيمِ. أَوْ أَنَّ السَّجْدَةَ هُنَا تَعْنِي الْخُضُوعَ وَ التَّوَاضِعَ.

عَلَى كُلِّ حَالٍ، فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ تَعَالَى أَنْذَرَ آدَمَ بِقَوْلِهِ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَكَ وَ لِرِزْوَجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَى .

مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ الْجَنَّةَ هُنَا لَا- يَرَادُ مِنْهَا جَنَّةُ الْخُلُودِ فِي الْعَالَمِ الْآخِرِ، وَ الَّتِي هِيَ نَقْطَةُ تِكَامُلٍ لَا يُمْكِنُ الْخُرُوجُ مِنْهَا أَوْ التَّرَاجُعُ عَنِ نَعِيمِهَا، بَلْ كَانَتْ بَسْتَانًا فِيهِ كُلُّ شَيْءٍ مِمَّا فِي بَسَاتِينِ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَ لَمْ يَكُنْ فِيهَا نَصَبٌ وَ لَا غَضَبٌ بِلُطْفِ اللَّهِ، وَ لِذَلِكَ فَإِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَدْ أَنْذَرَ آدَمَ بِأَنَّكَ إِنْ خَرَجْتَ مِنْ هَذَا النِّعِيمِ فَإِنَّكَ سَتَشْقَى. وَ كَلِمَةُ «تَشْقَى» مِنْ مَادَّةِ الشَّقَاءِ، وَ أَحَدُ مَعَانِيهَا الْأَلَمُ وَ الْمَشَقَّةُ.

سؤال: لماذا خاطب الله الإثنين معا- أي آدم و حواء- في بدايه الأمر فقال:

فَلَا يُخْرِجَنَّكَمَا

إِلَّا أَنَّهُ ذَكَرَ نَتِيجَةَ الْخُرُوجِ بِصِيغَةِ الْمَفْرُودِ فِي شَأْنِ آدَمَ فَقَطْ فَقَالَ:

فَتَشْقَى

؟ وَ الْجَوَابُ هُوَ: إِنَّ هَذَا الْاِخْتِلَافَ فِي التَّعْبِيرِ قَدْ يَكُونُ إِشَارَةً إِلَى أَنَّ الْأَلَامَ وَ الْأَتْعَابَ كَانَتْ تَصِيبُ آدَمَ فِي الدَّرَجَةِ الْأُولَى، فَإِنَّهُ كَانَ مَأْمُورًا بِتَحْمَلِ مَسْئُولِيَّاتِ زَوْجَتِهِ أَيْضًا، وَ هَكَذَا كَانَتْ مَسْئُولِيَّةُ الرِّجَالِ مِنْ بَدَايَةِ الْأَمْرِ. أَوْ أَنَّ الْعَهْدَ لَمَّا كَانَ مِنَ الْبَدَايَةِ عَلَى عَاتِقِ آدَمَ، فَإِنَّ النِّهَايَةَ أَيْضًا تَرْتَبُ بِه.

ثُمَّ يَبَيِّنُ اللَّهُ لِآدَمَ رَاحَةَ الْجَنَّةِ وَ هَدْوَاهَا، وَ أَلَمَ وَ مَشَقَّةَ الْخُرُوجِ مِنْهَا، فَيَقُولُ:

إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَ لَا تَعْرَىٰ وَ أَنْكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَ لَا تَضْحَىٰ

و هنا سؤال يوجه للمفسرين، و هو: لماذا اقترن ذكر الظمأ بضحي الشمس، و الجوع بالعرى، في حين أن المعتاد ذكر العطش مع الجوع؟ قيل في الجواب: إن بين العطش و أشعه الشمس علاقة لا يمكن إنكارها.

(«تضحى» من مادّه «ضحى» أى إشراق الشمس من دون أن يحجبها حاجب من سحب و أمثاله).

و أما الجمع بين الجوع و العرى فقد يكون بسبب أن الجوع نوع من عراء الجوف و خلوه من الغذاء! و الأفضل أن يقال: إن هذين الوصفين - الجوع و العرى - علامتان واضحتان للفقر تأتيان معا عادة.

و على كل حال، فقد أشير في هاتين الآيتين إلى أربع احتياجات أصليه و ابتدائية للإنسان، أى: الحاجة إلى الغذاء، و الماء، و اللباس - للحمايه من حراره الشمس - و المسكن، و كان تأمين هذه الحاجات نتيجته توفر النعمه، و ذكر هذه الأمور في الواقع توضيح لما جاء في جملة «فتشقى».

لكن، و مع كل ذلك، فإن الشيطان قد ربط رباط العداوه حول آدم، و لهذا لم يهدأ له بال: فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَّا يَبُلَىٰ .

«الوسوسه» فى الأصل تعنى الصوت المنخفض جدًّا، ثم قيلت لخطور الأفكار السافله و الخواطر السيئه سواء كانت تنبع من داخل الإنسان، أو من خارجه.

إن الشيطان تتبع رغبه آدم و أنها فى أى شىء، فوجد أن رغبته فى الحياه الخالده و الوصول إلى القدره الأزليه، و لذلك جاء إليه عن هذين العاملين و استغلّهما فى سبيل جرّه إلى مخالفه أمر الله. و بتعبير آخر: فكما أن الله قد وعد آدم بأنك إن تجنبت الشيطان و خالفته فستحظى بالتنعم فى الجنه دائما، فإن

الشیطان قد وسوس إليه عن هذا الطريق «أى أنه سيخلد في الجنه أيضا».

أجل... إنَّ الشياطين يبدؤون دائما في باديه خطتهم من نفس النقاط و الطرق التي يبدأ منها المرشدون إلى طريق الحق، لكن لا تمر الأيام حتى يجروهم إلى هاويه الانحراف، و يجعلون جاذبيه طريق الحق وسيله للوصول إلى المتاهات.

و أخيرا وقع المحذور، و أكل آدم و حواء من الشجره الممنوعه، فتساقط عنهما لباس الجنه، فبدت أعضاؤهما: فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا (١) فلما رأى آدم و حواء ذلك استحميا و طَفِقَا يَخْصِمَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ (٢). نعم، لقد كانت العاقبه المؤسفه وَ عَصَى آدَمَ رَبُّهُ فَغَوَى .

«غوى» أخذت من مادّه الغى، أى العمل الصبيانى الناشئ من إعتقاد خاطئ، و لَمَّا كان آدم هنا قد أكل -جهلا و اشتباها- من الشجره المحرّمه، نتيجة للظنّ الذى حصل له من قول الشيطان، فقد عبّر عن عمله ب(غوى).

و فسره بعض المفسرين بأنّه الجهل الناشئ عن الغفله، و البعض فسرها بالمحرومين، و البعض الآخر بالفساد فى الحياه.

و على كلّ حال فإنّ «الغى» يقابل «الرشد»، و الرشده هو أن يسلك الإنسان طريقا يوصله إلى هدفه و مقصده، أمّا الغى فهو عدم الوصول إلى المقصود.

و لكن لَمَّا كان آدم نقيّا و مؤمنا فى ذاته، و كان يسير فى طريق رضى الله سبحانه، و كان لهذا الخطأ الذى أحاط به نتيجة وسوسه الشيطان صفة استثنائية، فإنّ الله سبحانه لم يبعده عن رحمته إلى الأبد، بل تُمَّ اجْتِبَاءُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَ هَدَى .

ص: ٩٥

١ - ١) - «سوءات» جمع سوءه، و هى فى الأصل كلّ شىء غير سار و يسىء الإنسان، و لذلك تطلق أحيانا على جسد الميت، و أحيانا على العوره، و المراد هنا هو المعنى الأخير.

٢ - ٢) - «يخصفان» من مادّه خصف، و هى هنا تعنى خياطه اللباس.

مع أنّ العصيان يأتي في عرف اليوم-عاده-بمعنى الذنب و المعصيه، إلاّ أنّه في اللغة يعنى الخروج عن الطاعه و عدم تنفيذ الأمر سواء كان الأمر واجبا أو مستحبًا، و بناء على هذا فإنّ استعمال كلمه العصيان لا يعنى بالضروره ترك واجب أو ارتكاب محرّم، بل يمكن أن يكون ترك أمر مستحبّ أو ارتكاب مكروه.

إضافه لما مرّ، فإنّ الأمر و النهي يكون إرشاديا، كأمر و نهى الطبيب حيث يأمر المريض أن يتناول الدواء الفلاني، و أن يجتنب الغذاء الفلاني غير المناسب، و لا-شكّ أنّ المريض إذا خالف أمر الطبيب فإنّه لا يضرّ إلاّ نفسه، لأنّه لم يعبأ بإرشاد الطبيب و نصيحته. و كذلك كان الله قد أمر آدم أن لا تأكل من ثمره الشجره الممنوعه، فإنّك إن أكلت ستخرج من الجنّه، و ستبتلى بالألم و المشقّه الكبيره في الأرض، فخالف هذا الأمر الإرشادي، و رأى نتيجة مخالفته أيضا. و إذا لا حظنا أنّ هذا الكلام كان في مرحله وجود آدم في الجنّه، و هي مرحله اختبار لا تكليف، فسيتّضح معناه بصوره أجلى.

و إضافه لما مرّ، فإنّ العصيان أو الذنب يكون أحيانا متّصفا بالإطلاق، أى إنّّه يعدّ ذنبا من قبل مرتكبيه جميعا و بدون استثناء كالكذب و الظلم و أكل المال الحرام، و يكون أحيانا نسيئا، أى العمل الذى إن بدر من شخص ما فقد لا يكون ذنبا، بل قد يعتبر أحيانا عملا مطلوبيا و لائقا لصدوره من مثله، أمّا إذا صدر من آخر فإنّه لا يناسبه نظرا إلى مكانته و منزلته.

فمثلا: تطلب المساعده من قبل بعض الناس لبناء مستشفى، فيعطى العامل أجره يوم من عمله و التى لا تتجاوز أحيانا أكثر من عدّه دراهم. إنّ هذا الفعل الصادر من مثل هذا الشخص يعدّ إثارا و حسنه و هو مطلوب تماما، أمّا إذا أعطى رجل ثرى هذا المقدار من المال مثلا- فإنّه لا يناسبه و لا يليق به فحسب، بل سيكون موضع ملامه و مذمّه و تعنيف مع أنّه أساسا لم يرتكب حراما، بل ساهم و لو

بمقدار يسير في عمل الخير و البرّ.

إنّ هذا هو ما نعبر عنه ب(حسنات الأبرار سيئات المقرّبين) وهو المعروف بترك الأولى، و نحن نعبر عنه بالذنب النسبي الذي لا يعدّ ذنبا، و لا يخالف مقام العصمه.

و في الأحاديث الإسلاميه أيضا أطلقت المعصيه على مخالفه المستحبات، فنرى

في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام أنّه قال في النوافل اليوميّه: «و إنّما هذا كلّه تطوّع و ليس بمفروض... و لكنّها معصيه، لأنّه يستحبّ إذا عمل الرجل عملا من الخير أن يدوم عليه» (١).

و قد بحثنا هذا الموضوع و سائر المسائل المرتبطه بآدم و خروجه من الجنّه في سورة الأعراف ذيل الآيه ١٩ و ما بعدها، و في سورة البقره ذيل الآيه ٣٠-٣٨، و لا حاجه إلى التكرار.

ص: ٩٧

١-١) -نور الثقلين، الجزء ٣، ص ٤٠٤.

اشاره

قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى (١٢٣) وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى (١٢٤) قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا (١٢٥) قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسى (١٢٦) وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى (١٢٧)

التفسير

اشاره

المعيشه الضنكا:

مع أن توبه آدم قد قبلت، إلا أن عمله أدى إلى عدم استطاعته الرجوع إلى الحاله الأولى، ولذا فإن الله سبحانه أصدر أمره لآدم وحواء كليهما و كذلك الشيطان أن يهبطوا جميعا من الجنة: قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ .

إلا أنني أعلمكم بأن طريق النجاه و السعاده مفتوح أمامكم فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى

فَمَنْ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلَّ وَلَا يُشْقَىٰ

و من أجل أن يتضح أيضا مصير الذين ينسون أمر الحق، فقد أضاف تعالى وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَ نَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى .

هنا قال رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَ قَدْ كُنْتُ بَصِيرًا؟ فيسمع الجواب مباشرة:

قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيْتَهَا وَ كَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَىٰ

و تعمي عينك عن رؤيه نعم الله و مقام قربه.

أما الآيه الأخيره من الآيات محلّ البحث فهي بمثابة الاستنتاج و الخلاصه إذ تقول: وَ كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَ لَمْ يُؤْمِنْ بِآيَاتِ رَبِّهِ وَ لَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَ أَبْقَى .

بحوث

اشاره

١- الغفله عن ذكر الحق و آثارها

قد توصلد أحيانا كل أبواب الحياه بوجه الإنسان، فكلما أقدم على عمل يجد الأبواب المغلقه، و قد تنعكس الصوره فأينما اتجه يرى الأبواب مفتحه في وجهه، و قد تهيات له مقدمات العمل، و لا يواجه عقبات في طريقه، فيعبر عن هذه الحاله بسعه العيش و رغده، و عن الأولى بضيق المعيشه و شظفها، و المراد من قوله تعالى:

مَعِيشَةً ضَنْكًا

(١)

الوارد في الآيات محلّ البحث هو هذا المعنى أيضا.

و قد يكون ضيق العيش ناتجا أحيانا من قلّه المورد، و قد يكون المرء كثير المال موفور الثراء. إلا أنّ البخل و الحرص و الطمع يضيق عليه معاشه، فلا يميل إلى فتح باب داره للآخرين لمشاركته نعيمه، بل و لا يميل إلى الإنفاق على نفسه أيضا، و على

قول الإمام على عليه السلام: «يعيش عيش الفقراء و يحاسب حساب

١-١) - الضنك: المشقّه و الضيق، و هذه الكلمه تأتي دائما بصيغه المفرد، و ليس لها تشبيه و لا جمع و لا تأنيث.

حقاً، لماذا يتلى الإنسان بهذه الضائقات؟ القرآن يقول: إنَّ العامل الأساس هو الإعراض عن ذكر الله، فإنَّ ذكر الله يبعث على اطمئنان الروح و التقوى و الشهامه، و نسيانه مبعث الاضطراب و الخوف و القلق.

عند ما ينسى الإنسان مسؤولياته بعد أن ينسى ذكر الله، فإنه سيغرق في خضم الشهوات و الحرص و الطمع، و من الواضح بمكان أن نصيبه سيكون المعيشه الضنك، فلا- قناعه تملأ- عينه، و لا- اهتمام بالمعنويات تغنى روحه، و لا- أخلاق تمنعه أمام طغيان الشهوات.

و أساساً فإنَّ ضيق الحياه ينشأ في الغالب من النقائص المعنويه و انعدام الغنى الروحي... ينشأ من عدم الاطمئنان إلى المستقبل، و الخوف من نفاذ الإمكانيات الموجوده، و علاقته المفرطه بعالم المادّه، بينما نجد أن الإنسان الذى يؤمن بالله، و تعلق قلبه بذاته المقدسه، يعيش بعيداً عن كل هذه الاضطرابات، و فى مأمن منها.

إلى هنا كان الكلام عن الفرد، و عند ما نأتى إلى المجتمعات التى أعرضت عن ذكر الله، فإنَّ المسأله ستكون أشدَّ رعباً و خطراً، فإنَّ المجتمعات البشريه على رغم تقدّمها الصناعى المذهل، و بالرغم من توفر كل وسائل الحياه، فهى تعيش فى حاله اضطراب و قلق شديد، و مبتلاه بضائقات عجيبه و ترى نفسها سجينه.

فكل فرد يخاف من الآخرين، و لا يعتمد أحد على الآخر، و الروابط و العلاقات تتمحور حول محور المصالح الشخصيه، و سباق التسلح-نتيجه الخوف من الحرب-يلتهم و يستهلك أغلب إمكانياتهم الاقتصاديه.

السجون مليئه بالمجرمين، و تقع فى كل ساعه و دقيقه-و طبقاً للإحصاءات الرسميه-حوادث قتل و جرائم مرعبه... التلوّث بالفحشاء، و الإدمان على المواد المخدّره قد استعبد هؤلاء، و لا يوجد فى عوائلهم نسمة حبّ، و لا ارتباط عاطفى

يبعث على النشاط... أجل هذه هي حياتهم القاسية، و معيشتهم الضنك.

لقد اعترف ريتشارد نيكسون الرئيس الأسبق للولايات المتحدة الأمريكيه- بلد الشيطان الأكبر- بهذا الواقع في خطابه الرئاسي الأول إذ قال: (إننا نرى حولنا دائما حياه جوفاء، و نحن نأمل أن نرضى، و لكننا لا نرضى!) رجل آخر من رجال المعروفين كانت مهمته إيجاد السرور و الفرح في المجتمع، يقول: إننى أرى الإنسانيه تعدو في زقاق مظلم لا شىء في نهايته إلا القلق المطلق.

و من الطريف أن نقراً

في الروايات الإسلاميه أنه سئل الإمام الصادق عليه السلام عن المراد من الآيه: وَ مَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً؟ قال: «يعنى [الإعراض عن]

ولايه أمير المؤمنين» (1).

أجل... فإن الذى يستلهم العبره من حياه على عليه السلام، ذلك الرجل العظيم الذى كانت الدنيا فى نظره لا تساوى عفته عزه، و الذى انقطع إلى الله حتى صغرت الدنيا فى عينه إلى هذا الحد، فمن يكن كذلك فستكون حياته فى سعه و رفاه، أما أولئك الذين ينسون المثل و القدوه فإنهم فى ضنك العيش فى كل الأحوال.

و قد فسّر الإعراض عن ذكر الله فى الآيه- بترك الحجّ من قبل القادرين عليه، و ذلك لأنّ مراسم الحجّ تهزّ الإنسان، و توجد ارتباطا و علاقته جديده بين الإنسان و ربّه بحيث يكون هذا الارتباط هو مفتاح حياته، فى حين أنّ عكس هذا الأمر يؤدّى إلى الارتباط الشديد بالماديات التى هى أساس المعيشه الضنكا.

٢- عمى البصر و عمى البصيره!

لقد حدّدت عقوبتان لأولئك الذين يعرضون عن ذكر الله: إحداهما: المعيشه

ص: ١٠١

الضنك في هذه الدنيا، و التي أشير إليها في الملاحظه السابقه، و الأخرى: العمى في الآخره.

و قلنا مرارا: إنَّ عالم الآخره هو تجسّم أوسع لعالم الدنيا، و كلّ حقائق هذا العالم تتجسّد هناك بما يناسبها هنا، فأولئك الذين عميت بصيرتهم عن مشاهدته الحقائق في هذه الدنيا، ستعمى هناك عيون أجسامهم، و لذلك فإنّهم حين يتساءلون بأنّا كنّا قبل هذا صحيحى البصر، فلما ذا حشرنا عميا؟ يقال لهم: لأنّكم قد نسيتم آيات الله، و هذه الحاله انعكاس لتلك الحاله.

و هنا ينقدح سؤال، و هو: إنَّ ظاهر بعض الآيات القرآنيه هو أنّ كلّ الناس يبصرون في يوم القيامه، و يقال لهم: اقرؤوا صحيفه أعمالكم اقرأ كتابيكَ... (١)، أو أنّ المجرمين يرون نار جهنّم بأعينهم: وَ رَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ... (٢)، فكيف تناسب هذه التعبيرات كون جماعه عميا؟ قال بعض المفسّرين إنّ حال ذلك العالم تختلف عن حال هذا العالم، فربّما كان بعض الأفراد مبصرين في مشاهدته بعض الأمور، و عميانا عن مشاهدته البعض الآخر، و على ما ينقل العلامة الطبرسى عن بعض المفسّرين: إنّه أعمى عن جهات الخير لا يهتدى لشيء منها، لأنّ نظام ذلك العالم يختلف عن نظام هذا العالم.

و يحتمل أيضا أن يكون هؤلاء في بعض المنازل و المواقف عميا، و فى بعضها مبصرين.

ثمّ إنّ المراد من نسيان المجرمين فى العالم الآخر ليس هو نسيان الله سبحانه لهم، بل من الواضح أنّ المراد معامله هؤلاء معامله الناسى، كما نستعمل ذلك فى محاوراتنا اليوميّه، فإذا لم يهتمّ شخص بآخر، فإنّ الثّانى يقول له: لماذا نسيتنى؟

ص: ١٠٢

١-١) -الإسراء، ١٤.

٢-٢) -الكهف، ٥٣.

٣- الإسراف في المعصية

مما يلفت النظر أنه قد ذكرت في الآيات-محلّ البحث- هذه العقوبات المؤلمة للأفراد الذين يسرفون و لا يؤمنون بآيات الله.

إنّ التعبير ب«الإسراف» هنا قد يكون إشارة إلى أنّهم قد استعملوا تلك النعم و العطايا الإلهية، كالعين و الاذن و العقل، في طرق الشّر، و ليس الإسراف إلّا أن يتلف الإنسان هذه النعم من غير هدف.

أو أن يكون إشارة إلى أنّ المذنبين قسما: قسم لهم ذنوب محدوده، و في قلوبهم خوف الله، أي أنّهم لم يقطعوا ارتباطهم و صلّتهم بالله تماما، فإذا ما ظلموا-على سبيل الفرض- يتيما أو ضريرا فإنّهم لا يستيبحون ذلك العمل، بل يعدّون أنفسهم مقصّرين أمام الله. و لا- شكّ أنّ مثل هذا الفرد عاص يستحقّ العقاب، إلّا أنّ بينه و بين من يقترف الذنوب بلا حساب- و لا يعتبر ذلك ذنبا، و لا يعترف بمعيار للذنوب و عدمه، بل و يفتخر أحيانا بارتكابه المعاصي، أو يحتقر الذنوب و يستصغره- فرقا شاسعا، لأنّ القسم الأوّل يمكن أن يتوبوا في النهايه و يجبروا ما صدر عنهم من ذنوب، أمّا أولئك الذين يسرفون في الذنوب فلا توبه لهم.

٤- ما هو الهبوط؟

«الهبوط» في اللغة بمعنى التّزول الإجمالى، كسقوط الصخره من مرتفع ما، و عند ما تستعمل في حقّ الإنسان فإنّها تعنى الإبعاد و الإنزال عقابا له.

و بملا-حظه أنّ آدم قد خلق للحياه على وجه الأرض، و كانت الجنّه أيضا بقعه خضراء و فيره النعمه من هذا العالم، فإنّ هبوط و نزول آدم هنا يعنى التّزول المقامى لا المكانى، أي إنّ الله سبحانه قد نزل مقامه لتركه الأولى، و حرّمه من كلّ نعم الجنّه تلك، و ابتلاه بمصائب هذه الدنيا و متاعها.

و ممّا يستحقّ الالتفات أنّ المخاطب هنا قد ذكر بصيغه المشى (اهبطا) أى

اهبطا كلاكما، و من الممكن أن يكون المراد آدم و حواء، و إذا كان المخاطب قد ورد بصيغه الجمع (اهبطوا) في بعض آيات القرآن الاخرى، فلأن الشيطان قد أشرك معهما في الخطاب، لأنه هو الآخر قد طرد من الجنه.

و يحتمل أيضا أن يكون المخاطب آدم و الشيطان، لأن الجملة التي تلى هذه الجملة تقول: **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ**.

و قال بعض المفسرين: إن المراد من جملة **بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ** و التي ورد الخطاب فيها بصيغه الجمع، هو تولد العداوه بين آدم و حواء من جهه، و بين الشيطان من جهه أخرى، و تولد العداوه بين آدم و أولاده من جهه و الشيطان و ذريته من جانب آخر.

و على كل حال، فإن المخاطب في جملة: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ هَدَىٰ اللَّهُ مِثْلَ شِرْكِكُمْ** هم أولاد آدم و حواء حتما، لأن هدايه الله مختصه بهم، أما الشيطان و ذريته الذين أعرضوا عن منهج الهدايه الإلهيه، فإن الخطاب لا يشملهم.

اشاره

أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى (١٢٨) وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَ أَجَلٌ مُّسَمًّى (١٢٩) فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَقِيمًا يَقُولُونَ وَ سَيَّبِحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهَا وَ مِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ اطْرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى (١٣٠)

التفسير

اشاره

اعتبروا بتاريخ الماضين:

لما كانت عدّه بحوث في الآيات السابقه قد وردت عن المجرمين، فقد أشارت الآيات الأولى من الآيات محلّ البحث إلى واحد من أفضل طرق التوعيه و أكثرها تأثيراً، و هو مطالعه تاريخ الماضين، فتقول: أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ (١) أولئك الذين عمهم العذاب الإلهي الأليم يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ .

ص: ١٠٥

١ - ١) - كما قلنا سابقاً، فإنّ «قرون» جمع قرن، تعني الناس الذين يعيشون في عصر ما، و يقال أحياناً لنفس ذلك الزمان: قرن. و هي من مادّه المقارنه.

إِنَّ هَؤُلَاءِ يَمْرُونَ فِي مَسِيرِهِمْ وَ ذَهَابِهِمْ وَإِيَابِهِمْ عَلَى مَنَازِلِ قَوْمٍ عَادَ فِي أَسْفَارِهِمْ إِلَى الْيَمَنِ - وَ عَلَى مَسَاكِنِ ثَمُودِ الْمُتَهَدِّمَةِ الْخَرِبَةِ فِي سَفَرِهِمْ إِلَى الشَّامِ - وَ عَلَى مَنَازِلِ قَوْمِ لُوطٍ الَّتِي جَعَلَ عَلَيْهَا سَافِلَهَا - فِي سَفَرِهِمْ إِلَى فِلَسْطِينَ - وَ يَرُونَ آثَارَهُمْ، إِلَّا أَنَّهُمْ لَا يَعْتَبِرُونَ، فَإِنَّ الْخَرَائِبَ وَ الْأَطْلَالَ تَتَكَلَّمُ بِلِسَانِ الْحَالِ وَ تَخْبِرُ عَنِ قِصَصِ السَّابِقِينَ وَ تَحْذَرُ أَبْنَاءَ الْيَوْمِ وَ أَبْنَاءَ الْغَدِ وَ تَعُولُ صَارِخَهُ أَنَّ هَذِهِ عَاقِبَةُ الظُّلْمِ وَ الْكُفْرِ وَ الْفِسَادِ.

نعم.. إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّأُولِي النُّهَى ﴿١﴾ .

إِنَّ مَوْضُوعَ أَخْذِ الْعِبْرَةِ مِنْ تَارِيخِ الْمَاضِينَ مِنْ الْأُمُورِ الَّتِي يُؤَكِّدُ عَلَيْهَا الْقُرْآنُ وَ الْأَحَادِيثُ الْإِسْلَامِيَّةُ كَثِيرًا، وَ هُوَ حَقًّا مَعْلَمٌ مَذْكَرٌ مَتَّبَعٌ، فَمَا أَكْثَرَ أَوْلِيَاءِكَ الْأَشْخَاصِ الَّذِينَ لَا - يَتَأَثَّرُونَ بِأَيِّهِ مَوْعِظُهُ، وَ لَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا، إِلَّا أَنَّ رُؤْيَاهُ مَشَاهِدٌ مِنْ آثَارِ الْمَاضِينَ الْمَعْتَبَرَةِ تَهْزِهِمْ، وَ كَثِيرًا مَا تَغَيَّرَ مَسِيرُ حَيَاتِهِمْ.

وَ نَقْرَأُ

فِي حَدِيثٍ عَنِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَمٍ: «أَغْفَلَ النَّاسُ مِنْ لَمْ يَتَّعِظْ بِتَغْيِيرِ الدُّنْيَا مِنْ حَالٍ إِلَى حَالٍ» (٢) وَ لَا يَفْكَرُ فِي تَقَلُّبِ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ وَ تَعَاقُبِهِمَا.

الْآيَةُ التَّالِيَةُ فِي الْحَقِيقَةِ جَوَابٌ عَنِ سَوْأَلٍ يَثَارُ هُنَا، وَ هُوَ: لِمَاذَا لَا يَجْرِي اللَّهُ سَبْحَانَهُ عَلَى هَذَا الْقِسْمِ مِنَ الْمَجْرِمِينَ مَا أَجْرَاهُ عَلَى الْمَجْرِمِينَ السَّابِقِينَ، فَيَقُولُ الْقُرْآنُ: وَ لَوْ لَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِنْ رَبِّكَ لَكَانَ لِرَامًا وَ أَجَلٌ مُسَمًّى .

إِنَّ هَذِهِ السَّنَةُ الْإِلَهِيَّةُ الَّتِي ذَكَرْتَ فِي مَوَاضِعٍ عَدِيدَةٍ مِنَ الْقُرْآنِ بِاسْمِ (كَلِمَةٍ) إِشَارَةً إِلَى قَانُونِ الْخَلْقِ الْمَبْتَنِي عَلَى حُرِّيَّةِ الْبَشَرِ، لِأَنَّ كُلَّ مَجْرِمٍ إِذَا عَوَّقَ مَبَاشِرَهُ وَ بَدُونَ أَنْ يَمْهَلَ، فَإِنَّ الْإِيمَانَ وَ الْعَمَلَ الصَّالِحَ سَيَتَّصِفُ بِالْجَبْرِ تَقْرِيْبًا، وَ سَيَكُونُ عَلَى الْأَغْلَبِ خَوْفًا مِنَ الْعِقَابِ الْآتِي، وَ بِنَاءٍ عَلَى هَذَا فَسُوفَ لَا يَكُونُ وَسِيلَةً لِلتَّكَامُلِ الَّذِي هُوَ الْهَدَفُ الْأَصْلِيُّ.

ص: ١٠٦

١ - ١) - «النهي» من مادّه نهى، و هي هنا بمعنى العقل، لأنّ العقل ينهى الإنسان عن القبائح و السيئات.

٢ - ٢) - سفينه البحار - مادّه عبر - الجزء ٢ ص ١٤٦.

إضافه إلى أنه إذا تقرر أن يعاقب جميع المجرمين فوراً، فسوف لا يبقى أحد حياً على وجه الأرض: **وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ (١)**.

و بناء على هذا فيجب أن تكون هناك مهله و فتره تعطى لكل المرتبطين بطريق الحق حتى يرجع المجرمون إلى أنفسهم و يسلكوا سبيل الصلاح، و لتكون كذلك فرصه لتهديب النفس.

إنّ التعبير ب(أجل مسمى) بالشكل الذي يفهم من مجموع آيات القرآن، إشاره إلى الزمان الحتمى لنهايه حياه الإنسان (٢).

و على كل حال، فإنّ الظالمين الذين لا إيمان لهم و المجرمين يجب أن لا يغتروا بتأخير العذاب الإلهي، و أن لا يغفلوا عن هذه الحقيقه، و هي أنّ لطف الله و سنته في الحياه، و قانون التكامل هذا، هو الذي يفسح المجال لهؤلاء.

ثمّ يوجه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه و آله و سلم، فيقول: **فَاصْبِرْ عَلَيَّ مَا يَقُولُونَ و من أجل رفع معنويات النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تقويه قلبه، و تسليه خاطره، فإنه يؤمر بمناجاه الله و الصلاه و التسبيح فيقول: وَ سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَ قَبْلَ غُرُوبِهَا وَ مِنْ أَنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَ اطْرَافِ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى و لا يتأثر قلبك جزاء كلامهم المؤلم.**

لا شك أنّ هذا الحمد و التسبيح محاربه للشرك و عباده الأصنام، و في الوقت نفسه صبر و تحمّل أمام أقوال المشركين السيئه، و كلامهم الخشن. إلا أنّ هناك بحثا بين المفسرين في أنّ المقصود من الحمد و التسبيح هل الحمد و التسبيح المطلق، أم أنه إشاره إلى خصوص الصلوات الخمس اليوميّه؟ فجماعه يعتقدون بأنه يجب أن يبقى ظاهر العبارات على معناه الواسع، و من ذلك يستفاد أنّ المراد هو التسبيح

ص: ١٠٧

١-١) - النحل، ٦١.

٢-٢) - لمزيد الإيضاح راجع البحث المفصّل الذي ذكرناه في ذيل الآيه (١ و ٢) من سوره الأنعام. و نذكر في الضمن أنّ جملة (أجل مسمى) من ناحيه التركيب النحوي عطف على (كلمه).

و الحمد المطلق.

فى حين أنّ جماعه أخرى ترى أنّه إشاره إلى الصلوات الخمس، و هى على النحو التالى.

قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ

و هى إشاره إلى صلاه الصبح.

وَ قَبْلَ غُرُوبِهَا

و هى إشاره إلى صلاه العصر، أو أنّها إشاره إلى صلاتي الظهر و العصر، و اللتان يمتدّ وقتهما إلى الغروب.

وَ مِنْ آتَاءِ اللَّيْلِ

و هى إشاره إلى صلاتي المغرب و العشاء، و كذلك صلاه الليل.

أمّا التعبير بَاطْرَافِ النَّهَارِ فهو إمّا إشاره إلى صلاه الظهر، لأنّ أطراف جمع طرف، و هو يعنى الجانب، و إذا قسّمنا اليوم نصفين، فإنّ صلاه الظهر ستكون فى أحد طرفي النصف الثانى.

و يستفاد من بعض الروايات-أيضا- أنّ أطرَافِ النَّهَارِ إشاره إلى الصلوات المستحبّه التى يستطيع الإنسان أو يؤدّيها فى الأوقات المختلفه، لأنّ أطراف النهار هنا قد وقعت فى مقابل آتاء الليل، و هى تتضمّن كلّ ساعات اليوم.

و خاصّه أنّنا إذا لاحظنا أنّ كلمه أطراف قد وردت بصيغه الجمع، فى حين أنّ لليوم طرفين لا أكثر، فسيتّضح أنّ للأطراف معنى واسعاً يشمل ساعات اليوم المختلفه.

و هناك احتمال ثالث أيضاً، و هو أنّه إشاره إلى الأذكار الخاصّه التى وردت فى الروايات الإسلاميه فى هذه الساعات المخصوصه، فمثلاً نقرأ

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير الآيه محلّ البحث أنّه قال: «فريضه على كلّ مسلم أن يقول قبل طلوع الشمس عشر مرّات و قبل غروبها عشر مرّات: لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له، له الملك و له الحمد، يحيى و يميت، و هو حي لا يموت، بيده الخير، و هو على كلّ شيء قدير».

إلا- أنّ هذه التفاسير لا- منافاه بينها على كلّ حال، ويمكن أن تكون الآيه إشاره إلى التسيحات و إلى الصلوات الواجبه و المستحبّه فى الليل و النهار، و بهذا فسوف لا يكون هناك تضادّ بين الروايات الواصله فى هذا الباب، لأنّ الجملة فسّرت فى بعض الروايات بالأذكار الخاصّه، و فى بعضها بالصلاه.

و الجدير بالذكر أنّ جملة «لعلّك ترضى» فى الحقيقه نتيجه حمد الله و تسيححه، و الصبر و التحمّل فى مقابل قول أولئك، لأنّ هذا الحمد و التسيح و صلوات الليل و النهار تحكم الرابطه بين الإنسان و ربّه إلى درجه لا يفكّر فيها بأى شىء سواه، فلا يخاف من الحوادث الصعبه، و لا يخشى عدوّا باعتماده على هذا السند و العماد القوى، و بهذا سيملاً الهدوء و الاطمئنان وجوده.

و لعلّ التعبير ب(لعلّ) إشاره إلى ذلك المطلب الذى قلناه فيما مضى فى تفسير هذه الكلمه، و هو أنّ (لعلّ) عاده إشاره إلى الشروط التى تكون لازمه لتحصيل النتيجه، فمثلا لكى تكون الصلاه و ذكر الله سببا لحصول الاطمئنان، يجب أن تقام مع حضور القلب و آدابها الكامله.

ثمّ إنّ المخاطب فى هذه الآيه و إن كان النّبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم، إلا أنّ القرائن تدلّ على أنّ هذا الحكم يتّصف بالعموم.

اشاره

وَلَا تَمِدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ (١٣١) وَ أَمْرُ أَهْلِكَ
بِالصَّلَاةِ وَ اضْطِرُّ عَلَيْهَا لَا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَزُوقُكَ وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ (١٣٢) وَ قَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيْنَهُ مَا فِي
الْصُّحُفِ الْأُولَىٰ (١٣٣) وَ لَوْ أَنَا أَهْلُكُمْ أَهْمَ بَعِيدَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْ لَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَتَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَ
نَخْزَىٰ (١٣٤) قُلْ كُلُّ مُتَرَبِّصٍ فَتَرَبُّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ أَصْحَابُ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَ مَنْ اهْتَدَىٰ (١٣٥)

التفسير

لقد أصدرت في هذه الآيات أوامر و توجيهات للنبي، و المراد منها و المخاطب فيها عموم المسلمين، و هي تتمه للبحث الذي قرأناه آنفا حول الصبر و التحمل.

فتقول أولًا: وَلَا تَمِدَّنْ عَيْنَيْكَ إِلَيَّ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْهُمْ فَإِنَّ هَذِهِ النِّعَمَ الْمُنَزَّلَةَ الزَّائِلَةَ مَا هِيَ إِلَّا زَهْرَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا، تلك الأزهار التي تقطع بسرعه و تذبل و تتناثر على الأرض، و لا تبقى إلا أياما معدودات.

في الوقت الذي أمددناهم بها لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَ رِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ أَبْقَى فَإِنَّ اللَّهَ سَبْحَانَهُ وَ هَبْ لَكَ مَوَاهِبَ وَ نِعْمًا مَتَّوْعَةً، فأعطاك الإيمان و الإسلام، و القرآن و الآيات الإلهية و الرزق الحلال الطاهر، و أخيرا نعم الآخرة الخالدة، هذه الهبات و العطايا المستمرة الدائمة.

و تقول الآية التالية تلطيفا لنفس النبي صلى الله عليه و آله و سلم و تقويه لروحه: وَ أُمِرُّ أَهْلَكَ بِالصَّلَاةِ وَ اضْطَبِرْ عَلَيْهَا لِأَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ بِالنِّسْبَةِ لَكَ وَ لِأَهْلِكَ أَسَاسَ الْعَقَّةِ وَ الطَّهَارَةَ وَ صِفَاءَ الْقَلْبِ وَ سَمُوَ الرُّوحِ وَ دَوَامَ ذِكْرِ اللَّهِ.

لا شك أن ظاهر (أهلك) هنا هو أسره النبي صلى الله عليه و آله و سلم بصورة عامه، إلا أن هذه السورة لما كانت قد نزلت في مكة، فإن مصداق الأهل في ذلك الزمان كان (خديجه و عليا عليهما السلام) و ربما شملت بعضا من أقارب النبي الآخرين، إلا أن مصطلح أهل بيت النبي صلى الله عليه و آله و سلم أصبح واسع الدلالة بمرور الزمن.

ثم تضيف بأنه إذا كان قد صدر الأمر لك و لأهلك بالصلاة فإن نفعها و بركاتها إنما يعود كل ذلك عليكم، فإننا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَحْنُ نَرْزُقُكَ فَإِنَّ هَذِهِ الصَّلَاةَ لَا تَزِيدُ شَيْئًا مِنْ عَظَمَةِ اللَّهِ، بل هي رأس مال عظيم لتكامل البشر و ارتقائهم و درس تعليمي و تربوي عال، إن الله سبحانه ليس كباقي الملوك و الأمراء الذين يأخذون الضرائب من شعوبهم ليديروا بها حياتهم و حياه مقربيهم، فإن الله غنى عن الجميع و يحتاجه الجميع و يفتقرون إليه.

إن هذا التعبير في الحقيقة يشبه ما ورد في سورة الذاريات-الآية (٥٦-٥٨): وَ مَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَ الْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ. مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَ مَا أُرِيدُ أَنْ

يُطْعَمُونَ. إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ و على هذا، فإنَّ نتيجة العبادات ترجع مباشرة إلى نفس العابدين.

و تضعيف الآيه فى النهايه: وَ الْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَى فَإِنَّ مَا بَقِيَ و يفيد فى نهايه الأمر هو التقوى، و الممتقون هم الفائزون فى النهايه، أمّا الذين لا تقوى لهم فهم محكومون بالهزيمه و الانكسار.

و يحتمل أيضا فى تفسير هذه الآيه أن هدفها هو التأكيد فى مجال الروح و التقوى و الإخلاص فى العبادات، لأن هذا أساس العباده، و فى الآيه (٣٧) منسوره الحجّ نقرأ: لَنْ يَدْعَالَ اللَّهُ لُحُومَهُمْ ۗ وَ لَا دِمَائُهُمْ ۗ وَ لَكِنْ يَدْعُوهُ التَّقْوَىٰ مِنْكُمْ فَلَيْسَ ظَاهِرَ الْأَعْمَالِ وَ قشورها هو الذى يوصلكم إلى مقام القرب من الله، بل إن الواقع و الإخلاص و الباطن الذى فيها هو الذى يفتح الطريق إلى مقام القرب منه.

ثم أشارت الآيه التاليه إلى واحده من حجج الكفار الواهيه فقالت: وَ قَالُوا لَوْ لَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ وَ اجابتهم مباشرة: أ وَ لَمْ تَأْتِهِمْ بَيِّنَةٌ ۗ فِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ ۗ حَيْثُ كَانُوا يَشْكُرُونَ و يطلبون الأعذار بصوره متلاحقه من أجل الإتيان بالمعجزات، و بعد رؤيه و مشاهده تلك المعاجز استمروا فى كفرهم و إنكارهم، فحاق بهم العذاب الإلهي، أ فلا يعلمون بأنهم إذا ساروا فى نفس الطريق فسينتظرهم المصير نفسه؟ و يحتمل أيضا فى تفسير هذه الآيه أن المراد من «البيئه» نفس القرآن الذى يبين حقائق الكتب السماويه السابقه على مستوى أعلى، فالآيه تقول: لماذا يطلب هؤلاء معجزه، و يتذرعون بالأعذار الواهيه؟ أليس هذا القرآن مع هذه الامتيازات الكبيره التى تحتوى على حقائق الكتب السماويه السابقه كافيا لهؤلاء؟ و قد ذكر تفسير آخر لهذه الآيه، و هو: إن الرّسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم - مع أنه لم

يكن قد درس و تعلّم-فقد جاء بكتاب واضح جلي ينسجم مع ما كان في متون الكتب السماويه،و هذا بنفسه دليل على الإعجاز.إضافه إلى أنّ صفات النبي و صفات كتابه تنطبق تماما على العلامات التي جاءت في الكتب السماويه السابقه،و هذا دليل أحقيته (١).

و على كلّ حال،فإنّ هؤلاء المتذرّعين ليسوا أناسا طلاب حقّ،بل إنّهم دائما في صدد إيجاد أعذار و تبريرات جديده،فحتّى و لو أنّا أهلكناهم بعذابٍ من قبله لقالوا ربّنا لو لا أرسلت إلينا رسولا فتتبع آياتك من قبل أن نذللّ و نخزي إلا أنّهم الآن و قد جاءهم هذا النبي الكريم بهذا الكتاب العظيم،يقولون كلّ يوم كلاما، و يختلفون الأعذار للفرار من الحقّ.

و قالت الآيه التاليه:أنذر هؤلاء و قلّ كلّ متربّص فنحن بانتظار الوعود الإلهيه في حقّكم،و أنتم بانتظار أن تحيط بنا المشاكل و المصائب فتربّصوا فسّتعلمون من أصحاب الصراط السويّ و من اهتدى و بهذه الجملة الحاسمه العميقه المعنى تنتهى المحاوره مع هؤلاء المنكرين العنودين المتذرّعين.

و خلاصه القول:فإنّ هذه السوره لما كانت قد نزلت في مكّه،و كان النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمون تحت ضغط شديد من قبل الأعداء،فإنّ الله قد واساهم و سرى عن نفوسهم في نهايه هذه السوره،فتاره ينهاهم عن أن تأخذهم و تبهرهم أموال المنكرين الزائله و ثرواتهم،إذ هي للامتحان و الابتلاء و تاره يأمرهم بالصلاه و الاستقامه لتقوى قواهم المعنويه أمام كثره الأعداء.و أخيرا يبشّر المسلمين بأنّ هؤلاء إن لم يؤمنوا فإنّ لهم مصيرا أسود مشؤوما يجب أن يكونوا في انتظاره.

اللهم اجعلنا من المهتمدين و أصحاب الصراط المستقيم.

ص: ١١٣

١ - ١) -التفسير الأوّل في مجمع البيان،و الثاني في الظلال،و الثالث ذكره الفخر الرازي في التفسير الكبير،و هذه التفاسير و إن اختلفت إلا أنّها لا تتضارب فيما بينها،و خاصّه التفسير الثاني و الثالث.

اللهم ألهمنا تلك الشهامه التي لا نرهب معها كثره الأعداء، و لا نضعف عند الحوادث الصعبه.

و اخلع عَنَّا أطمار العناد و اللجاجه، و وفّقنا لقبول الحقّ.

آمين ربّ العالمين نهايه سوره طه

ص: ١١٤

سوره الأنبياء

اشاره

مكيه و عدد آياتها مائه و اثنتا عشره آيه

ص: ١١٥

فضل سوره الأنبياء:

روى عن النبى الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فى فضل تلاوه هذه السوره أنه قال صلى الله عليه وآله وسلم: «من قرأ سوره الأنبياء حاسبه الله حسابا يسيرا، و صافحه و سلم عليه كل نبى ذكر اسمه فى القرآن» (١).

و

عن الإمام الصادق عليه السلام: «من قرأ سوره الأنبياء حيا لها كان كمن رافق النبىين أجمعين فى جنات النعيم، و كان مهيبا فى أعين الناس حياه الدنيا» (٢).

إنّ جملة «حبا لها» مفتاح فى الواقع لفهم معنى الزوايات التى وصلتنا فى مجال فضل سوره القرآن، و هى تعنى أنّ الهدف ليس هو التلاوه و تلفظ الكلمات فقط، بل عشق المحتوى، و من المسلم أنّ عشق المحتوى بلا عمل لا معنى له، و إذا ما ادعى شخص أنّه يعشق السوره الفلانيه، و يخالف عمله مفاهيمها، فإنّه يكذب.

و قد قلنا مرارا: إنّ القرآن كتاب عقيدته و عمل، و القراءه مقدّمه للتفكير و التدبّر، و هو مقدّمه للإيمان و العمل!

محتوى السوره:

١- إنّ هذه السوره كما تدلّ عليها تسميتها هى سوره الأنبياء، لأنّ اسم ستّه

ص: ١١٧

١- ١) - تفسير نور الثقلين ج ٣ ص ٤١٢.

٢- ٢) - المصدر السابق.

عشر نبيا قد جاء في هذه السوره، بعضهم بذكر نماذج و صور من حالاتهم، و البعض كإشاره، و هم:

موسى-هارون-إبراهيم-لوط-إسحاق-يعقوب-نوح-داود-سليمان-أيوب-إسماعيل-إدريس-ذو الكفل-ذو النون(يونس)-
زكريا-يحيى عليهم السلام، و بناء على هذا فإنّ عمده البحوث المهمّه فى هذه السوره تدور حول مناهج الأنبياء.

و إضافه إلى هؤلاء الأنبياء، فإنّ هناك أنبياء آخرين لم تذكر أسماءهم صريحا فى هذه السوره، لكن قد ورد الكلام حولهم، كرسول الله محمد صلى الله عليه و آله و سلم و المسيح عيسى بن مريم عليهما السلام.

٢- إضافه إلى ما مرّ، فإنّ خاصيه السوره المكيه التى تتحدّث عن العقائد الدينيه، و بالأخصّ المبدأ و المعاد، منعكسه تماما فى هذه السوره.

٣- بحث هذه السوره كذلك عن توحيد الخالق، و أنّه لا خالق و لا معبود سواه، و كذلك عن خلق العالم على أساس الهدف و التخطيط، و وحده القوانين الحاكمه على هذا العالم، و كذلك وحده مصدر و منبع الحياه و الوجود، و كذلك اشتراك الموجودات فى مسأله الفناء و الموت.

٤- و تحدث جانب آخر من هذه السوره عن انتصار الحقّ على الباطل، و التوحيد على الشرك، و جنود الحقّ على جنود إبليس.

٥- و الذى يلفت النظر هنا أنّ هذه السوره تبتدئ بتهديد الناس الغافلين الجاهلين بالحساب الشديد، و تنتهى بتهديدات أخرى فى هذا المجال أيضا.

إنّ الأنبياء الذين وردت أسماءهم فى هذه السوره، ذكر تفصيل حياه و نشاطات بعضهم فى سوره أخرى، إلا أنّ التأكيد فى هذه السوره كان أغلبه على أنّ هؤلاء العظام عند ما كانوا يبتلون بالضائقات و المواقف الصعبه، كانوا يمدّون يد التوسّل و الاستعانه نحو لطف الله و عونّه، و كيف أنّ الله سبحانه كان يفتح أمامهم

الطرق المغلقه،و ينجّيهم من الدوامات و تلاطم أمواج البلايا.

فإبراهيم حين ابتلى بنار نمرود.

و يونس حينما حلّ في بطن الحوت.

و زكريا عند ما رأى أنّ شمس عمره قد أوشكت على الغروب و لا خليفه له يكمل مسيره.

كما أنّها تتكلّم على سائر الأنبياء عند وقوعهم في المشاكل الصعبه العسيره.

ص: ١١٩

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ (١) مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ (٢) لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ وَأَسْرُّوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ (٣) قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٤) بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوْلُونَ (٥)

التفسير

إشاره

أعدار متنوعه:

تبدأ هذه السوره- كما أشرنا- بتحذير قوى شديد موجه لعموم الناس، تحذير يهزّ الوجدان و يوقظ الغافلين، فتقول: اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ

إنَّ عمل هؤلاء يدلُّ على أنَّ هذه الغفلة عمّت كلَّ وجودهم، وإلاّ فكيف يمكن للإنسان أن يؤمن باقتراب الحساب.. الحساب الدقيق المتناهي في الدقّة، ومع كلِّ ذلك لا يكثرث بالأموال ويرتكب أنواع الذنوب!! كلمه (اقترب) لها دلالة على التأكيد أكثر من (قرب) و هي إشارة إلى أنَّ هذا الحساب قد أصبح قريباً جداً.

و التعبير (الناس) وإن كان يشمل عموم الناس ظاهراً، وهو يدلُّ على أنَّ الجميع في غفله، إلاّ أنَّ ممّا لا شكّ فيه أنَّ الذين لهم قلوب واعية يقظه على الدوام، ويفكّرون بالحساب و يعملون له فهم مستثنون من هذا العموم.

و الجميل في الأمر أنّه يقول: اقترب الحساب للناس، لا أنَّ الناس اقتربوا للحساب، فكأنَّ الحساب يسرع لاستقبال الناس.

ثمَّ إنَّ الفرق بين «الغفلة» و«الإعراض» يمكن أن يكون من جهة أنَّ هؤلاء غافلون عن اقتراب الحساب، و هذه الغفلة هي تسبّب الإعراض عن آيات الله سبحانه، ف«الغفلة عن الحساب» علّة في الحقيقة، و«الإعراض عن الحقّ» معلول لتلك العلّة. أو أنَّ المراد هو الإعراض عن نفس الحساب، و عن الاستعداد للإجابة في تلك المحكمه الكبرى، أي إنَّهم لمّا كانوا غافلين، فإنَّهم لا يهيّؤون أنفسهم لذلك و يعرضون عنه.

و هنا يأتي سؤال، و هو: ما معنى اقتراب الحساب و القيامة؟ لقد قال البعض: إنَّ المراد منه هو أنَّ ما بقى من الدنيا قليل في مقابل ما مضى منها، و لهذا فإنَّ القيامة ستكون قريبه-قرباً نسبياً-خاصه و أنّه

قد روى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «بعثت أنا و الساعه كهاتين» (١) و أشار إلى السبابه

ص: ١٢١

و الوسطى اللتين تقع إحداهما إلى جنب الأخرى.

وقال البعض الآخر: إن هذا التعبير لكون القيامه موجوده، كما نرى ذلك فى المثل السائر كل ما هو آت قريب.

و لا منافاه بين هذين التفسيرين و يمكن أن تكون الآيه إشاره إلى كلا الأمرين.

و احتمال بعض المفسرين - كالقرطبي - أن يكون الحساب هنا إشاره إلى «القيامه الصغرى»، أى الموت، لأن جزءا من المحاسبه و جزء الأعمال يصل إلى الإنسان حين الموت (1) إلا أن ظاهر الآيه ناظر إلى القيامه الكبرى.

ثم تبين الآيه التاليه علامه من علامات إعراض هؤلاء بهذه الصوره: مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَ هُمْ يَلْعَبُونَ فلم يتفق لهم أن يتدبروا ساعه فى كلام الله المجيد، و يتأملوا فى آياته بجديه، و يحتملوا - على الأقل - أن تكون مؤثره فى حياتهم و عاقبه أمرهم و مصيرهم. فهم لا يفكرون فى الحساب الإلهى، و لا فى تحذيرات الله سبحانه.

و أساسا فإن أحد أسباب شقاء الجهله و المتكبرين هو اتّخاذهم النصائح و مواظب الأخيار لهوا و لعبا دائما، و هذا هو السبب فى عدم تبتهم من غفلتهم، فى حين أنهم لو تعاملوا بصوره جديه مع تلك النصائح و لو مرّه واحده، فربما تغير مسير حياتهم فى تلك اللحظه! كلمه «ذكر» فى الآيه إشاره إلى كل كلام متبّه يوقظ الغافلين، و التعبير ب(محدث) إشاره إلى أن الكتب السماويه كانت تنزل الواحد تلو الآخر، و تحتوى كل سوره من سور القرآن، و كل آيه من آياته محتوى جديدا ينفذ إلى قلوب الغافلين بطرق مختلفه، لكن أى فائده مع من يتخذ كل ذلك هزوا؟

ص: ١٢٢

و أساسا، فإن هؤلاء يفرقون من كل جديد، و يتمسكون و يفرحون لكل الخرافات القديمه التي ورثوها من الآباء و الأجداد، و كأنهم قد تعاهدوا عهدا دائما على أن يخالفوا كل حقيقه جديده، مع أن أساس تكامل الإنسان مبتن على أن يواجه الإنسان كل يوم مسائل جديده.

ثم تقول من أجل زياده التأكيد: [□] لَاهِيَهُ قُلُوبُهُمْ لِأَنَّهُمْ فِي الظاهر يتخذون كل المسائل الجديده لهوا و لعبا- كما تشير جملة «يلعبون» إلى ذلك، حيث وردت بصيغه فعل مضارع مطلق- و هم في الباطن مشغولون باللهو و المسائل التي لا قيمه لها، التي تجعلهم في غفله عن الواقع. و من الطبيعي أن مثل هؤلاء الأشخاص سوف لا يجدون طريق السعاده، و لا يوفقون إليه.

ثم تشير إلى جانب من الخطط الشيطانيه فتقول: [□] [□] وَ أَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشْرٌ مِثْلُكُمْ (١) و إذا لم يكن سوى بشر اعتيادي، فلا بد أن تكون أعماله الخارقه و نفوذ كلامه سحرا، و لا يمكن أن يكون شيئا آخر: أفتأتون السحَرَ وَ أَنْتُمْ تُبْصِرُونَ؟ قلنا: إن هذه السوره نزلت في مكه، و في تلك الأيام التي كان فيها أعداء الإسلام في غايه القوه و المنعه، فأى داع يدعوهم لإخفاء كلامهم، بل و حتى نجواهم؟ (و ينبغي الالتفات إلى أن القرآن يقول إنهم كانوا يخفون حتى مناجاتهم).

قد يكون ذلك من أجل أن هؤلاء كانوا يتشاورون في المسائل التي تتصف بالتخطيط و التآمر، حتى يظهروا أمام عامه الناس موقفا واحدا ضد النبي صلى الله عليه و آله و سلم.

إضافه إلى أن هؤلاء كانوا من ناحيه القوه متفوقين حتما، إلا أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين كانوا من ناحيه المنطق و القوه و نفوذ الكلام أكثر تفوقا، و هذا التفوق هو الذى دفع هؤلاء إلى أن يتشاوروا في الخفاء لانتخاب الأجوبه المصطنعه في

ص: ١٢٣

١ - ١) - في لغه العرب إذا كان الفعل اسما ظاهرا فيؤتى عاده بفعل مفرد، إلا أن هذه ليست قاعده عامه و ثابتة، بل يأتون -لعلل خاصه- بالفعل بصيغه الجمع و بالفاعل اسما ظاهرا و جملة وَ أَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا من هذا القبيل أيضا.

مقابل النبي صلى الله عليه وآله وسلم.

على كل حال، فإن هؤلاء قد أكدوا على مسألتين في أقوالهم: إحداهما: كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشرا، والأخرى: تهمه السحر، وستأتي الاتهامات الأخرى في الآيات التالية أيضا، ويتصدى القرآن الكريم لجوابها.

إلا- أن القرآن يجيبهم بصورة عامه على لسان النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيقول: [□] قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ فَلَا تَتصَوَّرُوا أَنَّ نَجْوَاكُمْ وَمؤامراتكم المخفيه تخفى عليه وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ فهو يعلم كل شىء، ومطلع على كل شىء، فلا يسمع كلامكم وحسب، بل هو مطلع حتى على الأفكار التي تمر في أذهانكم، والقرارات التي في صدوركم.

بعد ذكر نوعين من تذرعات المخالفين، يتطرق القرآن إلى ذكر أربعة أنواع أخرى منها، فيقول: [□] بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ [□] (1) وهم يعتقدون أنها حقيقه.

وقد يغيرون كلامهم هذا أحيانا فيقولون: [□] بَلْ افْتِرَاءٌ وَنَسْبَةٌ إِلَى اللَّهِ.

ويقولون أحيانا: [□] بَلْ هُوَ شَاعِرٌ، وهذه الآيات مجموعه من خيالاته الشعريه.

وفي المرحله الرابعه يقولون: [□] إِنَّا نَتَجَاوَزُ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ إِذَا كَانَ مَرْسَلًا مِنَ اللَّهِ حَقًّا فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ .

إن التحقيق في هذه الادعاءات المتضاده المتناقضه في حق النبي صلى الله عليه وآله وسلم سيوضح أنها بنفسها دليل على أنهم لم يكونوا طلاب حق، بل كان هدفهم خلق الأعداء، وإخراج خصمهم من الحلبه بأيه قيمه و ثمن، وبأى صوره كانت.

فهم يعتبرونه ساحرا تاره، وأخرى شاعرا، وثالثه مفتريا، وأخرى إنسانا

ص: ١٢٤

١ - ١) - «أضغاث» جمع ضغث، وهو حزمه الحطب أو الأعشاب اليابسه وما شاكل ذلك، و«الأحلام» جمع حلم وهو المنام والرؤيه، ولما كان جمع حزمه حطب يحتاج أن يجمعوا عدّه أشياء متفرقه إلى بعضها، فإن هذا التعبير اطلق على المنامات المضطربه المتفرقه.

يختلط الأمر عليه و يهجر-و العياذ بالله-فهو يحسب مناماته المضطربه و حيا! و يقولون حيننا:لماذا أنت بشر؟و يتذرعون أحيانا بطلب معجزه جديده مع كل تلك المعاجز.

إذا لم يكن لدينا دليل على بطلان كلامهم إلا هذا الاضطراب و التمزق،فإنه كاف لوحده،و لكننا سنرى فى الآيات التاليه أنّ القرآن سيحييهم جوابا حاسما من طرق أخرى أيضا.

ملاحظه:

اشاره

هل القرآن محدث؟

لقد أورد جمع من المفسرين فى ذيل الآيات-لوجود كلمه(محدث)فى الآيه الثانيه من الآيات محلّ البحث-بحوثا جمّه حول كون كلام الله حادثا أم قديما؟و هى نفس المسأله التى أثيرت فى زمن خلفاء بنى العباس و صارت مثارا للجدل لسنين طويله،و كانت قد لفتت انتباه و أفكار جماعه من العلماء.

إلا أننا نعلم اليوم جيدا أنّ معظم هذا الموضوع كان يراد منه الإشغال السياسى ليهتمّ به علماء الإسلام،و ينصرفوا عن المسائل الضروريّه و الأساسيه التى تتعلّق بشؤون الحكومه و كفيئته حياه الناس،و حقائق الإسلام الأصيله.

و اليوم اتّضح لنا تماما أنّ المراد من كلام الله محتواه و مضمونه،و هو قديم قطعا،أى إنّه كان دائما فى علم الله،و إنّ علم الله الواسع كان محيطا بالقرآن على الدوام.و إذا كان المراد منه هذه الألفاظ و الكلمات،و هذا الوحي الذى نزل على النّبي صلى الله عليه و آله و سلم فلا شكّ فى أنّه حادث.

أى عاقل يقول:إنّ ألفاظ القرآن و كلماته أزليه؟أو أنّ نزول الوحي على النّبي صلى الله عليه و آله و سلم لم يكن من بدايه أمر الرساله؟و بناء على هذا فأنتم تلاحظون بأنّ

ص: ١٢٥

المسأله واضحه وضوح الشمس فى جميع أبعادها.

و بتعبير آخر فإنّ القرآن يحتوى على ألفاظ و معان: فألفاظه حادثه قطعاً، و معانيه قديمه قطعاً، و على هذا فلا مجال للبحث و المناقشه.

ثمّ إنّ أىّ مشكله علميه و اجتماعيه و سياسيه و أخلاقيه فى المجتمع الإسلامى يحلّها هذا البحث آنذاك؟ و لماذا خدع بعض العلماء السابقين بأساليب الحكام المكره المتآمرين الخداعه؟ و لهذا نرى أنّ بعض أئمّه أهل البيت عليهم السّلام بعد بيان هذه المسأله، قد حدّروا هؤلاء من هذه البحوث، و دعوهم إلى الابتعاد و الامتناع عنها (1).

ص: ١٢٦

(١-١) -نور الثقلين الجزء ٣ ص ٤١٢.

إشاره

﴿أَمِنْتَ قَبْلَهُمْ مِنْ قَوْمِهِ أَهْلَكْنَاهُمْ أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ﴾ (٦) وَ﴿أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَسِئَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٧) وَ﴿جَعَلْنَاهُمْ جِسَدًا لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَمَا كَانُوا خَالِدِينَ﴾ (٨) ثُمَّ صَدَقْنَاهُمُ الْوَعِيدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَأَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ﴾ (٩) لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ (١٠)

التفسير

إشاره

كلّ الأنبياء كانوا بشرا:

قلنا: إنّ سته إشكالات و إيرادات قد أعيد ذكرها في الآيات السابقة، وهذه الآيات التي نبحتها تجيب عنها، تاره بصوره عامه جامعه، و أخرى تجيب عن بعضها بالخصوص.

أشارت الآيه الأولى إلى المعجزات المقترحه لأولئك، و نقصد منها:

المعجزات المقترحه حسب أهوائهم تذرعا، فنقول: إنّ جميع المدن و القرى التي

أهلكتنا سابقا كانت قد طلبت مثل هذه المعاجز، و لكن لما استجيب طلبهم كذبوا بها، فهل يؤمن هؤلاء؟: ﴿مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَفَهُمْ يُؤْمِنُونَ؟﴾ و هي تنذرهم بصورة ضمته بأن الآيات لو تحققت على ما اقترحتم ثم لم تؤمنوا، فإن فناءكم حتمي! و يحتمل أيضا في تفسير هذه الآية أن القرآن يشير- في هذه الآية- إلى كل إشكالات هؤلاء المتناقضه و يقول: إن هذا التعامل مع دعوه الأنبياء الحقيقيين ليس جديدا، فإن الأفراد العنودين كانوا يتوسلون دائما بهذه الأساليب، و لم تكن عاقبه عملهم و أمرهم إلا الكفر، ثم الهلاك و العذاب الأليم.

ثم تطرقت الآية التاليه إلى جواب الإشكال الأول-خاصه- حول كون النبي صلى الله عليه و آله و سلم بشرا، فتقول: إنك لست الوحيد في كونك نبيا، و في نفس الوقت أنت بشر و ﴿مَّا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِمْ فَإِنَّ هَذِهِ حَقِيقَةُ تَارِيخِيهِ يَعْرِفُهَا الْجَمِيعُ فَسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾.

من هم أهل الذكر؟

لا- شك أن أهل الذكر تشمل من الناحيه اللغويه كل العلماء و المطلعين، و الآية أعلاه تبين قانونا عقلائيًا عامًا في مسأله (رجوع الجاهل إلى العالم) فإن مورد و مصداق الآية و إن كان علماء أهل الكتاب، إلا أن هذا لا يمنع من عموميه القانون. و لهذه العله استدل علماء و فقهاء الإسلام بهذه الآية في مسأله «جواز تقليد المجتهدين المسلمين».

و إذا رأينا في بعض الروايات التي وصلتنا عن أهل البيت عليهم السلام بأن أهل الذكر قد فسرت بعلى عليه السلام أو سائر الأئمه عليهم السلام، فلا يعنى ذلك الحصر، بل هو بيان لأوضح مصاديق هذا القانون الكلى. و لزياده الإيضاح حول هذا الموضوع، اقرأ تفسير الآية (٤٣) من سوره النحل من هذا الكتاب.

ثم تعطي الآيه التاليه توضيحا أكثر حول كون الأنبياء بشرا، فتقول: **وَمَا جَعَلْنَاهُمْ جَسَداً لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَ مَا كَانُوا خَالِدِينَ** . و جملة **لَّا يَأْكُلُونَ الطَّعَامَ** إشاره إلى ما جاء فى موضع آخر من القرآن فى نفس هذا الموضوع: **وَقَالُوا مَا لِهَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشَى فِي الْأَسْوَاقِ (١)** .

و جملة **مَا كَانُوا خَالِدِينَ** أيضا تكمله لنفس هذا المعنى، لأنّ المشركين كانوا يقولون: كان من الأفضل أن يرسل ملك مكان البشر، ملك له الخلود، و لا- تمتدّ إليه يد الموت! فأجابهم القرآن بأنّ أتيا من الأنبياء السابقين لم يكتب له الخلود حتّى يكتب لرسول الله (محمّد) الخلود و«البقاء فى هذه الدنيا».

على كلّ حال، فلا شكّ- كما قلنا ذلك مرارا- فى أنّه يجب أن يكون قائد البشر و مرشدهم من جنسهم، بنفس تلك الغرائز و العواطف و الأحاسيس و الحاجات و العلاقات حتّى يحسّ بالامهم و عذابهم، و لينتخب أفضل طرق العلاج باستلهامه من معلوماته ليكون قدوه و أسوه لكلّ البشر، و يقيم الحجّج على الجميع.

ثمّ تحذّر الآيه و تهدّد المنكرين المتعصّبين العنودين، فتقول: **إِنَّا كُنَّا قَدْ وَعَدْنَا رَسُلَنَا بَل نَنْقُذُهُمْ مِنْ قَبْضِ الْأَعْدَاءِ، وَ نَبْطَلُ كَيْدَ أَوْلِيائِكَ الْأَشْرَارِ ثُمَّ صَدَقْنَاَهُمُ الْوَعْدَ فَأَنْجَيْنَاهُمْ وَمَنْ نَشَاءُ وَ أَهْلَكْنَا الْمُسْرِفِينَ** .

أجل، فكما أنّ سنّتنا كانت إختيار قاده البشر من بين أفراد البشر، كذلك كانت سنّتنا أن نحميهم من مكائد المخالفين، و إذا لم تؤثّر المواعظ و النصائح المتلاحقه أثرها فى المخالفين، فإننا سنطهّر الأرض من وجودهم القذر.

و من المعلوم أنّ المراد من «و من نشاء»: الإراده التى تدور حول معيار الإيمان و العمل الصالح، كما أنّ من الواضح أيضا أنّ المراد من «المسرفين» هنا هم الذين أسرفوا فى حقّ أنفسهم و مجتمعهم الذى يعيشون فيه عن طريق إنكار

ص: ١٢٩

الآيات الإلهية و تكذيب الأنبياء، و لهذا نرى القرآن فى موضع آخر يقول: كَذَلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنَاجِ الْمُؤْمِنِينَ (١).

أمّا آخر آية من الآيات مورد البحث، فتجيب-مرّه أخرى- فى جملة قصيره عميقه المعنى عن أكثر إشكالات المشركين، فتقول: لَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ كِتَابًا فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ يَتَدَبَّرُ آيَاتِ هَذَا الْكِتَابِ الَّذِى هُوَ أَسَاسُ التَّذَكُّرِ وَ حَيَاةِ الْقَلْبِ، وَ حَرَكَةِ الْفِكْرِ، وَ طَهَارَةِ الْمَجْتَمَعِ، سَيَعْلَمُ جَيِّدًا أَنَّهُ مَعْجَزُهُ وَاضِحٌ وَ خَالِدُهُ، وَ مَعَ وَجُودِ هَذِهِ الْمَعْجَزَةِ الْبَيِّنَةِ الَّتِى تَظْهَرُ فِيهَا آثَارُ الْإِعْجَازِ مِنْ جِهَاتٍ مُخْتَلِفَةٍ... مِنْ جِهَةِ الْجَاذِبِيَّةِ الْخَارِقَةِ، وَ مِنْ جِهَةِ الْمَحْتَوَى، الْأَحْكَامِ وَ الْقَوَانِينِ، الْعَقَائِدِ وَ الْمَعَارِفِ، وَ.. فَهَلْ لَا زَلْتُمْ بِانْتِظَارِ مَعْجَزِهِ أُخْرَى؟ أَى مَعْجَزُهُ تَقْدِرُ أَنْ تَثْبِتَ أَحَقِّيَّةَ دَعْوَةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ أَحْسَنَ مِنْ هَذِهِ الْمَعْجَزَةِ؟ وَ فَضْلًا عَمَّا مَرَّ، فَإِنَّ آيَاتِ هَذَا الْكِتَابِ تَصْرُخُ بِأَنَّهَا لَيْسَتْ سِحْرًا، بَلْ هِيَ حَقَائِقُ وَ تَعْلِيمَاتُ غَيْبِيَّةِ الْمَحْتَوَى وَ جَذَابَةٌ، أَمْ تَقُولُونَ بَعْدَ ذَلِكَ أَنَّهَا سِحْرٌ؟ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تُوصَفَ هَذِهِ الْآيَاتُ بِأَنَّهَا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ؟ فَأَيْنَ هِيَ الْأَحْلَامُ الْمَضْطَرِبَةُ الَّتِى لَا مَعْنَى لَهَا مِنْ هَذَا الْكَلَامِ الْمُنْسَجَمِ الْمَوْزُونِ؟ وَ أَيْنَ الثَّرَى مِنَ الثَّرِيَا؟ هَلْ يُمْكِنُ أَنْ تُعْتَبَرَ تِلْكَ الْآيَاتُ كَذْبًا وَ افْتِرَاءً مَعَ أَنَّ آثَارَ الصِّدْقِ بَادِيَةٌ فِي كُلِّ مَكَانٍ مِنْهَا؟ أَمْ أَنَّ مَنْ جَاءَ بِهَا كَانَ شَاعِرًا، فِى حِينِ أَنَّ الشَّعْرَ يَدُورُ حَوْلَ مَحْوَرِ الْخِيَالِ، وَ آيَاتِ هَذَا الْكِتَابِ تَدُورُ كُلُّهَا حَوْلَ مَحْوَرِ الْوَاقِعِيَّاتِ وَ الْحَقَائِقِ؟ وَ بِكَلِمَةِ قَاصِرِهِ، إِنَّ الدَّقَّةَ وَ الْبَحْثَ فِي هَذَا الْكِتَابِ يَثْبِتُ أَنَّ هَذِهِ الْأَدْعَاءَ مُتَضَادَّةً مُتَنَاقِضَةً غَيْرَ مُنْسَجَمَةٍ، وَ هِيَ كَلَامُ الْمَغْرُضِينَ الْجَهْلَةَ.

ص: ١٣٠

(١-١) - يونس، ١٠٣.

و اختلف المفسرون فى معنى كلمه «ذكر كم» فى الآيه آنفه الذكر، و ذكروا لها تفاسير مختلفه.

فذهب بعضهم: إنَّ المراد هو أنَّ آيات القرآن منبع الوعى و التذكُّر بين أفراد المجتمع، كما يقول القرآن فى موضع آخر: فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخَافُ وَعِيدِ (١).

و قال آخرون: إنَّ المراد أنَّ هذا القرآن سيرفع اسمكم و مكانتكم فى الدنيا، أى إنَّه أساس عزِّكم و شرفكم أيها المؤمنون و المسلمون، أو أنتم أيها العرب الذين نزل القرآن بلسانكم، و إذا أخذ منكم فسوف لا يكون لكم اسم و لا رسم فى العالم.

و البعض الآخر قالوا: إنَّ المقصود هو أنَّه قد ذكر فى هذا القرآن كلَّ ما تحتاجون إليه فى أمور الدين و الدنيا، أو فى مجال مكارم الأخلاق.

و بالرغم من أنَّ هذه التفاسير لا ينافى بعضها بعضا، و يمكن أن تكون مجتمعه فى تعبير «ذكر كم»، إلا أنَّ التفسير الأوَّل يبدو هو الأظهر.

فإن قيل: كيف يكون هذا القرآن أساس الوعى و اليقظه، فى حين أنَّ كثيرا من المشركين قد سمعوه فلم ينتبهوا؟ قلنا: إنَّ كون القرآن موقظا و متبها لا يعنى إجباره الناس على هذا الوعى، بل إنَّ الوعى مشروط بأن يريد الإنسان و يصمّم، و أن يفتح نوافذ قلبه أمام القرآن.

ص: ١٣١

اشاره

وَ كَمْ قَصِيدًا مِّنْ قَوْمِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ (١١) فَلَمَّا أَحْسَبُوا أَنَسِينَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١٢) لَا تَرْكُضُوا وَ
إِرْجِعُوا إِلَىٰ مَلِكِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَسْئَلُونَ (١٣) قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا لِمَا نُرِيدُ إِذَا كُنَّا ظَالِمِينَ (١٤) فَلَمَّا زَالَتْ تِلْمَكٌ دَعَا هُمْ حَتَّىٰ
جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ (١٥)

التفسير

اشاره

كيف وقع الظالمون في قبضه العذاب؟

تبيّن هذه الآيات مصير المشركين و الكافرين مع مقارنته بمصير الأقسام الماضين، و ذلك بعد البحث الذي مرّ حول هؤلاء. فتقول
الآيه الاولى: وَ كَمْ قَصِيدًا مِّنْ قَوْمِهِ كَانَتْ ظَالِمَةً وَ أَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ .

فمع ملاحظه أنّ «القسم» يعنى الكسر المقترن بالشده، بل ورد أحيانا بمعنى التفيت و التقطيع، و مع ملاحظه التأكيد على ظلم هذه
الأقسام و جورها، فإنها توحى بأنّ الله سبحانه قد أعدّ أشدّ العقاب و الانتقام للأقسام الظالمين الجائرين.

و تشير الآيه ضمنا إلى أنّكم إذا درستم تاريخ السابقين و بحثتم فيه فستعلمون

بأن تهديدات نبي الإسلام لم تكن مزاحاً أو اعتباطاً، بل هي حقيقة مره يجب أن تفكروا فيها.

عند ذلك توضّح الآيه حال هؤلاء عند ما تتسع دائره العذاب لتشمل ديارهم العامره، و عجزهم أمام العقاب الإلهي، فتقول: فَلَمَّا أَحْسُوا بِأَسْنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ (١) تماماً كفلول جيش منهزم يرون سيوف العدو مسلوله وراءهم فيتفرقون في كلّ جانب.

إلا أنه يقال لهؤلاء من باب التوبيخ و التقرّيع: لَا تَرْكُضُوا وَ ارْجِعُوا إِلَيَّ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَ مَسَاكِينِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ .

إن هذه العبارة قد تكون إشاره إلى أنّ هؤلاء حينما كانوا غارقين في تلك النعمه الوفيره، كان السائلون و طالبو الحاجات يترددون دائماً إلى أبوابهم، يأتون و الأمل يقدمهم، و يرجعون بالخبيه و الحرمان، فالآيه تقول لهم: ارجعوا و أعيدوا ذلك المشهد اللعين. و هذا في الحقيقه نوع من الاستهزاء و الملامه.

و احتمال بعض المفسرين أن تكون جمله لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ إشاره إلى قدره و ثروه هؤلاء في الدنيا، حيث كانوا يجلسون في زاويه و علائم الابتهه و الكبرياء باديه عليهم، و كان الخدم يأتون إليهم و يحضرون عندهم بصوره متواليه و يسألون إن كان لديهم أمر أو عمل يقومون به.

أمّا من هو قائل هذا الكلام؟ فلم تصرّح الآيه به، فمن الممكن أن يكون نداء بواسطه ملائكه الله، أو أنبيائه و رسله، أو نداء صادر من داخل ضميرهم الخفي و وجدانهم.

في الحقيقه إنه نداء إلهي يقول لهؤلاء: لا تفزّوا و ارجعوا، و كان يصل إليهم يا حدى هذه الطرق الثلاث.

ص: ١٣٣

١ - ١) - «الركض» يأتي بمعنى ركض الإنسان بنفسه، أو بمعنى إركاض المركب و الدابّه، و يأتي أحياناً بمعنى ضرب الرجل على الأرض مثل أَرْكُضُ بِرِجْلِكَ هَذَا مُعْتَسِلٌ بَارِدٌ وَ شَرَابٌ سَوْءٌ - ص ٤٢.

و الجميل هنا أنه قد ركّز على المسكن خاصّه من بين كلّ النعم الماديّه، وربّما كان ذلك بسبب أنّ أوّل وسائل استقرار الإنسان هو وجود سكن مناسب. أو أنّ الإنسان يصرف أكثر مورد حياته في بيته، وكذلك فإنّ أشدّ تعلقه إنّما يكون بمسكنه.

على كلّ حال، فإنّ هؤلاء يعون في هذا الوقت حقيقه الأمر، و يرون ما كانوا يظنونونه مزاحا من قبل قد تجلّى أمامهم بصورة جديّه تماما، فتعلو صرختهم:

قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ

إلّا أنّ هذا الوعي الاضطرارى للإنسان عند ما يواجه مشاهد العذاب لا قيمه له، ولا يؤثّر في تغيير مصير هؤلاء، ولذلك فإنّ القرآن في آخر آيه من الآيات محلّ البحث يضيف: **فَمَا زَالَتْ تِلْكَ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَا لَهُمْ حَصِيدًا فَيَلْقَوْنَهُمْ عَلَى الْأَرْضِ كَالزَّرْعِ الْمَحْصُودِ، وَتَبَدَّلَ مَدِينَتَهُمُ الَّتِي غَمَرْتَهَا الْحَيَاءُ وَالْحَرَكَةُ وَالْعِمْرَانُ إِلَىٰ قُبُورٍ مَّهْدَمَةٍ مَّظْلَمَةٍ، فَيَصْبِحُوا خَامِدِينَ (١).**

ص: ١٣٤

(١-١) -خامد من مادّه الخمود، بمعنى انطفاء النّار، ثمّ أطلقت على كلّ شيء يفقد حرّته و فاعليّته و نشاطه.

إشاره

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ (١٦) لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهُمْ لَاتَّخِذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ (١٧) بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى البَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَ لَكُمْ الأُولُ وَمِمَّا تَصِفُونَ (١٨)

التفسير

إشاره

خلق السماء والأرض ليس لهوا:

لما كانت الآيات السابقة قد عكست هذه الحقيقة و هي: إن الظالمين الذين لا إيمان لهم لا يعتقدون بوجود هدف و غايه من خلقهم إلا الأكل و الشرب و الملهذات، و يظنون أن العالم بلا هدف، القرآن الكريم يقول في الآيات التي نبعتها من أجل إبطال هذا النوع من التفكير، و إثبات وجود هدف عال و سام من وراء خلق كل العالم، و خاصه البشر: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ .

إن هذه الأرض الواسعه، و هذه السماء المتراميه الأطراف، و كل هذه الموجودات المتنوعه البديعه التي توجد في ساحتها تبين أن هدفها مهمًا في خلقها

...نعم، إنّ الهدف هو بيان قدره الخالق الجليل، وإبراز جانب من عظمته من جهة، و من جهة أخرى ليكون دليلاً على المعاد، وإلاّ فإنّ كلّ هذه الضجّة والغوغاء إن كانت لبضعة أيّام فلا معنى لها.

هل يمكن أن يبني الإنسان قصراً في وسط صحراء، ويجهّزه بكلّ الوسائل، و ذلك من أجل أن يستريح فيه ساعة واحدة-طول عمره-عند مروره عليه؟ بعبارة موجزة: إذا نظرنا إلى هذا العالم العظيم من منظار الكفّار، فسنراه لا فائده فيه و لا هدف منه، و الإيمان بالمبدأ و المعاد هو الذي يجعل له معنى و غاية.

ثمّ تقول الآية التالية: الآن و قد ثبت أنّ العالم له هدف فإنّه لا ريب في أنّ الهدف من هذا الخلق لم يكن أن يلهو الله سبحانه و تعالى عن ذلك، فإنّ هذا الله غير معقول، ف لو أردنا أن نتخذَ لهواً لا تتخذناه من لدنا إنّ كنا فاعلين .

«اللعب» يعنى العمل الغير هادف، و«اللهو» إشارة إلى الأهداف غير المعقولة و الملاهى.

هذه الآية تبين حقيقتين:

الأولى: أنّه بملاحظه كلمه (لو)، و هى فى لغة العرب للامتناع، فهى تشير إلى أنّ من المحال أن يكون هدف الله هو اللهو.

و الأخرى: أنّه على فرض أنّ الهدف هو اللهو، فيجب أن يكون لهواً مناسباً لذاته، كأن يكون من عالم المجردات و أمثال ذلك، لا من عالم المادّة المحدود (1).

ثمّ تقول بلهجه قاطعه من أجل إبطال أوهام الجاهلين الذين يظنون عدم

ص: ١٣٦

١ - ١) - اعتبر بعض المفسّرين الآيات إعلاءً إشاره إلى نفى عقائد المسيحيين، أى اعتقدوا أنّ اللهو بمعنى الزوج و الزوجه و الولد. و قالوا: إنّ الآية تجيب هؤلاء و تقول: إنّنا إذا كنّا نريد أن نختار صاحبه و الولد فلم نكن ننتخبهما من جنس البشر. إلاّ أنّ هذا التفسير لا يبدو مناسباً من عدّه جهات، و من جملة ما أنّ ارتباط الآيات أعلاه بالآيات السابقة سينقطع، و الأخرى أنّ كلمه «اللهو» و خاصه إذا كانت بعد كلمه اللعب، تعنى التسلى لا المرأه و الولد.

هدفية الدنيا، بل هي للهو و اللعب فقط: إن هذا العالم مجموعه من الحق و الواقع، و لم يقم أساسه على الباطل بل نُقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ .

و تقول فى النهايه: وَ لَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ و تتحدّثون عن عدم هدفية الخلق.

أى إنّنا نجعل الأدلّة العقليّة و الاستدلالات الواضحة و المعجزات البيّنة إلى جانب ظنون و أوهام اللاهدين، لتتبخّر و تتلاشى هذه الأوهام فى نظر العلماء و أصحاب الفكر و الرأى.

إنّ أدلّه معرفه الله واضحه، و أدلّه وجود المعاد بيّنه، و براهين أحقيّه الأنبياء جليّه، و الحقّ يمكن تمييزه عن الباطل تماما إذا لم يكن الشخص من المعاندين.

و ممّا يستحقّ الانتباه أنّ جملة «نقذف» من مادّه (قذف) بمعنى الإلقاء، و خاصّه الإلقاء من طريق بعيد، و لمّا كان للقذف من بعيد سرعه و قوّه أكثر، فإنّ هذا التعبير بيّن قدره انتصار الحقّ على الباطل. و كلمه «على» أيضا مؤيّده لهذا المعنى.

و جملة «يدمغه» على قول الراغب كسر «الجمجمه و الدماغ»، و تعتبر أكثر نقطه فى بدن الإنسان حساسيّة، و هو تعبير بليغ عن غلبه جند الحقّ غلبه واضحه قاطعه.

و التعبير ب(إذا) توحى بأنّا حتّى فى الموارد التى لا ينتظر و لا يتوقّع انتصار الحقّ فيها، فإنّنا سنجرى هذه السنّه. و التعبير ب«زاهق» و الذى يعنى الشىء المضمحل، تأكيد على هذا المقصود.

و أمّا أنّ جملتى (نقذف) و (يدمغ) قد جاءتا بصيغته الفعل المضارع، فهو دليل على استمرار هذه السنّه.

الهدف من الخلق:

فى الوقت الذى لا يعترف المادّيون بهدف للخلق، لأنهم يعتقدون أنّ الطبيعه الفاقده للعقل و الشعور و الهدف هى التى ابتدأت الخلق، و لهذا فإنهم يؤيّدون اللغويه و عدم الفائده فى مجموعه الوجود، فإنّ الفلاسفه الإلهيين و إتباع الأديان جميعا يعتقدون بوجود هدف سام للمخلوقات، لأنّ المبدئ للخلق قادر و حكيم و عالم، فمن المستحيل أن يقوم بعمل لا فائده فيه.

و هنا ينقدح هذا السؤال: ما هو الهدف؟ قد نتوهم أحيانا نتيجة قياس الله سبحانه على ذاتنا و أنفسنا و نتساءل: هل كان الله محتاجا و ينقصه شىء، و كان يريد بخلق الوجود، و من جملة الإنسان، أن يسدّ ذلك النقص و يرفع تلك الحاجه؟ هل هو محتاج لعبادتنا و دعائنا و مناجاتنا؟ هل كان يريد أن يعرف فخلق الخلق ليعرف؟ إلا أنّ هذا كما قلنا خطأ كبير ناشئ من المقارنه بين الله و خلقه، فى حين أنّ هذه المقارنه و القياس غير الصحيح هو أكبر سدّ و مانع فى بحث معرفه صفات الله، و لذلك فإنّ أوّل أصل فى هذا البحث هو أن نعلم أنّ الله سبحانه لا يشبهنا فى أى شىء.

فالإنسان موجود محدود من كلّ النواحي، و لذلك فإنّ كلّ مساعينا هى من أجل رفع نواقصنا و احتياجاتنا، ندرس لتتعلّم فتمحو نقص جهلنا، و نسعى للعمل و الكسب لدفع الفقر و نكسب الثروه، نهيبّ الجيوش و القوى لنسدّ النقص فى قوانا أمام العدو، و حتّى فى الأمور المعنويه أو تهذيب النفس أو التكامل المعنوى و الروحى، فإنّ السعى و الجدّ فى كلّ ذلك من أجل رفع النواقص...

و لكن، هل من المعقول أن يقوم الوجود المطلق غير المتناهى فى كلّ الجهات

(فعلمه و قدرته و قوّته غير محدوده، و لا يعانى أى نقص فى الوجود) بعمل لرفع حاجته؟ يتّضح من هذا التحليل أنّ الخلق ليس عبثاً من جهه، و من جهه أخرى فإنّ الهدف من الخلق لا- يعود إلى الخالق. و هنا يمكن أن نصل ببساطه إلى نتیجه، و هى: أنّ الهدف، حتماً و بلا شكّ، أمر يرتبط بنا.

و مع ملاحظه هذه المقدمه يمكن التوصل إلى أنّ هدف الخلقه هو تكاملنا و ارتقاؤنا و لا شىء سواه.

و بتعبير آخر فإنّ عالم الوجود بمثابة مدرسه لتكاملنا فى مجال العلم.

و دار حضانه لتربيته و تهذيب نفوسنا.

و متجر لكسب الموارد المعنويه، و أرض زراعيه غنيه صالحه لإنتاج أنواع المحصولات الإنسانيه.

أجل

«الدنيا مزرعه الآخره... الدنيا دار صدق لمن صدقها، و دار غنى لمن تزوّد منها، و دار موعظه لمن اتّعظ بها» (١).

إنّ هذه القافله قد تحركت من عالم العدم، و هى تسير دائماً إلى ما لا نهايه له.

و يشير القرآن المجيد إشارات قصيره عميقه المعنى جدّاً فى آيات مختلفه إلى وجود هدف معيّن من الخلق من جهه، و من جهه أخرى فإنّه يشخص هذا الهدف و يوضّحه.

فيقول فى الجانب الأوّل: أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى (٢).

أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ

(٣)

ص: ١٣٩

١- (١) - نهج البلاغه، الكلمات القصار، رقم ١٣١.

٢- (٢) - القيامة، ٣٦

٣- (٣) - المؤمنون، ١١٥

وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَٰلِكَ ظَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا

(١)

و في الجانب الآخر، فإنه جعل هدف الخلق في بعض الآيات عبودية الله و عبادته: وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ (٢)، و من البديهي أن العباده منهج لتربيه الإنسان في الأبعاد المختلفه...العباده بمعناها الشمولى التى هى التسليم لأمر الله ستهب روح الإنسان تكاملا فى الأبعاد المختلفه، و قد بينا تفصيله فى ذيل الآيات المرتبطه بالعبادات المختلفه.

و يقول: أحيانا إن الهدف من الخلقه هو إيقاظكم و توعيتكم و تقويه إيمانكم و اعتقادكم: اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٣).

و يقول تاره: إن الهدف من الخلق هو اختبار حسن عملكم: الَّذِي خَلَقَ المَوْتَ وَ الحَيَاةَ لِيُبْلُوَكُمْ أَتَيْكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا (٤).

إن الآيات الثلاث آنفه الذكر و التى يشير كل منها إلى بعد من أبعاد وجود الإنسان الثلاث-بعد الوعى و الإيمان، و بعد الأخلاق، و بعد العمل-تبيّن هدف الخلق التكاملى الذى يعود على الإنسان نفسه.

و يجدر أن نشير إلى هذه «اللطفه»، و هى أنه لما كانت آيات القرآن غير حاويه لكلمه التكامل، فإن بعضا يتصوّر أنها من الأفكار المستورده، إلا أن الردّ على مثل هذا التصوّر أو الإشكال واضح، لأننا لسنا فى صدد الألفاظ الخاصه، فمفهوم التكامل و مصاديقه جليّه فى الآيات آنفه الذكر، ترى ألم يكن العلم مصداقه الواضح.. أم لم يكن الارتقاء فى العبوديه و حسن العمل من مصاديقه!

ص: ١٤٠

١-١) -سوره ص، ٢٧.

٢-٢) -الذاريات، ٥٦.

٣-٣) -الطلاق، ١٢.

٤-٤) -المملك، ٢.

فنحن نقرأ فى الآيه (١٧) من سوره محمّد قوله تعالى: وَ الَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى فَهَلَّ التّعْبِيرُ بِالزِّيَادَةِ إِلَّا عَلَى التَّكَامُلِ؟ وَ هُنَا يَنْقَدِحُ سَوَالٌ، وَ هُوَ: إِذَا كَانَ الْهَدْفُ هُوَ التَّكَامُلُ، فَلَمَّا ذَا لَمْ يَخْلُقِ اللَّهُ الْإِنْسَانَ كَامِلًا مِنْذُ الْبِدَايَةِ حَتَّى لَا يَكُونَ مَحْتَاجًا إِلَى طَيِّ مَرَاكِلِ التَّكَامُلِ؟ إِنَّ أَسَاسَ هَذَا الْإِشْكَالِ هُوَ الْغَفْلَةُ عَنْ هَذِهِ النَّقْطَةِ، وَ هِيَ أَنَّ الْعَنْصَرَ الْأَصْلِيَّ لِلتَّكَامُلِ هُوَ التَّكَامُلُ الْإِخْتِيَارِيُّ، وَ بِتَعْبِيرٍ آخَرَ فَإِنَّ التَّكَامُلَ يَعْنِي أَنَّ يَطْوِي الْإِنْسَانُ الطَّرِيقَ بِنَفْسِهِ وَ إِرَادَتِهِ وَ تَصْمِيمِهِ، فَإِذَا أَخَذُوا بِيَدِهِ وَ أَوْصَلُوهُ بِالْقُوَّةِ وَ الْجَبْرِ فَلَيْسَ هَذَا افْتِخَارًا وَ لَا تَكَامُلًا.

فَمَثَلًا: لَوْ أَنْفَقَ الْإِنْسَانُ فِلْسًا وَاحِدًا مِنْ مَالِهِ بِإِرَادَتِهِ وَ تَصْمِيمِهِ، فَقَدْ طَوَى مِنْ طَرِيقِ الْكَمَالِ الْأَخْلَاقِيِّ بِتِلْكَ النِّسْبَةِ، فَيُحِينَ أَنَّه لَوْ أُجْبِرَ عَلَى إِنْفَاقِ الْمَلَائِينَ مِنْ ثَرَوَتِهِ، فَإِنَّه لَمْ يَتَقَدَّمْ خَطْوَهُ وَاحِدَةً فِي ذَلِكَ الطَّرِيقِ، وَ لِذَلِكَ صَرَّحَ الْقُرْآنُ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ فِي الْآيَاتِ الْمُخْتَلَفَةِ، وَ هِيَ أَنَّ اللَّهَ سَبَّحَانَهُ لَوْ شَاءَ لَأَجْبَرَ النَّاسَ عَلَى أَنْ يُؤْمِنُوا، إِلَّا أَنَّ هَذَا الْإِيمَانَ لَا نَفْعَ فِيهِ لَهُؤُلَاءِ: وَ لَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَأَمَنَّ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلَّهُمْ جَمِيعًا (١).

ص: ١٤١

اشاره

وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١٩) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ (٢٠)
أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٢١) لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (٢٢) لَا
يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ (٢٣) أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ هَذَا ذِكْرٌ مِنْ مَعِيَ وَذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا
يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ (٢٤) وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ (٢٥)

التفسير

اشاره

الشرك ينبع من الظن:

كان الكلام في الآيات السابقة عن أنّ عالم الوجود ليس عبثيا لا هدف من ورائه، فلا مزاح و لا عبث، و لا لهو و لا لعب، بل له هدف تكاملي دقيق للبشر.

و لما كان من الممكن أن يوجد هذا التوهم، وهو: ما حاجه الله إلى إيماننا و عبادتنا؟ فإن الآيات التي نبحثها تجيب أولاً عن هذا التوهم، و تقول: **وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ عِنْدَهُ (أى الملائكة) لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ (١) يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ .**

و مع هذا الحال فأى حاجه لطاعتكم و عبادتكم؟ فكل هؤلاء الملائكة المقرّبين مشغولون بالتسبيح ليلا و نهارا، و هو تعالى لا يحتاج حتى لعباده هؤلاء، فإذا كنتم قد أمرتم بالإيمان و العمل الصالح و العبوديه فإن كل ذلك سيعود بالنفع عليكم.

و هنا نقطه تلفت الانتباه أيضا، و هى أنه فى نظام العبيد و الموالى الظاهرى، كلما تقرب العبد من مولاه يقلّ خضوعه أمامه، لأن يختص به أكثر، فيحتاجه المولى أكثر. أما فى نظام عبوديه الخلق و الخالق فالأمر على العكس، فكلما اقتربت الملائكة و أولياء الله من الله سبحانه زادت عبوديتهم (٢).

و بعد أن نفت فى الآيات السابقه عبثيه و لا هدفيه عالم الوجود، و أصبح من المسلم أن لهذا العالم هدفا مقدّسا، فإن هذه الآيات تتطرق إلى بحث مسأله وحده المعبود و مدبر هذا العالم، فتقول: **أَمْ اتَّخَذُوا آلِهَةً مِنَ الْأَرْضِ هُمْ يُنْشِرُونَ (٣) .**

و هذه الجملة فى الحقيقه إشاره إلى أن المعبود يجب أن يكون خالقا، و خاصه خلق الحياه، لأنها أوضح مظاهر الخلق و مصاديقه. و هذا فى الحقيقه يشبه ما نقرؤه

ص: ١٤٣

١-١) - «يستحسرون» فى الأصل من مادّه حسر، و فى الأصل تعنى رفع النقاب و الستار عن الشىء المغطى، ثم استعملت بمعنى التعب و الضعف، فكان كل قوى الإنسان تصرف فى مثل هذه الحاله، و لا يبقى منها شىء مخفى فى بدنه.

٢-٢) - الميزان، ذيل الآيات محلّ البحث.

٣-٣) - «ينشرون» من مادّه نشر، أى فكّ الشىء المعقّد الملفوف، و هو كناية عن الخلق و انتشار المخلوقات فى أرجاء الأرض و السّماء. و يصرّ بعض المفتّيرين على اعتبار هذه الجملة إشاره إلى المعاد و رجوع الأموات إلى الحياه من جديد، فى حين أنه بملاحظه الآيات التالیه سيّضح أن الكلام عن توحيد الله و أنه المعبود الحقيقى، و ليس عن المعاد و الحياه بعد الموت.

فى الآيه (٧٣) من سورة الحج: إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَمَعَ هَذَا الْحَالِ كَيْفَ يَكُونُ هَؤُلَاءِ أَهْلًا لِلْعِبَادَةِ؟ التّعير بآلهة من الأرض إشاره إلى الأصنام والمعبودات التى كانوا يصنعونها من الحجاره و الخشب، و كانوا يظنونها حاكمه على السماوات.

و تبين الآيه التاليه أحد الأدله الواضحه على نفى آلهه و أرباب المشركين، فتقول: لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ .

هذه الادعاءات غير الصحيحه و هذه الأرباب المصنوعه و الآلهه المظنونه ليست إلا أوهاما، و ساحه كبرياء ذاته المقدسه لا تتلوث بهذه النسب المغلوطة.

برهان التمانع:

إنّ الدليل الوارد فى الآيه آنفه الذكر و لإثبات التوحيد و نفى الآلهه، فى الوقت الذى هو بسيط و واضح، فإنّه من البراهين الفلسفيه الدقيقه فى هذا الباب، و يذكره العلماء تحت عنوان (برهان التمانع). و يمكن إيضاح خلاصه هذا البرهان بما يلى:

إننا نرى -بدون شك- نظاما واحدا حاكما فى هذا العالم، ذلك النظام المتناسق من جميع جهاته، فقوانينه ثابتة تجرى فى الأرض و السماء، و مناهجه متطابقه بعضها مع بعضها، و أجزاءه متناسبه.

إنّ انسجام القوانين و أنظمه الخلقه هذا يحكى أنّها تنبع من عين واحده، لأنّ البدايات إن كانت متعدده، و الإرادات مختلفه، لم يكن يوجد هذا الانسجام مطلقا، و هذا الشئ الذى يعبر عنه القرآن ب(الفساد) يلاحظ فى العالم بوضوح.

إذا كنّا من أهل التحقيق و المطالع- لو قليلا- فإننا نستطيع أن نفهم جيدا من خلال تحقيق كتاب ما، أنّ كاتبه شخص واحد أم عدّه أشخاص؟ فإنّ الكتاب الذى يؤلفه شخص واحد يوجد انسجام خاص بين عباراته، ترتيب جملته، تعبيراته المختلفه، كنياته و إشاراته، عناوينه و رؤوس مطالبه، طريقه الدخول فى البحوث

و الخروج منها، و الخلاصه: إنَّ كلَّ أقسامه متحدّه متناسقه لأنّها وليده فكر واحد، و ترشّح قلم واحد.

أمّا إذا تعهّد شخصان أو عدّه أشخاص بأن يؤلّف كلّ منهم جزءا من الكتاب-و إن كان الجميع علماء متقاربين في الروح و التفكير-فستظهر آثار هذه الازدواجيه أو الكثره في العبارات و الألفاظ، و طريقه الأبحاث. و سبب ذلك واضح، لأنّ الفردين مهما كانا منسجمين في الفكر و الذوق، فإنّهما في النتيجة فردان، فلو كانت كلّ أشيائهما واحده لأصبحا فردا واحدا، فبناء على هذا فيجب أن يكون هناك تفاوت فيما بينهما قطعا ليتمكّن أن يكونا فردين، و هذا الاختلاف سيؤثر أثره في النتيجة، و سيبدى آثاره في كتاباتهما.

و كلّما كان هذا الكتاب أكبر و أكثر تفصيلا، و يبحث مواضيع متنوّعه، فإنّ عدم الانسجام يلمس فيه أوضح. و كتاب عالم الخلقه الكبير، الذي نضّيع بكلّ وجودنا في طيّات عباراته لعظمته يشمل هذا القانون أيضا.

حقّا إنّنا لا نستطيع مطالعه كلّ هذا الكتاب حتّى لو صرفنا كلّ عمرنا في مطالعته، إلا أنّ هذا القدر الذي وقّفنا نحن-و جميع العلماء-لمطالعه منسجم إلى الحدّ الذي يدلّ تماما على وحده مؤلّفه... إنّنا كلّما تصفّحنا هذا الكتاب العجيب فستظهر بين كلماته و سطوره و صفحاته آثار تنظيم عال و انسجام منقطع النظير.

فإذا كانت هناك إرادات و بدايات متعدّده تتدخل في إداره هذا العالم و تنظيمه، فهل كان بالإمكان أن يوجد مثل هذا الانسجام؟ و لو فكّرنا: لماذا يستطيع علماء الفضاء أن يرسلوا السفن الفضائيه إلى الفضاء بدقّه كامله، و ينزلوا العربه على القمر في المحلّ الذي قدروه من الناحيه العلميه بدقّه متناهيه، ثمّ يحركونها من هناك و ينزلونها إلى الأرض في المحلّ الذي توقّعه؟ ألم تكن هذه الدقّه في الحسابات لكون النظام الحاكم على كلّ الوجود الذي

هو أساس حسابات هؤلاء العلماء-دقيقا و منسجما، بحيث إذا كان هناك شيء من عدم الانسجام-و من الناحية الزمّية جزء من مائه من الثانيه-فستضطرب جميع حساباتهم؟ و نقول باختصار: إذا كانت هناك إرادتان أو عدّه إرادات حاكمه في العالم، فإنّ لكل واحد قضاء، و كانت الاخرى تمحو أثر الأولى، و سيؤول العالم إلى الفساد عندئذ.

سؤال:

و هنا يشار سؤال يمكن استلهاهم جوابه من التوضيحات السابقه، و هو: إنّ تعدّد الآلهه يكون منشأ للفساد عند ما يحارب أحدها الآخر، أمّا إذا اعتقدنا بأنّ هؤلاء أفراد حكماء عالمون، فإنّهم يتعاونون فيما بينهم و يديرون العالم.

و جواب هذا السؤال لا لبس فيه: فإنّ كونهم حكماء لا يزيل تعدّدهم، فعند ما نقول: إنّهم متعدّدون، فإنّ معناه إنّهم ليسوا متحدّين من جميع الجهات، لأنّهم إن اتحدوا من كلّ الجوانب أصبحوا إلها واحدا، و بناء على ذلك فأينما وجد التعدّد وجد الاختلاف الذى يؤثّر فى الإدارة و العمل شئنا أم أبينا، و هذا سيجرّ عالم الوجود إلى الهرج و المرج.

و قد استند فى بعض هذه الاستدلالات إلى أنّه لو كان هناك إرادتان حاکمتان على الخلق، لما كان هناك عالم أصلا. فى حين أنّ هذه الآيه تتحدّث عن فساد العالم و اختلال النظام، لا عن عدم وجود العالم.

و من اللطيف أن نقرأ فى حديث يرويه هشام بن الحكم عن الإمام الصادق عليه السّلام فى جواب الرجل الملمحد الذى كان يتحدّث عن تعدّد الآلهه، أنّه

قال:

«لا- يخلو قولك أنّهما اثنان من أن يكونا قويين أو يكونا ضعيفين، أو يكون أحدهما قويا و الآخر ضعيفا، فإن كانا قويين فلم لا يدفع كلّ واحد منهما صاحبه

ص: ١٤٦

و ينفرد بالتدبير، و إن زعمت أن أحدهما قوى و الآخر ضعيف ثبت أنه واحد كما تقول، للعجز الظاهر فى الثانى، و إن قلت: إنهما اثنان، لا يخلو من أن يكونا متفقين من كلّ جهه أو متفرقين من كلّ جهه، فلمّا رأينا الخلق منتظما، و الفلك جاريا، و اختلاف الليل و النهار، و الشمس و القمر، دلّ صحّحه الأمر و التدبير و ائتلاف الأمر أن المدبّر واحد.

ثمّ يلزمك إن ادّعت إثنين فلا بدّ من فرجه بينهما حتّى يكونا إثنين، فصارت الفرجه ثالثا بينهما قديما معهما فيلزمك ثلاثه، فإن ادّعت ثلاثه لزمك ما قلنا فى الإثنين حتّى يكون بينهما فرجتان فيكون خمسا، ثمّ يتناهى فى العدد إلى ما لا نهايه فى الكثره» (١)

إنّ بدايه هذا الحديث إشاره إلى برهان التمانع، و نهايته إشاره إلى برهان آخر يسمّى ب(برهان الفرجه).

و

فى حديث آخر: إنّ هشام بن الحكم سأل الإمام الصادق عليه السّلام: ما الدليل على أنّ الله واحد؟ قال: «اتّصال التدبير، و تمام الصنع، كما قال الله عزّ و جلّ: لو كان فيهما آلهه إلاّ الله لفسدتا» (٢).

و بعد أن ثبت بالاستدلال الذى ورد فى الآيه توحيد مدبّر و مدير هذا العالم، فتقول الآيه التاليه: إنّه قد نظّم العالم بحكمه لا مجال فيها للإشكال و الانتقاص و لا أحد يعترض عليه فى خلقه: لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَ هُمْ يُسْئَلُونَ .

و بالرغم من أنّ المفسّرين قد تكلموا كثيرا حول تفسير هذه الآيه، إلاّ أنّ ما ذكرناه أعلاه يبدو هو الأقرب.

و توضيح ذلك: أنّ لدينا نوعين من الأسئلة:

الأول: السؤال التوضيحي، و هو أن يكون الإنسان جاهلا ببعض المسائل،

ص: ١٤٧

١- ١) -التوحيد، «للصدوق» كما ورد فى تفسير نور الثقلين، الجزء ٣، ص ٤١٧-٤١٨.

٢- ٢) -المصدر السابق.

و يرغب في أن يدرك حقيقتها، و حتى إذا علم و آمن بأن هذا العمل الذي تمّ كان صحيحاً، فإنه يريد أن يعلم النقطة الأصليّة و الهدف الحقيقيّ منه، و مثل هذا السؤال جازئ حتّى حول أفعال الله، بل إنّ هذا السؤال يعتبر أساس و مصدر الفحص و التحقيق في عالم المخلقه و المسائل العلميّه، و قد كان لأصحاب النّبى و الأئمّه كثير من هذه الأسئلة سواء فيما يتعلّق بعالم التكوين أو التشريع.

أمّا النوع الثّانى: فهو السؤال الاعتراضى، و الذى يعنى أنّ العمل الذى تمّ كان خطأ، كأن ينقض إنسان عهده بلا سبب، فنقول: لماذا نقضت عهدك؟ فليس الهدف طلب التوضيح، بل الهدف الاعتراض و التخطئه.

من المسلّم أنّ هذا النوع من السؤال لا- معنى له حول أفعال الله الحكيم، و إذا ما اعترض أحد أحياناً فلجهله، إلا أنّ مجال هذا السؤال حول أفعال الآخرين واسع.

و

في حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام فى جواب سؤال جابر الجعفرى عن هذه الآية أنّه قال: «لأنّه لا يفعل إلّا ما كان حكمه و صواباً» (١).

و يمكن أن تستخلص نتيجة من هذا الكلام، و هى: إنّ أحداً إذا سأل سؤالاً من النوع الثّانى، فهو دليل على أنّه لم يعرف الله معرفه صحيحه لحدّ الآن، و هو جاهل بكونه حكيماً.

و تشتمل الآية التّاليه على دليلين آخرين فى مجال نفى الشرك، فمضافاً إلى الدليل السابق يصبح مجموعها ثلاثه أدلّه.

تقول الآية أولاً: أَمْ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ و هو إشارة إلى أنّكم إذا صرفتم النظر عن الدليل السابق القائم على أنّ نظام عالم الوجود دليل على التوحيد، فإنّه لا يوجد أى دليل-على الأقل- على إثبات الشرك و الوهيّه

ص: ١٤٨

هذه الآلهه، فكيف يتقبل إنسان عاقل مطلباً لا دليل عليه؟ ثم تشير إلى الدليل الأخير فتقول: **هَذَا ذِكْرٌ مَنْ مَعِيَ وَ ذِكْرٌ مَنْ قَبْلِي وَ** هذا هو الدليل الذي ذكره علماء العقائد تحت عنوان (إجماع و اتفاق الأنبياء على التوحيد).

ولمّا كانت كثره المشركين (و خاصّه في ظرف حياهم المسلمين في مكّه، و التي نزلت فيها هذه السوره) مانعاً أحياناً من قبول التوحيد من قبل بعض الأفراد، فهي تضيف: **بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ الْحَقَّ فَهُمْ مُعْرِضُونَ .**

لقد كانت مخالفه الأَكْثَرِيه الجاهله في كثير من المجتمعات دليل و حجّه لإعراض الغافلين الجاهلين دائماً، و قد انتقد القرآن الاستناد إلى هذه الأَكْثَرِيه بشدّه في كثير من الآيات، سواء التي نزلت في مكّه أو المدينة، و لم يعرّها أيّه أهمّيّه، بل اعتبر المعيار هو الدليل و المنطق.

ولمّا كان من المحتمل أن يقول بعض الجهله الغافلين أنّ لدينا أنبياء كعيسى مثلاً دعوا إلى آلهه متعدّده، فإنّ القرآن الكريم يقول في آخر آيه من الآيات محلّ البحث بصراحه تامّه: **وَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوْحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ** و بهذا يثبت أنّه لا عيسى و لا غيره قد دعا إلى الشرك، و مثل هذه النسبه إليه تهمة و افتراء.

إشاره

وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُّكْرَمُونَ (٢٦) لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ (٢٧) يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ (٢٨) وَمَنْ يَقُلْ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَٰهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ كَذَلِكَ نَجْزِي الظَّالِمِينَ (٢٩)

التفسير

إشاره

الملائكه عباد مكرمون مطيعون:

لَمَّا كَانَ الْكَلَامُ فِي آخِر آيَةٍ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ، وَنَفَى كُلَّ أَنْوَاعِ الشَّرِكِ، وَنَفَى كَوْنَ الْمَسِيحِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلِدًا، فَإِنَّ كُلَّ الْآيَاتِ مَحَلَّ الْبَحْثِ تَتَحَدَّثُ حَوْلَ نَفْيِ كَوْنَ الْمَلَائِكَةِ أَوْلَادًا.

و تَوْضِيحُ ذَلِكَ أَنَّ كَثِيرًا مِنْ مُشْرِكِي الْعَرَبِ كَانُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ، وَ لِهَذَا السَّبَبِ كَانُوا يَعْبُدُونَهَا أَحْيَانًا، وَ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ انْتَقَدَ هَذِهِ الْعَقِيدَةَ الْخُرَافِيَّةَ الَّتِي لَا أَسَاسَ لَهَا، وَ بَيَّنَّ بِطَلَانِهَا بِالْأَدْلَةِ الْمُخْتَلَفَةِ.

يقول أولًا: وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا فَإِنْ كَانَ مَرَادُهُمُ الْوَلَدَ الْحَقِيقِيَّ، فَإِنَّهُ

يلزم من هذا الجسميّه، وإن كان المراد التّبنيّ -و الذي كان اعتياديا و متداولاً بين العرب- فإنّ ذلك أيضا دليل على الضعف و الاحتياج، و فوق كلّ ذلك فإنّ الذي يحتاج إلى الولد هو الذي يفنى، و يجب أن يديم ابنه حياته على المدى البعيد، و كذلك ليبقى نسله و كيانه و آثاره، أو لإبعاد الإحساس بالوحده و الحاجه إلى المؤنس، أو ليكتسب القدره و القوّه. إلا أنّ الوجود الأزليّ الأبدى و غير الجسمانيّ، و غير المحتاج من جميع الجهات، لا معنى لوجود الولد له. و لذلك فإنّ القرآن يقول مباشرة: **سُبْحَانَهُ** .

ثمّ تبين أوصاف الملائكة في سته أقسام تشكّل بمجموعها دليلا واضحا على نفى كونهم أولادا:

١- بل عباد.

٢- مكرمون.

فليس هؤلاء عبادا هاربين خضعوا للخدمه تحت ضغط المولى، بل هم عباد لائقون يعرفون طريق العبوديه و أصولها و يفتخرون بها، و لذلك فإنّ الله سبحانه قد أحبهم، و أفاض عليهم من مواهبه نتيجة لإخلاصهم في العبوديه.

٣- إنّ هؤلاء على درجه من الأدب و الخضوع و الطاعه لله بحيث لا يسبقونه بالقول .

٤- و كذلك من ناحيه العمل أيضا فهم مطيعون و هم بأمره يعملون .

فهل هذه صفات الأولاد، أم صفات العبيد؟ ثمّ أشارت إلى إحاطه علم الله هؤلاء فتقول: إنّ الله تعالى يعلم أعمالهم الحاضره و في المستقبل، و كذلك أعمالهم السالفه، و أيضا يعلم دنياهم و آخرتهم و قبل وجودهم و بعده: **يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ** (١) و من المسلم أنّ

ص: ١٥١

١- ١) - للمفسرين في هذه الجملة ثلاثه تفاسير أوردناها معا في العبارات أعلاه لعدم المنافاه فيما بينها.

الملائكة مَطَّلَعُونَ عَلَى هَذَا الْمَوْضُوعِ، وَهُوَ أَنَّ لِلَّهِ إِحْاطَةً عِلْمِيَّةً بِهِمْ، وَهَذَا الْعِرْفَانُ هُوَ السَّبَبُ فِي أَنَّهُمْ لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ، وَلَا يَعْصُونَ أَمْرَهُ، وَلِهَذَا فَإِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ بِمِثَابِهِ تَعْلِيلٌ لِلآيَةِ السَّابِقَةِ.

٥-و لا- شَيْكَ أَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ اللَّهِ الْمَكْرُمُونَ الْمُحْتَرَمُونَ يَشْفَعُونَ لِلْمُحْتَاجِينَ، لَكِنْ يَنْبَغِي الْإِلْتِفَاتُ إِلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنْ ارْتَضَى □ وَ مِنَ الْمَسْلَمِ أَنَّ رَضَى اللَّهُ وَ إِذْنَهُ فِي الشَّفَاعَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَكُونَ أَى مِنْهُمَا اعْتِبَاطِيَا، بَلْ لَا بَدَّ أَنْ يَكُونَ مِنْ أَجْلِ الْإِيمَانِ الْحَقِيقِيِّ، أَوْ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَحْفَظُ عِلَاقَةَ الْإِنْسَانِ بِاللَّهِ.

وَ بَتَعْبِيرٍ آخَرَ، فَإِنَّ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَلَوَّثَ الْإِنْسَانُ بِالْمَعْصِيَةِ، إِلَّا أَنَّهُ إِذَا لَمْ يَقْطَعْ عِلَاقَتَهُ بِاللَّهِ وَ أَوْلِيَائِهِ تَمَامًا، فَإِنَّ الشَّفَاعَةَ تَوْمَلُ فِي حَقِّهِ. أَمَّا إِذَا قَطَعَ عِلَاقَتَهُ تَمَامًا مِنْ نَاحِيَةِ الْإِتِّجَاهِ الْفِكْرِيِّ وَ الْعُقَائِدِيِّ، أَوْ أَنَّهُ غَرِقَ فِي الْمَعْصِيَةِ وَ الْإِنْحِرَافِ مِنَ النَّاحِيَةِ الْعَمَلِيَّةِ، إِلَى الْحَدِّ الَّذِي يَفْقَدُ مَعَهُ لِيَاقَةَ الشَّفَاعَةِ أَوْ اسْتِحْقَاقَهَا، فَفِي هَذِهِ الْحَالِ سَوْفَ لَا يَشْفَعُ لَهُ أَى نَبِيٍّ مَرْسَلٍ أَوْ مَلِكٍ مَقْرَّبٍ.

إِنَّ هَذَا هُوَ نَفْسُ الْمَطْلَبِ الَّذِي أوردناه فِي بَحْثِ فِلْسَفَةِ الشَّفَاعَةِ ضَمِنَ الْبَحْثِ السَّابِقَةِ، بِأَنَّ الشَّفَاعَةَ هِيَ طَرِيقٌ لِتَهْذِيبِ الْإِنْسَانِ، وَ وَسِيلَةٌ لِإِرْجَاعِ الْمَذْنِبِينَ إِلَى الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَ الْمَنْعِ مِنَ الْيَأْسِ أَوْ الْقَنُوطِ، وَ الَّذِي هُوَ بِنَفْسِهِ عَامِلٌ لِلانْتِزَاقِ وَ الْغُرُقِ فِي الْإِنْحِرَافِ وَ الْمَعْصِيَةِ.

إِنَّ الْإِيمَانَ بِمِثْلِ هَذِهِ الشَّفَاعَةِ يَبْعَثُ عَلَى بَقَاءِ ارْتِبَاطِ الْمَذْنِبِينَ بِاللَّهِ وَ رِسَلِهِ وَ الْأُتْمَةِ، وَ لَا يَهْدِمُوا كَلَّ الْجُسُورِ خَلْفَهُمْ، وَ يَحْفَظُوا خَطَّ الرَّجْعَةِ (١).

ثُمَّ إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَةَ تَجِيبُ ضَمْنَا أَوْلَثِكَ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّا نَعْبُدُ الْمَلَائِكَةَ لِتَشْفَعُ لَنَا عِنْدَ اللَّهِ، فَيَقُولُ الْقُرْآنُ لَهُمْ: إِنَّ هَؤُلَاءِ لَا يَقْدِرُونَ عَلَى فِعْلِ شَيْءٍ مِنْ تَلْقَاءِ

ص: ١٥٢

أنفسهم، و كل ما تريدونه يجب أن تطلبوه من الله مباشرة، و حتى إذن شفاعه الشافعين.

٦- و نتیجه لهذه المعرفه و الوعى وَ هُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ فهم لا يخشون من أن يكونوا قد أذنبوا، بل يخافون من التقصير فى العباده أو ترك الأولى.

و من بديع اللغة العربيه، أن «الخشيّه» من ناحيه الأصل اللغوى لا تعنى كل خوف، بل الخوف المقترن بالتعظيم و الاحترام.

و كلمه «مشفق» من مادّه الإشفاق، بمعنى التوجه الممتزج بالخوف، لأنها فى الأصل مأخوذه من الشفق، و هو الضياء الممتزج بالظلمه.

فبناء على هذا، فإن خوف الملائكه ليس كخوف الإنسان من حادثه مرعبه مخيفه، و كذلك إشفاقهم فإنه لا يشبه خوف الإنسان من موجود خطر، بل إن خوفهم و إشفاقهم ممزوجان بالاحترام، و العنايه و التوجه، و المعرفه و الإحساس بالمسؤوليه (١).

من الواضح أن الملائكه مع هذه الصفات البارزه و الممتازه، و مقام العبوديه الخالصه لا يدعون الالهيه مطلقاً، أما إذا فرضنا ذلك وَ مَنْ يَقْعَلُ مِنْهُمْ إِنِّي إِلَهٌ مِنْ دُونِهِ فَذَلِكَ نَجْزِيهِ جَهَنَّمَ إِنَّ ادْعَاءَ الْإِلَوهِيهِ فى الحقيقه مصداق واضح على ظلم النفس و المجتمع، و يندرج فى القانون العام كذلك نَجْزِي الظَّالِمِينَ .

ص: ١٥٣

(١-١) - مفردات الراغب مادّه خشيّه و شفق، و تفسير الصافى ذيل الآيات مورد البحث.

إشاره

أَ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ (٣٠) وَ جَعَلْنَا فِي
الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَ جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٣١) وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ
(٣٢) وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ (٣٣)

التفسير

إشاره

علامات أخرى لله في عالم الوجود:

تعقيباً على البحوث السابقة حول عقائد المشركين الخرافية، والأدلة التي ذكرت على التوحيد، فإن في هذه الآيات سلسله من
براهين الله في عالم الوجود، و تدبيره المنظم، و تأكيداً على هذه البحوث تقول أولاً: أ وَ لَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ
كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا أَ فَلَا يُؤْمِنُونَ .

لقد ذكر المفسرون أقوالاً كثيرة فيما هو المراد من «الرتق» و«الفتق»

المذكورين هنا فى شأن السماوات و الأرض؟ و يبدو أنّ الأقرب من بينها ثلاثة تفاسير، و يحتمل أن تكون جميعا داخله فى مفهوم الآيه (١).

١- إنّ رتق السّماء و الأرض إشاره إلى بدايه الخلقه، حيث يرى العلماء أنّ كلّ هذا العالم كان كتله واحده عظيمه من البخار المحترق، و تجزأ تدريجيًا نتيجة الانفجارات الداخليه و الحركه، فتولّدت الكواكب و النجوم، و من جملتها المنظومه الشمسيه و الكره الأرضيه، و لا يزال العالم فى توسّع دائب.

٢- المراد من الرتق هو كون مواد العالم متّحده، بحيث تداخلت فيما بينها و كانت تبدو و كأنّها مادّه واحده، إلاّ أنّها انفصلت عن بعضها بمرور الزمان، فأوجدت تركيبات جديده، و ظهرت أنواع مختلفه من النباتات و الحيوانات و الموجودات الأخرى فى السّماء و الأرض، موجودات كلّ منها نظام خاص و آثار و خواص تختص بها، و كلّ منها آيه على عظمه الله و علمه و قدرته غير المتناهيه (٢).

٣- إنّ المراد من رتق السّماء هو أنّها لم تكن تمطر فى البدايه، و المراد من رتق الأرض أنّها لم تكن تنبت النبات فى ذلك الزمان، إلاّ أنّ الله سبحانه فتق الإثنين، فأنزل من السّماء المطر، و أخرج من الأرض أنواع النباتات. و الروايات المتعدده الوارده عن طرق أهل البيت عليهم السّلام تشير إلى المعنى الأخير، و بعضها يشير إلى التفسير الأوّل (٣).

لا- شكّ أنّ التفسير الأخير شىء يمكن رؤيته بالعين، و كيف أنّ المطر ينزل من السّماء، و كيف تنفتق الأرض و تنمو النباتات، و هو يناسب تماما قوله تعالى: أَوْ لَمْ يَرِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَلِكَ يَنْسَجَمُ وَ قَوْلُهُ تَعَالَى: وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا .

ص: ١٥٥

١-١) -الفخر الرازى، فى التفسير الكبير، و بعض المفسرين الآخرين.

٢-٢) -الميزان، ذيل الآيه.

٣-٣) -يراجع تفسير الصافى، و نور الثقلين، ذيل الآيه مورد البحث.

إلا- أن التفسيرين الأوّل والثاني أيضا لا يخالفان المعنى الواسع لهذه الآيه، لأنّ الرؤيه تأتي أحيانا بمعنى العلم. صحيح أنّ هذا العلم والوعى ليس للجميع، بل إنّ العلماء وحدهم الذين يستطيعون أن يكتسبوا العلوم حول ماضى الأرض والسّماء، واتّصالهما ثم انفصالهما، إلا أنّنا نعلم أنّ القرآن ليس كتابا مختصا بعصر و زمان معيّن، بل هو مرشد و دليل للبشر فى كلّ القرون والأعصار.

من هذا يظهر أنّ له محتوى عميقا يستفيد منه كلّ قوم و فى كلّ زمان، و لهذا نعتقد أنّه لا مانع من أن تجتمع للآيه التفاسير الثلاثه، فكلّ فى محلّه كامل و صحيح و قد قلنا مرارا: إنّ استعمال لفظ واحد فى أكثر من معنى ليس جائزا فحسب، بل قد يكون أحيانا دليلا على كمال الفصاحه، و إنّ ما نقرؤه فى الروايات من أنّ للقرآن بطونا مختلفه يمكن أن يكون إشاره إلى هذا المعنى.

و أمّا فيما يتعلّق بإيجاد كلّ الكائنات الحيّه من الماء الذى أشير إليه فى ذيل الآيه، فهناك تفسيران مشهوران:

أحدهما: إنّ حياه كلّ الكائنات الحيّه-سواء كانت النباتات أم الحيوانات- ترتبط بالماء، هذا الماء الذى كان مبدؤه-المطر الذى نزل من السّماء.

و الآخر: إنّ الماء هنا إشاره إلى النطفه التى تتولّد منها الكائنات الحيّه عاده.

و ما يلفت النظر أنّ علماء عصرنا الحديث يعتقدون أنّ أوّل انبثاقه للحياه وجدت فى أعمال البحار، و ذلك يرون أنّ بدايه الحياه من الماء. و إذا كان القرآن يعتبر خلق الإنسان من التراب، فيجب أن لا ننسى أنّ المراد من التراب هو الطين المركّب من الماء و التراب.

و الجدير بالذكر أيضا أنّه طبقا لتحقيقات العلماء، فإنّ الماء يشكّل الجزء الأكبر من بدن الإنسان و كثير من الحيوانات، و هو فى حدود 70%! و ما يورده البعض من أنّ خلق الملائكه و الجنّ ليس من الماء، مع أنّها كائنات حيّه، فجوابه واضح، لأنّ المراد هو الموجودات الحيّه المحسوسه بالنسبه لنا.

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ رجلا- سأله: ما طعام الماء؟ فقال الإمام أولا: «سل تفقّها و لا- تسأل تعنتا» ثمّ أضاف: «طعم الماء طعام الحياه! قال الله سبحانه: وَ جَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيًّا .

و خاصه عند ما يصل الإنسان إلى الماء السائغ بعد عطش طويل فى الصيف، و فى ذلك الهواء المحرق، فإنّه حينما تدخل أوّل جرعه ماء إلى جوفه يشعر أنّ الروح قد دبّت فى بدنه، و فى الواقع أراد الإمام أن يجسّد الارتباط و العلاقة بين الحياه و الماء بهذا التعبير الجميل.

و أشارت الآيه التاليه إلى جانب آخر من آيات التوحيد و نعم الله الكبيره، فقالت: وَ جَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ (١) و قلنا فيما مضى: إنّ الجبال كالدرع الذى يحمى الأرض، و هذا هو الذى يمنع- إلى حدّ كبير- من الزلازل الأرضيه الشديده التى تحدث نتيجة ضغط الغازات الداخليه. إضافه إلى أنّ وضع الجبال هذا يقلّل من حركات القشره الأرضيه أمام ظاهره المدّ و الجزر الناشئه بواسطه القمر إلى الحدّ الأدنى.

و من جهه أخرى فلو لا- الجبال، فإنّ سطح الأرض سيكون معرّضا للرياح القويّه دائما، و سوف لا تستقرّ على حال أبدا، كما هى حال الصحارى المقفره المحرقه.

ثمّ أشارت الآيه إلى نعمه أخرى، و هى أيضا من آيات عظمه الله، فقالت:

وَ جَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ

و لو لم تكن هذه الوديان و الفجاج، فإنّ سلاسل الجبال العظيمه الموجوده فى المناطق المختلفه من الأرض كانت ستنفصل بعضها عن بعض بحيث ينفصل

ص: ١٥٧

١ - ١) - «رواسى» جمع راسيه أى الجبال الثابته، و لمّا كانت هذه الجبال تتّصل جذورها، فيمكن أن تكون إشاره إلى هذا الارتباط، و قد ثبت من الناحيه العلميه أن لاتصال أصول الجبال أثر عميق فى منع الزلازل الأرضيه. «و تميد» من الميد، و هو الهزّه و الحرکه غير الموزونه للأشياء الكبيره.

ارتباطها تماما، وهذا يدلّ أنّ هذه الظواهر الكونيّة كلّها وفق حساب دقيق.

ولمّا كان استقرار الأرض لا يكفي لوحده لاستقرار حياة الإنسان، بل يجب أن يكون آمنا ممّا فوقه، فإنّ الآية التاليه تضيف: وَ جَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا مُعْرِضُونَ .

المراد من السّماء هنا- كما قلنا سابقا- هو الجوّ الذى يحيط بالأرض دائما، و تبلغ ضخامته مئات الكيلومترات كما توصّل إليه العلماء و هذه الطبقة رقيقه ظاهرا، و تتكوّن من الهواء و الغازات، و هى محكمه و منيعه إلى الحدّ الذى لا ينفذ جسم من خارجها إلى الأرض إلّا و يفنى و يتحطّم، فهى تحفظ الكره الأرضيه من سقوط الشهب و النيازك «ليل نهار» التى تعتبر أشدّ خطرا حتّى من القذائف العسكريه.

إضافه إلى أنّ هذا الغلاف الجوى يقوم بتصفيه أشعه الشمس التى تحتوى على أشعه قاتله و تمنع من نفوذ تلك الأشعه الكونيه القاتله.

أجل، إنّ هذه السّماء سقّف متين منيع حفظه الله من الهدم و السقوط (١).

و تطرقت الآية الأخيره إلى خلق الليل و النهار و الشمس و القمر، فقالت:

وَ هُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَ النَّهَارَ وَ الشَّمْسَ وَ الْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ

بحثان

إشارة

١- تفسير قوله تعالى: كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ .

اختلف المفسّرون فى تفسير هذه الآية، أمّا ما يناسب تحقيقات علماء الفلك

ص: ١٥٨

١- ١) - يعتقد بعض المفسّرين أنّ الآية المذكوره تنسجم و الآيات التى وردت فى القرآن المجيد حول حفظ السّماء من صعود الشياطين بواسطه الشهب، مثل وَ حِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ الصافات، ٧. إلّا أنّ من الواضح أنّ هذا التفسير لا يناسب كلمه «سقف»، لأنّ السقف غطاء لمن تحته، لا لمن فوقه. دققوا ذلك.

الثابته،فهو أنّ المراد من حركة الشمس في الآيه إمّا الدوران حول نفسها،أو حركتها ضمن المنظومه الشمسيّه.

ولا-بدّ من الإشاره إلى أنّ كلمه(كل)يمكن أن تكون إشاره إلى الشمس و القمر،و كذلك النجوم،و التي تستفاد من كلمه«الليل».

و احتمال بعض المفسّرين أن تكون إشاره إلى كلّ من الليل و النهار و الشمس و القمر،لأنّ«الليل»-و الذى هو الظلّ المخروطى للأرض-له مدار خاص،فإذا نظر إنسان-خارج الكره الأرضيه-من بعيد إليه،فسيرى أنّ هذا الظلّ المخروطى فى حركه مستمره حول الأرض،و سيرى نور الشمس الذى يشعّ على الأرض و يشكّل فى النهار كالأسطوانه التى تنتقل دائماً حول هذه الكره،و بناء على هذا فإنّ لكلّ من الليل و النهار مدارا و مكانا خاصا به (١).

و يحتمل أيضا أن يكون المراد من حركة الشمس حركتها فى إحساسنا،لأنّ كلّا من الشمس و القمر فى دوران مستمر فى نظر الناظرين من أهل الأرض..

٢-السماء سقّف محكم

قلنا فيما مضى:إنّ(السماء)وردت فى القرآن بمعان مختلفه،فجاءت تارة بمعنى الجو،أى الطبقة الضخمه من الهواء(الغلاف الغازى)الذى يحيط بالأرض، كآليه آنفه الذكر.و لا بأس أن نسمع هنا توضيحا أكثر حول إحكام هذا السقّف العظيم من لسان العلماء:

كتب(فرانك ألن)أستاذ الفيزياء الحياتيه يقول:إنّ الجو الذى يتكوّن من الغازات التى تحفظ الحياه على سطح الأرض ضخّم إلى الحدّ الذى يستطيع أن يكون كالدرع الذى يحفظ الأرض من شرّ المجموعه القاتله المتكوّنه من عشرين

ص: ١٥٩

مليون شهاب سماوى تسير بسرعه ٥٠ كيلومتر فى الثانى لتساقط يوميا على الأرض.

إنّ الغلاف الجوى إضافه إلى فوائده الأخرى،فإنّه يحفظ درجه الحراره على سطح الأرض فى حدود مناسبة تساعد على الحياه،و هو ذخيره مهمه جدّا لنقل الماء و البخار من المحيطات إلى اليابسه،و لو لم يكن كذلك لكانت كلّ القارات صحارى يابسه لا يمكن الحياه فيها،و على هذا فيجب القول بأنّ المحيطات و الغلاف الجوى هى التى تحفظ للأرض توازنها و ثباتها فى مدارها.

إنّ وزن بعض هذه الشهب التى تسقط على الأرض يبلغ جزءا من ألف من الغرام،إلا أنّ قوته نتيجة تلك السرعه الخارقه يعادل قوّه الأجزاء الذريه التى فى القنبله المخزبه!وقد يكون حجم تلك الشهب بمقدار ذرّه الرمل أحيانا! فى كلّ يوم تحترق ملايين من هذه الشهب قبل وصولها إلى سطح الأرض،أو تتحوّل إلى بخار،إلا أنّ حجم و وزن بعض الشهب كبير إلى حدّ تحترق معه الغلاف الجوى و تصيب سطح الأرض.

و من جمله الشهب التى عبرت الغلاف الغازى و وصلت إلى الأرض،هو الشهاب العظيم المعروف ب(سييرى)،و الذى أصاب الأرض سنه ١٩٠٨ و كان قطره بشكل أنّه شغل مكانا من الأرض بمقدار(٤٠)كيلومترا تقريبا و سبب خسائر كبيره.

و الشهاب الآخر الذى سقط فى(أريزونا)فى أمريكا،و الذى كان بقطر كيلومتر واحد و عمق(٢٠٠)متر،أحدث عند سقوطه على الأرض حفره عميقه فيها،و تولدت منه شهب صغيره كثيره نتيجة انفجاره شغلت مساحه كبيره نسبيا من الأرض.

و يكتب(كرسى موريسن):إنّ الهواء المحيط بالأرض لو كان أقل قليلا ممّا عليه،فإنّ الأجرام السماويه و الشهب الثاقبه التى ترده بمقدار عدّه ملايين شهاب

فى اليوم، و تتلاشى فى الفضاء الخارجى، فإنها كانت تصل إلى الأرض دائما و تصيبها.

إن هذه الأجرام الفلكية تتحرك بسرعه ٤٠-٦ ميل فى الثانية! و هى تنفجر و تحترق عند اصطدامها بأى شىء، و لو كانت سرعه هذه الأجرام أقل مما هى عليه -مثلا بسرعه الطلقه- فإنها كانت تسقط على الأرض جميعا، و يتضح مقدار تدميرها فيما لو أن إنسانا تعرض لسقوط أصغر جرم من هذه الأجرام السماويه عليه، فإنها كانت ستمزقه إربا إربا و تفنيه لشده حرارتها، لأنها تتحرك بسرعه تعادل سرعه الطلقه (٩٠) مره! إن سمك الهواء المحيط بالأرض يبلغ مقدارا يسمح أن يمر من خلاله إلى الأرض المقدار اللازم من الأشعه الكونيه لنمو النباتات، و يقتل كل الجراثيم المضره فى ذلك الفضاء، و يوجد الفيتامينات المفيده (١).

ص: ١٦١

١- ١) - من كتاب «سر خلق الإنسان»، ص ٣٤-٣٥.

اشاره

وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مِنْ قِبَلِكَ الْخُلْدَ أَفْأَنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ (٣٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبَلِّغُكُمْ بِالْأَشْرِّ وَالْأَحْسَرِ فَتَنَهُ وَإِنَّا
تُرْجَعُونَ (٣٥)

التفسير

اشاره

الموت يترتب بالجميع:

قرأنا في الآيات السابقة أنّ المشركين قد تشبّثوا بمسأله كون النبي صلى الله عليه وآله وسلم بشرا من أجل التشكيك بنبوته، وكانوا يعتقدون أنّ النبي يجب أن يكون ملكا وخاليا من كلّ العوارض البشريه.

إنّ الآيات-محلّ البحث- أشارت إلى بعض إشكالات هؤلاء، فهم يشيعون تاره أنّ انتفاضه النبي (و في نظرهم شاعر) لا دوام لها، و سينتهى بموته كلّ شيء، كما جاء في الآيه (٣٠) من سوره الطور، أمّ يقولون شاعرٌ نتربصُ به ريبَ المنون .

و كانوا يظنون تاره أخرى أنّ هذا الرجل لما كان يعتقد أنّه خاتم النبيين، فيجب أن لا يموت أبدا ليحفظ دينه، و بناء على هذا فإنّ موته في المستقبل

سيكون دليلاً على بطلان ادعائه. فيجيبهم القرآن في أول آية بجمله قصيره فيقول:

وَمَا جَعَلْنَا لِشَرِّ مَنْ قَتَلَكَ الْخُلْدَ

إنَّ قانون الخلقه هذا لا يقبل التغيير، أى أنه لا يكتب لأحد الخلود، و إذا كان هؤلاء يفرحون بموتك: أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمْ الْخَالِدُونَ .

ربما لا نحتاج إلى توضيح أن بقاء الشريعة و الدين لا يحتاج إلى بقاء الرسول. فإن شرائع إبراهيم و موسى و عيسى عليه السلام و إن لم تكن خالده، إلا أنها بقيت بعد وفاه هؤلاء الأنبياء العظام (و بالنسبه لعيسى فإن شريعته استمرت بعد صعوده إلى السماء) لقرون طويله. و بناء على هذا فإن خلود المذهب لا يحتاج إلى حراسه النبي الدائم له، فمن الممكن أن يستمر خلفاؤه في إقامه دينه و السير على خطاه.

و أما ما تصوّره أولئك من أن كل شيء سينتهى بموت النبي صلى الله عليه و آله و سلم فإنهم أخطأوا في ظنهم، لأن هذا الكلام يصح في المسائل التي تقوم بالشخص.

و الإسلام لم يكن قائما بالنبي و لا بأصحابه. فقد كان دينا حيا-ينطلق متقدما بحركه الذاتيه الداخليه و يخترق حدود الزمان و المكان و يواصل طريقه! ثم يذكر قانون الموت العام الذي يصيب كل النفوس بدون استثناء فيقول:

كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ

و يجب أن نذكر بأن لفظه (النفس) قد استعملت في القرآن بمعان مختلفه، فأول معنى للنفس هو الذات، و هذا المعنى واسع يطلق حتى على ذات الله المقدسه، كما نقرأ: كَتَبَ عَلَيَّ نَفْسِي الرَّحْمَهُ (١).

ثم استعملت هذه الكلمه في الإنسان، أى مجموع جسمه و روحه، مثل:

مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا

(٢)

ص: ١٦٣

و استعملت أحيانا فى خصوص روح الإنسان كما فى أخرجوا أنفسكم (١).

و من الواضح أنّ المراد من النفس فى الآيات التى نبحتها هو المعنى الثانى، و بناء على هذا فإنّ المراد هو بيان قانون الموت العام فى حق البشر، و بذلك لا يبقى مجال للإشكال على الآيه بأنّ التعبير بالنفس يشمل الله أو الملائكه أيضا فكيف نخصّص الآيه و نخرج الله و الملائكه منها؟ (٢).

و بعد ذكر قانون الموت الكلى يطرح هذا السؤال، و هو: ما هو الهدف من هذه الحياه الزائله؟ و أى فائده منها؟ فىقول القرآن حول هذا الكلام: وَ نَبَلُّوْكُمْ بِالشَّرِّ وَ الْخَيْرِ فِتْنَةً وَ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ أى إنّ مكانكم الأصيلى ليس هو هذه الدنيا، بل هو مكان آخر، و إنّما تأتون هنا لتؤدّوا الاختبار و «الامتحان»، و بعد اكتسابكم التكامل اللازم سترجعون إلى مكانكم الأصيلى و هو الدار الآخرة.

و ممّا يسترعى النظر أنّ «الشّر» مقدّم على «الخير» من بين المواد الامتحانيه، و ينبغى أن يكون كذلك، لأنّ الامتحان الإلهى و إن كان تاره بالنعمة و أخرى بالبلاء، إلا أنّ من المسلم أنّ الامتحان بالبلاء أشدّ و أصعب.

و أمّا «الشّر» فإنّه لا يعنى مطلق الشّر، لأنّ الفرض أنّ هذا الشّرّ عباره عن وسيله للاختبار و التكامل، و بناء على هذا فإنّ المراد هو الشّر النسبى، و أساسا لا يوجد شرّ مطلق فى مجموع عالم الوجود بالنظره التوحيديه الصحيحه! و لذلك نقرأ

فى حديث أنّ أمير المؤمنين عليا عليه السّلام مرض يوما فجاء جمع من أصحابه لعيادته، فقالوا: كيف نجدك يا أمير المؤمنين؟ قال: «بشر»! قالوا: ما هذا كلام مثلك؟ قال: «إنّ الله تعالى يقول: و نبلوكم بالشّرّ و الخير فتنه، فالخير الصّحّه و الغنى، و الشّرّ المرض و الفقر».

ص: ١٦٤

١-١) - الأنعام، ٩٣.

٢-٢) - الميزان، الجزء ١٤، ص ٣١٢.

و يبقى هنا سؤال مهم، و هو: لماذا يختبر الله عباده؟ و ماذا يعنى الاختبار من قبل الله؟ و قد ذكرنا جواب هذا السؤال فى ذيل الآيه (١٥٥) من سوره البقره، و قلنا: إنّ الامتحان من الله تعالى لعباده يعنى تربيتهم. طالعوا التفصيل الكامل لهذا الموضوع هناك.

ص: ١٦٥

إشاره

وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَمْ هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ وَهُمْ بِذِكْرِ الرَّحْمَنِ هُمْ كَافِرُونَ (٣٦) خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ (٣٧) وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٣٨) لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونَ عَنْ وُجُوهِهِمُ الذَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنصِرُونَ (٣٩) بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسِيءُ تَطِيعُونَ رَدَّهَا وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٤٠)

التفسير

إشاره

خلق الإنسان من عجل!

نواجه في هذه الآيات مره أخرى، بحثاً أخرى حول موقف المشركين من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، حيث يتضح نمط تفكيرهم المنحرف في المسائل الأصولية، فتقول أولاً: وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا فَهؤلاء لا عمل لهم إلا السخرية والاستهزاء، ويشيرون إليك بعدم اكتراث و يقولون: أَمْ هَذَا الَّذِي يَذْكُرُ

مما يشير العجب هو إنه لو ازدرى أحد هذه الأصنام الخشبية و الحجرية (و ما هو بمزدر لها، بل يفصح عن حقيقتها) فيقول: إن هذه موجودات لا روح فيها و لا شعور و لا قيمه لها، لتعجبوا منه، أما إذا جحد أحدهم ربّه الرحمن الرحيم الذى عمّت آثار رحمته و عظمته الأرض و السماء و ما من شىء إلاّ- و فيه دليل على عظمته و رحمته، لما أثار إعجابهم!! نعم، إن الإنسان إذا اعتاد أمرا و تطبع عليه و تعصّب له فإنّه سيتقدّس فى نظره و إن كان أسوء الأمور، و إذا عادى شيئا فسيبدو سيئا فى نظره تدرجيا و إن كان أجمل الأمور و أحبها.

ثم تشير إلى أمر آخر من الأمور القبيحة لدى هذا الإنسان المتحلّل، فتقول:

خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ

و بالرغم من اختلاف المفسّرين فى تفسير كلمتي (إنسان) و (عجل)، و لكن من المعلوم أنّ المراد من الإنسان هنا نوع الإنسان- طبعاً الإنسان المتحلّل و الخارج عن هدايه القاده الإلهيين و حكومتهم- و المراد من «عجل» هى العجله و التعجيل، كما تشهد الآيات التاليه على هذا المعنى، و كما نقرأ فى مكان آخر من القرآن: وَ كَانَ الْإِنْسَانُ عَجُولاً (٢).

إنّ تعبير خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ فى الحقيقه نوع من التأكيد، أى إنّ الإنسان عجول إلى درجه كأنه خلق من العجله، و تشكّلت أنسجته و وجوده منها! و فى الواقع، فإنّ كثيرا من البشر العاديين هم على هذه الشاكلة، فهم عجولون فى الخير و فى الشرّ، و حتّى حين يقال لهم: إذا ارتكبت المعاصى و كفرتم سيأخذكم العذاب الإلهى، فإنهم يقولون: فلما ذا لا يأتى هذا العذاب أسرع!؟

ص: ١٦٧

١- ١) -العجيب هنا أنّ هؤلاء كانوا يقولون أنّ هذا الذى يذكّر آلِهْتَكُمْ و لم يرضوا أن يذكروا فى عبارتهم كلمه (سوء) فيقولون: يذكر آلِهْتَكُمْ بسوء!

٢- ٢) -الإسراء، ١١.

و تضيف الآيه فى النهايه: سَأْرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ .

التعبير ب(آياتى) هنا يمكن أن يكون إشاره إلى آيات العذاب و علاماته و البلاء الذى كان يهدّد به النبى صلى الله عليه و آله و سلم مخالفه، و لكن هؤلاء الحمقى كانوا يقولون مرارا: فأين تلك الابتلاءات و المصائب التى تخوّفنا بها؟ فالقرآن الكريم يقول:

لا تعجلوا فلا يمضى زمن طويل حتّى تحيط بكم.

و قد يكون إشاره إلى المعجزات التى تؤيّد صدق نبى الإسلام صلى الله عليه و آله و سلم، أى أنّكم لو صبرتم قليلا فستظهر لكم معجزات كافيه.

و لا منافاه بين هذين التفسيرين، لأنّ المشركين كانوا عجولين فى كليهما، و قد أراهم الله كليهما، و إن كان التفسير بالأول يبدو هو الأقرب و الأنسب مع الآيات التاليه.

ثمّ يشير القرآن إلى إحدى مطالب أولئك المستعجلين فيقول: وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ فهؤلاء كانوا ينتظرون قيام القيامة بفارغ الصبر، و هم غافلون عن أنّ قيام القيامة يعنى تعاستهم و شقاءهم المرير، و لكن ماذا يمكن فعله؟ فإنّ الإنسان العجول يعجل حتّى فى قضيه تعاسته و فئائه؟ و التعبير ب إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ بصيغه الجمع مع أنّ المخاطب رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، من أجل أنّهم أشركوا أنصاره و أتباعه الحقيقيين فى الخطاب، فكأنّهم أرادوا أن يقولوا: إنّ عدم قيام القيامة دليل على أنّكم كاذبون جميعا.

و تجيبهم الآيه التاليه فتقول: لَوْ يَعْلَمُ الَّذِينَ كَفَرُوا حِينَ لَا يَكْفُونُ عَنْ وُجُوهِهم النَّارَ وَلَا عَنْ ظُهُورِهِمْ وَلَا هُمْ يُنْصَرُونَ .

إنّ التعبير ب«الوجوه» و«الظهور» فى الآيه محلّ البحث إشاره إلى أنّ جهنّم ليست نارا تحرقهم من جهه واحده، بل إنّ وجوه هؤلاء و ظهورهم فى النار، فكأنّهم غرقوا و دفنوا فى وسط النار! و جمله و لَا هُمْ يُنْصَرُونَ إشاره إلى أنّ هذه الأصنام التى يظنون أنّها

ستكون شفيعه لهم و ناصره، لا تقدر على أى شىء.

مِمَّا يَلْفُتُ النَّظْرَ أَنَّ الْعُقُوبَةَ الْإِلَهِيَّةَ لَا- يَعْينُ وَقْتَهَا دَائِمًا بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ فَلَا يَسْتِطِيعُونَ رَدَّهَا وَ حَتَّى إِذَا اسْتَمْهَلُوا، وَ طَلَبُوا التَّأخِيرَ عَلَى خِلَافِ مَا كَانُوا يَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِلَى الْآنَ، فَلَا يَجَابُونَ وَ لَا هُمْ يُنْظَرُونَ .

ملاحظات

١- بملاحظة الآيات آنفات الذكر يثار هذا السؤال، و هو: إذا كان الإنسان عجولاً بطبيعته، فلما ذا ينهى الله- سبحانه عن العجلة و يقول: فَلَا- تَسْتَعْجِلُونَ؟ أليس هذا تناقضاً بين الإثنين؟ و نقول فى الجواب: إننا إذا لا حظنا أصل إختيار و حريه إرادة الإنسان، و كون صفاته و معنوياته و خصائصه الأخلاقية قابله للتغيير، فسيُضح أن لا تضاداً فى الأمر، حيث يمكن تغيير هذه الحالة بالتريبه و تزكيه النفس.

٢- جملة بَلْ تَأْتِيهِمْ بَغْتَةً فَتَبْهَتُهُمْ قد تشير إلى أن عذاب القيامة و عقوباتها تختلف جميعها عن عذاب الدنيا، فنقرأ مثلاً حول النار: نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ (١) ، أو نقرأ فى شأن وقود النار: وَقُودُهَا النَّاسُ وَ الْحِجَارَةُ (٢) .

و مثل هذه التعبيرات توحى بأن نار جهنم تأتى على حين غفلة فتبتهت الناس.

ص: ١٦٩

١- ١) -سوره الهمزه، ٧.

٢- ٢) -البقره، ٢٤.

إشاره

وَلَقَدْ أَسْتَهْزَيْتُمْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٤١) قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ
بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ (٤٢) أَمْ لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (٤٣) بَلْ مَتَّعْنَا
هُؤُلَاءِ وَالْآبَاءَ هُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ (٤٤) قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ
بِالْوَحْيِ وَلَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ (٤٥)

التفسير

لا- حظنا فى الآيات السابقه أن المشركين و الكفار كانوا يستهزءون برسول الله صلى الله عليه و آله و سلم، و هذا دأب كل
الجهال المغرورين، إنهم يأخذون الحقائق المهمه الجديّه مأخذ الهزل و الاستهزاء.

فتقول الآيه الأولى تسليه للنبي: لست الوحيد الذى يستهزأ به و لقد

اسْتَهْزِئْ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ

و لكن فى النهايه نزل بهم العذاب الذى كانوا يستهزؤن به فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ و بناء على هذا فلا تدع للغم و الحزن إلى نفسك طريقا، و ينبغى أن لا- تترك مثل أعمال الجاهلين هذه أدنى أثر فى روحك الكبيره، أو تخل بإرادتك الحديدية الصلبه.

و تقول الآيه التاليه: قل لهم إن أحدا لا يدافع عنكم أمام عذاب الله فى القيامة، بل و فى هذه الدنيا: قُلْ مَنْ يَكْلُؤُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ مِنَ الرَّحْمَنِ أَى من عذابه، فلو أن الله سبحانه لم يجعل السماء-أى الجو المحيط بالأرض سقفا محفوظا كما مرّ فى الآيات السابقه-لكان هذا وحده كافيا أن تتهاوى النيازك و تمطر كم الأجرام السماويه بأحجارها ليل نهار.

إن الله الرحمن قد أولاكم من محبته أن جعل جنودا متعددين لحفظكم و حراستكم، بحيث لو غفلوا عنكم لحظه واحده لصب عليكم سيل البلاء.

مما يستحقّ الانتباه أنّ كلمه «الرحمن» قد استعملت مكان (الله) فى هذه الآيه، أى انظروا إلى أنفسكم كم اقترفتن من الذنوب حتى أغضبتم الله الذى هو مصدر الرحمه العامه؟! ثم تضيف: بَلْ هُمْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِمْ مُعْرِضُونَ فلا هم يصغون إلى مواعد الأنبياء و نصحتهم، و لا تهزّ قلوبهم نعم الله و ذكره، و لا يستعملون عقولهم لحظه فى هذا السبيل.

ثم يسأل القرآن الكريم: أى شىء يعتمد عليه هؤلاء الكافرين الظالمين و المجرمين فى مقابل العقوبات الإلهيه؟ أم لَهُمْ آلِهَةٌ تَمْنَعُهُمْ مِنْ دُونِنَا لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنْفُسِهِمْ وَلَا هُمْ مِنَّا يُصْحَبُونَ (١) فهذه الأصنام لا تستطيع أن تنقذ نفسها من

ص: ١٧١

١- ١) -«يصحبون» من باب الأفعال، و فى الأصل يعنى أن يجعلوا شيئا تحت تصرفهم بعنوان المساعده و الحمايه، و هو هنا يعنى أن هذه الأصنام لا تملك الدفاع ذاتيا، و لا وضعت تحت تصرفها مثل هذه القوه من قبل الله تعالى، و نحن نعلم أن آيه قوه دفاعيه فى عالم الوجود إمّا أن تتبع من ذات الشىء، أو تمنح له من قبل الله تعالى. أى أنها إمّا ذاتيه أو عرضيه.

العذاب، ولا تكون مصحوبه بتأييدنا ورحمتنا.

ثم أشارت الآية التالية إلى أحد علل تمرّد و عصيان الكافرين المهمّة، فتقول:

بَلْ مُتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ

إلاّ أنّ هذا العمر الطويل و النعم الوفيره بدل أن تحرّك فيهم حسّ الشكر و الحمد، و يطأطأ رؤوسهم لعبوديه الله، فإنّها أصبحت سبب غرورهم و طغيانهم.

و لكن ألاّ يرى هؤلاء أنّ هذا العالم و نعمه زائله؟ أفلاّ يرون أنّا تأتي الأرض ننقّصها من أطرافها؟ فإنّ الأقوام و القبائل تأتي الواحده تلو الاخرى و تذهب، و ليس للأفراد الصغار و الكبار عمر خالد، و الجميع سيصيبهم الفناء، و الأقوام الذين كانوا أشدّ منهم و أقوى و أكثر تمرّدا و عصيانا أودعوا تحت التراب، و فى ظلام القبور، و حتّى العلماء و العظماء الذين كان بهم قوام الأرض قد أغمضوا أعينهم و ودّعوا الدنيا! و مع هذا الحال أفهمّ الغالبيون؟ و قد اختلف المفسّرون فى المراد من جمله أنا تأتي الأرض ننقّصها من أطرافها:

١- فقال بعضهم: إنّ المراد هو أنّ الله ينقص تدريجيّا من أراضي المشركين و يضيفها على بلاد المسلمين. إلاّ أنّه بملاحظه كون هذه السوره نزلت فى مكّه، و لم يكن للمسلمين تلك الفتوحات، فإنّ هذا التفسير يبدو غير مناسب.

٢- و قال بعض آخر: إنّ المقصود هو خراب و انهدام الأراضي بصورة تدريجيّه.

٣- و بعض يعتبرونها إشاره إلى سكّان الأرض.

٤- و ذكر بعض أنّ المراد من أطراف الأرض هو العلماء خاصّه.

إلاّ أنّ الأنسب من كلّ ذلك، أنّ المراد من الأرض هو شعوب بلدان العالم المختلفه، و الأقوام و الأفراد الذين يسيرون نحو ديار العدم بصورة تدريجيّه و دائمه، و يودعون الحياه الدنيا، و بهذا فإنّه ينقص دائما من أطراف الأرض.

وقد فسرت هذه الآية في بعض الروايات التي رويت عن أهل البيت عليهم السلام بموت العلماء،

فيقول الإمام الصادق عليه السلام: «نقصانها ذهاب عالمها».

ومن المعلوم أنّ هذه الروايات -عاده- تبين مصاديق واضحة، لا أنّها تحصر مفهوم الآية في أفراد معينين. وبهذا فإنّ الآية تريد أن تبين أنّ موت الكبار والعظماء والأقوام درس وعبرة للكافرين المغرورين الجاهلين ليعلموا أنّ محاربه الله تعالى لا تنتج سوى الاندحار.

ثمّ تقرّر الآية حقيقه أنّ وظيفه النبي صلى الله عليه وآله وسلم هي إنذار الناس عن طريق الوحي الإلهي، فتوجّه الخطاب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فتقول: قُلْ إِنَّمَا أُنذِرُكُمْ بِالْوَحْيِ وَإِذَا لَمْ يَأْتِكُمْ الْقَاسِيَةُ، فلا عجب من ذلك، وليس ذلك دليلاً على نقص الوحي الإلهي، بل السبب هو وَ لَا يَسْمَعُ الصُّمُّ الدُّعَاءَ إِذَا مَا يُنذَرُونَ .

إنّ الأذن السميعة يلزمها أن تسمع كلام الله، أمّا الأذان التي أصمّتها حجب الذنوب والغفلة والغرور فلا تسمع الحقّ مطلقاً.

إشاره

وَ لئنُ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ (٤٦) وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَ
إِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَ كَفَىٰ بِبَنِي إِسْرَائِيلَ فَحْشًا (٤٧)

التفسير

إشاره

موازين العدل في القيامة:

بعد أن كانت الآيات السابقة تعكس حاله غرور و غفله الأفراد الكافرين، تقول الآية الأولى أعلاه: إِنَّ هَؤُلَاءِ الْمَغْرُورِينَ لَمْ يَذْكُرُوا
اللَّهَ يَوْمًا فِي الرِّخَاءِ، وَ لَكِنْ: وَ لئنُ مَسَّتْهُمُ نَفْحَةٌ مِنْ عَذَابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ .

كلمه (نفحه) تعنى برأى المفسرين و أرباب اللغة: الشىء القليل، أو النسيم اللطيف، و بالرغم من أن هذه الكلمه تستعمل غالبا فى
نسمات الرحمه و النعمه غالبا، إلا أنها تستعمل فى مورد العذاب أيضا (١).

ص: ١٧٤

و على قول تفسير الكشاف فإن جملة وَ لِيُنْ مَسْتَهُمْ نَفَحَهُ... تتضمن ثلاثة تعابير كلها تشير إلى القلّة: التعبير بالمس، والتعبير بالنفحة، من ناحية اللغة، و من ناحية الوزن و الصيغه أيضا (١).

و الخلاصه: إن ما يريد أن يقوله القرآن الكريم هو: إن هؤلاء الذين عميت قلوبهم يسمعون كلام النبي و منطلق الوحي سنين طويله، و لا- يؤثر فيهم أدنى تأثير، إلا أنهم عند ما تلهب ظهورهم سياط العذاب- و إن كانت خفيفه يسيره- سيصرخون إنا كنا ظالمين ألا ينبغي لهؤلاء أن ينتبهوا قبل أن تصيبهم سياط العذاب؟ و لو انتبهوا حينئذ، فما الفائدة؟ فإن هذه اليقظه الاضطراريه لا تنفعهم، و إذا ما هدأت فوره العذاب و اطمأنوا فإنهم سيعودون إلى ما كانوا عليه! أما الآية الأخيره التي نبحثها فتشير إلى حساب القيامه الدقيق، و جزائها العادل، ليعلم الكافرون و الظالمون أنّ العذاب على فرض أنه لم يعمهم في هذه الدنيا، فإن عذاب الآخره حتمى، و سيحاسبون على جميع أعمالهم بدقه، فتقول:

وَ نَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ

«القسط» يعنى أحيانا عدم التبعيض، و أحيانا يأتى بمعنى العداله بصوره مطلقه، و ما يناسب المقام هو المعنى الثانى.

و مما يلفت النظر أنّ «القسط» هنا ذكر كصفه للموازنين، و هذه الموازين دقيقه و منظمه إلى الحدّ الذى تبدو و كأنها عين العداله (٢).

و لهذا تضيف مباشره: فَلَا تُظَلَّمُ نَفْسٌ شَيْئًا فَلَا يَنْقُصُ مِنْ ثَوَابِ الْمُحْسِنِينَ شَيْءٌ، و لا يضاف إلى عقاب المسيئين شىء.

إلا أنّ نفى الظلم و الجور هذا لا يعنى عدم الدقه فى الحساب، بل

ص: ١٧٥

١-١) -المصدر السابق.

٢-٢) -مع أنّ «موازنين» جمع، و «قسط» مفرد، إلا أنّ (القسط) مصدر، و المصدر لا يجمع، فليس هنا إشكال.

وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ

«الخردل» نبات له حبه صغيره جدًا يضرب المثل بها في الصغر و الحقاره.

و جاء نظير هذا التعبير في موضع آخر من القرآن بتعبير مِثْقَالَ ذَرَّةٍ (١).

و مما يستحق الانتباه أنه قد عبر في ست مواضع من القرآن ب مِثْقَالَ ذَرَّةٍ و في موضعين ب مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ. و في الحقيقة فإن الآيه آنفه الذكر مع التعابير الست المختلفه تأكيد على مسأله المحاسبه الدقيقه في يوم القيامه.

إن كلمه «موازين» و بصيغه الجمع، و بعدها ذكر وصف «القسط»، و بعده التأكيد على نفى الظلم فَلَا تُظَلِّمُ نَفْسٌ شَيْئًا و بعد ذلك ذكر كلمه «شيئا» ثم التمثيل بحبه الخردل، و أخيرا جملة وَ كَفَى بِنَا حَاسِبِينَ كَلَّ هذه أدلّه على أن حساب يوم القيامه دقيق جدًا، و خال من أى نوع من الظلم و الجور.

أما ما المراد من الموازين؟ بعض المفسرين ظنوا أن هناك موازين كموازين هذه الدنيا تنصب، ثم فرضوا بعد ذلك أن لأعمال الإنسان هناك و زنا و ثقلا ليتمكن وزنها بتلك الموازين.

إلا أن الصحيح هو أن الميزان هنا يعنى وسيله قياس الوزن، و من المعلوم أن لكل شىء مقياس وزن متناسب معه، كميزان الحراره، و ميزان الهواء، و الموازين الاخرى الذى يتناسب كل منها مع الموضوع الذى يريدون قياسه بها.

و نقرأ فى الروايات الإسلاميه أن موازين الحساب فى القيامه هم الأنبياء و الأئمه و الصالحون الذين لا توجد نقطه سوداء فى صحيفه أعمالهم (٢). فنقرأ:

«السلام على ميزان الأعمال»! و تجد التوضيح و التفصيل بصوره أوسع حول هذا الموضوع ذيل الآيه (٨) من سوره الأعراف.

إن ذكر الموازين بصيغه الجمع لعله إشاره إلى هذا المعنى أيضا، لأن رجال

ص: ١٧٤

(١-١) -الزلزال، ٧.

(٢-٢) -بحار الأنوار، ج ٧، ص ٢٥٢.

الحقّ كلّ منهم ميزان لأعمال البشر، فمضافا إلى أنّ جميعهم ممتازون، فإنّ لكلّ منهم امتيازًا خاصًا بحيث يعتبر في تلك المرتبه مقياسا و مثالا. و بتعبير آخر: فإنّ كلّ من يشبه هؤلاء إلى حدّ ما، و تنسجم صفاته و أعماله و صفات و أعمال العظماء، فإنّ وزنه سيثقل بذلك المقدار، و كلّما ابتعدت و اختلفت فسيخفّ وزنه.

إشاره

وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ (٤٨) الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ (٤٩) وَ هَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٠)

التفسير

إشاره

لمحه من قصص الأنبياء:

ذكرت هذه الآيات و ما بعدها جوانب من حياه الأنبياء المشفوعه بأمر تربويه بالغه الأثر، و توضّح البحوث السابقه حول نبوه الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم و مواجهته المخالفين بصوره أجلى مع ملاحظه الأصول المشتركه الحاكمه عليها.

تقول الآيه الأولى: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَىٰ وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ .

«الفرقان» يعنى فى الأصل الشىء الذى يميز الحقّ عن الباطل، و هو وسيله لمعرفة الإثنين. و قد ذكروا هنا تفاسير متعدده فى المراد من الفرقان فى هذه الآيه.

فقال بعضهم: إنّ المراد التوراه.

و البعض اعتبره انشقاق البحر لبنى إسرائيل، و الذى كان علامه واضحه على

عظمه الحقّ و أحقيّه موسى. في حين أنّ البعض اعتبره إشارة إلى سائر المعجزات و الدلائل التي كانت بيد موسى و هارون عليهما السلام.

غير أنّ هذه التفاسير لا منافاه بينها مطلقاً، لأنّ من الممكن أن يكون الفرقان إشارة إلى التوراه، و إلى سائر معجزات و دلائل موسى عليه السلام.

و قد أطلق الفرقان في سائر الآيات على نفس القرآن أيضاً، مثل: ﴿بَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (١) و أحياناً يعتبر عن الانتصار الإعجازي الذي ناله النبي صلى الله عليه و آله و سلم، كما قال في شأن معركة بدر: ﴿يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ (٢) أمّا كلمه «الضياء» فتعني النور الذي ينبع من ذات الشيء، و من المسلم أنّ القرآن و التوراه و معجزات الأنبياء كانت كذلك (٣).

«الذكر» هو كلّ موضوع يبعد الإنسان عن الغفله، و هذا أيضاً من آثار الكتب السماويه و المعجزات الإلهيه الواضحه.

إنّ ذكر هذه التعبيرات الثلاثه متعاقبه ربّما كان إشارة إلى أنّ الإنسان من أجل أن يصل إلى هدفه يحتاج أولاً إلى الفرقان، أي أن يشخّص الطريق الأصلي عند مفترق الطرق، فإذا شخّص طريقه يحتاج إلى ضياء و نور ليتحرّك في ذلك الطريق و يستمرّ فيه، و قد تعرّضه موانع أهمّها الغفله، فيحتاج إلى ما يذكره و يحذّره دائماً.

و ممّا ينبغي الالتفات إليه و ورود لفظ «الفرقان» معرفه، و ورود كلمتي [ضياء و ذكر]

نكرتين في الآيه محلّ البحث، و عدّ أثرهما خاصاً بالمتّقين، و لعلّ هذا التفاوت إشارة إلى أنّ المعجزات و الخطابات السماويه تضيء الطريق للجميع، إلا أنّ من ينتفع من الضياء و الذكر ليس جميع الناس، بل الذين يحسّون بالمسؤوليه،

ص: ١٧٩

١-١) - الفرقان، ١.

٢-٢) - الأنفال، ٤١.

٣-٣) - لقد أوضحنا الفرق بين «الضياء» و «النور» بصوره أكثر تفصيلاً في ذيل الآيه (٥) من سوره يونس.

و على جانب من التقوى.

ثم تعرف الآيه التاليه المتقين بأنهم الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَ هُمْ مِنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ .

و لكلمه «الغيب» هنا تفسيران:الأول:إنه إشاره إلى ذات الله المقدسه، أى مع أن الله سبحانه غائب عن الأنظار،فإن هؤلاء آمنوا به بدليل العقل،و يحسون بالمسؤوليه أمام ذاته المقدسه.

و الآخر:إن المتقين لا يخافون الله فى العلانيه و بين المجتمع فقط،بل يعلمون أنه حاضر و ناظر إليهم حتى فى خلواتهم.

و ممّا يلفت النظر،أنه عبر عن الخوف أمام الله بالخشيه،و فى شأن القيامه بالإشفاق،إن هذين اللفظين و إن كان كلاهما بمعنى الخوف،إلاّ أنّ «الخشيه»- على قول الراغب فى المفردات-تقال فى موضع يمتزج فيه الخوف بالاحترام و التعظيم،كخوف الابن من أبيه الموقر،و بناء على هذا فإن خوف المتقين ممتزج بالمعرفه.

و أمّا «الإشفاق» فيعنى الاهتمام و الحبّ المقترن بالخوف،و هذا التعبير يستعمل أحيانا فى شأن الأولاد أو الأصدقاء الذين يحبهم الإنسان،إلاّ أنه يخاف عليهم فى الوقت نفسه من تعرضهم للبلايا و الأمراض مثلا.و فى الواقع فإنّ المتقين يحبون يوم القيامه،لأنه مكان الثواب و الرحمه،إلاّ أنّهم فى الوقت نفسه مشفقون من حساب الله فيه.

و يمكن أن تستعمل هاتان الكلمتان أيضا فى معنى واحد.

و قارنت الآيه الأخيره بين القرآن و باقى الكتب السابقه: وَ هَذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنْزَلْنَاهُ أَ فَأَنْتُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ؟ و لماذا الإنكار؟لأنه ذكر لكم و مصدر و عيكم و يقظتكم و تذكيرهم؟أ لأنه مصدر البركه و فيه خير الدنيا و خير الآخره،و منبع الانتصارات و السعادات؟فهل ينكر مثل هذا الكتاب الذى يستبطن أدله أحقيته

فيه، و قد سطعت نورائتته، و الذين يسيرون في طريقه سعداء منتصرون؟! و لكي نعرف مدى أثر القرآن في التوعيه و ما له من البركات، فيكفي أن نرى حال سگان جزيره العرب قبل نزول القرآن عليهم، إذ كانوا يعيشون في جاهليه جهلاء و فقر و تعاسه و تفرق و تمزق، ثم نرى حالهم بعد نزول القرآن حيث أصبحوا أسوه و مثلاً حسناً للآخرين، و نرى كذلك حال الأقسام الآخرين قبل وصول القرآن إليهم و بعده.

ص: ١٨١

اشاره

وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ (٥١) إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (٥٢) قَالُوا وَحَدِّثْنَا أَبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (٥٣) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٥٤) قَالُوا أَلَمْ نَجْتِنِ بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ (٥٥) قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ (٥٦) وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ (٥٧) فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (٥٨)

التفسير

اشاره

تخطيط إبراهيم عليه السلام لتحطيم الأصنام:

قلنا: أنّ هذه السوره تحدّثت- كما هو معلوم من اسمها- عن جوانب عديده من حالات الأنبياء- سته عشر نبيا- فقد أشير في الآيات السابقه إشاره قصيره إلى رساله موسى و هارون عليهما السلام، و عكست هذه الآيات و بعض الآيات الآتية جانبا

مهّمًا من حياه إبراهيم عليه السّلام و مواجهته لعبده الأصنام، فتقول أولًا: **وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ لِّلْعَالَمِينَ** .

«الرشد» فى الأصل بمعنى السير إلى المقصد و الغايه، و من الممكن أن يكون هنا إشاره إلى حقيقه التوحيد، و أنّ إبراهيم عرفها و اطّلع عليها منذ سنى الطفوله.

و قد يكون إشاره إلى كلّ خير و صلاح بمعنى الكلمه و الواسع.

و التعبير ب **مِنْ قَبْلُ** إشاره إلى ما قبل موسى و هارون عليهما السّلام.

و جملة **وَكُنَّا بِهِ لِّلْعَالَمِينَ** إشاره إلى مؤهلات و استعدادات إبراهيم لاكتساب هذه المواهب، و فى الحقيقه إنّ الله سبحانه لا يهب موهبه عبثًا و بلا حكمه، فإنّ هذه المؤهلات استعداد لتقبّل المواهب الإلهيه، و إن كان مقام النبوه مقامًا موهوبًا.

ثمّ أشارت إلى أحد أهمّ مناهج إبراهيم عليه السّلام، فقالت: إنّ رشد إبراهيم قد بان عند ما قال لأبيه و قومه -و هو إشاره إلى عمّه آزر، لأنّ العرب تسمّى العمّ أبا- ما هذه التماثيل التى تعبدونها؟ **إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَ قَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** .

لقد حقّر إبراهيم عليه السّلام الأصنام التى كان لها قدسيّه فى نظر هؤلاء بتعبير **مَا هَذِهِ** (١) أولًا، و ثانيا بتعبير التماثيل لأنّ التمثال يعنى الصوره أو المجسّمه التى لا روح لها. و يقول تاريخ عباده الأصنام: إنّ هذه المجسّمات و الصور كانت فى البدايه ذكرى للأنبياء و العلماء، إلا أنّها اكتسبت قدسيّه و أصبحت آلهه معبوده بمضى الزمان.

و جملة **أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ** بملاحظه معنى «العكوف» الذى يعنى الملازمه المقترنه بالاحترام، توحى بأنّ أولئك كانوا يحبّون الأصنام، و يطأطئون رؤوسهم فى حضرتها و يطوفون حولها، و كأنّهم كانوا ملازميها دائما.

ص: ١٨٣

١- ١) - إنّ التعبير ب(ما) فى مثل هذه الموارد يشير عادة إلى غير العاقل، و اسم الإشاره القريب أيضا يعطى معنى التحقير أيضا، و إلا كان المناسب الإشاره إلى البعيد.

إن مقوله إبراهيم عليه السلام هذه في الحقيقة استدلال على بطلان عبادة الأصنام، لأن ما نراه من الأصنام هو المجسمه و التمثال، و الباقي خيال و ظنّ و أوهام، فأى إنسان عاقل يسمح لنفسه أن يوجب عليها كل هذا التعظيم و الاحترام لقبضه حجر أو كومه خشب؟ لماذا يخضع الإنسان-الذى هو أشرف المخلوقات-أمام ما صنعه بيده، و يطلب منه حلّ مشاكله و معضلاته؟! إلا أن عبده الأصنام لم يكن عندهم-فى الحقيقة-جواب أمام هذا المنطق السليم القاطع، سوى أن يعدوا المسألة عن أنفسهم و يلقوها على عاتق آباءهم، و لهذا قالوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ .

و لما كانت حجّتهم بأن «هذه العبادة هى سنّه الآباء» غير مجديه نفعاً..و لا نمتلك دليلاً على أنّ السابقين من الآباء و الأجداد أعقل و أكثر معرفه من الأجيال المقبله، بل القضيه على العكس غالباً، لأنّ العلم يتّسع بمرور الزمن، فأجابهم إبراهيم مباشرة ف قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ .

إنّ هذا التعبير المقترن بأنواع التأكيدات، و الحاكى عن الحزم التامّ سبب أن يرجع عبده الأصنام إلى أنفسهم قليلاً، و يتوجّهوا إلى التحقّق من قول إبراهيم، فأتوا إلى إبراهيم قَالُوا أَجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِبِينَ لأنّ أولئك الذين كانوا قد اعتادوا على عبادة الأصنام، و كانوا يظنون أنّ ذلك حقيقه حتميه، و لم يكونوا يصدّقون أنّ أحدا يخالفها بصوره جديّه، و لذلك سألوا إبراهيم هذا السؤال تعجباً، إلا أنّ إبراهيم أجابهم بصراحه: قَالَ بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ الَّذِى فَطَرَهُنَّ وَ أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ .

إنّ إبراهيم عليه السلام قد بيّن بهذه الكلمات القاطعه أنّ الذى يستحقّ العباده هو خالقهم و خالق الأرض و كلّ الموجودات، أمّا قطع الحجر و الخشب المصنوعه فهى لا شىء، و ليس لها حقّ العباده، و خاصه و قد أكدّ بجمله و أَنَا عَلَىٰ ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ فأنا لست الشاهد الوحيد على هذه الحقيقه، بل إنّ كلّ العقلاء الذين

قطعوا حبل التقليد الأعمى شاهدون على هذه الحقيقه.

و من أجل أن يثبت إبراهيم جديّه هذه المسأله، و أنّه ثابت على عقيدته إلى أبعد الحدود، و أنّه يتقبل كلّ ما يترتب على ذلك بكلّ وجوده، أضاف: وَ تَاللّٰهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ .

«أكيدن» مأخوذه من الكيد، و هو التخطيط السرى، و التفكير المخفى و كان مراده أن يفهمهم بصراحه بأننى سأستغلّ فى النهايه فرصه مناسبه و احطّم هذه الأصنام.

إلاّ أنّ عظمه و هيبه الأصنام فى نفوسهم ربّما كانت قد بلغت حدّا لم يأخذوا معه كلام إبراهيم مأخذ الجدّ، و لم يظهرها ردّ فعل تجاهه، و ربّما ظنّوا بأنّ أى إنسان لا يسمح لنفسه أن يهزأ و يسخر من مقدّسات قوم تدعم حكومتهم تلك المقدّسات تماما، بأيّه جرأه؟ و بأيّه قوّه؟! و من هنا يتّضح أنّ ما قاله بعض المفسّرين من أنّ هذه الجمله قد قالها إبراهيم سرّا فى نفسه، أو بيّنها لبعض بصوره خاصّه لا داعى له، خاصّه و أنّه مخالف تماما لظاهر الآيه. إضافه إلى أنّنا سنقرأ بعد عدّه آيات أنّ عبّاد الأصنام قد تذكّروا قول إبراهيم، و قالوا: سمعنا فتى كان يتحدّث عن مؤامره ضدّ الأصنام.

على كلّ حال، فإنّ إبراهيم نفذ خطّته فى يوم كان معبد الأوثان خاليا من الناس و لم يكن أحد من الوثنيين حاضرا.

و توضيح ذلك: إنّهُ طبقا لنقل بعض المفسّرين، فإنّ عبده الأوثان كانوا قد اتّخذوا يوما خاصّا من كلّ سنه عيدا لأصنامهم، و كانوا يحضرون الأطمه عند أصنامهم فى المعبد فى ذلك اليوم، ثمّ يخرجون من المدينه أفواجا، و كانوا يرجعون فى آخر النهار، فيأتون إلى المعبد ليأكلوا من ذلك الطعام الذى نالته البركه فى اعتقادهم.

و كانوا قد عرضوا على إبراهيم أن يخرج معهم، إلاّ أنّه اعتذر بالمرض و لم

يخرج معهم.

على كل حال، فإن إبراهيم من دون أن يحذر من مغبه هذا العمل و ما سيحدث من غضب عبده الأصنام العارم، دخل الميدان برجوله و توجه إلى حرق هذه الآلهة الجوفاء-التي لها أنصار متعصبون جهال-بشجاعه خارقه و حطمها بصوره يصفها القرآن فيقول: فَجَعَلَهُمْ جُذًا ذَا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ و كان هدفه من تركه لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ (١).

ملاحظتان

اشاره

١-الصنميه فى أشكال متعدده

صحيح أن أذهاننا تنصرف من لفظ عباده الأصنام إلى الأصنام الحجرية و الخشبية على الأكثر، إلا أن الصنم و الصنميه-من وجهه نظر-لها مفهوم واسع يشمل كل ما يبعد الإنسان عن الله، بأى شكل و صورته كان، حيث

يقول الحديث المعروف: «كلما شغلك عن الله فهو صنمك».

و

فى حديث عن الأصبع بن نباته-و هو أحد أصحاب الإمام على عليه السلام المعروفين أنه قال: انّ عليا عليه السلام مرّ بقوم يلعبون الشطرنج، فقال: «ما هذه التماثيل التى أنتم لها عاكفون؟ لقد عصيتم الله و رسوله» (٢).

ص: ١٨٦

١-١) قال كثير من المفسرين: إن مرجع ضمير (إليه) إلى إبراهيم، و قال البعض أن المراد هو الصنم الكبير، إلا أن الأول يبدو هو الأصح. أمّا ما نقرؤه فى الآية آنفه الذكر من أنه كان أكبرهم، فيمكن أن يكون إشاره إلى كبره الظاهري، أو إشاره إلى احترامه من قبل عباده الأصنام الخرافيين، أو إلى الإثنين معا.

٢-٢) -مجمع البيان، ذيل الآية مورد البحث.

٢- قول عبده الأصنام و جواب إبراهيم

مِمَّا يَلْفَتُ النَّظْرَ أَنَّ عَبْدَهُ الْأَصْنَامَ قَالُوا فِي جَوَابِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، اعْتِمَادًا عَلَى كَثْرَتِهِمْ، وَعَلَى طَوْلِ الزَّمَانِ: إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى هَذَا الدِّينِ. فَأَجَابَهُمْ عَلَى كَلَا الشَّقِيقِينَ، بِأَنَّكُمْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مَبِينٍ دَائِمًا. أَيْ إِنَّ الْإِنْسَانَ الْعَاقِلَ الَّذِي لَهُ تَفْكِيرٌ مُسْتَقِلٌّ لَا يَرْبِطُ نَفْسَهُ بِمِثْلِ هَذِهِ الْأَوْهَامِ مُطْلَقًا، فَلَا يُعْتَبَرُ كَثْرَةُ الْأَنْصَارِ لِلْمَذْهَبِ الْمَتَدَاوِلِ دَلِيلًا عَلَى أَصَالَتِهِ، وَكَذَلِكَ لَا يُعْتَنَى بِدَوَامِهِ وَتَجَدُّرِهِ.

ص: ١٨٧

إشاره

قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَيْتَا إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ (٥٩) قَالُوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٦٠) قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَيْنِ الْغَيْبِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ (٦١) قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَا يَا إِبْرَاهِيمُ (٦٢) قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْتَئْتَبُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ (٦٣) فَارْجِعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٦٤) ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ (٦٥) قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ (٦٦) أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٦٧)

التفسير

إشاره

إبراهيم و برهانه المبين:

و أخيرا انتهى يوم العيد، و رجع عبده الأصنام فرحين إلى المدينة، فأتوا إلى المعبد مباشرة، حتى يظهر ولاءهم للأصنام، و ليأكلوا من الأطعمه التي تبركت-

بزعمهم-بمجاوره الأصنام.فما أن دخلوا المعبد حتى واجهوا منظرا أطار عقولهم من رؤوسهم،فقد وجدوا تلاً- من الأيادي و الأرجل المكسّره المتراكمه بعضها على البعض الآخر فى ذلك المعبد المعمور،فصاحوا و قالوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا (١)؟!و لا ريب أن من فعل ذلك ف إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ فقد ظلم آلهتنا و مجتمعنا و نفسه!لأنه عرض نفسه للهلاك بهذا العمل.

إلا أن جماعه منهم تذكروا ما سمعوه من إبراهيم عليه السلام و ازدرائه بالأصنام و تهديده لها و طريقه تعامله السلبى لهذه الآلهه المزعومه! قالوا سَمِعْنَا فَتَى يَذُكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ (٢).

صحيح أن إبراهيم-طبقا لبعض الروايات- كان شابا،و ربّما لم يكن سنّه يتجاوز(١٦)عاما،و صحيح أن كل خصائص الرجوله من الشجاعه و الشهامه و الصراحه و الحزم قد جمعت فيه،إلا أنه من المسلم به أن مراد عبّاد الأصنام لم يكن سوى التحقير،فبدل أن يقولوا:إن إبراهيم قد فعل هذا الفعل،قالوا:إن فتى يقال له إبراهيم كان يقول كذا...أى إنه فرد مجهول تماما،و لا شخصيه له فى نظرهم.

إن المؤلف-عاده-عند ما تقع جريمه فى مكان ما،فإنه و من أجل كشف الشخص الذى قام بهذا العمل،تبحث علاقات الخصومه و العداة،و من البديهى أنه لم يكن هناك شخص فى تلك البيئه من يعادى الأصنام غير إبراهيم، و لذلك توجهت إليه أفكار الجميع،و قالوا فَأَتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ عليه بالجريمه.

ص: ١٨٩

١ - ١) -اعتبر بعض المفسرين(من)هنا موصوله،إلا- أن ملاحظه الآيه التالیه التى هى فى حكم الجواب،فسيظهر أن(من)هنا استفهاميه.

٢ - ٢) -كما أشرنا سابقا:إن الوثنيين لم يكونوا مستعدّين للقول:أن هذا الفتى كان يعيب الآلهه،بل قالوا فقط:إنه كان يتحدّث عن الأصنام.

و احتمال بعض المفسرين أن يكون المراد مشاهدته منظر عقاب إبراهيم، لا الشهاده على كونه مجرماً. غير أن الآيات المقبله التي لها صبغه التحقيق و الاستجواب تنفى هذا الاحتمال، إضافة إلى أن التعبير ب«لعل» لا يناسب المعنى الثاني، لأن الناس إذا حضروا ساحه العقاب فسيشاهدون ذلك المنظر حتماً، فلا معنى ل«لعل».

فنادى المنادون في نواحي المدينه: «ليحضر كل من يعلم بعداء إبراهيم و إهانتة للأصنام»، فاجتمع كل الذين كانوا يعلمون بالموضوع، و كذلك سائر الناس ليروا أين ستصل عاقبه عمل هذا المتهم؟ لقد حدثت ضجّه و همهمه عجيبه بين الناس، لأنّ هذا العمل كان في نظرهم جريمه لم يسبق لها نظير من قبل شابّ مثير للفتن و المتاعب، و كانت قد هزّت البناء الديني للناس.

و أخيراً تشكّلت المحكمه، و كان زعماء القوم قد اجتمعوا هناك، و يقول بعض المفسرين: أنّ نمرود نفسه كان مشرفاً على هذه المحاكمه، و أول سؤال وجهوه إلى إبراهيم عليه السلام هو أن: **قَالُوا أَأَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَيْتَانِ يَا إِبْرَاهِيمُ؟ هُوَ لَمْ يَكُنْ مَسْتَعِدّاً حَتَّى لَقُولَ: أَنْتَ حَطَمْتَ آلِهَتَنَا وَ جَعَلْتَهَا قِطْعاً مَتَنَاثِرَةً؟ بَلْ قَالُوا فَقَطْ: أَنْتَ فَعَلْتَ بِالْهَيْتَانِ ذَلِكَ؟ فَأَجَابَهُمْ إِبْرَاهِيمُ جَوَاباً أَفْحَمَهُمْ، وَ جَعَلَهُمْ فِي حَيْرَةٍ لَمْ يَجِدُوا مِنْهَا مَخْرَجاً قَالِ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَسَأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ .**

إنّ من أسس علم معرفه الجرائم أن يكون المتهم بآثاره الجريمه، و الملاحظ هنا أنّ آثار الجريمه كانت باديه على يد الصنم الكبير، [وفقاً للروايه المعروفه: إنّ إبراهيم جعل الفأس على رقبه الصنم الكبير].

لماذا تأتون إليّ؟ و لماذا لا تتهمون إلهكم الكبير؟ ألا تحتملون أنّه غضب على الآلهه الصغيره، أو إنّ اعتبرهم منافسيه في المستقبل فعاقبهم؟

ولما كان ظاهر هذا التعبير لا يطابق الواقع في نظر المفسرين، ولما كان إبراهيم نبيا معصوما ولا يكذب أبدا، فقد ذكروا تفاسير مختلفة، وأفضلها كما يبدو هو:

إن إبراهيم عليه السلام قد نسب العمل إلى كبير الأصنام قطعاً، إلا أن كل القرائن تشهد أنه لم يكن جاداً في قصده، بل كان يريد أن يزعم عقائد الوثنيين الخرافية الواهية، ويفندها أمامهم، ويفهم هؤلاء أن هذه الأحجار والأخشاب التي لا حياة فيها ذليله و عاجزه إلى الحد الذي لا تستطيع أن تتكلم بجملة واحدة تستنجد بعبادها، فكيف يريدون منها أن تحل معضلاتهم؟! ونظير هذا التعبير كثير في محادثاتنا اليومية، فنحن إذا أردنا إبطال أقوال الطرف المقابل نضع أمامه مسلّماته على هيئة الأمر أو الإخبار أو الاستفهام، وهذا ليس كذبا أبداً، بل الكذب هو القول الذي لا يمتلك القرينه معه.

و في روايه عن الإمام الصادق عليه السلام في كتاب الكافي: «إنما قال: بل فعله كبيرهم، إرادته الإصلاح، ودلاله على أنهم لا يفعلون» ثم قال: «والله ما فعلوه وما كذب».

و احتمال جمع من المفسرين أن إبراهيم قد أدى هذا المطلب بشكل جملة شرطيه و قال: إن الأصنام إذا كانت تتكلم فإنها قد فعلت هذا الفعل، و من المسلم أن هذا التعبير لم يكن خلاف الواقع، لأن الأصنام لم تكن تتكلم، و لم تكن قد أقدمت على مثل هذا العمل، و لم يصدر منها، و وردت روايه في مضمون هذا التفسير أيضا.

إلا أن التفسير الأول يبدو هو الأقرب، لأن الجملة الشرطيه «إن كانوا ينطقون» جواب الطلب في «فاسألوهم»، و ليست شرطاً لجملة «بل فعله كبيرهم».

(فلاحظوا بدقه).

و اللطيفه الاخرى التي ينبغي الالتفات إليها هي: إن العبارة هي أنه يجب أن

يسأل من الأصنام المحطّمة الأيدي و الأرجل عمّن فعل بها ذلك، لا من الصنم الكبير لأنّ ضمير (هم)، و كذلك ضمائر «إن كانوا ينطقون» كلّها بصيغه الجمع، و هذا أنسب مع التفسير الأوّل (١).

لقد هزّت كلمات إبراهيم الوثنيين و أيقظت ضمائرهم النائمه الغافله، و أزاح الرماد عن شعله النّار فأضاءها، و أثار فطرتهم التوحيدية من خلف حجب التعصّب و الجهل.

في لحظه سريعه استيقظوا من هذا النوم العميق و رجعوا إلى فطرتهم و وجدانهم، كما يقول القرآن: فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ (٢) فقد ظلمتم أنفسكم و مجتمعكم الذي تنتمون إليه، و كذلك ساحه الله واهب النعم المقدسه.

و الطريف في الأمر أنّنا قرأنا في الآيات السابقه أنّهم اتّهموا إبراهيم بكونه ظالما، و هنا قبلوا و اعترفوا في أنفسهم بأنّ الظالم الأصلي و الحقيقي هو أنفسهم.

و في الواقع فإنّ كلّ مراد إبراهيم من تحطيم الأصنام تحطيم فكر الوثنيه و روح الصنميه، لا تحطيم الأصنام ذاتها، إذ لا جدوى من تحطيمها إذا صنع الوثنيون العنودون أصناما أكبر منها و جعلوها مكانها، و توجد أمثله كثيره لهذه المسأله في تاريخ الأقسام الجاهلين المتعصّبين.

إلى الآن استطاع إبراهيم أن يجتاز بنجاح مرحله حساسه جدا من طريق تبليغه الرساله، و هي إيقاظ الضمائر عن طريق إيجاد موجه نفسيه هائجه.

و لكن للأسف، فإنّ صدأ الجهل و التعصّب و التقليد الأعمى كان أكبر من أن يصقل و يمحي تماما بنداء بطل التوحيد.

ص: ١٩٢

١- ١) -إضافه إلى أنّ ضمير كبيرهم مع البقيه متشابه.

٢- ٢) -احتمل بعض المفسرين أن يكون المراد من فَرَجَعُوا إِلَىٰ أَنفُسِهِمْ أنّهم تحدّثوا بينهم عن ذلك الكلام، و لام بعضهم بعضا. إلا أنّ ما قلناه يبدو هو الأصح.

و للأسف لم تستمر هذه اليقظه الروحيه المقدسه، و ثارت في ضمائرهم الملوّثه المظلمه قوى الشيطان و الجهل ضدّ نور التوحيد هذا، و رجع كلّ شيء إلى حالته الأولى، و كم هو لطيف تعبير القرآن حيث يقول: ثُمَّ نَكَسُوا عَلَيَّ رُؤُسِهِمْ و من أجل أن يأتوا بعذر نيابه عن الآلهه البكم قالوا: لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ فَإِنَّهُمْ دَائِمًا صَامِتُونَ، و لا يحطّمون حاجز الصمت. و أرادوا بهذا العذر الواهي أن يخفوا ضعف و ذلّه الأصنام.

و هنا فتح أمام إبراهيم الميدان و المجال للاستدلال المنطقي ليوجّه لهم أشدّ هجماته، و ليرمى عقولهم بوابل من التوبيخ و اللوم المنطقي الواعي: قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ؟ فما ذا تنفع هذه الآلهه المزعومه الخياليه التي لا قدره لها على الكلام، و ليس لها شعور و إدراك، و لا تقدر أن تدافع عن نفسها، و لا تستطيع أن تحمي عبّادها، و لا يصدر عنها أى عمل؟ إنّ عباده معبود ما إنّما يكون لأهليته للعباده، و مثل هذا الأمر لا معنى له في شأن الأصنام الميته، أو يعبد رجاء فائده و نفع تعود عليهم من قبله، أو الخوف من خسارتهم، إلا أنّ إقدامى على تحطيم الأصنام أوضح أنّها لا تملك أدنى حركه، و مع هذا الحال ألا يعتبر عملكم هذا حمقا و جهاله؟! و وسّع معلّم التوحيد دائره الكلام، و انهال بسياط التفرّيع على روحهم التي فقدت الإحساس، فقال: أَفُ لَكُمْ وَ لِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ؟ إلا- أنه لم يلحّ في توبيخهم و تقرّيعهم لئلا- يلجوا في عنادهم.

في الحقيقه، كان إبراهيم يتابع خطّه بدقه متناهيه، فأول شيء قام به عند دعوتهم إلى التوحيد هو أن ناداهم قائلا: ما هذه التماثيل التي تعبدونها؟ و هي

ص: ١٩٣

١- ١) - بحثنا في معنى أفّ بصورة أكثر تفصيلا في ذيل الآيه (٢٣) من سوره الإسراء

لا تحسّ و لا تتكلّم و إذا كنتم تقولون: إنّها سنّه آباءكم، فقد كنتم أنتم و آباؤكم فى ضلال مبین.

و فى المرحله الثّانيه أقدم على خطّه عملیه لیبين أنّ هذه الأصنام ليست لها تلك القدره على إهلاك كلّ من ينظر إليها نظره احتقار، خاصه و أنّه ذهب إليها مع سابق إنذار و حطمها تماما، و ليوضّح أنّ تلك الأوهام التى حاكوها مجتمعين لا فائده و لا ثمر فيها.

و فى المرحله الثّالثه أوصلهم فى تلك المحكمه التاريخيه إلى طريق مسدود، فمرّه دخل إليهم عن طريق فطرتهم، و تاره خاطب عقولهم، و أخرى وعظّمهم، و أحيانا وبّخهم و لامهم.

و الخلاصه، فإنّ هذا المعلم الكبير قد دخل من كلّ الأبواب، و استخدم كلّ طاقته، إلّا أنّ من المسلّم أنّ القابليه شرط فى التأثير، و كان هذا قليل الوجود بين أولئك القوم للأسف.

و لكن لا شكّ أنّ كلمات إبراهيم عليه السّلام و أفعاله بقيت كأرضيّه للتوحيد، أو على الأقل بقيت كعلامات استفهام فى أذهان أولئك، و أصبحت مقدّمه ليقظه و وعى أوسع فى المستقبل. و يستفاد من التواريخ أنّ جماعه آمنوا به، و هم و إن قلّوا عددا، إلّا أنّهم كانوا من الأهمّيه بمكان، إذ هيئوا الاستعداد النسبى لفئه أخرى.

إشاره

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٦٨) قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَيْلًا مَاءً عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) وَارَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ (٧٠)

التفسير

إشاره

عند ما نصير النار جنه:

مع أن عبده الأوثان أسقط ما في أيديهم نتيجة استدلالات إبراهيم العمليه و المنطقيه، و اعترفوا في أنفسهم بهذه الهزيمة، إلا أن عنادهم و تعصيه بهم الشديد منعهم من قبول الحق، و لذلك فلا عجب من أن يتخذوا قرارا صارما و خطيرا في شأن إبراهيم، و هو قتل إبراهيم بأشع صورته، أي حرقه و جعله رمادا! هناك علاقه عكسيه بين القوه و المنطق عاده، فكل من اشتدت قوته ضعف منطقته، إلا رجال الحق فإنهم كلما زادت قوتهم يصبحون أكثر تواضعا و منطقا.

و عند ما لا يحقق المتعصيه بون شيئا عن طريق المنطق، فسوف يتوسلون بالقوه فورا، و قد طبقت هذه الخطه في حق إبراهيم تماما كما يقول القرآن الكريم:

قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ

إنّ المتسلّطين المتعنّتين يستغلّون نقاط الضعف النفسيه لدى الغوغاء من الناس لتحريكهم-عاده-لمعرفتهم بالنفسيات و مهارتهم في عملهم! وكذلك فعلوا في هذه الحادّته، و أطلقوا شعارات تثير حفيظتهم، فقالوا: إنّ آلهتكم و مقدّساتكم مهدّده بالخطر، و قد سحقت سنّه آبائكم و أجدادكم، فأين غيرتكم و حميتكم؟! لماذا أنتم ضعفاء أذلاء؟ لماذا لا تنصرون آلهتكم؟ احرقوا إبراهيم و انصروا آلهتكم -إذا كنتم لا تقدرون على أى عمل- ما دام فيكم عرق ينبض، و لكم قوّه و قدره.

أنظروا إلى كلّ الناس يدافعون عن مقدّساتهم، فما بالكم و قد أحرق الخطر بكلّ مقدّساتكم؟! و الخلاصه، فقد قالوا الكثير من أمثال هذه لخزعبلات و أثاروا الناس ضدّ إبراهيم بحيث أنّهم لم يكتفوا بعدّه حزم من الحطب تكفى لإحراق عدّه أشخاص، بل أتوا بالآلاف الحزم و ألقوها حتّى صارت جبلا- من الحطب ثمّ أشعلوه فاتقدت منه نار مهوله كأنّها البحر المتلاطم و الدخان يتصاعد إلى عنان السّماء لينتقموا من إبراهيم أوّلا، و ليحفظوا مهابه أصنامهم المزعومه التى حطمتها خطّته و أسقطت أبهتها!! لقد كتب المؤرّخون هنا مطالب كثيره، لا يبدو أى منها بعيدا، و من جملتها قولهم: إنّ الناس سعوا أربعين يوما لجمع الحطب، فجمعوا منه الكثير من كلّ مكان، و قد وصل الأمر إلى أنّ النساء اللّاتى كان عملهنّ الحياكه فى البيوت، خرجن و أضفن تلاً من الحطب إلى ذلك الحطب، و وصّى المرضى المشرفون على الموت بمبلغ من أموالهم لشراء الحطب، و كان المحتاجون يندرون بأنهم يضيفون مقداراً من الحطب إذا قضيت حوائجهم، و لذلك عند ما أشعلوا التّار فى الحطب من كلّ جانب اشتعلت نار عظيمه بحيث لا تستطيع الطيور أن تمرّ فوقها.

من البديهي أنّ نارا بهذه العظمه لا يمكن الاقتراب منها، فكيف يريدون أن يلقوا إبراهيم فيها، و من هنا اضطروا إلى الاستعانه بالمنجنيق، فوضعوا إبراهيم

عليه و ألقوه في تلك النار المترامية الأطراف بحركه سريعه (١).

و نقرأ في الزوايات المنقوله عن طرق الشيعة و السنه أنهم عند ما وضعوا إبراهيم على المنجنيق، و أرادوا أن يلقوه في النار، ضجت السماء و الأرض و الملائكه، و سألت الله سبحانه أن يحفظ هذا الموحد البطل و زعيم الرجال الأحرار.

و نقلوا أيضا أن جبرئيل جاء للقاء إبراهيم، و قال له: أ لك حاجه؟ فأجابه إبراهيم بعبارته موجزه: «أما إليك فلا» إنني أحتاج إلى من هو غني عن الجميع، و رؤوف بالجميع.

و هنا اقترح عليه جبرئيل فقال: فاسأل ربك، فأجابه:

«حسبي من سؤالي علمه بحالي» (٢).

و

في حديث عن الإمام الباقر عليه السلام: إن إبراهيم ناجى ربه في تلك الساعه:

«يا أحد يا أحد، يا صمد يا صمد، يا من لم يلد و لم يولد، و لم يكن له كفوا أحد، توكلت على الله» (٣).

كما ورد هذا الدعاء بعبارات مختلفه و في العديد من المصادر الأخرى.

و على كل حال، فقد القى إبراهيم في النار وسط زعاريده الناس و سرورهم و صراخهم، و قد أطلقوا أصوات الفرحة طائنين أن محطّم الأصنام قد فنى إلى الأبد و أصبح ترابا و رمادا.

لكن الله الذي بيده كل شيء حتى النار لا تحرق إلا بإذنه، شاء أن يبقى هذا العبد المؤمن المخلص سالما من لهب تلك النار الموقده ليضيف وثيقه فخر جديده

ص: ١٩٧

(١-١) -مجمع البيان، و تفسير الميزان، و تفسير الفخر الرازي، و تفسير القرطبي، في ذيل الآيات مورد البحث. و كذلك الكامل لابن الأثير المجلد الأول ص ٩٨.

(٢-٢) -روضه الكافي، طبقا لنقل الميزان، ج ١٤، ص ٣٣٦.

(٣-٣) -تفسير الفخر الرازي ذيل الآيه.

إلى سجل افتخاراته، و كما يقول القرآن الكريم: قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَيَّ إِبْرَاهِيمَ .

لا شك أنّ أمر الله هنا كان أمراً تكويّتيًا، كالأمر الذى يصدره فى عالم الوجود إلى الشمس و القمر، و الأرض و السماء، و الماء و الثّار، و النباتات و الطيور.

و المعروف أنّ الثّار قد بردت برداً شديداً اصطكّت أسنان إبراهيم منه، و حسب قول بعض المفسّرين: إنّ الله سبحانه لو لم يقل: سلاماً، لمت إبراهيم من شدّه البرد. و كذلك نقرأ فى روايه مشهوره أنّ نار النمرود قد تحوّلت إلى حديقه غناء (١). حتّى قال بعض المفسّرين إنّ تلك اللحظات التى كان فيها إبراهيم فى الثّار، كانت أهدأ و أفضل و أجمل أيّام عمره (٢).

على كلّ حال، فهناك اختلاف كبير بين المفسّرين فى كيفية عدم إحراق الثّار لإبراهيم، إلّا أنّ مجمل الكلام أنّه فى فلسفه التوحيد لا يصدر أى مسبب عن أى سبب إلّا بأمر الله، فيقول يوماً للسكّين التى فى يد إبراهيم: لا تقطعى، و يقول يوماً آخر للنار: لا تحرقى، و يوماً آخر يأمر الماء الذى هو أساس الحياه أن يغرق فرعون و الفراعنه! و يقول الله سبحانه فى آخر آيه من الآيات محلّ البحث على سبيل الاستنتاج باقتضاب: أنّهم تآمروا عليه ليقتلوه و لكن النتيجة لم تكن فى صالحهم و أرادوا به كَيْدًا فَجَعَلْنَا هُمُ الْأَخْسَرِينَ .

لا يخفى أنّ الوضع قد اختلف تماماً ببقاء إبراهيم سالماً، و خمدت أصوات الفرح، و بقيت الأفواه فاغره من العجب، و كان جماعه يتهامسون علناً فيما بينهم حول هذه الظاهره العجيبه، و أصبحت الألسن تلهج بعظمه إبراهيم و ربّه، و أحذق الخطر بوجود نمرود و حكومته، غير أنّ العناد ظلّ مانعاً من قبول الحقّ، و إن كان

ص: ١٩٨

١-١) - تفسير مجمع البيان، ذيل الآيه.

٢-٢) - تفسير الفخر الرازى، ذيل الآيه.

أصحاب القلوب الواعية قد استفادوا من هذه الواقعة، و زاد إيمانهم مع قلتهم.

بحوث

أشاره

١- السعى للخير و الشرّ

قد يغرق الإنسان أحيانا فى عالم الأسباب حتّى يخيّل إليه أنّ الآثار و الخواص من نفس هذه الموجودات، و يغفل عن المبدأ العظيم الذى وهب هذه الآثار المختلفه لهذه الموجودات، و يغفل عن المبدأ العظيم الذى وهب هذه الآثار المختلفه لهذه الموجودات، و من أجل أن يوقظ الله العباد يشير إلى أنّ بعض الموجودات التافهه قد تصبح مصدرا للآثار العظيمه، فإمر العنكبوت أن تنسج عدّه خيوط رقيقه ضعيفه على باب غار ثور، و تجعل الذين كانوا يطاردون النّبي صلى الله عليه و آله و سلم و يبحثون عنه فى كلّ مكان يائسين من العثور عليه، و لو ظفروا به لقتلوه، و لتغيّر مجرى التاريخ بهذا الأمر الهين..

و على العكس من ذلك، فإنّه يعطّل الأسباب التى يضرب بها المثل فى عالم المادّه- كالنّار فى الإحراق، و السكّين فى القطع- عن العمل، ليعلم أنّ هذه أيضا ليس لها أمر و قدره ذاتيه فى العمل، فإنّها تقف عن العمل إذا نهاها ربّها الجليل فتكفّ حتّى لو أمرها إبراهيم الخليل عليه السلام.

إنّ الالتفات إلى هذه الحقائق التى رأينا أمثله كثيره لها فى الحياه، تحيى فى العبد المؤمن روح التوحيد و التوكّل حتّى أنّه لا يفكر إلاّ فى الله، و لا يطلب العون إلاّ منه، فيطلب منه- و حده- إطفاء نار المشاكل و المعضلات، و يسأله أن يدفع كيد الأعداء، فلا يرى غيره، و لا يرجو شيئا من غيره.

٢- الفتى الشجاع

جاء فى بعض كتب التفسير أنّ إبراهيم لما ألقى فى النار لم يكن عمره يتجاوز

ست عشره سنه (١) و ذكر البعض الآخر أنّ عمره عند ذاك كان (٢٦) سنه (٢).

و على كلّ حال فإنّه كان فى عمر الشباب، و مع أنّه لم يكن معه أحد يعينه، فإنّه رمى بسهم المواجهه فى وجه طاغوت زمانه الكبير الذى كان حاميا للطواغيت الآخرين، و هبّ بمفرده لمقارعه الجهل و الخرافات و الشرك، و استهزاء بكلّ مقدّسات المجتمع الخياليه الواهيه، و لم يدع للخوف من غضب و انتقام الناس أدنى سبيل إلى نفسه، لأنّ قلبه كان مغمورا بعشق الله، و كان اعتماده و توكله على الذات المقدّسه فحسب.

أجل... هكذا هو الإيمان، أينما وجد وجدت الشهامه، و كلّ من حلّ فيه فلا يمكن أن يقهر! إنّ أهمّ الاسس التى ينبغى للمسلمين الاهتمام بها لمقارعه القوى الشيطانيه الكبرى، فى دنيا اليوم المضطربه، هو هذا الأساس و الرأسمال العظيم، و هو الإيمان،

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: «إنّ المؤمن أشدّ من زبر الحديد، إنّ زبر الحديد إذا دخل النار تغير، و إنّ المؤمن لو قتل ثمّ نشر ثمّ قتل لم يتغير قلبه» (٣).

٣- إبراهيم و نمرود

جاء فى التواريخ أنّه عند ما ألقوا إبراهيم فى النار، كان نمرود على يقين من أنّ إبراهيم قد أصبح رمادا، أمّا عند ما دقق النظر و وجده حيّا، قال لمن حوله: إنّى أرى إبراهيم حيّا، لعلىّ يخيل إلىّ! فصعد على مرتفع و رأى حاله جيدا فصاح نمرود: يا إبراهيم إنّ ربّك عظيم، و قد أوجد بقدرته حائلا- بينك و بين النار! و لذلك فإنّى أريد أن أقدم قربانا له، و أحضر أربعة آلاف قربان لذلك، فأعاد إبراهيم القول

ص: ٢٠٠

١- (١) - مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

٢- (٢) - تفسير القرطبي، المجلد ٦، ص ٤٣٤٤.

٣- (٣) - سفينه البحار، مادّه أمن، ج ١، ص ٣٧.

عليه بأنّ أى قربان-و أى عمل-لا يتقبّل منك إلّا أن تؤمن أوّلا.غير أنّ نمرود قال فى الجواب:فسيدهب سلطانى و ملكى سدى إذن،و ليس بإمكانى أن أتحمّل ذلك! على كلّ حال،فإنّ هذه الحوادث صارت سببا لإيمان جماعه من ذوى القلوب الواعيه برّب إبراهيم عليه السّلام،أو يزدادوا إيمانا،و ربّما كان هذا هو السبب فى عدم إظهار نمرود ردّ فعل قوى ضدّ إبراهيم،بل اكتفى بإبعاده عن أرض بابل (١).

ص: ٢٠١

١-١) -الكامل لابن الأثير،المجلد الأوّل،ص ٩٩.

اشاره

وَنَجِّنَاہُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (٧١) وَ هَدَيْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً وَ كَلَّمْنَا صَالِحِينَ (٧٢) وَ جَعَلْنَاہُمْ أُمَّةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْہُمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ آتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (٧٣)

التفسير

اشاره

هجره إبراهيم من أرض الوثنيين

لقد هزت قصه حريق إبراهيم عليه السلام و نجاته الإعجازيه من هذه المرحله الخطيره أركان حكومه نمرود، بحيث فقد نمرود معنوياته تماما، لأنه لم يعد قادرا على أن يظهر إبراهيم بمظهر الشاب المنافق و المثير للمشاكل. فقد عرف بين الناس بأنه مرشد إلهي و بطل شجاع يقدر على مواجهه جبار ظالم- بكل إمكانياته و قدرته- بمفرده، و أنه لو بقى فى تلك المدينه و البلاد على هذا الحال، و مع ذلك اللسان المتكلم و المنطق القوي، و الشهامه و الشجاعه التى لا نظير لها، فمن المحتم أنه سيكون خطرا على تلك الحكومه الجباره الغاشمه، فلا بد أن يخرج من تلك الأرض على أى حال.

و من جهه أخرى، فإنَّ إبراهيم كان قد أدّى رسالته فى الواقع فى تلك البلاد، و وجه ضربات ما حقه إلى هيكل و بنيان الشرك، و بذر بذور الإيمان و الوعى فى تلك البلاد، و بقيت المسأله مسأله وقت لتنمو هذه البذور و تبدى ثمارها، و تقلع جذور الأصنام و عبادتها، و تسحب البساط من تحتها.

فلا بدّ من الهجره إلى موطن آخر لإيجاد أرضيه لرسالته هناك، و لذلك صمّم على الهجره إلى الشام بصحبه لوط- و كان ابن أخ إبراهيم- و زوجته ساره، و ربّما كان معهم جمع قليل من المؤمنين، كما يقول القرآن الكريم: **وَنَجَّيْنَاهُ وَ لُوطًا إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ .**

و بالرغم من أنّ اسم هذه الأرض لم يرد صريحاً فى القرآن، إلاّ أنّه بملاحظه الآيه الأولى من سوره الإسراء: **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ يَتَذَكَّرُ أَلَّا تُكْفَرَ بِهِ الْأَرْضُ وَالسَّمَاءُ وَبَيْنَهُمَا يَوْمَ الْقِيَامِ** من الناحيه الظاهرية أرضاً غنّيه مباركهُ خضراء، و من الجهه المعنويه كانت معهداً لرعايه الأنبياء.

و قد وردت بحوث مختلفه فى التفاسير و الروايات فى أنّ إبراهيم عليه السلام هاجر تلقائياً، أمّ أبعدته سلطات نمرود، أمّ أنّ الإثنين اشتركا، و الجمع بينها جميعاً هو أنّ نمرود و من حوله كانوا يرون فى إبراهيم خطراً كبيراً عليهم، فأجبروه على الخروج من تلك البلاد، هذا من جهه، و من جهه أخرى، فإنَّ إبراهيم كان يرى أنّ رسالته و مهمّته فى تلك الأرض قد انتهت، و كان يبحث عن منطقه أخرى للعمل على توسيع دعوه التوحيد فيها، خاصه و أنّ البقاء فى بابل قد يشكّل خطراً على حياته فتبقى دعوته العالميه ناقصه.

و

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام: **إنّ نمرود أمر أن ينفوا إبراهيم من بلاده، و أن يمنعوه من الخروج بماشيته و ماله، فحاجّهم إبراهيم عند ذلك فقال: إن**

أخذتم ماشيتي و مالي فحقي عليكم أن تردوا علي ما ذهب من عمري في بلادكم، فاختصموا إلى قاضي نمرود، و قضي على إبراهيم أن يسلم إليهم جميع ما أصاب في بلادهم، و قضي على أصحاب نمرود أن يردوا على إبراهيم ما ذهب من عمره في بلادهم، فأخبر بذلك نمرود، فأمرهم أن يخلوا سبيله و سيبل ماشيته و ماله، و أن يخرجوه، و قال: إنّه إن بقي في بلادكم أفسد دينكم و أضّر بآلهتكم» (١).

و أشارت الآية التاليه إلى أحد أهم مواهب الله لإبراهيم، و هي هبته الولد الصالح، و النسل المفيد، فقالت: وَ هَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَ يَعْقُوبَ نَافِلَةً (٢) وَ كَلَّا جَعَلْنَا صَالِحِينَ فقد مرّت أعوام طوال و إبراهيم في لهفه و انتظار للولد الصالح، و الآية (١٠٠) من سوره الصافات ناطقه بأمنيته الباطنيه هذه: رَبِّ هَبْ لِي مِنَ الصَّالِحِينَ. و أخيرا استجاب له ربّه، فوهبه إسماعيل أولا، و من بعد إسحاق، و كان كل منهما نبيا عظيم الشخصيه.

إنّ التعبير ب«نافله»-و الذي يبدو أنّه وصف ليعقوب خاصّه-من جهه أنّ إبراهيم عليه السّلام كان قد طلب الولد الصالح فقد، فأضاف الله إلى مراده حفيدا صالحا أيضا، لأنّ النافله في الأصل تعني الهبه أو العمل الإضافي.

و تشير الآية الأخيره إلى مقام إمامه و قياده هذا النبي الكبير، و إلى جانب من صفات الأنبياء و مناهجهم المهمه القيمه بصوره جماعيه.

لقد عدّت في هذه الآية سته أقسام من هذه الخصائص، و إذا أضيف إليها وصفهم بكونهم صالحين-و الذي يستفاد من الآية السابقه-فستصبح سبعة.

و يحتمل أيضا أن يكون مجموع الصفات الست التي ذكرت في هذه الآية تفصيلا

ص: ٢٠٤

١-١) -روضه الكافي، طبقا لنقل الميزان، في ذيل الآيات مورد البحث.

٢-٢) -عدم ذكر إسماعيل هنا مع أنّه كان أوّل ولد إبراهيم، ربّما كان من أجل أنّ ولاده إسحاق من أمّ عقيم و عجوز، كانت تبدو مسأله عجيبه للغاية، في حين أنّ ولاده إسماعيل من أمّه هاجر لم يكن عجيبا.

و تبياناً لصالح أولئك، و الذى ورد فى الآيه السابقه.

يقول أولاً: وَ جَعَلْنَا لَهُمْ أَنْمَةً أَى إِنَّا وهبناهم مقام الإمامه إضافه إلى مقام النبوه و الرساله، و الإمامه- كما أشرنا إلى ذلك سابقا- هى آخر مراحل سير الإنسان التكاملى، و التى تعنى قياده العامه الشامله لكلّ الجوانب الماديه و المعنويه، و الظاهريه و الباطنيه، و الجسميه و الروحيه للناس.

و الفرق بين النبوه و الرساله و بين الإمامه، هو أنّ الأنبياء فى مقام النبوه و الرساله يتلقون أوامر الله و يبلغونها الناس إبلاغاً مقترناً بالإنذار أو البشاره فقط، أمّا فى مرحله الإمامه فإنهم ينفذون هذا البرنامج الإلهى، سواء كان هذا التنفيذ عن طريق تشكيل حكومه عادله أو بدون ذلك، فهم فى هذه المرحله مربون للناس، و معلّمون لهم، و منقذون للأحكام و البرامج فى سبيل إيجاد بيئه طاهره نزيهه إنسانيه.

فى الحقيقه، إنّ مقام الإمامه مقام تنفيذ كلّ الخطط و الاطروحات الإلهيه، و بتعبير آخر: الإيصال إلى المطلوب، و الهدايه التشريعيه و التكوينيّه، فالإمام من هذه الناحيه كالشمس التى تنمى الكائنات الحيّه بأشعتها تماماً (1).

ثمّ يذكر فى المرحله التاليه ثمره هذا المقام، فيقول: يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا و لا يعنى بالهدايه الإرشاد و بيان الطريق الصحيح، و الذى هو من شأن النبوه و الرساله، بل يعنى الأخذ باليد و الإيصال إلى المقصود. و هذا بالطبع لمن له الاستعداد و اللياقه و الأهليه.

أمّا الموهبه الثالثه الرّابعه و الخامسه فقد عبر عنها القرآن بقوله: وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ هَذَا الْوَحْيِ يمكن أن يكون وحياً

ص: ٢٠٥

(١- ١) -لمزيد الاطلاع فى هذا المجال راجع ذيل الآيه (١٢٤) من سوره البقره.

تشريعياً، أى إننا جعلنا كل أنواع أعمال الخير و أداء الصلاة و إعطاء الزكاه فى مناهجهم الدينيه. و يمكن أيضا أن يكون و حيا تكويتياً، أى إننا وهبنا لهم التوفيق و القدره و الجاذبيه المعنويه من أجل تنفيذ هذه الأمور.

طبعاً، ليس لأى من هذه الأمور صبغه إجباريه و اضطراريه، و حتى مجرد الأهليه و الاستعداد و الأرضيه لوحدها من دون إرادتهم و تصميمهم لا توصل إلى نتيجته.

إن ذكر إِقَامِ الصَّلَاةِ وَ إِيْتَاءِ الزَّكَاةِ بعد فعل الخيرات، من أجل أهميته هذين الأمرين اللذين بينا أولاً بصوره عامه فى جمله وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ ثم بصوره خاصه فى التصريح بهما، و هذا ما يبحثه علماء البلاغه العربيه تحت عنوان ذكر الخاص بعد العام...

و فى آخر فصل أشار إلى مقام العبوديه، فقال: وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ (١).

و التعبير ب«كانوا» الذى يدل على الماضى المستمر فى هذا المنهج، ربّما كان إشاره إلى أنّ هؤلاء كانوا رجالاً صالحين موحدّين مؤهلين حتى قبل الوصول إلى مقام النبوه و الإمامه، و فى ظلّ ذلك المخطّط و هبهم الله سبحانه مواهب جديده.

و ينبغى التذكير بهذه النقطه، و هى أنّ جمله يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا فى الحقيقه و سيله لمعرفة الأئمه و هداه الحقّ، فى مقابل زعماء و قاده الباطل الذين يقوم أساس و معيار أعمالهم على الأهواء و الرغبات الشيطانيه.

فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام أنّه قال: «إنّ الأئمه فى كتاب الله إمامان: قال الله تبارك و تعالى:

و جعلناهم أئمه يهدون بأمرنا، لا بأمر الناس، يقدمون ما أمر الله قبل أمرهم، و حكم

ص: ٢٠٦

١- ١) - تقديم كلمه (لنا) على (عابدين) يدل على الحصر، و إشاره إلى مقام التوحيد الخالص، لهؤلاء المقدمين الكبار، أى إنّ هؤلاء كانوا يعبدون الله فقط.

اللّٰه قبل حكمهم، قال: و جعلنا أئمة يهدون إلى النار، يقدّمون أمرهم قبل أمر اللّٰه، و حكمهم قبل حكم اللّٰه، و يأخذون بأهوائهم خلاف ما في كتاب اللّٰه» (١).

و هذا هو المعيار و المحك لمعرفة إمام الحقّ من إمام الباطل.

ص: ٢٠٧

١ - ١) - الآيه الثانيه - و هي الآيه (٤١) من سوره القصص - تشير إلى فرعون و جنوده، و هذا الحديث جاء في تفسير الصافي نقلا عن كتاب الكافي.

إشاره

وَ لُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ الْخَبَائِثَ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسْتَقِيمَنَ (٧٤) وَ أَدْخَلْنَاهُ فِي رَحْمَتِنَا
إِنَّهُ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥)

التفسير

إشاره

نجاه لوط من أرض الفجار:

لَمَّا كَانَ لُوطٌ مِنْ أَقْرَبَاءِ إِبْرَاهِيمَ وَ ذُوى أَرْحَامِهِ، وَ مِنْ أَوَائِلِ مَنْ آمَنَ بِهِ، فَقَدِ أَشَارَتِ الْآيَاتَانِ بَعْدَ قِصَّةِ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ إِلَى جَانِبِ مَنْ اجْتِهَادِهِ وَ سَعْيِهِ فِي طَرِيقِ إِبْلَاحِ الرِّسَالَةِ، وَ الْمَوَاهِبِ الَّتِي مَنَحَهَا اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُ، فَتَقُولُ: وَ لُوطًا آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا (١).

لَفِظُهُ (الْحُكْمُ) جَاءَتْ فِي بَعْضِ الْمَوَارِدِ بِمَعْنَى أَمْرِ النَّبِيِّ وَ الرِّسَالَةِ، وَ فِي مَوَارِدٍ أُخْرَى بِمَعْنَى الْقَضَاءِ، وَ أَحْيَانًا، بِمَعْنَى الْعَقْلِ، وَ يَبْدُو أَنَّ الْأَنْسَبَ هُنَا مِنْ بَيْنِ هَذِهِ الْمَعَانِي هُوَ الْمَعْنَى الْأَوَّلُ، مَعَ إِمْكَانِيهِ الْجَمْعِ بَيْنِ هَذِهِ الْمَعَانِي هُنَا.

وَ الْمُرَادُ مِنَ الْعِلْمِ كُلِّ الْعِلْمِ الَّتِي لَهَا أَثَرٌ فِي سَعَادَةِ وَ مُصِيرِ الْإِنْسَانِ.

ص: ٢٠٨

١- ١) - لقد نصبت كلمه (لوط) لأنها مفعول لفعل مقدر، يمكن أن يكون تقديره: (آتيناه) أو (اذكر).

لقد كان لوط من الأنبياء العظام و كان معاصرا لإبراهيم، و هاجر معه من أرض بابل إلى فلسطين، ثم فارق إبراهيم، و جاء إلى مدينه (سدوم) لأن أهلها كانوا غارقين فى الفساد و المعاصى، و خاصه الانحرافات الجنسيه. و قد سعى كثيرا من أجل هدايه هؤلاء القوم، و تحمّل المشاق فى هذا الطريق، إلا أنه لم يؤثر فى أولئك العمى القلوب.

و أخيرا، نعلم أنّ الغضب و العذاب الإلهى قد حلّ بهؤلاء، و قلب عالى مدينتهم سافلها، و أهلكوا جميعا، إلا عائله لوط - باستثناء امرأته - و قد بيّنا تفصيل هذه الحادثه فى ذيل الآيات (٧٧) و ما بعدها من سوره هود.

و لذلك أشارت الآيه إلى هذه الموهبه التى و هبت للوط، و هى وَ نَجِّنَا[□]هُ مِنَ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ تَعْمَلُ[□] الْحَبَاثَتَ[□] إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَاسِقِينَ .

إنّ نسبه الأعمال القبيحه إلى القرية و المدينه بدلا من أهل القرية إشارة إلى أنّ هؤلاء كانوا قد غرقوا فى الفساد و المعاصى إلى درجه حتّى كأنّ أعمال الفساد و الخبائث كانت تقطر من جدران مدينتهم و أبوابها.

و التعبير ب«الخبائث» بصيغه الجمع، إشارة إلى أنّهم إضافة إلى فعل اللواط الشنيع، كانوا يعملون أعمالا قبيحه و خبيثه أخرى، أشرنا إليها فى ذيل الآيه (٨) من سوره هود.

و التعبير ب«الفاستقين» بعد «قوم سوء» ربّما يكون إشارة إلى أنّ أولئك كانوا فاسقين من وجهه نظر القوانين الإلهيه، و حتّى مع قطع النظر عن الدين و الإيمان، فإنّهم كانوا أفرادا حتمى و منحرفين فى نظر المعايير الاجتماعيه بين الناس.

ثمّ أشارت الآيه إلى آخر موهبه إلهيه للنبي لوط، فقالت: وَ أَدْخَلْنَاهُ[□] فِي رَحْمَتِنَا[□] إِنَّهُ مِنَ الصّٰلِحِينَ[□] فهذه الرحمه الإلهيه الخاصه لا تعطى لأحد اعتباطا و بدون حساب، بل إنّ أهليه و صلاحيه لوط هى التى جعلته مستحقا لمثل هذه الرحمه.

حقًا، أى عمل أصعب، و أى منهج إصلاحى أجهد من أن يبقى إنسان مدّة طويله فى مدينه فيها كلّ هذا الفساد و الانحطاط، و يظلّ دائما يبلغ الناس الضالّين المنحرفين أمر ربّهم و يرشدهم إلى طريق الهدى، و يصل الأمر بهم إلى أنّهم يريدون أن يعتدوا حتّى على ضيفه؟ و الحقّ أنّ مثل هذه الاستقامه و الثبات لا تصدر إلّا من أنبياء الله و أتباعهم، فأى واحد منّا يستطيع أن يتحمّل مثل هذا العذاب الروحى المؤلم؟!

ص : ٢١٠

إشاره

وَ نُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَنَجَّيْنَاهُ وَأَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ (٧٦) وَ نَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ (٧٧)

التفسير

إشاره

نجاه نوح من القوم الكافرين:

بعد ذكر جانب من قصه إبراهيم وقصه لوط عليهما السلام، تطرقت السوره إلى ذكر جانب من قصه نبي آخر من الأنبياء الكبار- أى نوح عليه السلام- فقالت: وَ نُوحًا إِذْ نَادَىٰ مِنْ قَبْلُ أَي قَبْلَ إِبراهيم و لوط.

إن هذا النداء-ظاهرا-إشاره إلى الدعاء و اللعنه التى ذكرت فى سوره نوح من القرآن الكريم حيث يقول: رَبِّ لَا تَذَرْ عَلَيَّ الْأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا. إِنَّكَ إِن تَذَرُهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَ لَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا (١). أو إنه إشاره إلى الجملة التى وردت فى الآيه ١٠/سوره القمر: فَدَعَا رَبُّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ .

التعبير ب«نادى» يأتى عادة بمعنى الدعاء بصوت عال، و لعله إشاره إلى أنهم

ص: ٢١١

آذوا هذا النبي الجليل إلى درجة جعلته يصرخ مناديا ربه ليدركه و ينجيه من أذاهم و شرهم، و لو أمعنا النظر في أحوال نوح الواردة في سورة نوح و سورة هود لوجدنا أنه كان محققا أن يرفع صوته و يدعو ربه سبحانه (١).

ثم تضيف الآية: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَجَئْنَاَهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ و في الحقيقة فإن جملة «فاستجبنا» إشاره مجمله إلى استجابته دعوته، و جملة فَجَئْنَاَهُ وَ أَهْلَهُ مِنَ الْكَرْبِ الْعَظِيمِ تعتبر شرحا و تفصيلا لها.

و هناك اختلاف بين المفسرين في المراد من كلمه (أهل) هنا، لأنه إذا كان المراد منها عائلته و أهل بيته فستشمل بعض أبناء نوح، لأن واحدا من أولاده تخلف عنه مع المسيئين و أضاع بنوته لعائلته، و كذلك لم تكن زوجته مؤمنة به.

و إن كان المراد من أهل خواص أتباعه و أصحابه المؤمنين، فإنها على خلاف المعنى المشهور للأهل.

لكن يمكن أن يقال: أن للأهل -هنا- معنى وسيعا يشمل أهله المؤمنين و خواص أصحابه، لأننا نقرأ في حق ابنه الذي لم يتبعه: إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ (٢) و على هذا فإن الذين اعتنقوا دين نوح يعدون في الواقع من عائلته و أهله.

و ينبغي ذكر هذه الملاحة أيضا، و هي: إن «الكرب» في اللغة تعنى الغم الشديد، و هي في الأصل مأخوذة من قلب الأرض و حفرها، لأن الغم الشديد يقلب قلب الإنسان، و وصفه بالعظيم يكشف عن منتهى كربه و أساه.

و أي كرب أعظم من أن يدعو قومه إلى دين الحق (٩٥٠) عاما، كما صرح القرآن بذلك، لكن لم يؤمن به خلال هذه المدة الطويلة إلا ثمانون شخصا على المشهور بين المفسرين (٣)، و أمّا عمل الآخرين فلم يكن غير السخريه

ص: ٢١٢

١-١) -راجع ما ذكرنا عليه آنفا ذيل الآية (٢٥) سورة هود.

٢-٢) -هود، ٤٦.

٣-٣) -مجمع البيان ذيل الآية (٤٠) من سورة هود، و نور الثقلين، المجلد ٢، ص ٣٥٠.

و الاستهزاء و الأذى.

و تضيف الآيه التاليه: وَ نَصَرْنَا^١ (١) مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَفْنَا^٢هُمْ أَجْمَعِينَ إِنَّ هَذِهِ الْجُمْلَه تُوَكِّد مرّه أخرى على حقيقه أنّ العقوبات الإلهيّه لا تتّصف بصفه الانتقام مطلقا، بل هى على أساس انتخاب الأصلاح، أى إنّ حقّ الحياه و التّنعّم بمواهب الحياه لأناس يكونون فى طريق التّكامل و السير إلى الله، أو أنّهم إذا ساروا يوما فى طريق الانحراف انتبهوا إلى أنفسهم و رجعوا إلى جاده الصواب. أمّا أولئك الفاسدون الذين لا أمل مطلقا فى صلاحهم فى المستقبل، فلا مصير و لا جزاء لهم إلاّ الموت و الفناء.

ملاحظه

الجدير بالذكر أنّ هذه السوره ذكرت آنفا قصه «إبراهيم» و «لوط» و كذلك سوف تذكر قصتي «أيوب» و «يونس»، و قد ذكرت آنفا قصه نوح عليه السّلام و فى جميعها تذكر مسأله نجاتهم و خلاصهم من الشدائد و المحن و الأعداء.

و كأنّ منهج هذه السوره بيان منتهى رعايه الله و حمايته لأنبيائه و إنقاذهم من الكروب، ليكون ذلك تسليه للرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم، و أملا للمؤمنين، و بملاحظه أنّ هذه السوره مكّيه، و أنّ المسلمين كانوا حينئذ فى شدّه و كرب فستتجلى أهمّيّه هذا الموضوع أكثر...

ص: ٢١٣

١- ١) - إن فعل (نصر) يعدى عاده ب (على) إلى مفعول ثان، فيقال مثلا: اللهم انصرنا عليهم. أمّا هنا فقد استعملت كلمه (من)، و ربّما كان ذلك من أجل أنّ المراد النصره المقترنه بالنجاه، لأنّ مادّه النجاه تتعدى ب (من).

إشاره

وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ (٧٩) وَعَلَّمْنَاهُ صِنْعَهُ لِيَبْسُ لَكُمْ لِيُحَصِّنْكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ (٨٠)

التفسير

إشاره

قضاء داود و سليمان عليهما السلام:

بعد الحوادث و الوقائع المتعلقة بموسى و هارون و إبراهيم و نوح و لوط عليهم السلام، تشير هذه الآيات إلى جانب من حياه داود و سليمان، و فى البدايه أشارت إشاره خفيه إلى حادث قضاء و حكم صدر من جانب داود و سليمان، فتقول: وَ دَاوُدَ وَ سُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَسَتْ (١) فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَ كُنَّا لِحَكْمِهِمْ شَاهِدِينَ .

و بالرغم من أن القرآن قد ألمح إلى هذه المحكمه لمح خفيه، و اكتفى بإشاره

ص: ٢١٤

١ - ١) - «نفست» من مادّه نفس على وزن (حرب) أى التفرّق و التبعض فى الليل، و لمّا كان تفرّق الأغنام فى الليل، و فى مزرعه سيقتن بالتهام نباتها حتما لذا قال البعض: إنّها الرعى فى الليل، و «نفس» (على وزن علم) تعنى الأغنام التى تفرّق فى الليل.

إجماليه و استخلاص النتيجة الأخلاقية و التربويه لها و التي سنشير إليها فيما بعد، إلا أنه وردت بحوث كثيره حولها في الروايات الإسلامية و أقوال المفسرين.

فقال جماعه: إنَّ القَصَّه كانت كما يلي: إنَّ قطع أغانم لبعض الرعاه دخلت ليلا- إلى بستان فأكلت أوراقه و عناقيد العنب منه فأتلفته، فرجع صاحب البستان شكواه إلى داود، فحكم داود بأن تعطى كلَّ الأغانم لصاحب البستان تعويضا لهذه الخساره الفادحه، فقال سليمان- و الذي كان طفلا- آنذاك- لأبيه: يا نبي الله العظيم، غير هذا الحكم و عدله! فقال الأديب: و كيف ذاك؟ قال: يجب أن تودع الأغانم عند صاحب البستان ليستفيد من منافعتها و لبنها و صوفها، و تودع البستان في يد صاحب الأغانم ليسعى في إصلاحه، فإذا عاد البستان إلى حالته الأولى يردَّ إلى صاحبه، و تردَّ الأغانم أيضا إلى صاحبها، و أيد الله حكم سليمان في الآيه التاليه.

و قد ورد هذا المضمون في روايه عن الإمامين الباقر و الصادقين عليهما السلام (1).

و يمكن أن يتصور عدم تناسب هذا التفسير مع كلمه (حرث) التي تعنى الزراعه، و لكن يبدو أن للحرث معنى واسعا يشمل الزراعه و البستان، كما يستفاد ذلك من قصه أصحاب الجنه في سورة القلم، الآيه ١٧-٣٢.

لكن تبقى هنا عدّه استفهامات مهمه:

١- ماذا كان أساس و معيار هذين الحكمين؟ ٢- كيف اختلف حكم داود عن حكم سليمان؟ فهل كانا يحكمان على أساس الاجتهاد؟ ٣- هل المسأله هذه كانت على هيئه تشاور في الحكم، أم أنّهما حكما بحكمين مستقلين يختلف كلّ منهما عن الآخر؟! و يمكن الإجابة عن السؤال الأول: إنَّ المعيار كان جبران الخساره، فينظر

ص: ٢١٥

(١- ١) - مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

داود إلى أنّ الخساره التي أصابت الكرم تعادل قيمه الأغنام، و لذلك حكم بوجوب إعطاء الأغنام لصاحب البستان جبرا للخساره، لأنّ التقصير من جانب صاحب الأغنام.

و ينبغي الالتفات إلى أنّنا نقرأ في بعض الروايات أنّ على صاحب الأغنام أن يمنع غنمه من التعدي على زرع الآخريين في الليل، كما أنّ من واجب صاحب الزرع حفظ زرعه في النهار (1).

أمّا معيار حكم سليمان عليه السلام فقد كان يرى أنّ خساره صاحب البستان تعادل ما سينتفع به من الأغنام لسنه كامله! بناء على هذا فإنّ الإثنين قد قضيا بالحقّ و العدل، مع فارق أنّ حكم سليمان كان أدقّ، لأنّ الخساره لا تدفع مرّه واحده في مكان واحد، بل تؤدّي بصوره تدريجيّه بحيث لا تثقل على صاحب الغنم أيضا. و إضافه إلى ما مرّ، فقد كان هناك تناسب بين الخساره و الجبران، لأنّ جذور النباتات لم تتلف، بل ذهبت منافعها المؤقته، و لذلك فإنّ من الأعدل ألاّ تنقل أصول الأغنام إلى ملك صاحب البستان، بل تنقل منافعها فقط.

و نقول في جواب السؤال الثّاني: لا شك أنّ حكم الأنبياء مستند إلى الوحي الإلهي، إلاّ أنّ هذا لا يعني أنّ وحيّا خاصّا ينزل في كلّ مورد من موارد الحكم، بل إنّ الأنبياء يحكمون حسب القواعد الكلّيه التي تلقّوها من الوحي.

بناء على هذا فإنّه لا توجد مسأله الاجتهاد النظري بمعناها الاصطلاحية، و هو الاجتهاد الظنّي، و لكن لا مانع من أن يكون هناك طريقتان لإيجاد ضابطه كليّه، و أن يكون نبيان كلّ منهما يرى أحد الطريقتين، و كلاهما صحيح في الواقع، و كان الموضوع الذي عالجنه في بحثنا على سبيل الاتّفاق - من هذا القبيل كما

ص: ٢١٦

(١ - ١) - نقرأ في مجمع البيان في ذيل الآيه مورد البحث: روى عن النّبي صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قضى بحفظ المواشي على أربابها ليلا، و قضى بحفظ الحرث على أربابه نهارا. و قد نقل هذا المضمون في تفسير الصافي نقلا عن كتاب الكافي.

بيناه آناً بتفصيل. و كما أشار القرآن إليه، فإن الطريق الذي اختاره سليمان عليه السلام كان أقرب من الناحية التنفيذية، و جملة و كلاً آتينا حكماً و علماً و التي ستأتي في الآيه التاليه، شاهده على صحه كلا القضاءين.

و نقول في جواب السؤال الثالث: لا يبعد أن يكون الأمر على هيئه تشاور، و هو التشاور الذي يحتمل أن يكون لتعليم سليمان و تأهيله في أمر القضاء، و التعبير ب(حكمهم) شاهد أيضاً على وحده الحكم النهائي، بالرغم من وجود حكمين مختلفين في البدايه. (فتأملوا بدقه).

و نقرأ

في روايه عن الإمام الباقر عليه السلام في تفسير هذه الآيه أنه قال: «لم يحكما، إنما كانا يتناظران» (١).

و يستفاد من روايه أخرى رويت في أصول الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام أن هذه القضيه حدثت لتعيين وصي داود و خليفته و أن يتعلم أولئك نفر منهما أيضاً (٢).

و على كل حال، فإن الآيه التاليه تؤيد حكم سليمان في هذه القصة على هذه الشاكلة: فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ و لكن هذا لا يعني أن حكم داود كان اشتباهاً و خطأ، لأنها تضيف مباشره و كلاً آتينا حكماً و علماً.

ثم تشير إلى إحدى المواهب و الفضائل التي كان الله سبحانه قد وهبها لداود عليه السلام، فتقول: وَ سَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَ الطَّيْرَ فَإِنَّ ذَلِكَ لَيْسَ شَيْئاً مَهْمًا أَمَامَ قُدْرَتِنَا وَ كُنَّا فَاعِلِينَ.

ص: ٢١٧

١-١) - من لا يحضره الفقيه، طبقاً لنقل تفسير نور الثقلين، الجزء ٣، ص ٤٤٣.

٢-٢) - لمزيد الاطلاع راجع تفسير الصافي ذيل الآيه مورد البحث.

هناك بحث بين المفسرين فى أنه كيف كان تجاوب الجبال و الطير مع داود؟ و ما المراد من قوله تعالى: وَ سَيَحْزَنَّا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ؟! ١- فاحتمل أحيانا أن هذا كان صوت داود الرخيم المؤثر الجذاب، و الذى كان ينعكس فى الجبال، و كان يجذب الطيور إليه.

٢- و قالوا حينئذ آخر: إن هذا التسييح كان تسييحا مقترنا بالإدراك و الشعور الموجود فى باطن ذرات العالم، لأن كل موجودات العالم لها نوع من العقل و الشعور حسب هذه النظرية، و عند ما كانت تسمع صوت داود فى وقت المناجاة و التسييح كانت تردّد معه، و تمتزج بهمهمه تسييح منها.

٣- و قال البعض: إن المراد هو التسييح التكويني الذى يوجد فى موجودات العالم بلسان حالها، لأن لكل موجود نظاما دقيقا جدا. و هذا النظام الدقيق يحكى عن طهاره و نزاهه الله، و عن أن له صفات كمال، و بناء على هذا فإن نظام عالم الوجود العجيب فى كل زاويه منه تسييح و حمد، ف«التسييح» هو التنزيه عن النقائص، و«الحمد» هو الثناء على صفات الكمال (١).

فإن قيل: إن التسييح التكويني لا يختص بالجبال و الطيور، و لا بدادود، بل أن نغمه هذا التسييح تنبعث من كل الأرجاء و الموجودات على الدوام.

قالوا فى الجواب: صحيح إن هذا التسييح عام، و لكن لا يدركه الجميع، فقد كانت روح داود العظيمه فى هذه الحاله منسجمه مع باطن و داخل عالم الوجود، و كان يحسن جيدا أن الجبال و الطير يسبحن معه.

و ليس لدينا دليل قاطع على أى من هذه التفاسير، و ما نفهمه من ظاهر الآيه هو أن الجبال و الطير كانت تردّد و تتجاوب مع داود، و كانت تسبح الله، و فى الوقت

ص: ٢١٨

نفسه لا تضادّ بين هذه التفاسير الثلاثة، فالجمع بينهما ممكن.

و أشارت الآيه الأخيره إلى موهبه أخرى من المواهب التي وهبها الله لهذا النبيّ الجليل، فقالت: **وَعَلَّمَنَاهُ صِنْعَهُ لِبُوسٍ لَكُمْ لِيُتَخَصِّنَكُمْ مِنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنْتُمْ شَاكِرُونَ .**

«اللبوس» كما يقول العلامة الطبرسي في مجمع البيان-كلّ نوع من أنواع الأسلحة الدفاعيه و الهجوميه كالدرع و السيف و الرمح (١). إلا أنّ القرائن التي في آيات القرآن توحى بأنّ اللبوس هنا تعنى الدرع التي لها صفة الحفظ في الحروب.

أمّا كيف ألان الله الحديد لداود، و علّمه صنع الدروع، فسنفصل ذلك في ذيل الآيات (١٠-١١) من سوره سبأ إن شاء الله تعالى.

ص: ٢١٩

١-١) -مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

إشاره

وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ (٨١) وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ (٨٢)

التفسير

إشاره

الرياح تحت إمره سليمان:

تشير هاتان الآيتان إلى جانب من المواهب التي منحها الله لنبي آخر من الأنبياء-أى سليمان عليه السلام فتقول الآية الأولى منهما: وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الْأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ فنحن مطلعون على أسرار عالم الوجود، والقوانين والأنظمة الحاكمة عليه، ونعلم كيفية السيطره عليها، ونعلم كذلك نتيجة و عاقبه هذا العمل، و على كل حال فإن كل شيء خاضع و مسلم أمام علمنا و قدرتنا.

إن جملة و لِسُلَيْمَانَ... معطوفه على جملة و سَخَرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجَبَالِ أى إن قدرتنا عظيمه نقدر معها على أن نسخر الجبال لعبد من عبادنا أحيانا لتسبح معه، و أحيانا نجعل الريح تحت إمره أحد عبادنا ليرسلها حيث شاء.

إن لفظه (العاصفه) تعنى الرياح القويّه أو الهائجه، فى حين يستفاد من بعض آيات القرآن الاخرى أنّ الرياح الهادئه أيضا كانت تحت إمره سليمان، كما تصوّر ذلك الآيه (٣٦) من سوره ص: فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ .

إنّ التصريح بالعاصفه هنا يمكن أن تكون من باب بيان الفرد الأهمّ، أى ليست الرياح الهادئه لوحدها تحت إمرته، بل حتّى العواصف الشديده كانت رهن إشارته أيضا، لأنّ الثّانيه أعجب.

ثمّ إنّ هذه الرياح القويّه التى فى مسير الأرض المباركه (الشام) حيث كان مقرّ سليمان عليه السلام، لم تكن الوحيده، بل إنّها كانت تتحرّك حيث أراد، و إلى جميع الأماكنه حسب الآيه (٣٦) من سوره ص، و على هذا فإنّ التصريح باسم الأرض المباركه لأنّها كانت مركزا لحكومته سليمان.

أمّا كيف كانت الرياح تحت إمرته و تصرّفه؟ و بأيّ سرعه كانت تتحرّك؟ و على أى شىء كان يجلس سليمان و أصحابه و يتحرّكون؟ و أى عامل كان يحفظ هؤلاء عند حرّكتهم من السقوط أو ضغط الهواء أو المصاعب الأخرى؟ و الخلاصه: أيّه قوه خفيّه كانت تعطيه القدره على إمكانيه التحرك بمثل هذه الحرّكه السريعه فى ذلك العصر و الزمان (١)؟ إنّ هذه مسائل لم تتّضح لنا جزئياتها، و الذى نعلمه هو أنّها كانت موهبه إلهيه خارقه وضعت تحت تصرّف هذا النّبى العظيم، و ما أكثر المسائل التى نعلم بوجودها الإجمالى، و نجهد تفصيلها؟! إنّ معلوماتنا فى مقابل ما نجهد كالمحيط، أو كالذره مقابل الجبل العظيم.

ص: ٢٢١

١ - ١) - يظهر من الآيه ١٢/ سوره سبأ: وَ لِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَ رَوْحُهَا شَهْرٌ بصوره مجمله أنّهم كانوا يسيرون صباحا مسافه أمدّها شهر و يسيرون عصرا مسافه أمدّها شهر «بمقياس الحرّكه فى ذلك الزمان».

و الخلاصه: فإن من وجهه نظر و إعتقاد إنسان موخِّد يعبد الله، لا يوجد شيء صعب و مستحيل أمام قدره الله سبحانه، فهو قادر على كل شيء، و عالم بكل شيء.

لقد كتبت حول هذه الفتره من حياه سليمان- كالفترات الأخرى من حياته العجيبه- أساطير كاذبه أو مشكوكه كثيره لا نقبلها مطلقا، فنحن نكتفى بهذا المقدار الذى بينه القرآن هنا.

و يلزم ذكر هذه اللطيفه أيضا، و هى أن بعض الكتّاب المتأخرين يعتقدون بأن القرآن ليس فيه شيء صريح عن حركه سليمان و البساط، بل أورد الكلام عن تسخير الرياح لسليمان فقط، فربما كان ذلك إشاره إلى استغلال سليمان لقوه الهواء فى المسائل المرتبطه بالزراعه، و تلقيح النباتات، و تنقيه الحنطه و الشعير، و حركه السفن، خاصه و أن أرض سليمان (الشام) كانت أرضا زراعيه من جهه، و من جهه أخرى. فإن جانبا مهمًا منها كان على سواحل البحر الأبيض المتوسط، و كان ينتفع منها فى حركه الملاحه (١).

إلا أن هذا التفسير لا يتناسب كثيرا و آيات سوره سبأ و سوره ص و بعض الروايات الوارده فى هذا الباب.

ثم تذكر الآيه التاليه أحد المواهب الخاصه بسليمان عليه السلام فتقول: **وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ لاسْتِخْرَاجِ الْجَواهِرِ و الأَشْيَاءِ الثَّمِينَةِ الأخرى و يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ وَ كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ** من التمرد و الطغيان على أوامر سليمان عليه السلام.

إن ما ورد فى الآيه آنفه الذكر باسم «الشياطين»، جاء فى آيات سوره «سبأ» باسم الجن- الآيه (١٢ و ١٣) من سوره سبأ- و من الواضح أن هذين اللفظين

ص: ٢٢٢

لا منافاه بينهما، لأننا نعلم أنّ الشياطين من طائفه الجنّ.

و على كلّ حال، فقد ذكرنا أنّ الجنّ نوع من المخلوقات التي لها عقل و شعور و استعداد، و عليها تكليف، و هي محجوبه عن أنظارنا نحن البشر، و لذلك سمّيت بالجنّ، و هم - كما يستفاد من آيات سورة الجنّ - كالbشر منهم المؤمنون الصالحون، و منهم الكافرون العصاه، و لا نمتلك أى دليل على نفى مثل هذه الموجودات، و لأنّ المخبر الصادق (القرآن) قد أخبر عنها فنحن نؤمن بها.

و يستفاد من آيات سورة سبأ و سورة ص - و كذلك من الآيه محلّ البحث - جيدا أنّ هذه الجماعه من الجنّ التي سخرت لسليمان، كانوا أفرادا أذكياه نشيطين فنّانين صنّاعا ماهرين فى مجالات مختلفه، و جملة و يَعْمَلُونَ عَمَلًا دُونَ ذَلِكَ تَبَيَّنَ إجمالاً ما جاء تفصيله فى سورة سبأ من أنّهم كانوا يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِنْ مَحَارِبَ وَ تَمَاثِيلَ وَ جِفَانٍ كَالْجُؤَابِ وَ قُدُورٍ رَاسِيَاتٍ .

و يستفاد من جزء من الآيات المتعلّقه بسليمان أنّ جماعه من الشياطين العصاه كانوا موجودين أيضا، و كان سليمان عليه السّلام قد أوثقهم: وَ آخِرِينَ مُفَرِّجِينَ فِي الْأَصْفَادِ (١)، و ربّما كانت جملة و كُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ إشاره إلى هذا المعنى بأنّا كنّا نحفظ تلك المجموعه التي كانت تخدم سليمان من التمردّ و العصيان. و ستطالعون تفصيلا أكثر فى هذا الباب فى تفسير سورة سبأ و سورة ص إن شاء الله تعالى.

و نذكر مرّه أخرى أنّ هناك أساطير كاذبه أو مشكوكا فيها كثيره حول حياه سليمان و جنوده، يجب أن لا تمزج مع ما فى متن القرآن، لئلا تكون حربه فى يد المتصيدين فى الماء العكر.

ص: ٢٢٣

إشاره

وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ (٨٣) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَآتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذِكْرًا لِلْعَابِدِينَ (٨٤)

التفسير

إشاره

أيوب و نجاته من المصاعب:

تحدث الآيتان عن نبي آخر من أنبياء الله العظماء و قصّته الملهمة، و هو «أيوب» و هو عاشر نبي أشير إلى جانب من حياته في سوره الأنبياء.

إنّ لأيوب قصّه حزينه، و هي في نفس الوقت عظيمه ساميه، فقد كان صبره و تحمّله عجيبين، خاصّه أمام الحوادث المرّه، بحيث أنّ صبر أيوب أصبح مضرباً للمثل منذ القدم.

غير أنّ هاتين الآيتين تشيران-بصوره خاصّه- إلى مرحله نجاته و انتصاره على المصاعب، و استعاده ما فقدّه من المواهب، ليكون درساً لكلّ المؤمنين على مرّ الدهور ليغوصوا في المشاكل و يخترقوها، و لا سيّما لمؤمني مكّه الذين كانوا يعانون ضغوطاً من أعدائهم عند نزول هذه الآيات، فتقول: وَ أَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ

و كلمه «الضَّرُّ» تطلق على كلِّ سوء و أذى يصيب روح الإنسان أو جسمه، و كذلك لنقص عضو، و ذهاب مال، و موت الأعزّه و انهيار الشخصيه و أمثال ذلك، و كما سنقول فيما بعد، فإنَّ أيوب قد ابتلى بكثير من هذه المصائب.

إنَّ أيوب -كسائر الأنبياء- يظهر أقصى حالات الأدب و الخضوع أمام الله عند الدعاء لرفع هذه المشاكل المضمنيه المجهده، و لا يعبر بتعبير تشم منه رائحه الشكوى، بل يقول فقط: إننى ابتليت بهذه المصائب و أنت أرحم الراحمين، فهو حتى لا يقول: حلّ مشكلتى، لأنّه يعلم أنّه جليل عظيم، و هو يعرف حقَّ العظمه.

و تقول الآيه التاليه: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضُرٍّ وَ آتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَ مِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَ ذَكَرْنَا لِلْعَابِدِينَ لِيَعْلَمَ المسلمون أنّ المشاكل كلّما زادت، و كلّما زادت الابتلاءات، و كلّما زاد الأعداء من ضغوطهم و ضاعفوا قواهم، فإنّها جميعا ترفع و تحلّ بنظره و منحه من لطف الله، فلا تجبر الخساره و حسب، بل إنّ الله سبحانه يعطى الصابرين أكثر ممّا فقدوا جزاء لصبرهم و ثباتهم، و هذا درس و عبره لكلّ المسلمين، و خاصه المسلمين الذين كانوا تحت محاصره العدو الشديده، و تحت ضغط المشاكل عند نزول هذه الآيات.

بحوث

اشاره

١- لمحه من قصه أيوب

فى حديث عن الإمام الصّادق عليه السّلام إنّ رجلا- سأله عن بليّه أيوب لأى علّه كانت؟ فأجابه بما ملخصه. إنّ هذا الابتلاء لم يكن لكفران نعمه، بل على العكس من ذلك، فإنّه كان لشكر نعمه حسده عليها إبليس، فقال لربه: يا ربّ إنّ أيوب لم يودّ إليك شكر هذه النعمه إلاّ بما أعطيته من الدنيا، و لو حرمته دنياه ما أدّى إليك

شكره، فسلطنى على دنياه حتى يتبين الأمر، فسلطه الله عليه ليكون هذا الحادث سندا لكل سالكى طريق الحق.

فانحدر إبليس و أهلك أموال أيوب و أولاده الواحد تلو الآخر، و لكن لم تزد هذه الحوادث أيوب إلا ثباتا على الإيمان و خضوعا لقضاء الله و قدره.

فسأل الشيطان الله سبحانه أن يسلمه على زرعه و غنمه فسلطه، فأحرق كل زرعه، و أهلك كل غنمه، فلم يزد أيوب إلا حمدا و شكرا.

و أخيرا طلب الشيطان من الله أن يسلمه على بدن أيوب ليكون سبب مرضه، و هكذا كان بحيث لم يكن قادرا على الحركة من شدة المرض و الجراحات، لكن من دون أن يترك أدنى خلل فى عقله و إدراكه.

و الخلاصه، فقد كانت النعم تسلب من أيوب الوحده تلو الاخرى، و لكن شكره كان يزداد فى موازاتها، حتى جاء جمع من الرهبان لرؤيته و عيادته، فقالوا:

قل لنا أى ذنب عظيم قد اقترفت حتى ابتليت بمثل هذا الابتلاء؟ و هنا بدأت شماته هذا و ذاك، و كان هذا الأمر شديدا على أيوب، فقال مجيبا: و عزه ربى انى ما أكلت لقمه من طعام إلا و معى يتيم أو مسكين يأكل على مائدتى، و ما عرض لى أمران كلاهما فيه طاعه لله إلا أخذت بأشدهما على.

عند ذاك كان أيوب قد اجتاز جميع الامتحانات صابرا شاكرا متجملا: و هو يناجى ربه بلسان مهذب و دعا أن يكشف عنه ضره بتعبير صادق ليس فيه أدنى شكوى - و هو ما ذكرته الآيه المتقدمه: رَبُّهُ أَنَّى مَسْنَى الضُّرِّ وَ أَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ - و فى هذه الأثناء فتحت أبواب الرحمه الإلهيه، و رفع البلاء بسرعه، و انهمرت عليه النعم الإلهيه أكثر من ذى قبل (1).

أجل... إن رجال الحق لا تتغير أفكارهم و أعمالهم بتغير النعم، فهم يتوجهون إلى الله فى حريتهم و سجنهم و سلامتهم و مرضهم و قوتهم و ضعفهم، و بكلمه واحده

ص: ٢٢٦

فى كل الأحوال، و لا تغيرهم حوادث الحياه، فإن ارواحهم كالمحيط العظيم لا يؤثر فى هدوئه تلاطم الرياح العاتيه.

كما أنهم لا- يأسون لهول الحوادث المرّه و كثرتها، بل يواجهونها و يصمدون لها حتى تفتح أبواب الرحمه الإلهيه، لعلمهم أنّ الحوادث و الظروف الصعبه امتحانات إلهيه يعدها الله لخاصه عباده ليكونوا أكثر مرانا و مراسا..

٢- المعروف بين المفسرين فى تفسير جمله آتينا أهله و مثلهم معهم أنّ الله سبحانه أرجع أولاده الهلكى إلى حياتهم الأولى و رزقه أولادا آخرين.

و نقرأ فى بعض الروايات: إنّ الله قد ردّ عليه الأولاد الذين هلكوا فى هذه الحادثه، و أولاده الذين ماتوا قبلها (١).

و احتمال بعضهم أنّ الله قد وهب أيوب أولادا و أحفادا جددا ليسدوا مسدّ الأولاد المفقودين و يملأوا الفراغ الذى تركوه.

٣- نقرأ فى بعض الروايات غير المعبره أنّ بدن أيوب قد تعفن، نتيجة المرض الشديد، إلى درجه أنّه لم يكن بمقدور الناس أن يقتربوا منه، إلا أنّ الروايات الوارده عن أهل البيت عليهم السلام تنفى هذا المعنى بصراحه، و الدليل العقلى يؤكّد هذا المعنى أيضا، لأنّ النّبى إذا كان فى حال منفره، فإنّ ذلك لا يناسب منهج رسالته، فكلّ نبي ينبغى أن يكون على حاله تمكّن الناس من الاتّصال به و ملاقاته لسمعوا كلام الحق، أى إنّ للنّبى جاذبيه خاصه.

و ستطالعون إن شاء الله تعالى تفصيلا أكثر حول قصه أيوب فى الآيه (٤١-٤٤) سوره ص.

ص: ٢٢٧

إشارة

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ (٨٥) وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ (٨٦)

التفسير

إشارة

إسماعيل و إدريس و ذو الكفل عليه السلام:

تعقيبا على قصه أيوب عليه السلام التربويه، و صبره و ثباته بوجه سيل الحوادث، تشير الآيتان-محلّ البحث-إلى صبر ثلاثة من أنبياء الله الآخرين فتقول الأولى:

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ

فكل واحد من هؤلاء صبر طوال عمره أمام الأعداء، أو أمام مشاكل الحياه المجهد المضمنيه، و لم يركع أبدا في مقابل هذه الحوادث، و كان كل منهم مثلا أعلى في الصبر و الاستقامه.

ثم تبين الآيه الاخرى موهبه إلهيه لهؤلاء مقابل الصبر و الثبات، فتقول:

وَأَدْخَلْنَاهُمْ فِي رَحْمَتِنَا إِنَّهُمْ مِنَ الصَّالِحِينَ

مما يلفت النظر هنا أنه لم يقل: وهبناهم رحمتنا، بل قال: و أدخلناهم في رحمتنا، فكأن كل أجسامهم و أرواحهم أصبحت غارقة في الرحمه الإلهيه، بعد أن كانت غارقة في بحر المشاكل.

«إدريس»-نبي الله العظيم-و كما تقدّم-هو جدّ والد نوح عليه السّلام وفقا لما رواه أغلب المفسّرين،و اسمه في التوراه(أخنوخ)و في العربية(إدريس)و يرى بعضهم أنّ إدريس مشتق من مادّه الدرّس،لأنّه كان أوّل من كتب بالقلم،و كان ذا إحاطه بعلم الفلك و النجوم و الحساب و الهياه بالإضافه إلى كونه نبيا..و يقال أنّه أوّل من علّم الناس خياطه الثياب.

و أمّا «ذو الكفل»،فالمشهور أنّه كان من الأنبياء (١)،و إن كان بعضهم يعتقد أنّه كان من الصالحين.و ظاهر آيات القرآن التي ذكرته في عداد الأنبياء يؤيد أنّه من الأنبياء،و أغلب الظنّ أنّه كان من أنبياء بنى إسرائيل (٢).

و هناك احتمالات عديده في سبب تسميته بهذا الاسم،مع ملاحظه أنّ كلمه «كفل»جاءت بمعنى النصيب،و كذلك بمعنى الكفاله و الضمان و التعهّد.

فقال بعضهم:إنّ الله سبحانه لما غمره بنصيب وافر من ثوابه و رحمته في مقابل الأعمال و العبادات الكثيره التي كان يؤدّيها سمّي ذا الكفل،أى صاحب الحظّ الأوفى.

و قال آخرون:إنّه لما تعهّد بأن يحيى الليل في العباده و يصوم النهار،و أن لا يغضب عند الحكم،و أن يفى بوعدّه أبدا،لذلك سمّي بذى الكفل.

و يعتقد بعضهم-أيضا-أنّ «ذو الكفل»لقب «إلياس»،كما أنّ إسرائيل لقب يعقوب،و المسيح لقب عيسى،و ذا النون لقب يونس (٣) على نبينا و آله و عليهم الصلاه و السلام...

ص: ٢٢٩

١-١)-التفسير الكبير للفخر الرازى،ذيل الآيه مورد البحث.

٢-٢)-تفسير في ظلال القرآن،الجلد ٥،ص ٥٥٦.

٣-٣)-تفسير الفخر الرازى،ذيل الآيه مورد البحث،و نقرأ في التأريخ الكامل:إنّ الكفل كان أحد أولاد أيوب،و كان اسمه الأصلي (بشر)و كان يعيش في أرض الشام.الكامل لابن الأثير،ج ١،ص ١٣٦.

إشاره

وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ (٨٧)
فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَنَجَّيْنَاهُ مِنَ الْغَمِّ وَكَذَلِكَ نُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ (٨٨)

التفسير

إشاره

نجاه يونس من السجن المرعب:

تبين هاتان الآيتان جانبا من قصه النبي الكبير يونس عليه السلام، حيث تقول الأولى و اذكر يونس إذ ترك قومه المشركين غاضبا عليهم: وَ ذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا .

كلمه «النون» في اللغة تعنى السمكه العظيمه، أو بتعبير آخر تعنى الحوت، و بناء على هذا فإن «ذا النون» معناه صاحب الحوت، و إختيار هذا الاسم ليونس بسبب الحادته التى سنشير إليها فيما بعد إن شاء الله تعالى.

و على كل حال، فإنه ذهب مغاضبا فظنَّ أنَّ لَنْ نَقْدِرَ (١) عَلَيْهِ فقد كان يظنَّ

ص: ٢٣٠

١ - ١) - «نقدر» من مادّه قدر بمعنى التعسير و التضييق، لأنّ الإنسان عند التضييق يأخذ من كلّ شيء قدرا محدودا، لا على نطاق واسع و بدون حساب.

أنه قد أدى كل رسالته بين قومه العصيين، ولم يترك حتى «الأولى» في هذا الشأن، فلو تركهم و شأنهم فلا شيء عليه، مع أن الأولى هو بقاءه بينهم و الصبر و التحمل و التجلّد، فلعلهم ينتبهون من غفلتهم و يتجهون إلى الله سبحانه.

وأخيراً، و نتيجة تركه الأولى هذا، ضيقنا عليه فابتلعه الحوت فزادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانه إني كنت من الظالمين فقد ظلمت نفسي، و ظلمت قومي، فقد كان ينبغي أن أتقبل و أتحمّل أكثر من هذه الشدائد و المصائب، و أواجه جميع أنواع التعذيب و الآلام منهم فلعلهم يهتدون.

و تقول الآية التالية: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ نَجَّيْنَاهُ مِنَ الْعَمِّ وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ أجل لم يكن هذا الأمر خاصاً بيونس، بل هو لطف الله الشامل لكل مؤمن يعتذر من ربه عن تقصيره و يسأله العون و المدد و الرحمة فإن الله سيستجيب له و يكشف عنه غمه.

بحوث

إشارة

١- قصة يونس عليه السلام

ستأتي تفاصيل قصّة يونس في تفسير سورة الصافات إن شاء الله تعالى، أما ملخصها فهو:

إن «يونس» كان لسنين طوال مشغولاً بالدعوة و التبليغ بين قومه في أرض نينوى بالعراق، و لكن رغم كل ما بذله من جهود و مساع فإن إرشاداته و توجيهاته لم تؤثر في قلوبهم، فغضب و هجر تلك الأرض، و ذهب باتجاه البحر و ركب السفينه، و أثناء الطريق هاج البحر، فكد كل ركاب السفينه أن يغرقوا.

و هنا قال ربّان السفينه: إني أظن أن بينكم عبداً هارباً يجب أن يلقى في البحر- أو إنه قال: إن السفينه ثقيله جداً و يجب أن نلقى فرداً منا تخرجه

القرعه-فاقترعوا عدّه مرّات، و كان اسم يونس عليه السّلام يخرج في كلّ مرّه! فعلم أنّ في هذا الأمر سرّاً خفياً، فسلمّ للحوادث، و عند ما ألقوه في البحر ابتلعه حوت عظيم و أبقاه الله في بطنه حيّاً.

و أخيراً انتبه إلى أنّه قد ترك الأولى، فتوجّه إلى الله و اعترف بتقصيره، فاستجاب الله دعوته و أنجاه من ذلك المكان الضيق (١).

من الممكن أن يتصوّر استحاله هذا الحادث من الناحيه العلميه، و لكن لا شك أنّ هذا الأمر خارق للعاده، إلّا أنّه ليس بمحال عقلي، كإحياء الموتى فإنّه يعدّ أمراً خارقاً للعاده و ليس محالاً، و بتعبير آخر: فإنّ وقوعه غير ممكن بالطرق العاديه، و لكنّه ليس صعباً مع الاستعانه بقدره الله غير المحدوده.

و ستقرءون تفصيلاً أكثر حول هذه الحادثه في تفسير سوره الصافات إن شاء الله تعالى.

٢- ما معنى الظلمات هنا؟

من الممكن أن يكون هذا التعبير إشارة إلى ظلمه البحر في أعماق الماء، و ظلمه بطن الحوت، و ظلمه الليل، و تؤيد ذلك الزوايه التي رؤيت عن الإمام الباقر عليه السّلام (٢).

٣- أي أولى تركه يونس؟

لا شك أنّ تعبير «مغاضباً» إشارة إلى غضب يونس على قومه الكافرين، و كان مثل هذا الغضب في هذه الظروف طبيعياً تماماً، إذ تحمّل هذا النّبي المشفق المشقّه و التعب سنين طويله من أجل هدايه القوم الضّالين، إلّا إنّهم لم يلبّوا دعوته

ص: ٢٣٢

١- ١) - تفسير الفخر الرازي، و مجمع البيان، و نور الثقلين، ذيل الآيه محلّ البحث.

٢- ٢) - نور الثقلين، ج ٤، ص ٣٣٦.

الخَيْرِه...

و من جهه أخرى، فإنّ يونس لما كان يعلم أنّ العذاب الإلهي سينزل بهم سريعا، فإنّ ترك تلك المدينة لم يكن معصيه، و لكن كان الأولى لنبي عظيم كيونس ألا يتركها حتّى آخر لحظه-اللحظه التي سيعقبها العذاب الإلهي- و لذلك آخذه الله على هذه العجله، و اعتبر عمله تركا للأولى.

و هذا هو عين ما أشرنا إليه في قصه آدم عليه السّلام من أنّ المعصيه ليست مطلقه، بل نسيئه، أو بتعبير آخر هي مصداق «حسنة الأبرار سيئات المقرّبين». و لمزيد الاطلاع راجع ما ذكرناه ذيل الآيه (١٩) و ما بعدها من سوره الأعراف.

٤- درس مصيري

جمله كَذَلِكَ تُنَجِّي الْمُؤْمِنِينَ العميقه المعنى توحى بأنّ ما أصاب يونس من البلاء و النجاه لم يكن حكما خاصا، بل حكم عام مع حفظ تسلسل الدرجات و المراتب.

إنّ كثيرا من الحوادث المؤلمه و الابتلاءات الشديده و المصائب نتيجه لذنوبنا و معاصينا، و هي سياط لتنبيه الأرواح الغافله، أو هي مواقف لتصفيه معادن أرواح الآدميين فمتى ما تتبه الإنسان إلى ثلاثه أمور [التي انتبه إليها يونس في مثل هذا الظرف] فإنّه سينجو حتما:

١- التوجه إلى حقيقه التوحيد، و أنّه لا معبود و لا سند إلا الله.

٢- تنزيه الله عن كلّ عيب و نقص و ظلم و جور، و تجنّب كلّ سوء ظنّ بذاته المقدّسه.

٣- الاعتراف بذنبه و تقصيره.

و الشاهد على هذا الكلام

الحديث المروى في الدرّ المنثور عن الرّسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم أنّه قال: «اسم الله الذي إذا دعى به أجاب، و إذا سئل به أعطى دعوه

ص: ٢٣٣

يونس بن مَتَّى» فقال رجل: يا رسول الله هي ليونس خاصه أم لجماعه المسلمين؟ قال: «هي ليونس خاصه و للمؤمنين إذا دعوا بها، ألم تسمع قول الله وَ كَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ؟ فهو شرط من الله لمن دعاه» (١).

ولا- يحتاج أن نذكر بأن المراد ليس قراءه الألفاظ و الكلمات فقط، بل جريان حقيقتها فى أعماق روح الإنسان، أى أن ينسجم كل وجوده مع معنى تلك الألفاظ حين قراءتها.

و يلزم التذكير بهذه المسأله، و هى أن العقوبات الإلهيه على نحوين:

أحدهما: عذاب الاستيصال، أى العقوبه النهايه التى تحل لمحو الأفراد الذين لا يمكن إصلاحهم، إذ لا ينفعهم أى دعاء حينئذ، لأن أعمالهم ذاتها ستكرر بعد هدوء عاصفه البلاء.

و الآخر: عذاب التنبيه، و الذى له صفه تربويه، و يرتفع مباشره بمجرد أن يؤثر أثره و يتنبه المخطئ و يثوب إلى رشده. و من هنا يتضح أن إحدى غايات الآفات و الابتلاءات و الحوادث المره هى التوعيه و التربيه.

إن حادثه يونس عليه السلام تحذّر بصوره ضمّيته جميع قادة الحقّ و المرشدين إليه بأن لا يتصوّروا انتهاء مهمتهم مطلقا، و لا يستصغروا أى جهد و سعى فى هذا الطريق، لأنّ مسؤولياتهم ثقيله جدّا.

ص: ٢٣٤

اشاره

وَزَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ (٨٩) فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَاصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ (٩٠)

التفسير

اشاره

نجاه زكريا من الوحده:

تبيّن هاتان الآيتان جانبا من قصه شخصيتين أخريين من أنبياء الله العظماء، وهما زكريا و يحيى عليهما السلام. فتقول الأولى: وَ زَكَرِيَّا إِذْ نَادَى رَبَّهُ رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ .

لقد مرّت سنين من عمر زكريا، و اشتعل رأسه شيبا، و لم يرزق الولد حتّى ذلك الحين، ثمّ أنّ زوجته كانت عقيما، و قد كان يأمل أن يرزق ولدا يستطيع أن يكمل مناهجه الإلهيّة و أعماله التبليغيّة، و لثلا يتسلّط المنتفعون على معبد بنى إسرائيل، فينهبوا منه أمواله و هداياه التي ينبغي إنفاقها في سبيل الله.

و عندئذ توجه إلى الله بكلّ وجوده و سأله ولدا صالحا... و دعا الله دعاء يفيض تأدبا، فبدأ دعاءه بكلمه «ربّ»، الربّ الذي يشمل الإنسان بلطفه من أوّل لحظه.

ثمّ أكّد زكريا عليه السلام على هذه الحقيقة، و هي أنّي إن بقيت وحيدا فسأنسى -

و لا أنسى وحدى، بل ستنسى مناهجى و سيرتى أيضا؛ أكد كل ذلك بتعبير لا تَدْرُنِي من مادّه (وذر) على وزن مرز بمعنى ترك الشىء لقله قيمته و عدم أهميته. و أخيرا فإن جملة وَ أَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ تعبّر عن حقيقه أنه يعلم أنّ هذه الدنيا ليست دار بقاء، و نعلم أنّ الله خير الوارثين، و لكنّه يبحث-من جهه عالم الأسباب- عن سبب يوصله إلى هذا الهدف..

فاستجاب الله هذا الدعاء الخالص الملىء بعشق الحقيقه، و حقق أمنيته و ما كان يصبوا إليه، كما تقول الآية: فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَ وَهَبْنَا لَهُ يَحْيَىٰ وَ مِنْ أَجْلِ الْوَصُولِ إِلَىٰ هَذَا الْمَرَادِ أَصْلَحْنَا زَوْجَتَهُ وَ جَعَلْنَا قَادِرَهُ عَلَى الْإِنجَابِ وَ أَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ .

ثمّ أشار الله سبحانه إلى ثلاث صفات من الصفات البارزه لهذه الأسره فقال:

إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَ رَهَبًا (١) وَ كَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ

و الخشوع هو الخضوع المقرون بالاحترام و الأدب، و كذلك الخوف المشفوع بالإحساس بالمسؤوليه.

إنّ ذكر هذه الصفات الثلاث ربّما تكون إشاره إلى أنّ هؤلاء عند ما يصلون إلى النعمه فلا يبتلون بالغفله و الغرور كما فى الأشخاص الماديين من ضعفاء الإيمان، فهؤلاء لا ينسون الضعفاء المحتاجين على كلّ حال، و يسارعون فى الخيرات، و يتوجهون إلى الله سبحانه فى حال الفقر و الغنى، و المرض و الصّحه، و أخيرا فإنّهم لا يبتلون بالكبر و الغرور عند إقبال النعمه، بل كانوا خاشعين خاضعين أبدا.

ص: ٢٣٦

١ - ١) - «رغباً» بمعنى الرغبه و الميل و العلاقه، و «رهباً» بمعنى الخوف و الرعب، و هناك احتمالات متعدده فى محلّها من الإعراب، فىمكن أن تكون حالا أو تمييزاً أو مفعولاً مطلقاً، أو ظرفاً أى فى حال الرغبه و فى حال الرهبه. و بالرغم من أنّ نتائج هذه الاحتمالات الخمسه تختلف مع بعضها، إلا أنّ هذا التفاوت فى جزئيات مفهوم الآية، لا فى أساسها و نتيجهها.

اشاره

وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ (٩١)

التفسير

اشاره

مريم السيده الطاهره:

أشير في هذه الآيه إلى مقام مريم و عظمتها و عظمه ابنها المسيح عليهما السلام.

إن ذكر مريم في ثنايا البحوث التي تتكلم على الأنبياء الكرام؛ إما من أجل ولدها عيسى عليه السلام، أو لأن ولادته كانت تشبه ولاده يحيى بن زكريا عليهما السلام من جهات متعدده، وقد ذكرنا تفصيل ذلك في ذيل آيات سوره مريم (١). أو ليوضح أن العظمه غير مختصه بالرجال، بل هناك نساء عظيمات يدل تاريخهن على عظمتهن، و كن قدوه و مثلاً أسمى لنساء العالم.

تقول الآيه: و اذكر مريم: وَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِنْ رُوحِنَا وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ .

ص: ٢٣٧

١- «الفرج» معناه فى اللغة الفاصله و الشق، و استعمل كناية عن العضو التناسلى، لا أنه صريح فى هذا المعنى و يرى البعض أن كل ما ورد فى القرآن فى شأن الأمور الجنسية له طابع كئائى و غير صريح، من قبيل «اللمس» «الدخول» «الغشيان» (١) «الإتيان» (٢) و غير ذلك.

و يلزم ذكر هذه اللطيفه أيضا، و هى: إن ظاهر الآيه المتقدمه يقول: إن مريم قد حفظت طهارتها و عفتها من كل أشكال التلوث بما ينافى العفه. إلا أن بعض المفسرين احتمل فى معنى هذه الآيه أنها امتنعت من الاتصال بالرجال، سواء كان ذلك من الحلال أو الحرام (٣)، كما تقول الآيه (٢٠) من سوره مريم: وَ لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرًا وَ لَمْ أَكُ بَغِيًّا .

إن هذه الصفه فى الحقيقه مقدمه لإثبات إعجاز ولاده عيسى و كونه آيه.

٢- إن المراد من «روحنا»- كما قلنا سابقا- الإشاره إلى روح عظيمه متعالیه، و يقال لمثل هذه الإضافه: «الإضافه التشریفیه»، حيث نضيف شيئا إلى الله لبيان عظمته، مثل بيت الله، و شهر الله.

٣- تقول الآيه أنه الذكر: إنا جعلنا مريم و ابنها آيه للعالمين، و لم تقل: آيتين و علامتين، لأن وجود مريم و وجود ابنها امتزجا فى هذه الآيه الإلهيه العظيمه امتزجا لا يمكن معه تجزئه بعضهما عن بعض، فإن ولاده ولد بدون أب إعجاز بنفس المقدار الذى تحمل فيه امرأه بدون زوج. و كذلك معجزات عيسى عليه السلام فى طفولته و كبره فإنها تذكر بأمه.

إن هذه الأمور الخارقه للعاده، و المخالفه للأسباب الطبيعیه العاديه، يبين فى

ص: ٢٣٨

١-١) -الأعراف، ١٨٩، فَلَمَّا تَغَشَّاهَا .

٢-٢) -البقره، ٢٢٢، فَأَتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ .

٣-٣) -التفسير الكبير للفخر الرازى، و تفسير فى ظلال القرآن، ذيل الآيه محل البحث.

الجملة حقيقه أنّ وراء سلسله الأسباب قدره قادره على تغييرها فى أى وقت شاءت.

و على كلّ حال، فإنّ حال السيّد المسيح و امّه مريم عليهما السّلام لم يكن له نظير على طول تاريخ البشر، فلم ير قبله و لا بعده شبيه له و ربّما كان تنكير كلمه (آيه) [فى قوله تعالى: وَ جَعَلْنَاهَا وَ ابْنَهَا آيَةً لِلْعَالَمِينَ]

الدالّ على التعظيم هو إشارة إلى هذا المعنى...

ص: ٢٣٩

إشاره

إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ (٩٢) وَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُفْلًا إِلَيْنَا رَاجِعُونَ (٩٣) فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ وَإِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ (٩٤)

التفسير

إشاره

أمه واحده:

لمّا ورد في الآيات السابقة أسماء جمع من أنبياء الله، وكذلك مريم، تلك المرأه التي كانت مثلاً- أسمى، و جانب من قصصهم، فإنّ هذه الآيات تستخلص نتيجة ممّا مرّ، فتقول: إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً فقد كان منهمجهم واحدا، و هدفهم واحدا بالرغم من اختلافهم في الزمان و المحيط و الخصائص و الأساليب و الطرائق، فهم كانوا يسيرون في منهج واحد و يمضون جميعا في طريق التوحيد و محاربه الشرك و دعوه الناس إلى الإيمان بالله و الحقّ و العداله.

إنّ توحيد و وحده الخطط و الأهداف هذه تعود إلى أنّها جميعا تصدر عن مصدر واحد، عن إرادته الله الواحد، و لهذا تقول الآيه مباشرة: وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ .

إن توحيد الأنبياء الاعتقادي في الواقع يقوم على أساس وحده منبع الوحي، وهذا الكلام يشبه

كلام الإمام علي عليه السلام في وصيته لولده الإمام المجتبي عليه السلام حيث يقول: «واعلم يا بني أنه لو كان لربك شريك لأتتكَ رسله، و لعرفت أفعاله و صفاته» (١).

«الأمه»- كما يقول الراغب في مفرداته- تعني كل جماعه تربطهم جهه مشتركه، الاشتراك في الدين، أو الزمن و العصر الواحد، أو المكان المعين، سواء كانت هذه الوحده اختياريه أو بدون إختيار.

و اعتبر بعض المفسرين الأمه الواحده هنا بمعنى الدين الواحد، و لكن كما قلنا أن هذا التفسير لا يتناسب و الأصل اللغوي للامه.

و قال البعض الآخر: إن المراد من الأمه هنا كل البشر و في جميع الأعصار، أى إنكم أيها البشر أمه واحده، ربكم واحد، و هدفكم الأخير واحد.

إن هذا التفسير و إن كان أكثر انسجاما من التفسير السابق، و لكنّه لا يبدو مناسباً بملاحظه ارتباط هذه الآيه بالآيات السابقه، بل الأنسب منها جميعاً أن تكون هذه الجملة إشاره إلى الأنبياء الذين مرّ ذكرهم في الآيات السابقه.

و أشارت الآيه التاليه إلى انحراف جماعه عظيمه من الناس عن أصل التوحيد، فقالت: وَ تَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ فَقَدْ وصل بهم الأمر إلى أن يقف بعضهم ضدّ بعض، و يلعن بعضهم بعضاً و يتبرأ منه، و لم يكتفوا بذلك، بل شهروا السلاح فيما بينهم، و سفكوا الدماء الكثيره، و كانت هذه الأحداث نتيجه الانحراف عن أصل التوحيد و دين الله الحقّ.

جملة «تقطّعوا»- من مادّه قطع- بمعنى تفريق القطع المتّصله بموضوع واحد، و إذا لا- حظنا أنّها جاءت من باب (تفعل) الذي يأتي بمعنى القبول، فإنّ معنى

ص: ٢٤١

الجملة هو: إنَّ أولئك قد استسلموا أمام عوامل التفرقة و النفاق، و رضوا بأن يتعد أحدهم عن الآخر، و أنهوا اتّحادهم الفطرى و التوحيدى، فمنا-نتيجة ذلك- بكلّ تلك الهزائم و الشقاوه! و تضيف فى النهايه: كُلُّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ فَإِنَّ هَذَا الْاِخْتِلَافَ عَرْضِيّ يُمكن اقتلاعه، و سيسرون فى طريق الوحده جميعا فى يوم القيامة، و قد أكّد على هذه المسأله فى كثير من الآيات القرآنيه، و هي أنّ واحده من خصائص يوم القيامة زوال الاختلافات و ذوبانها و الرجوع إلى الوحده، فنقرأ فى الآيه ٤٨/سوره المائده: إِلَيَّ اللَّهُ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ .

و يلاحظ هذا المضمون فى آيات متعدده من القرآن الكريم (١)، و على هذا فإنّ خلق البشر بدأ من الوحده، و يرجع إلى الوحده.

و تبين الآيه الأخيره نتيجة الانسجام مع الامّه الواحده فى طريق عباده الله، أو الانحراف عنها و اتّخاذ طريق التفرقه، فتقول: فَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ و من أجل زياده التأكيد قالت: وَ إِنَّا لَهُ كَاتِبُونَ .

و ممّا يستحقّ الانتباه، أنّ الإيمان و العمل الصالح قد ذكرا فى هذه الآيه- ككثير من آيات القرآن الاخرى- كركنين أساسيين لنجاه البشر، غير أنّ كلمه (من) التبعيضيّه تضيف إلى ذلك أنّ القيام بكلّ الأعمال الصالحه ليس شرطاً، فإنّ المؤمنين إذا قاموا ببعض الأعمال الصالحه فإنّهم من أهل النجاه و السعاده.

و على كلّ حال، فإنّ هذه الآيه ككثير من آيات القرآن الاخرى قد عدّت الإيمان شرطاً لقبول الأعمال الصالحه.

ذكر جملة فلا كُفْرَانَ لِسَعْيِهِ فى مقام بيان ثواب مثل هؤلاء الأفراد، هو

ص: ٢٤٢

تعبير مقترن بتمام اللطف و المحبّه و السماح، لأنّ الله سبحانه هنا في مقام الشكر و الثناء على عباده، و يشكر لهؤلاء سعيهم.

و هذا التعبير يشبه التعبير الذي ورد في الآية /سوره الإسراء: وَ مَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ وَ سَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَ هُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُمْ مَشْكُورًا .

ص: ٢٤٣

إشاره

وَ حَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (٩٥) حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ (٩٦) وَ اقْتَرَبَ
الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ (٩٧)

التفسير

إشاره

الكافرون على أعتاب القيامة:

كان الكلام فى آخر الآيات السابقه على المؤمنين العاملين للصلحات، و تشير الآيه الأولى من هذه الآيات إلى الأفراد فى الطرف المقابل لأولئك، وهم الذين استمروا فى الضلال و الفساد إلى آخر نفس، فتقول: وَ حَرَامٌ عَلَىٰ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ (١)

إنّ هؤلاء فى الحقيقة أناس ترفع الحجب عن أعينهم و أنظارهم بعد مشاهدته العذاب الإلهى، أو بعد فنائهم و انتقالهم إلى عالم البرزخ، و عندها يأملون أن

ص: ٢٤٤

١-١) -بناء على هذا التفسير فإنّ حَرَامٌ خبر لمبتدأ محذوف، و جملة أَنَّهُمْ لَا يَرْجِعُونَ دليل على ذلك، و التقدير: «حرام على أهل قريه أهلكتها أن يرجعوا إلى الدنيا أنهم لا يرجعون»

يرجعوا إلى الدنيا ليصلحوا أخطاءهم و يعملون الصالحات، إلا- أن القرآن يقول بصراحه: إن رجوع هؤلاء حرام تماما، و لم يبق طريق لجبران ما صدر منهم.

و هذا يشبه ما جاء فى الآيه (٩٩) من سورة المؤمنون: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا... .

و قد ذكرت فى تفسير هذه الآيه توضيحات أخرى نشير إلى بعضها فى الهامش (١).

و على كل حال فإن هؤلاء المغفلين فى غرور و غفله على الدوام، و تستمر هذه التعاسه حتى نهایه العالم، كما يقول القرآن: حَتَّىٰ إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَ مَأْجُوجُ وَ هُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ .

لقد بحثنا بصورة مفصّله حول «يأجوج و مأجوج»، و إنهما من أيه طائفه كانا؟ و أين كانا يعيشان؟ و أخيرا ماذا يعملان، و ماذا سيكونان؟ فى ذيل الآيه (٩٤) و ما بعدها من سورة الكهف، كما تكلمنا على «السدّ» الذى بناه «ذو القرنين» فى مضيق جبلى ليمنع نفوذهما أيضا...

هل المراد من فتح هاتين الطائفتين تحطيم السدّ، و نفوذهما عن هذا الطريق إلى مناطق العالم الأخرى؟ أم المراد نفوذهما فى الكره الأرضيه من كل حدب و صوب؟ لم تتحدّث الآيه عن ذلك بصراحه، بل ذكرت انتشارهم و تفرّقهم فى الكره الأرضيه كعلامه لنهایه العالم و مقدّمه للبعث و القيامة، فتقول مباشره:

وَ اقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا

لأنّ الرعب يسيطر

ص: ٢٤٥

(١ - ١) - اعتبر البعض «الحرام» هنا بمعنى الواجب، و قالوا: إنّ هذه الكلمه قد تأتى أحيانا بهذا المعنى، فتكون (لا) زائده، و يصبح معنى الآيه: إنّ رجوع هؤلاء فى الآخره واجب. و قال البعض الآخر: إنّ الحرام هنا يعنى الحرام نفسه، إلا أنّ (لا) زائده، فيكون المعنى: إنّ رجوع هؤلاء إلى الدنيا حرام. و اعتقد البعض الآخر أنّ المعنى عدم التوبه و الرجوع إلى اللّٰه (تفسير مجمع البيان، و الفخر الرازى، ذيل الآيه مورد البحث). و قال بعض آخر: إنّ هذه الآيه من قبيل نفي النفي، فتقول: إنّ من المحال أن لا يرجع هؤلاء فى القيامة، أى إنّهم يرجعون (تفسير منهج الصادقين، ذيل الآيه مورد البحث) إلا أنّ ما أوردناه فى المتن هو الأنسب من الجميع.

على وجودهم إلى حدّ أنّ عيونهم تتوقّف عن الحركة و تصبح جاحظه لدى نظرهم إلى تلك الحوادث.

فى هذه الأثناء ترفع عن أبصارهم حجب الغفله و الغرور، فيرتفع صوتهم:

يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا

و. لَمَّا كَانُوا لَا يَقْدِرُونَ عَلَى تَغْطِيَةِ ذُنُوبِهِمْ بِهَذَا الْعَذْرِ لِيَبْزُتُوا أَنفُسَهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَقُولُونَ بِصِرَاحٍ: بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ .

كيف يمكن عاده مع وجود كلّ هؤلاء الأنبياء، و الكتب السماويه، و كلّ هذه الحوادث المثيره و العبر و الدروس أن يكونوا فى غفله؟ إنّ ما صدر من هؤلاء تقصير و ظلم لأنفسهم و للآخرين.

معنى بعض الكلمات:

«حذب» على زنه «أدب» معناه ما ارتفع من الأرض بين منخفضاتها، و قد يطلق على ما ارتفع و برز من ظهر الإنسان أيضا.

«ينسلون» من مادّه «نسل» (على وزن فضول)، أى الخروج بسرعه. و ما قيل فى شأن يأجوج و مأجوج إنّهما يَمْرَآن بسرعه على المرتفعات إشارة إلى نفوذهم الخارق فى الكره الأرضيه.

«شاخصه» من الشخصوس، و هو فى الأصل الخروج من المنزل، أو الخروج من مدينه إلى أخرى، و لَمَّا كانت العين عند التعجّب و الدهشه كأنّها تريد الخروج من الحدقه، فقد قيل لذلك «شخصوس» إنّ هذه هى حاله المذنبين العاصين فى القيامه يصبحون حائرين كأنّ أعينهم تريد أن تخرج من أحداقهم.

إشاره

إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنْتُمْ لَهَا وَارِدُونَ (٩٨) لَوْ كَانَ هُوَ لِآلِهَةٍ مَا وَرَدُوهَا وَكُلٌّ فِيهَا خَالِدُونَ (٩٩) لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ (١٠٠) إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ (١٠١) لَا يَسْمَعُونَ حَسِيسَهَا وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنفُسُهُمْ خَالِدُونَ (١٠٢) لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ (١٠٣)

التفسير

إشاره

حصب جهنم!

متابعه للبحث السابق عن مصير المشركين الظالمين، فقد وجّهت هذه الآيات الخطاب إليهم، وجسدت مستقبلهم ومستقبل آلهتهم بهذه الصورة: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ! «الحصب» في الأصل يعنى الرمى و الإلقاء، و تقال بالذات للإلقاء قطع الحطب

و قال بعضهم: إنّ للحطب-على وزن سبب- فى لغات العرب ألفاظا مختلفه، فبعض القبائل يسمّيه حصبا، و البعض الآخر خضبا، و لمّا كان القرآن يسعى للتأليف بين القبائل و الطوائف و القلوب، فإنّه كان يستعمل لغات مختلفه أحيانا، و من جمله ذلك كلمه «حصب» هذه، و هى لغة أهل اليمن لكلمه حطب (١).

و على كلّ حال، فإنّ الآيه محلّ البحث تقول للمشركين، إنّكم و آلهتكم ستكوّنون حطب جهنّم، و ستلقون الواحد تلو الآخر فى نار جهنّم كقطع الحطب التى لا قيمه لها، ثمّ تضيف أنّتم لها واردة.

و هذه الجملة إمّا أن تكون تأكيدا لهذا المطلب، أو إنّها إشاره إلى نكته جديده، و هى أنّهم يلقون آلهتكم فى النار أولا، ثمّ تردون عليها، فكأنّ آلهتكم تستقبلكم و تستضيفكم بالنار المنبعثه من وجودها (٢).

فإذا سأل سائل ما الهدف من إلقاء الأصنام فى جهنّم؟

يقال فى الجواب: إنّ هذا بنفسه نوع من العذاب بالنسبه لعبده الأصنام حيث يرون أنّهم يحترقون فى النار التى توقّد من آلهتهم. إضافة إلى أنّه تحقير لأفكارهم حيث كانوا يلتجؤون إلى مثل هذه الموجودات العديمه القيمه و الأهميه.

طبعاً، هذا فى حاله كون ما تعبّدون تعنى الآلهه الميتة التى لا روح لها كالأصنام الحجرية و الخشبية، كما يستفاد ذلك من (ما) لأنها تستعمل غالبا لغير العاقل.

١-١) - تفسير أبى الفتوح الرازى، ذيل الآيات مورد البحث.

٢-٢) - ينبغى الالتفات إلى أنّ اللام فى (لها) بمعنى «إلى»، و ضمير (ها) يعود إلى جهنّم فى الصوره الأولى، أمّا فى التفسير الثانى فإنّ اللام تعنى «إلى»، و لكن الضمير يعود إلى الأصنام.

أما إذا أخذناها بالمعنى العام، بحيث تشمل الشياطين الذين أصبحوا محلّ عباده، فإنّ مسأله ورود هذه الآلهه إلى جهنم واضحه تماما، لأنهم شركاء في الجريمة و المعصيه.

ثمّ تقول كاستخلاص للنتيجه: لَوْ كَانَ هَؤُلَاءِ آلِهَةً مَا وَرَدُوا هَذَا وَلَكِنْ أَعْلَمُوا أَنَّهُمْ لَا يَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ وَحَسَبُوا بِبَلِّ وَكُلِّ فِيهَا خَالِدِينَ . و مِمَّا يَلْفُتُ النَّظْرَ هُنَا أَنَّ عِبَادَ الْأَصْنَامِ سَيَبْتَغُونَ بِآلِهَتِهِمْ خَالِدِينَ مَعَهَا، تِلْكَ الْآلِهَةُ الَّتِي كَانُوا يَعْبُدُونَهَا دَائِمًا، وَكَانُوا يَعْذُونَهَا دَرَعًا وَأَقِيًا عَنِ الْبَلَاءِ، وَكَانُوا يَطْلُبُونَ مِنْهَا حَلًّا مَشَاكِلِهِمْ وَمَعْضَلَاتِهِمْ! وَ لِمَزِيدِ الْإِيضَاحِ عَنْ حَالِ هَؤُلَاءِ «الْعَابِدِينَ الضَّالِّينَ» الْمُؤَلَّمَةِ الْمُخْزِيَةِ قَبَالَ «آلِهَتِهِمْ الْحَقِيرَةَ»، تَقُولُ الْآيَةُ مَحَلَّ الْبَحْثِ: لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَ شَهِيْقٌ .

«الزفير» في الأصل يعنى الصراخ المقترن بإخراج النفس. و قال بعضهم: إنّ صوت الحمار و صراخه المنكسر يسمّى في البدايه زفيرا، و في آخره شهيقا.

و على كلّ حال فإنّه استعمل هنا إشاره إلى الصراخ أو الضجيج المنبعث من الحزن و شدّه الكرب (١).

كما يحتمل أنّ هذا الزفير أو الأنين المؤلم لا يكون مقتصرًا على العباد فحسب، بل إنّ معبوداتهم من الشياطين أيضا يصطرخون معهم.

ثمّ تذكّر الجملة التاليه أحد العقوبات الاخرى المؤلمه لهؤلاء، و هي وَ هُمْ فِيهَا لَا يَسْمَعُونَ . و هذه الجملة قد تكون إشاره إلى أنّ هؤلاء لا يسمعون الكلام الذى يسرهم و يبهجهم، بل يسمعون أنين أهل جهنم المؤلم المنغص و صراخ ملائكه العذاب فقط.

و قال بعضهم: إنّ المراد هو أنّ هؤلاء يوضعون في توابيت من نار بحيث

ص: ٢٤٩

لا- يسمعون صوت أى أحد أبدا، فكأنهم لوحدهم فى العذاب، وهذا بنفسه يعتبر عقوبه أشد، لأنّ الإنسان إذا رأى معه بعض المسجونين فستهون عليه المصيبة، و«البليّٰه إذا عمّت طابت»، كما فى المثل.

ثمّ تبين الآيه التاليه حالات المؤمنين الحقيقيين من الرجال و النساء ليتبين وضع الفريقين من خلال المقارنه بينهما، فتقول أولا: إنّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنَىٰ أُولَٰئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ و هو إشاره إلى أننا سنفى بكلّ الوعود التى وعدنا بها المؤمنين فى هذه الدنيا، و أحدها إبعادهم عن نار جهنّم.

و بالرغم من أنّ ظاهر الجمله يشمل كلّ المؤمنين الحقيقيين، إلاّ- أنّ البعض احتمل أن تكون إشاره إلى من عبد من دون الله كالمسيح و مريم عليهما السلام، الذين عبدوا دون إرادتهم، و لما كانت الآيات السابقه تقول: ستكونون أنتم و آلهتكم فى جهنّم، و كان من الممكن أن يشمل هذا التعبير أمثال المسيح عليه السلام، فإنّ القرآن يبيّن هذه الجمله كاستثناء بأنّ هذه الفئه سوف لا ترد الجحيم أبدا.

و ذكر بعض المفسّرين سببا لنزول هذه الآيه، و هو يوحى بأنّ البعض قد سأل الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم نفس هذا السؤال فنزلت الآيه تجيبهم. و لكن مع ذلك فلا- مانع من أن تكون الآيه جوابا لهذا السؤال، و أن تكون حكما عاما لكلّ المؤمنين الواقعيين.

و تذكر الآيتان الأخيرتان أربع نعم إلهيه كبرى تغمر هذه الطائفه السعيده.

فالأولى: إنّهم لا- يَشْمَعُونَ حَسِيصَهَا و«الحسيس»- كما قال أرباب اللغه- الصوت المحسوس، و جاءت أيضا بمعنى الحركه، أو الصوت الناشئ من الحركه، و نار الجحيم المشتعله دائما لها صوت خاصّ، و هذا الصوت مرعب من جهتين: من جهه أنّه صوت النَّار، و من جهه أنّه صوت حركه النَّار و التهامها. و لما كان المؤمنون المخلصون بعيدين عن جهنّم، فسوف لا يترق سمعهم هذا الصوت المرعب مطلقا.

وَالثَّانِيهِ: إِنَّهُمْ وَهُمْ فِي مَا اشْتَهَتْ أَنْفُسُهُمْ خَالِدُونَ فَلَيْسَ حَالَهُمْ كَمَا فِي هَذِهِ الدُّنْيَا الْمَحْدُودَةِ، حَيْثُ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَأْمَلُ كَثِيرًا مِنَ النِّعَمِ دُونَ أَنْ يِنَالَهَا، فَإِنَّهُمْ يِنَالُونَ كُلَّ نِعْمَةٍ يَرِيدُونَهَا، مَا دِيهِ كَانَتْ أَوْ مَعْنُوِيهِ، وَلَيْسَ ذَلِكَ عَلَى مَدَى يَوْمٍ أَوْ يَوْمِيْنِ، بَلْ عَلَى اِمْتِدَادِ الْخُلُودِ.

وَالثَّلَاثَةِ: إِنَّهُمْ لَا يَحْزُنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ. وَقَدْ اِعْتَبِرَ بَعْضُهُمْ أَنَّ هَذَا الْفَزَعَ الْأَكْبَرَ إِشَارَةٌ إِلَى أَهْوَالِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ الَّتِي هِيَ أَكْبَرُ مِنْ كُلِّ هَوْلٍ وَفَزَعٍ، وَعَدَّهُ بَعْضُهُمْ إِشَارَةً إِلَى نَفْخَةِ الصُّورِ وَاِخْتِلَافَاتِ الْأَحْوَالِ وَتَبَدُّلِهَا عِنْدَ اِنْتِهَاءِ هَذِهِ الدُّنْيَا، وَالزَّلْزَالَ الْعَجِيْبِ الَّذِي سِيَدُكَ أَرْكَانَ هَذَا الْعَالَمِ كَمَا جَاءَ فِي الْآيَةِ (٨٧) مِنْ سُورَةِ النَّحْلِ.

وَلَكِنْ لَمَّا كَانَ هَوْلُ يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَفَزَعُهَا أَهَمَّ وَ أَكْبَرَ مِنْ جَمِيْعِ تِلْكَ الْأُمُورِ، فَإِنَّ التَّفْسِيْرَ الْأَوَّلَ يَبْدُو هُوَ الْأَصْحَحُ.

وَالرَّابِعَةُ: مِنْ لَطَافِ اللَّهِ تَعَالَى لِهَؤُلَاءِ هُوَ مَا ذَكَرْتَهُ الْآيَةُ مَحَلَّ الْبَحْثِ:

وَتَلَقَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ

فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ أَنَّ أَمِيْرَ الْمُؤْمِنِيْنَ عَلِيًّا عَلَيْهِ السَّلَامُ قَالَ: «فِيَادِرُوا بِأَعْمَالِكُمْ تَكُونُوا مَعَ جِيْرَانِ اللَّهِ فِي دَارِهِ، رَافِقٍ بِهِمْ رَسَلُهُ، وَ أَزَارِهِمْ مَلَائِكَتُهُ، وَ أَكْرَمَ أَسْمَاعِهِمْ أَنْ تَسْمَعَ حَسِيْسٌ جَهَنَّمَ أَبْدًا» (١).

ص: ٢٥١

اشاره

يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فاعِلِينَ (١٠٤)

التفسير

اشاره

يوم تطوى السماء!

قرأنا فى آخر آيه من الآيات السابقه أنّ المؤمنین آمنون من الفزع الأكبر و همّه، و تجسّم هذه الآيه رعب ذلك اليوم العظيم، و فى الحقيقه تبين و تجسّد علّه عظمه و ضخامه هذا الرعب، فتقول: يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكُتُبِ (١).

لقد كان الناس فى الأزمنه الغابره يستعملون أوراقا كالطومار لكتابه الرسائل و الكتب، و كانوا يطوون هذا الطومار قبل الكتابه، ثمّ أنّ الكاتب يفتح منه تدريجيًا و يكتب عليه ما يريد كتابته، ثمّ يطوى بعد الانتهاء من الكتابه و يضعونه جانبًا، و لذلك فقد كانت رسائلهم و مثلها كتبهم أيضا على هيئه الطومار، و كان هذا الطومار يسمّى سجلا، إذ كان يستفاد منه للكتابه.

و فى هذه الآيه تشبيه لطيف لطيّ سجل عالم الوجود عند انتهاء الدنيا، ففى

ص: ٢٥٢

١ - ١) - السجل: الدلو العظيمه، و السّجلّ حجر كان يكتب فيه، ثمّ سمّى كلّ ما يكتب فيه سجلا - مفردات الراغب و القاموس - و ينبغى الالتفات إلى أنّه احتملت احتمالات عديده فى تفسير جمله كَطَيِّ السَّجِلِّ لِلْكُتُبِ إِلَّا أنّ أقربها أنّ «طى» مصدر للسجل الذى أضيف مفعوله، و اللام فى (للكتب) إمّا للإضافه أو لبيان العلّه. دققوا ذلك.

الوقت الحاضر فإنّ هذا السجل مفتوح، و تقرأ كلّ رسومه و خطوطه، و كلّ منها فى مكان معيّن، أمّا إذا صدر الأمر الإلهى بقيام القيامه فإنّ هذا السجل العظيم سيطوى بكلّ رسومه و خطوطه.

طبعاً، لا- يعنى طى العالم الفناء كما يتصوّر البعض، بل يعنى تحطّمه و جمعه، و بتعبير آخر: فإنّ شكل العالم و هيئته ستضطرب و يقع بعضه على بعض، لكن لا- تفنى مواده، و هذه الحقيقه تستفاد من التعبيرات المختلفه فى آيات المعاد، و خاصه من آيات رجوع الإنسان من العظام النخره، و من القبور.

ثمّ تضيف كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَ هَذَا التَّعْبِيرُ يَشْبَهُ التَّعْبِيرَ الَّذِى وَرَدَ فِي الْآيَةِ (٢٩) مِنْ سُورَةِ الْأَعْرَافِ: كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ أَوْ أَنَّهُ مِثْلُ تَعْبِيرٍ وَ هُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَ هُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ (١) (٢) .

أمّا ما احتمله بعض المفسّرين من أنّ المراد من هذا الرجوع هو الرجوع إلى الفناء و العدم، أو التلاحم و الارتباط كما فى بدايه الخلق، فيبدو بعيداً جداً.

و فى النهايه تقول الآيه: وَعَدَّا (٣) عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ (٤) .

و يستفاد من بعض الروايات أنّ المراد من رجوع الناس إلى الحاله الأولى، هو أنّهم يرجعون حفاه عراه مرّه أخرى كما كانوا فى بدايه الخلق. و لكن لا- شك أنّ هذا لا- يعنى انحصار معنى الآيه فى ذلك و اقتصاره عليه، بل إنّ أحد صور رجوع الخلق إلى الصوره الأولى (٥) .

ص: ٢٥٣

١- ١) -سوره الروم، ٢٧.

٢- ٢) - كما قلنا سابقاً، فإنّه لا يوجد صعب و سهل بالنسبه إلى قدره الله اللامتناهيه، بل كلّ شىء متساو مقابل قدرته، و على هذا فإنّ التعبير المستعمل فى الآيه أعلاه إنّما هو بالنسبه لمحدوديه فهم البشر، دققوا ذلك.

٣- ٣) - «وعدا» مفعول لفعل مقدّر تقديره: وعدنا.

٤- ٤) - هذه الجمله تتضمّن عدّه تأكيدات، فلفظه الوعد، ثمّ التعبير ب(علينا) و بعدها التأكيد ب(إننا) ثمّ استعمال الفعل الماضى (كنّا) و كذلك كلمه (فاعلين).

٥- ٥) - مجمع البيان، ذيل الآيات مورد البحث.

اشاره

وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ (١٠٥) إِنَّ فِي هَذَا لَبَلَاغًا لِقَوْمٍ عَابِدِينَ (١٠٦)

التفسير

اشاره

سيحكم الصالحون الأرض:

بعد أن أشارت الآيات السابقة إلى جانب من ثواب المؤمنين الصالحين، فقد أشارت السوره في هاتين الآيتين إلى أحد أوضح المكافآت الدنيويّة لهؤلاء، فتقول: وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ .

و كلمه «الأرض» تطلق على مجموع الكره الأرضيه، و تشمل كافه أنحاء العالم إلا أن تكون هناك قرينه خاصه في الأمر، و مع أنّ البعض احتمال أن يكون المراد وراثه كلّ الأرض في القيامة، إلا أنّ ظاهر كلمه الأرض عند ما تذكر بشكل مطلق تعني أرض هذا العالم.

و لفظ «الإرث» - كما أشرنا إلى ذلك سابقا- يعني انتقال الشيء إلى شخص بدون معامله و أخذ و عطاء، و قد استعملت هذه الكلمه في القرآن أحيانا بمعنى تسلط و انتصار قوم صالحين على قوم طالحين، و السيطرة على مواهبهم

وإمكانياتهم، كما نقرأ في الآية (٣٧) من سورة الأعراف في شأن بني إسرائيل:

وَ أَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَ مَغَارِبَهَا .

و بالرغم من أن «الزبور» في الأصل يعنى كل كتاب و مقال، و مع أن موضعين من المواضع الثلاثة التى استعملت فيها هذه الكلمه فى القرآن يشيران إلى زبور داود، فلا يستبعد أن يكون المورد الثالث، أى ما ورد فى الآية محلّ البحث إشاره إلى هذا المعنى أيضا.

إن زبور داود- أو بتعبير كتب العهد القديم (مزامير داود)- عباره عن مجموعه أدعيه النبىّ داود و مناجاته و نصائحه و مواعظه.

و احتمال بعض المفسرين أن يكون المراد من الزبور هنا كل كتب الأنبياء السابقين (١).

و لكن يبدو على الأغلب- مع ملاحظه الدليل الذى ذكرناه- أن الزبور هو كتاب مزامير داود فقط، خاصه و أن فى المزامير الموجوده عبارات تطابق هذه الآية تماما، و سنشير إلى ذلك فيما بعد إن شاء الله تعالى.

«و الذكر» فى الأصل يعنى التذكير أو ما يسبب التذكير و التذكر، و استعملت هذه الكلمه فى القرآن بهذا المعنى، و أطلقت أحيانا على كتاب موسى السماوى، كآيئه (٤٨) من سورة النساء: وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَ هَارُونَ الْفُرْقَانَ وَ ضِيَاءً وَ ذِكْرًا لِلْمُتَّقِينَ .

و استعملت أحيانا فى شأن القرآن، كآيئه (٢٧) من سورة التكوير: إِنَّ هُوَ إِلَّا- ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ و لذلك قال البعض: إن المراد من الذكر فى الآية مورد البحث- هو القرآن، و الزبور كل كتب الأنبياء السابقين، أى إننا كتبنا فى كل كتب الأنبياء السابقين إضافه إلى القرآن بأن الصالحين سيرثون الأرض جميعا.

ص: ٢٥٥

(١- ١) -نقل هذا الاحتمال فى تفسير مجمع البيان، و تفسير الفخر الرازى عن عدّه من المفسرين.

لكن ملاحظه التعبيرات التي استعملت فى الآيه توضّح أنّ المراد من الزبور كتاب داود، و الذكر بمعنى التوراه، و مع ملاحظه أنّ الزبور كان بعد التوراه، فإنّ تعبير من بعيد حقيقى، و على هذا فإنّ معنى الآيه: إنّنا كتبنا فى الزبور بعد التوراه أنّنا سنورث العباد الصالحين الأرض.

و هنا ينقدح سؤال، و هو: لماذا ذكر هذان الكتابان من بين الكتب السماويه؟ ربّما كان هذا التعبير بسبب أنّ داود كان أحد أكبر الأنبياء، و استطاع أن يشكّل حكومه الحقّ و العدل، و كان بنو إسرائيل مصداقا واضحا للقوم المستضعفين الذين ثاروا بوجه المستكبرين و دمّروا دولتهم و استولوا على حكومتهم و ورثوا أرضهم.

و السؤال الآخر الذى يشار هنا هو: من هم عباد الله الصالحون؟ إذا لاحظنا إضافة العباد إلى الله ستّضح مسأله إيمان هؤلاء و توحيدهم، و بملاحظه كلمه الصالحين التى لها معنى واسع، فستخطر على الذهن كلّ المؤهلات، الأهليه من ناحيه التقوى، و العلم و الوعى، و من جهه قدره و القوه، و من جانب التدبير و التنظيم و الإدراك الاجتماعى.

عند ما يهوى العباد المؤمنون هذه المؤهلات و الأرضيات لأنفسهم، فإنّ الله سبحانه يساعدهم و يعينهم ليمرغوا انوف المستكبرين فى التراب، و يقطعوا أيديهم الملوّثه، فلا يحكمون أرضهم بعد، بل تكون للمستضعفين، فيرثونها، فبناء على ذلك فإنّ مجرد كونهم مستضعفين لا- يدلّ على الإنتصار على الأعداء و حكم الأرض، بل إنّ الإيمان لازم من جهه، و اكتساب المؤهلات من جهه أخرى، و ما دام مستضعفوا الأرض لم يحيوا هذين الأصلين فسوف لا يصلون إلى وراثه الأرض و حكمها. و لذلك فإنّ الآيه التاليه تقول من باب التأكيد المشدّد: إنّ فى هذا لبلاغاً لِقَوْمٍ عَابِدِينَ .

لقد اعتبر بعض المفسرين (هذا) إشارة إلى كلّ الوعود و التهديدات التى

جاءت في هذه السوره، أو في كل القرآن، و يدخل موضوع بحثنا في هذا المفهوم الكلي أيضا. إلا أن ظاهر الآيه هو أن (هذا) إشاره إلى الوعد الذي أعطى للعباد الصالحين في الآيه السابقه في شأن الحكومه في الأرض.

بحوث

أشاره

١- روايات حول ثوره المهدي عليه السلام

لقد فسرت هذه الآيه في بعض الروايات بأصحاب المهدي عليه السلام، كما نرى

روايه في تفسير مجمع البيان عن الإمام الباقر عليه السلام في ذيل هذه الآيه: «هم أصحاب المهدي في آخر الزمان».

و

جاء في تفسير القمي في ذيل هذه الآيه: أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ قال: «القائم و أصحابه».

لا يخفى أن معنى هذه الروايات ليس الحصر، بل هو بيان مصداق عال و واضح، و قلنا مرارا: إن هذه التفاسير لا تحد من عموميه مفهوم الآيه مطلقا، و بناء على هذا ففي كل زمان، و في أي مكان ينهض فيه عباد الله الصالحون بوجه الظلم و الفساد فإنهم سينتصرون عاقبه الأمر، و سيكونون ورثه الأرض و حاكميها.

و إضافة إلى الروايات الوارده آنفا في تفسير هذه الآيه، فقد رويت روايات كثيره جدا (بلغت حد التواتر) عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و أئمه أهل البيت عليهم السلام، و عن طريق السنه و الشيعة، في شأن المهدي عليه السلام، و كلها تدل على أن حكم الأرض سيقع في أيدي الصالحين، و إن رجلا من أهل بيت النبي صلى الله عليه و آله و سلم يقوم فيملا الأرض قسما و عدلا كما ملئت ظلما و جورا.

و من جمله الروايات الحديث المعروف عن النبي صلى الله عليه و آله و سلم، و الذي نقلته أكثر المصادر الإسلاميه:

«لو لم يبق من الدنيا إلا يوم، لطول الله ذلك اليوم حتى يبعث

ص: ٢٥٧

رجلا(صالحا)من أهل بيتى يملأ الأرض قسطا و عدلا كما ملئت ظلما و جورا».

و قد ورد هذا الحديث بهذا التعبير مع اختلاف يسير فى كثير من كتب الشيعة و أهل السنّه (1).

و قد نوهنا فى ذيل الآيه (33)من سوره التوبه:إنّ جماعه من كبار علماء الإسلام،من أهل السنّه و الشيعة قديما و حديثا قد صرّحوا فى كتبهم بأنّ الأحاديث الوارده فى قيام المهدي عليه السّلام بلغت حدّ التواتر،و ليس لأى إنكارها بأى وجه،حتى أنّ كتبا قد ألّفت فى هذا الصدد بصوره خاصه تستطيع أن تطلع على تفصيلها فى ذيل الآيه (33)من سوره التوبه.

٢-بشاره حكومه الصالحين فى مزامير داود

مما يلفت النظر أنّه يلاحظ فى كتاب مزامير داود-و الذى هو اليوم جزء من كتب العهد القديم-يلاحظ التعبير الذى ورد فى الآيه آنفه الذكر-نفسه أو ما يشبهه فى عدّه مواضع،و هذا يوحى بأنّه مع كلّ التحريفات التى وقعت فى هذه الكتب،فقد بقى هذا القسم مصونا من تلاعب الأيدى به.

١-فقرأ فى المزمور 37/ جمله 9:«...لأنّ عاملى الشرّ يقطعون و الذين ينتظرون الربّ هم يرثون الأرض،بعد قليل لا- يكون الشرّير...».

٢-و فى مكان آخر فى نفس هذا المزمور/جمله 11:«أما الودعاء فيرثون الأرض و يتلذذون فى كثره السلامه».

٣-و كذلك فى نفس المزمور 37/ جمله 27،يلاحظ هذا الموضوع بتعبير آخر:«لأنّ المتبركين باللّهِ سيرثون الأرض،أما الملعونون فسينقطع أثرهم...» ٤-و جاء فى هذا المزمور/الجمله 29:«إنّ الصالحين سيرثون الأرض

ص: ٢٥٨

١-١) -لمزيد الاطلاع راجع(منتخب الأثر)و(نور الأبصار).

و سيسكنون فيها إلى الأبد».

٥- وجاء في الجملة ١٨ من نفس المزمور أعلاه: «إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ أَيَّامَ الصَّالِحِينَ، وَ سَيَكُونُ مِيرَاثُهُمْ أَبَدِيًّا» (١).

نلاحظ نلاحظ هنا بصورة جيدة أنّ عنوان «الصالحين» الذي جاء في القرآن، ورد بنفس هذا التعبير في مزامير داود، إضافة إلى ورود تعابير أخرى كالصديقين و المتبركين و المتوكّلين و المتواضعين أو ما هو قريب من هذه المعاني في جمل أخرى.

إنّ هذه التعبيرات دليل على عموم حكمه الصالحين، و تتطابق تماما مع أحاديث قيام المهدي عليه السلام.

٣- حكم الصالحين قانون تكويني

بالرغم من أنّه يصعب على أولئك الذين شهدوا و عاشوا في ظلّ حكم الطواغيت الظلمة و العتاه المتجبرين، قبول هذه الحقيقة بسهولة، و هي أنّ كلّ هذه الحكومات على خلاف نوااميس الخلقه، و قوانين عالم الخلقه، و أنّ ما ينسجم معها هو حكم الصالحين المؤمنين، إلا أنّ التحليلات الفلسفيّة تنتهي إلى أنّ هذه حقيقة واقعيه، و بناء على هذا فإنّ جملة أنّ الأَرْضَ يَرْتَبُّهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ قبل أن تكون وعدا إلهيا، فإنّها تعتبر قانونا تكوينيا.

توضيح ذلك: إنّ عالم الوجود على حدّ علمنا-مجموعه من الأنظمة و القوانين تحكم جميع أرجاء هذا العالم و هي بذاتها دليل على وحده هذا النظام و ارتباط أجزاءه.

ص: ٢٥٩

١- (١) -نقلنا هذه الجملة عموما عن الترجمة الفارسيه للكتب العهد العتيق المنشوره (سنه ١٨٧٨ تحت إشراف الكنيسه المعروفه ب مجمع الكتب البريطانيه المقدسه للخارجيين).

وجود النظم و القانون فى عالم الوجود و الخلق تعتبر من أهم مسائل هذا العالم، فمثلاً: إذا وجدنا مئات العقول الالكترونيه القويه قد انضم بعضها إلى بعض لإعداد الرحلات الفضائيه لرواد الفضاء بالمحاسبات الدقيقه، و كانت حساباتها صحيحه تماما حيث تنزل المركبه الفضائيه فى المكان المقترح لها على سطح القمر، مع أن كوكبي القمر و الأرض يتحرّكان كلاهما بسرعه، فينبغى أن نعرف أن هذا الحدث العظيم مدين لنظام المجموعه الشمسيه و أقمارها الدقيق، لأنهم إذا انحرفوا عن مسيرهم الدقيق المنتظم بمقدار ١٪ من الثانيه، لما كان معلوما مصير رجال الفضاء! و ننتقل من العالم الكبير إلى عالم أصغر و أصغر و صغير جداً، فهنا-و خاصه فى الكائنات الحيه- سيأخذ النظام معنى أكثر حيويته، و لا محل للفوضى فيه مطلقاً، فإن اختلال النظام فى خليه واحده فى دماغ الإنسان كاف لأن يبدل نظم حياته إلى اضطراب مؤسف.

و جاء فى أخبار الصحف: إن شابا جامعيا قد نسي كل ماضيه تقريبا على أثر هزّه دماغيه شديده فى حادثه سير! مع أنه كان سالما من حيث الجهات الاخرى، فلم يعرف أخاه و لا أخته كما كان يتضايق عند ما تحتضنه أمه و تقبله، و يتساءل:

ماذا تفعل معى هذه المرأه الأجنبيه؟ فيذهبون به إلى مسقط رأسه، و إلى الغرفه التى نشأ فيها، فكان ينظر إلى أعماله اليدويه، و لوحاته الفنيه، إلاّ- أنه يقول: إنى أرى هذه الغرفه و اللوحات لأوّل مرّه! ربّما كان يعتقد أنه قد قدم من كوكب آخر، فكلّ شىء جديد بالنسبه له.

ربّما توقفت بعض خلاياه من بين عدّه مليارات من الخلايا المخيّه، و هى التى تربط ماضيه بحاضره، و لكن أى أثر مرعب تركه هذا الاختلال الجزئى؟! هل يستطيع المجتمع الإنسانى بانتخابه اللانظام و الفوضى و الظلم و الجور

و الشقاء أن يعزل نفسه عن تيار نهر عالم الخلقه العظيم، و الذى يسير كله ببرنامج منظم؟ ألا تجعلنا مشاهده الوضع العام للعالم نفكر فى أن البشر أيضا يجب أن يخضعوا لنظام عالم الوجود، شاؤوا أم أبوا، و يقبلوا القوانين المنتظمه العادله، و يعودوا إلى مسيرهم الأصيل و يكونوا منسجمين و هذا النظام.

إذا ألقينا نظره على بناء أجهزه بدن الإنسان المختلفه المعقده، ابتداء من القلب و المخ إلى العين و الاذن و اللسان، إلى بصيله الشعر، سنراها جميعا خاضعه لقوانين و أنظمه و حسابات دقيقه، و إذا كان الأمر كذلك فى البدن، فكيف تقدر البشريه أن تستقر بدون أتباع ضوابط و مقررات و نظام صحيح و عادل؟ إننا نريد بقاء البشريه، و نسعى لذلك، غايه ما فى الأمر أن مستوى وعى مجتمعنا لم يصل إلى ذلك الحد بحيث نعلم أن استمرارنا فى هذا الطريق الحالى سينتهى إلى فنائنا، و لكن سنثوب إلى عقولنا تدريجيا، و يحصل لنا هذا الإدراك و الرشد الفكرى.

نحن نريد منافعنا و مصالحنا، و لكننا إلى الآن لا نعلم أن استمرار الوضع الحالى سيدمر مصالحنا و يجعلها هباء منثورا، و لكننا نضع نصب أعيننا الأرقام و الإحصائيات الحيه الناطقه عن سباق التسلح مثلا، و سنرى أن نصف القوى الفكرية و الجسميه للمجتمع البشرى، و نصف الثروات و رؤوس الأموال الضخمه تهدر فى هذا المجال! و لا تهدر فحسب، بل إنها تسعى إلى فناء و إتلاف النصف الثانى! و تزامنا مع ارتفاع سطح و عينا سنرى بوضوح أننا يجب أن نعود إلى نظام عالم الوجود العام، و نضم صوتنا إليه، و نتحد معه.

و كما أننا جزء من هذا الكل فعلا، فيجب أن نكون كذلك من الناحيه العمليه

حتى نستطيع أن نصل إلى أهدافنا في جميع المجالات.

و النتيجة هي: إنّ نظام الخلقه سيكون دليلا واضحا على قبول نظام اجتماعى صحيح فى المستقبل، فى عالم الإنسانى، و هذا هو الذى يستفاد من الآيه مورد البحث، و الأحاديث المرتبطه بقيام المصلح العالمى العظيم، المهدي الموعود (1).

ص: ٢٤٢

١ - ١) - مِمَّا يَسْتَحَقُّ الْاِتِّبَاهُ أَنَّ هَذَا الْبَحْثَ قَدْ كَتَبَ فِي لَيْلَةِ الْخَامِسِ عَشَرَ مِنْ شَعْبَانَ سَنَةِ ١٤٠٢، وَ الْمَصَادِفِ لِلْمِيلَادِ السَّعِيدِ لِلْإِمَامِ الْمَهْدِيِّ صَاحِبِ الزَّمَانِ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَالْحَمْدُ لِلَّهِ عَلَى هَذَا التَّقَارُنِ.

إشاره

وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ (١٠٧) قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَا لِيَؤَدَّبُكُمْ أَن تَكْفُرُوا بَعْدَ مَا كُنتُمْ تُعْبَدُونَهُ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١٠٨) فَإِن تَوَلَّوْا فَقُلْ آذَنَّاكُمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ وَإِن آذَرِي أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَّا تُوعَدُونَ (١٠٩) إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ (١١٠) وَإِن آذَرِي لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَّكُمْ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ (١١١) قَالَ رَبِّ أَعْزِمْنِي بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ (١١٢)

التفسير

إشاره

النبي رحمة للعالمين:

لَمَّا كَانَتِ الْآيَاتُ السَّابِقَةُ قَدْ بَشَّرَتِ الْعِبَادَ الصَّالِحِينَ بِوَرَاثَةِ الْأَرْضِ وَحُكْمِهَا، وَ مِثْلَ هَذِهِ الْحُكُومَةِ أُسَّسَ الرَّحْمَةُ لِكُلِّ الْبَشَرِ، فَإِنَّ الْآيَةَ الْأُولَى أَشَارَتْ إِلَى رَحْمَةِ وَجُودِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ الْعَامَّةَ، فَقَالَتْ: وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ فَإِنَّ عَامَّةَ الْبَشَرِ فِي الدُّنْيَا، سِوَاءِ الْكَافِرِ مِنْهُمْ وَ الْمُؤْمِنِ، مَشْمُولُونَ لِرَحْمَتِكَ، لِأَنَّكَ تَكَلَّمْتَ بِنُشْرِ الدِّينِ الَّذِي يَنْقُذُ الْجَمِيعَ، فَإِذَا كَانَ جَمَاعُهُ قَدْ انْتَفَعُوا بِهِ وَ آخَرُونَ لَمْ يَنْتَفِعُوا، فَإِنَّ

ذلك يتعلّق بهم أنفسهم، ولا يחדش في عموميه الرحمه.

و هذا يشبه تماما أن يؤسّس جماعه مستشفى مَجْهزه لعلاج كلّ الأمراض، و فيها الأطباء المهرة، و أنواع الأدوية، و يفتحوا أبوابها بوجه كلّ الناس بدون تمييز، أليست هذه المستشفى رحمه لكلّ أفراد المجتمع؟ فإذا امتنع بعض المرضى العنودين من قبول هذا الفيض العام، فسوف لا يؤثر في كون تلك المستشفى عامه.

و بتعبير آخر فإنّ كون وجود النّبي رحمه للعالمين له صفه المقتضى و فاعليه الفاعل، و من المسلم أنّ فعليه النتيجة لها علاقه بقابليه القابل.

إنّ التعبير ب«العالمين» له إطار واسع يشمل كلّ البشر و على امتداد الأعصار و القرون، و لهذا يعتبرون هذه الآيه إشاره إلى خاتميّه نبي الإسلام، لأنّ وجوده رحمه و إمام و قدوه لكلّ الناس إلى نهايه الدنيا، حتّى أنّ هذه الرحمه تشمل الملائكه أيضا:

ففي حديث شريف مروى عنه صلى الله عليه و آله و سلم يؤيد هذه العموميه، إذ نلاحظ فيه إنّ هذه الآيه لما نزلت سألت النّبي جبرئيل فقال: «هل أصابك من هذه الرحمه شيء؟» فقال جبرئيل: «نعم إني كنت أخشى عاقبه الأمر، فأمنت بك لما أثنى الله عليّ بقوله: عند ذى العرش مكين» (1).

و على كلّ حال، ففي دنيا اليوم حيث ينتشر الفساد و الظلم و الاستبداد في كلّ جانب، و نيران الحروب مستعره في كلّ جهه، و أخذت قبضات الجبارين العتاه بأنفاس المستضعفين المظلومين... في الدنيا الغارقه في الجهل و فساد الأخلاق و الخيانه و الظلم و الجور... أجل في مثل هذه الدنيا سيّضح أكثر فأكثر معنى كون النّبي رحمه للعالمين، و أى رحمه أسمى من أنّه أتى بدين إذا عمل به فإنّه يعنى نهايه كلّ المآسى و النكبات و الأيام السوداء؟

ص: ٢٦٤

أجل، إنه هو و أوامره، و دينه و أخلاقه كلها رحمه، و ستكون عاقبه استمرار هذه الرحمه حكم الصالحين المؤمنين فى كل أرجاء المعموره.

و لما كان أهمّ مظهر من مظاهر الرحمه، و أثبت دعامه لذلك هى مسأله التوحيد و تجلياته، فإنّ الآيه التاليه تقول: قُلْ إِنَّمَا يُوحِي إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَهَلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ ؟ و هذه الآيه فى الواقع تشير إلى ثلاث نقاط مهمه:

الأولى: إنّ التوحيد هو الدعامه الأساسيه للرحمه، و حقًا كلما فكّرنا أكثر فستتضح هذه العلاقه أقوى، التوحيد فى الاعتقاد، و فى العمل، و التوحيد فى الكلمه، و توحيد الصفوف، و فى القانون و فى كلّ شىء.

الثانيه: إنّ بمقتضى كلمه (أنما) الدالّه على الحصر، فإنّ كلّ دعوات الأنبياء تتلخّص فى أصل التوحيد، و المطالعات الدقيقه تبين أيضا أنّ الأصول، بل و حتّى الفروع و الأحكام ترجع أخيرا إلى أصل التوحيد، و لذلك فإنّ التوحيد- و كما قلنا سابقا- ليس أصلا من الأصول و حسب، بل إنّ كالحيط القوى الذى يربط خرز المسبحة، أو الأصحّ أنّه كالروح الساريه فى البدن.

و النقطه الثالثه: إنّ المشكله الأساسيه فى جميع المجتمعات هى التلوّث بالشرك بأشكال مختلفه، لأنّ جملته فهُلْ أُنْتُمْ مُسْلِمُونَ توحى بأنّ المشكله الأساسيه هى الخروج من الشرك و مظهره، و رفع اليد عن الأصنام و تحطيمها، ليس الأصنام الحجرية و الخشبيه فحسب، بل كلّ الأصنام، و فى أى شكل كانت، و خاصه طواغيت البشر! ثمّ تقول الآيه التاليه: إنهم إذا لم يدعوا و يهتّموا لدعوتنا و نداءاتنا هذه فإنّ تولّوا فقلّ آذنتكم على سواي .

«آذنت» من مادّه الإيذان، أى الإعلان المقترن بالتهديد، و جاء أحيانا بمعنى إعلان الحرب، لكن لما كانت هذه السوره قد نزلت فى مكّه، و لم تكن هناك أرضيه

للجهاد، و لم يكن حكم الجهاد قد نزل، فيبدو من البعيد جدًا أن يكون معنى هذه الجملة هنا إعلان الحرب، و الظاهر أن النبي أراد بهذا الكلام أن يعلن تنفّره و ابتعاده عن أولئك، و يبيّن بأنّه قد يئس منهم تماما.

و تعبير «على سواء» إمّا أن يكون إشارة إلى أنّي قد أنذرتكم جميعا و حذرتكم من العذاب الإلهي على حدّ سواء، لئلا يتصوّروا أنّ أهل مكّة أو قريشا يختلفون عن الآخرين، و أنّ لهم عند الله فضلا أو كرامه. أو أنّه إشارة إلى أنّ النبي قد بلغهم جميعا و بدون استثناء.

ثمّ يبيّن هذا التهديد بصورة أوضح، فيقول بأنّي لا- أعلم هل أنّ موعد عذابكم قريب أم بعيد: وَ إِنِ أَدْرَى أَقْرَبُ أَمْ بَعِيدٌ مَا تُوعَدُونَ فَلَا تَظُنُّوا أَنَّ هَذَا الْوَعِيدَ بَعِيدٌ، فَرَبِّمَا كَانَ قَرِيبًا وَ قَرِيبًا جَدًّا.

قد يكون المراد من العذاب و العقوبة هنا عذاب القيامة، أو عذاب الدنيا، أو كليهما، ففي الصورة الأولى هو مختص بعلم الله، و لا يعلم أى أحد تاريخ وقوع القيامة بدقّه حتّى أنبياء الله، و فى الصورة الثانية و الثالثة يمكن أن يكون إشارة إلى جزئياته و زمانه، و أنا لا أعلم بجزئياته، لأنّ علم النبي صلى الله عليه و آله و سلم بمثل هذه الحوادث ليس له صفة فعليّه دائما، بل له صفة إراديه أحيانا، أى ما دام لم يرد فهو لا يعلم (١).

ثمّ إنكم لا- ينبغي أن تتوهّموا أنّ عقوبتكم إذا تأخّرت فهذا يعنى أنّ الله غير مّطلع على أعمالكم و أقوالكم، فهو يعلم كلّ شىء، ف إنّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَ يَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ فَإِنَّ الْجَهْرَ وَ الْإِخْفَاءَ لَهُ مَعْنَى بِالنِّسْبَةِ لَكُمْ حَيْثُ أَنَّ عِلْمَكُمْ مَحْدُودٌ عَادَةً، أَمَّا بِالنِّسْبَةِ لِمَنْ لَا حُدُودَ لِعِلْمِهِ، فَإِنَّ الْغَيْبَ وَ الشَّهَادَةَ، وَ السَّرَّ وَ الْعَلْنَ سَوَاءٌ لَدَيْهِ.

ص: ٢٦٦

(١- ١) - كما ورد فى كتاب الكافى فى باب يتعلّق بهذا الشأن أيضا.

و كذلك إذا رأيتم أن العقوبه الإلهيه لا تحيط بكم فورا، فلا تظنوا أن الله سبحانه غير عالم بعملكم، فلا أعلم لعله إمتحان لكم: وَ
إِنْ أَدْرَى لَعَلَّهُ فِتْنَةٌ لَكُمْ وَ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ثُمَّ يَأْخُذْكُمْ أَشَدَّ مَأْخُذًا وَيُعَاقِبْكُمْ أَشَدَّ عِقَابٍ! لقد أوضحت الآيه فى الواقع حكمتين
لتأخير العذاب الإلهي:

الأولى:مسأله الامتحان و الاختبار،فإن الله سبحانه لا يعجل فى العذاب أبدا حتى يمتحن الخلق بالقدر الكافى،و يتم الحجه عليهم.

و الثانيه:إن هناك أفرادا قد تم اختبارهم و حقت عليهم كلمه العذاب حتما، إلا أن الله سبحانه يوسع عليهم النعمه ليشدد عليهم
العذاب،فإذا ما غرقوا فى النعمه تماما،و غاصوا فى اللذائذ،أهوى عليهم بسوط العذاب ليكون أشد و ألم، و ليحسوا جيدا بألم و
عذاب المحرومين و المضطهدين.

و تتحدث آخر آيه هنا-و هى آخر آيه من سوره الأنبياء-كالآيه الأولى من هذه السوره عن غفله الناس الجهال،فتقول حكايه عن
النبي صلى الله عليه و آله و سلم فى عبارته تشبه اللعن،و تعكس معاناته صلى الله عليه و آله و سلم من كل هذا الغرور و الغفله،و
تقول:إن النبي صلى الله عليه و آله و سلم بعد مشاهدته كل هذا الإعراض قالَ رَبِّ احْكُم بِالْحَقِّ (1). و فى الجمله الثانيه يوجه
الخطاب إلى المخالفين و يقول: وَ رَبَّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَيْنَا مَا تَصِفُونَ .

إنه فى الحقيقه يتبه هؤلاء بكلمه(ربنا)إلى هذه الحقيقه،و هى أننا جميعا مربوبون و مخلوقون،و هو ربنا و خالقنا جميعا.

و التعبير ب«الرحمن»،و الذى يشير إلى الرحمه العامه،يعيد إلى أسمع هؤلاء أن الرحمه الإلهيه قد عمّت كل وجودنا،فلما ذا لا
تفكروا لحظه فى خالق كل هذه النعمه و الرحمه؟ و تعبير الْمُسْتَعَانُ عَلَيْنَا مَا تَصِفُونَ يحذر هؤلاء بأن لا تظنوا أننا وحيدون أمام

ص: ٢٦٧

(١ - ١) - لا شك أن حكم الله سبحانه بالحق دائما،و على هذا فإن ذكر كلمه(بالحق)هنا له صبغه التوضيح.

جمعكم و كثرته،و لا تتصوّروا أنّ كلّ اتهاماتكم و أكاذيبكم،سواء كانت على ذات الله المقدّسه أو علينا،ستبقى بدون جواب و جزاء،كلّاً- مطلقاً،فإنّه تعالى سندننا و معتمدنا جميعاً،و هو قادر على أن يدافع عن عباده المؤمنين أمام كلّ أشكال الكذب و الافتراء و الاتّهام.

نهايه سوره الأنبياء

اللهمّ لا تدعنا و حدنا قبال الشرق و الغرب اللذين صمّما جميعا على إبادتنا، بل نسألك أن تنصرنا كما نصرت نبيك صلى الله عليه و آله و سلم و أصحابه و هم قلّه و لم تدعهم و حدهم قبال كثره الأعداء.

اللهمّ إنّك قد بينت فى هذه السوره المباركه رحمتك الخاصه على الأنبياء فى الشدائد و الأزمان و عند تقلّبات الحياه و مصاعبها.

اللهمّ و إنّنا مبتلون فى عصرنا و زماننا بمثل تلك الشدائد و الأزمان،و أنا لنرجو رحمتك التى خصّيت بها أنبياءك و عبادك الصالحين،فارحمنا و فرّج عنّا...

آمين ربّ العالمين

ص: ٢٦٨

سوره الحجّ

اشاره

مدتيه و عدد آياتها ثمان و سبعون آيه

ص: ٢٦٩

مضمون سوره الحجّ:

سمّيت هذه السوره ب«سوره الحجّ» لأنّ جزءاً من آياتها تحدّث عن الحجّ.

و هناك اختلاف بين المفسرين و كتاب تاريخ القرآن حول مكّيتها أو مدنيّتها.

فالبعض يرى أنّها مكّيه باستثناء عدد من آياتها. في الوقت الذي يرى آخرون أنّها مدنيه عدا بعض آياتها. و آخرون يرون أنّها مزيجاً من الآيات المكّيه و المدنيه. إلّا أنّنا لو أخذنا بنظر الإعتبار استنتاجاتنا من السور المكّيه و المدنيه، أو بتعبير آخر:

أجواء هاتين المدينتين و حاجات المسلمين و كيفيه صدور تعاليم النّبي صلى الله عليه و آله و سلم إليهم في كلّ من هاتين المنطقتين، لوجدنا أنّ آيات هذه السوره تشبه السور المدنيه، فالتعاليم الخاصّه بالحجّ، و كذلك التعاليم الخاصه بالجهاد تناسب أوضاع المسلمين في المدينه، مع أنّ تأكيد آيات في هذه السوره للمبدأ و المعاد لا تستبعد ملاءمتها للسور المكّيه.

يقول مؤلّف «تاريخ القرآن» استناداً إلى «فهرست ابن النديم و نظم الدرر»:

إنّ سوره الحجّ نزلت في المدينه، باستثناء آيات منها و التي نزلت بين مكّه و المدينه، و يضيف: إنّها السوره السادسه بعد المائه التي نزلت على النّبي صلى الله عليه و آله و سلم.

و تقع بعد سوره النور. و قبل سوره المنافقين.

و على أي حال فإنّ كون هذه السوره مدنيه أقوى.

هذا و يمكن تقسيم مواضعها إلى عدّه أقسام هي:

١-تضمّنت آيات منها موضوع«المعاد»و أدلّته المنطقيه،و إنذار الغافلين عن يوم القيامة و نظائر ذلك التي تبدأ هذه السوره بها لتضمّ جزءا كبيرا منها.

٢-يتضمّن جزء ملحوظ من هذه الآيات جهاد الشرك و المشركين،و جلب انتباه الناس إلى عظمه الخالق بواسطه معاجز الخلق فى عالم الوجود.

٣-دعا جزء آخر من هذه السوره الناس إلى الإعتبار بمصير الأقوم البائده، و ما لاقى من عذاب إلهى،و من هذه الأقوم قوم نوح،و عاد و ثمود،و قوم إبراهيم و لوط،و قوم شعيب و موسى.

٤-و تناول جزء آخر منها مسأله الحجّ و تاريخه منذ عهد إبراهيم عليه السّلام، و مسأله القربان و الطواف و أمثالها.

٥-و تضمّن الجزء الآخر مقاومه الظالمين و التصدّى لأعداء الإسلام المحاربين.

٦-و احتوى قسم آخر نصائح فى مجالات الحياه المختلفه.

٧-التشجيع على أعمال الصلاه و الزكاه،و الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر،و التوكّل و التوجّه إلى الله(سبحانه و تعالى).

فضيله تلاوه سوره الحجّ:

جاء فى حديث للرسول الأكرم محمّد صلى الله عليه و آله و سلم «من قرأ سوره الحجّ اعطى من الأجر كحجّه حجّها،و عمره اعتمرها،بعدهد من حجّ و اعتمرها فيما مضى و فيما بقى»(١) ! و هذا الثواب و الفضل العظيم ليس لمجرد التلاوه اللفظيه فقط،و إنّما لتلاوه تنير الفكر،و تفكّر يتبعه عمل و تطبيق.

ص: ٢٧٢

و من يجعل هذه السوره و مضمونها من مبدأ و معاد و تعليمات تعيِّديه أخلاقيه و مسائل خاصّه بالجهاد و مقارعه الظالمين، مصباحاً لبصيرته و منهاجاً لحياته، سيجد نفسه قد ارتبط بجميع المؤمنين السابقين و اللاحقين -معنويًا و روحياً- ارتباطاً يشعره بأنّه شريك في أعمالهم، و هم شركاء في أعماله، دون أن ينقص من أجرهم. و أنّه سيكون همزه وصل بين جميع المؤمنين عبر التاريخ.

و على هذا، فلا عجب من مقدار الثواب و الأجر الذي نصّ عليه هذا الحديث.

ص: ٢٧٣

اشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوُنَّهَا تُذْهِلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ (٢)

التفسير

اشاره

زلزله البعث العظيمه:

تبدأ هذه السوره بآيتين تشيران إلى يوم البعث و مقدماته، و هما آيتان تبعدان الإنسان-دون إرادته-عن هذه الحياه الماديه العابره، ليفكر بالمستقبل المخيف الذي ينتظره المستقبل الذي سيكون جميلا و سعيدا إن فكرت فيه اليوم، و لكنه مخيف حقاً إن لم تعدّ العده له، و الآيه المباركه: يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. خطاب للناس جميعا بلا استثناء، فقولته تعالى: يَا أَيُّهَا النَّاسُ دليل واضح على عدم التفريق بينهم من ناحيه العنصر، و اللغه، و الزمان، و الأماكن الجغرافيه، و الطوائف، و القبائل. فهو موجه للجميع: المؤمن و الكافر،

و الكبير و الصغير، و الشيخ و الشاب، و الرجل و المرأة، على امتداد العصور.

و عبارته **إِنَّقُوا رَبَّكُمْ** خلاصه لجميع برامج السعادة، فهي تبين التوحيد في «ربكم» من جهة و التقوى من جهة أخرى. و بهذا جمعت البرامج الاعتقاديّه و العمليّه.

و جمله **إِنَّ زَلْزَلَهُ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ** التي جاءت في عدد من الآيات القرآنيّه، تكرر هنا الحديث عنها بشكل مختصر، هو أنّ البعث يحدث ثوره و تبدلاً حاداً في عالم الوجود، الجبال تقتلع من مكانها، و تموج البحار، و تنطبق السّماء على الأرض، ثم يبدأ عالم جديد و حياه جديده، و يسيطر ذعر شديد على الناس يفقدهم صوابهم.

ثمّ بينت الآيه التاليه في عدّه جمل انعكاس هذا الذعر الشديد، فقالت: **يَوْمَ تَرُؤْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ** من شدّه الوحشه و الرعب.

وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا

و ثالث انعكاس لهذا الذعر الشديد: **تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ** و **عَلَّهْ ذَلِكَ هُوَ شَدَّةُ الْعَذَابِ فِي ذَلِكَ الْيَوْمِ وَ لَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ** هذا العذاب الذي أربع الناس و أفقدتهم صوابهم.

مسائل مهمه

١- تحدث هذه الظواهر المذكوره آنفا بشكل يسير في الزلازل الدنيويّه و الأحداث المرعبه، حيث تنسى الامهات أطفالهنّ، و تسقط الحوامل حملهنّ، و ترى آخرين كالسكارى قد فقدوا صوابهم، إلا أنّ هذا لا يتخذ طابعا عاما. أمّا زلزال البعث فإنّه يصيب الناس جميعا دون استثناء.

٢- قد تكون هذه الآيات إشاره إلى خاتمه العالم التي تعتبر مقدّمه للبعث، و في هذه الحاله ستأخذ عبارته «كلّ ذات حمل... و تذهل كلّ مرضعه» مفهومها

الحقيقى، إلا أنه يحتمل أنها تشير إلى زلزال يوم البعث، بدلاله قوله سبحانه:

لِكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ

و العبارات السابقة تكون كأمثله. أى إنَّ الموقف مرعب لدرجة أنه لو فرض وجود ذات حمل لوضعت حملها، و تغفل الأمهات عن أطفالهن -تماما- إن شهدن هذا الموقف.

٣- نعلم أن كلمة «المرضع» تطلق فى اللغة العربية على المرأة التى ترضع ولدها (١)، إلا أن مجموعته من المفسرين و بعض اللغويين يقولون: إنَّ هذه الكلمة تستخدم بصيغته مؤنثه «مرضعه» لتشير إلى لحظة الإرضاع، أى يطلق على المرأة التى يمكنها إرضاع طفلها كلمة المرضع، و كلمة المرضعه خاصه بالمرأة التى هى فى حاله إرضاع طفلها (٢).

و لهذا التعبير فى الآيه أهميه خاصه، فشده زلزال البعث، و رعبه بدرجة كبيره، يدفعان المرضعه إلى سحب ثديها من فم رضيعها و نسيانه دون وعى منها.

٤- إنَّ عبارته تَرَى النَّاسَ سُكَارَى إشارة إلى أنَّ النبى صلى الله عليه و آله و سلم هو المخاطب فيها فيقول له: سترى الناس هكذا، أما أنت فلست مثلهم، و يحتمل أن يكون الخطاب للمؤمنين الراسخين فى الإيمان الذين ساروا على خطى النبى صلى الله عليه و آله و سلم، بأنهم فى أمان من هذا الخوف الشديد.

٥- نقل كثير من المفسرين و رواه الحديث فى خاتمه هذه الآيات حديثا عن الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و هو أن الآيتان من بدايه السوره نزلتا ليلا فى غزاه بنى المصطلق (٣) - و هم حى من خزاعه - و الناس يسرون، فنادى رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم فحثوا المطى حتى كانوا حوله صلى الله عليه و آله و سلم فقرأها عليهم. فلم ير أكثر باكيا من تلك الليلة، فلما

ص: ٢٧٦

١ - ١) - يؤتى بعلامه التأنيث فى حاله أن يكون للكلمه تذكير و تأنيث، إلا أن الحمل و الإرضاع خاصين بالنساء، لهذا لا حاجه لهما بتاء التأنيث و أمثالها.

٢ - ٢) - يراجع قاموس اللغة، و تفسير الكشاف، و التفسير الكبير للفخر الرازى، و تفسير الميزان.

٣ - ٣) - وقعت هذه الغزوه فى شهر شعبان فى السنه السادسه للهجره.

أصبحوا لم يحطوا السرج عن الدواب و لم يضربوا الخيام، و الناس بين باك حزين أو جالس يتفكر،

فقال رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم: «أ تدرّون أى يوم ذاك؟» قالوا: الله و رسوله أعلم. قال: «ذاك يوم يدخل الناس من كلّ ألف تسعمائة و تسعة و تسعين إلى النار، و واحد إلى الجنّة» فكبر ذلك على المسلمين و بكوا بشدّه! و قالوا: فمن ينجو يا رسول الله؟ فأجابهم بأنّ المذنبين الذين يشكّلون الأ-كثريه هم غيركم. ثمّ قال: «إني لأرجو أن تكونوا ربع أهل الجنّة» فكبروا، ثمّ قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلث أهل الجنّة» فكبروا، ثمّ قال: «إني لأرجو أن تكونوا ثلثي أهل الجنّة، و إنّ أهل الجنّة مائه و عشرون صفًا، ثمانون منها أمّتي» (1).

ص: ٢٧٧

١-١) -بتلخيص عن تفسير مجمع البيان، و تفسير نور الثقلين، و تفاسير أخرى.

اشاره

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ (٣) كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (٤)

التفسير

اشاره

اتباع الشيطان!

بعد أن أعطت الآيات السابقة صورته لرعب الناس حين وقوع زلزاله القيامة، أوضحت الآيات اللاحقه حاله أولئك الذين نسوا الله، و كيف غفلوا عن مثل هذا الحدث العظيم، فقالت: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ .

نجد هؤلاء الناس يجادلون مره في أساس التوحيد و وحدانيه الحق تبارك و تعالى، و في إنكار وجود شريك له. و مره يجادلون في قدره الله على إحياء الموتى، و في البعث و النشور، و لا دليل لهم على ما يقولون.

قال بعض المفسرين: إن هذه الآيه نزلت في «النضر بن الحارث» الذي كان من المشركين المعاندين، و كان يصرّ على القول بأنّ الملائكه بنات الله، و أنّ القرآن مجموعه من أساطير السلف تنسب إلى الله، كما كان ينكر الحياه بعد الموت.

و البعض الآخر من المفسرين يعتقد أن هذه الآية إشاره إلى جميع المشركين الذين يجادلون في التوحيد و في قدره الله.

إلا أن سبب النزول لا يمكنه أن يضيّق مفهوم هذه الآية، فهذان القولان يصبان في معنى واحد، يشمل جميع الذين يشتركون في جدال مع الله تعالى، إما عن تقليد أعمى، وإما عن عصبية، أو لإتباع الخرافات، أو الأهواء النفسية.

ثم تضيف هذه الآية وَ يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ فَهؤلاء الأشخاص الذين لا يتبعون منطقاً أو علماً، وإنما يتبعون كل شيطان عنيد و متمرد، و لا يخضعون لشيطان واحد، بل لجميع الشياطين! شياطين الإنس و الجن، الذين لكل منهم برنامج و أحابله و شركاه.

و كلمه «مرید» مشتقه من «مرد» و أصلها الأرض المرتفعه التي لا نبت فيها.

و تطلق أيضا كلمه «أمرد» على الشجره الجرداء، و لهذا تطلق أيضا على كل صبي لم ينبت الشعر في وجهه، و هنا يقصد ب«المريد» الشخص الذي خلا من أى خير و سعادته. و طبيعى أن يكون مثل هذا الشخص عنيدا و ظالما و عاصيا. و بهذا يتضح مصير الإنسان الذى يتبع الشيطان الخالى من كل خير!! و من هنا كانت الآية اللاحقه كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَ يَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ (١).

ملاحظات

إشاره

١- الجدل في الحقّ و الباطل

رغم أن كلمه «المجادله» تعنى في عرف الناس البحث غير المنطقى، فإنّ

ص: ٢٧٩

١- ١) - «السعير» مشتقه من «سعر» بمعنى لهب النار، و تعنى هنا نار جهنم الحارقه. التي تمتاز بأنّها أكثر حرقا من أى نار.

أصلها اللغوى ليس كذلك. بل تعنى أى نقاش كان. لهذا نرى القرآن يوصى النبى صلى الله عليه وآله وسلم بقوله: **وَلِجَادِلِهِمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ (١)** أى جادل مخالفيك بأفضل أسلوب.

٢- جدال الباطل سبيل الشيطان

يرى بعض كبار المفسرين أنّ عبارة **يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ** إشارة إلى أقوال المشركين التى تفتقد السند و الدليل. و عبارة **وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ** إشارة إلى أفعال المشركين الخاطئه.

و يرى آخرون أنّ العبارة الأولى تشير إلى اعتقاداتهم الفاسده و الخرافيه. أمّا العبارة الثانية فتشير إلى سلوكياتهم الخاطئه و المنحرفه.

و بما أنّ الآيه السابقه و التاليه هذه الآيه، تناولتا الأسس الاعتقاديه، فلا يستبعد أن تشير هاتان الجملتان إلى حقيقه واحده، أو بتعبير آخر: تتضمنان طرفى موضوع واحد-نفيه و إثباته- فالعبارة الأولى تقول: **يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ** أى يجادل فى الله و قدرته تقليدا لأحد، أو عصيئه، أو هوى نفس، و العبارة الثانية تشير إلى أن من لا- يتبع العلم و المعرفه، فمن الطبيعى أنه يتبع كل شيطان طاغ عنيد.

٣- لماذا أى شيطان كان؟

إنه ممّا يلفت النظر أنّ القرآن لم يقل أنّ هذا الشخص يتبع الشيطان، بل ذكر.

أنه يتبع أى شيطان عنيد كان، و هذا يشير إلى تعدّد مناهج و مكائد الشياطين، فكلّ منهم اختار لنفسه مكيده خاصه، و هذه المكائد و الفخاخ متنوّعه و متكرّره إلى حدّ

ص: ٢٨٠

يكون من العسير تشخيصها، إلا المؤمنين المتوكلين على الله و المشمولين برحمته و حمايته: إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلِصِينَ (١).

و لا بدّ من الانتباه إلى أنّ كلمة الشيطان تستبطن التمرد و العناد و البعد عن كلّ خير و بركة. إلا أنّ ذكر كلمة «مريد» (الفاقد لكلّ خير و سعادته) بعد كلمة الشيطان مباشرة، هو تأكيد لتوضيح مصير من يتبعه.

٤- تفسير عبارته كُتِبَ عَلَيْهِ

٤- تفسير عبارته كُتِبَ عَلَيْهِ (٢).

واضح أنّ هذه العبارة تعني «الإلزام»، سواء كانت في عالم الخلق أم في عالم التشريع. إلا أنّه يجب أن لا نتصوّر أنّها تعني «الجبر» و أنّ الشياطين مجبورون على إضلال أتباعهم ليرسلوهم إلى دار البوار. بل إنّها نتيجة مؤكّده لبرنامج اختاروه بمحض إرادتهم. فإبليس قائد الشياطين و كبيرهم خالف أمر الله و عنده بملء إرادته، حتّى بلغت به الجرأة أن يعترض على ذات الله. فهو ضالّ و مضلّ و كذلك سائر الشياطين من الجنّ و الإنس. و ذلك كما نقول للمدمن على المخدرات: كتب على جبينه سوء الطالع و التعاسه، فهل يعني ذلك جبرا؟! و

ص: ٢٨١

١- (١) - سورة الحجر، ٤٠.

٢- (٢) - قال البعض: إنّ ضمير «عليه» يعود إلى الشيطان، و قال آخرون: إنّّه يعود إلى أتباع الشيطان. كما يستنتج ذلك من عبارته «و من الناس» أيضا، إلا أنّ ظاهره يؤكّد أنّه يعود إلى الشيطان، لا سيّما و أنّ الضمير المتّصل ب«من تولّاه» يعود إلى الشيطان أيضا.

اشاره

يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِنَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَ مِنكُمْ مَّن يُتَوَفَّىٰ وَ مِنكُمْ مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مَن بَعِيدٍ عِلْمَ شَيْئًا وَ تَرَى الْمَارِضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَ رَبَّتْ وَ أَنْبَتَتْ مِّن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَ أَنَّ اللَّهَ يُبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)

التفسير

اشاره

دليل المعاد في عالم الأجنه و النبات:

بما أنّ البحث في الآيات السابقة كان يدور حول تشكيك المخالفين للمبدأ و المعاد، فالآيات محل البحث طرحت دليلين منطقيين قويين لإثبات المعاد

الجسماني: أحدهما التغيرات التي تحدث في مراحل تكوين الجنين، والآخر هو التغيرات التي تحدث في الأرض عند خروج النبات.

و القرآن شرح صوراً للمعاد مما يلمسه الناس في هذه الدنيا، ويرونه بأم أعينهم، إلا أنهم لم ينتبهوا لذلك، ليعلموا أنّ الحياة بعد الموت ليست ضرباً من الخيال، بل هي حادثه فعلا- مشهوده للعيان، والخطاب القرآني يعم جميع الناس بنوره [□] يا أيها الناس إنّ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُّخَلَّقَةٍ ^(١) كلّ ذلك من أجل أن نوضح لكم حقيقه قدرتنا على القيام بأى عمل لُتَبَيِّنَ لَكُمْ .

فتبقى الأجنّه في الأرحام إلى مدّه معلومه نحن نحددها لتمرّ بمراحل تكاملها. ونسقط ما نريد منها فنخرجها من الأرحام في وسط الطريق قبل أن تكمل وَ نُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ تَبْدَأُ الْأَجْنَه مرحله تطوّر جديده. لنخرجكم أطفالاً من أرحام أمهاتكم.

ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً

و بهذا تنتهى مرحله حياتكم المحدده في بطون أمهاتكم.

فتضعون أقدامكم في محيط أوسع مملوء بالنور و الصفاء، و إمكانات واسعة جداً، إلا أنّ تكاملكم يستمرّ في قطع المسافات بسرعه لتبلغوا الهدف، ألا و هو الرشد و الكمال الجسمي و العقلي. ثُمَّ لَتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ .

و هنا يتبدّل الجهل إلى علم، و الضعف إلى قوه، و التبعية إلى الاستقلال، لكن مسيره حياتكم تطوى و تستمرّ فبعضكم يودّع الحياه بينما يستمرّ آخرون حتّى المرحله الأخيره من الحياه، أى مرحله الشيخوخه بعد تكاملهم: وَ مِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَ مِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ .

أجل، فالمرء يصل إلى مرحله لا يتذكّر فيها شيئاً، حيث يسيطر عليه النسيان،

ص: ٢٨٣

١- ١) - «المضغه» مشتقه من «المضغ» و تعنى مقداراً من اللحم يمكن للإنسان مضغه في لقمه واحده. و هذا تشبيه رائع للجنين في المرحله التي تعقب مرحله العلقه.

و يصبح فى وضع و كأنه طفل لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا و هذا الضعف و الخمول دليل على بلوغ المرء مرحله انتقاليه جديده كما نجد ضعف التحام الثمره بالشجره حين تبلغ مرحله النضج ممّا يدلّ على وصولها إلى مرحله الانفصال.

و هذه التغيرات المدهشه المتلاحقه التى تتحدّث عن قدره الله تعالى غير المحدوده، توضّح أنّ إحياء الموتى يسير على الله جلّت عظمته. و هناك بحوث تعرض لمراحل الحياه المختلفه هذه، سنذكرها فى الملاحظات القادمه.

ثمّ تتناول الآيه بيان الدليل الثّانى أى حياه النباتات، فتبيّن ما يلى: تنظر إلى الأرض فى فصل الشتاء فتجدها جافّه و ميته، فإذا سقط المطر و حلّ الربيع، دبّت الحياه و الحركه فيها و نبتت أنواع النباتات فيها و نمت و ترى الأرض هامدهً فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت و ربّت و أنبتت من كلّ زوج بهيج (١).

الآيتان اللاحقتان تشرحان ما توصلنا إليه، و ذلك باستعراض خمس

ملاحظات

١- إنّ ما استعرضته الآيات الخاصه بالمراحل التى تسبق مراحل الحياه للإنسان و عالم النبات، من أجل أن تعلموا أنّ الله تعالى حقّ ذلك بأنّ الله هو الحقّ و بما أنه هو الحقّ، فالنظام الذى خلقه حقّ أيضاً، لهذا لا يمكن أن يكون

ص: ٢٨٤

١ - ١) - «الهامده» تعنى فى الأصل النار التى أطفئت، و يطلق على الأرض التى جفّت نباتاتها و أصبحت دون حركه «مفردات الراغب الاصفهاني» و البعض الآخر قال: إنّ كلمه «هامده» تطلق على الحدّ الفاصل بين الموت و الحياه (تفسير فى ظلال القرآن). «اهتزت» مشتقه من «الهز» و تعنى تحرّكت بشده. «ربت» مشتقه من «الربو» و تعنى الزيادة و النمو، كما أنّ كلمه «ربا» مشتقه أيضاً من «الربو». «بهيج» تعنى الجميل السّاحر السارّ.

هذا الخلق دون هدف، كما يذكر القرآن الكريم هذا المعنى في مورد آخر: وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِإِذْنِكَ ظُنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا (١).

و بما أنّ هذه الحياه ليست عبثاً، وأنّ لها هدفاً، وأننا لا نصل إلى تحقيق ذلك الهدف في حياتنا، إذن نعلم من ذلك وجود المعاد و البعث حتماً.

٢- إنّ هذا النظام الذى يسيطر على عالم الحياه يقول لنا وَ أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى .

إنّ الذى يلبس الأرض لباس الحياه، و يغيّر النطفه التافهه إلى إنسان كامل، و يمنح الحياه للأرض الميته، لقادر على أن يمنح الحياه للموتى، فهل يمكن التردّد فى قبول فكره المعاد مع وجود كلّ هذه التشكيلات الحيّه الدائمه للخالق جلّ و علا فى هذا العالم (٢) ؟

٣- الهدف الآخر هو أن نعلم وَ أَنَّهُ عَلَيَّ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ و لا يستحيل على قدرته شىء.

هل يمكن لأحد تحويل الأرض الميته إلى نطفه؟ و يطوّر هذه النطفه التافهه فى مراحل الحياه؟ و يلبسها كلّ يوم لباساً جديداً من الحياه! و يجعل الأرض الجافّه العديمه الروح خضراء زاهيه تعلوها بهجه الحياه؟! أليس القادر على القيام بهذه الأعمال بقادر على أن يحيى الإنسان بعد موته؟! ٤- إنّ كلّ هذا لتعلموا أنّ ساعه نهايه هذا العالم و بدايه عالم آخر، ستحلّ بلا شكّ فيها وَ أَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا .

٥- ثمّ إنّ كلّ هذا مقدّمه لنتيجه أخيره هى وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ .

ص: ٢٨٥

(١ - ١) - سورة ص، ٢٧.

٢ - (٢) - يرى بعض المفسّرين فى عبارته أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى إشارة إلى حياه الناس فى القيامه. مع أنّ هذا المعنى تضمّنته عبارته وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ أيضاً، مع فارق هو أنّ العبارة الأولى إشارة إلى أصل الحياه، و الثانيه إشارة إلى كيفيه إحياء الموتى. إلّا أنّ التفسير الآخر الذى استندنا إليه بصوره أكثر، هو أنّ عبارته أَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى إشارة إلى منح الله الحياه بشكل مستمر فى هذه الدنيا، ليكون دليلاً على إمكان تحقيق ذلك يوم البعث.

و هذه النتائج الخمس بعضها مقدّمه، وبعضها ذو المقدمه، البعض منها إشاره إلى الإمكان، و الآخر إشاره إلى الوقوع، و مترتبّه بعضها على بعض و كلّ يكمل صاحبه، و جميعها ينتهى إلى نقطه واحده، هى أنّ البعث ليس ممكن فحسب، بل إنّ سيقع حتماً.

فالذين يشكّون فى إمكان الحياه بعد الموت يشاهدون الصور المشابهه لها فى حياه البشر و النباتات بأمّ أعينهم. و هى تتكرّر كلّ يوم و كلّ عام.

و إذا شكّوا فى قدره الله فإنّ قدره الله جعلتهم يشاهدون أمثله بارزه لها بأعينهم. ألم يخلق الإنسان من تراب؟ ألا نشاهد كلّ عام احياء الأرض الميتة؟ فهل عجيب أمر حياه الأموات ثانيه و نهوضهم من تراب؟ و إن شكّوا فى وقوع مثل هذه الأمور، فعليهم أن يعلموا أنّ النظام المسيطر على الخلق فى العالم يدلّ على وجود هدف له، و إلاّ فإنّه باطل تافه، و الحياه القصيره المملوءه بالآلام و خيبه الآمال غير جديره بأن تكون هى الهدف الأخير لعالم الخلق.

و على هذا يجب أن يكون هناك عالم آخر، و سيع، خالد، جدير بأن يعدّ هدفها للخلق.

بحوث

إشاره

١- مراحل حياه الإنسان السبع

الآيات السابقه شرحت حركه الإنسان فى مسيره ذات مراحل سبع، لتبيّن البعث و تثبت إمكانه:

المرحله الأولى: عند ما كان الإنسان تراباً، و قد يراد به التراب الذى خلق منه آدم عليه السّلام. كما قد يكون إشاره إلى أنّ جميع البشر- من تراب، لأنّ جميع المواد

الغذائيه التي تكوّن النطفه و غذاءها-من بعد-من تراب.و لا- شكّ في أنّ الماء يشكّل جزءا ملحوظا من جسم الإنسان،و الجزء الآخر من الأوكسجين و الكاربون،و ليس من التراب،إلا أنّ العنصر الأساس الذي تتشكّل منه أعضاء الجسم مصدره التراب.إذن عبارته خلق الإنسان من تراب صحيحه حتما.

المرحلة الثانيه:(النطفه):يتحوّل التراب،هذا الموجود البسيط المهمل العديم الحسّ و الحركه،يتحوّل إلى نطفه تتألف من أحياء مجهوله مثيره تسمى عند الرجل «أسپر»أو الحيمن و عند المرأه «أوول»أو البويضه و هى غايه فى الصغر حتّى أنّها تبلغ الملايين فى نطفه الرجل! و المثير أنّ الإنسان يواصل عقب ولادته حركه تدريجيّه هادئه،تأخذ فى الغالب شكل «التكامل الكمي»فى الوقت الذى كانت حركته فى الرحم «كيفيه» ترافقها طفرات سريعه معييره.و التغيرات المتعاقبه للجنين فى الرحم مدهشه إلى درجه يمكن تشبيهها بحشره صغيره بسيطه تتطوّر بعد أشهر قليله إلى طائر نفاث! و قد تطوّرت و توسّعت الدراسات عن «علم الأجنه»اليوم بحيث تمكّن علماءه من دراسه الجنين فى مراحلهم المختلفه،و كشفوا عن أسرار هذه الظاهره العجيبه فى عالم الوجود.و عرضوا النتائج الباهره التى توصلوا إليها فى دراساتهم عن الجنين.

و فى المرحله الثالثه يصبح الجنين علقه،و تكون خلاياه كحبيبات التوت، بشكل قطعه دم خاثر متلاصقه،يطلق عليها علميا «مورولا».و بعد مضي مدّه قصيره تظهر أخايد التقسيم الصغيره كبدايه لتقسيم أجزاء الجنين،و يطلق على الجنين فى هذه المرحله اسم «لاستولا».

و فى المرحله الرابعه يتخذ الجنين شكل قطعه لحم ممضوغ،دون أن تتضح معالم الأعضاء فيه،و فجأه تحدث تغييرات فى قشره «الجنين»و تتخذ شكلا يلائم العمل المطلوب منه القيام به،فتظهر أعضاء الجسم تدريجيا،و يسقط كلّ جنين

لا- يمكنه المرور بهذه المرحلة، ويمكن أن تكون عبارته مُخَلَّقَهُ وَغَيْرِ مُخَلَّقِهِ إشارة إلى هذه المرحلة، أى أنّ الجنين يكون «كامل الخلقه» أو «ناقص الخلقه».

و من المثير أنّ القرآن المجيد ذكر عبارته لُئِيَنَّ لَكُمْ بعد ذكر هذه المراحل الأربع، مؤكداً أنّ هذه التغييرات السريعة المدهشه التى تغتير قطره ماء صغيره إلى إنسان كامل، للدليل واضح على أنّ الله قادر على كلّ شىء.

ثمّ أشار القرآن الكريم إلى مرحله الجنين الخامسه و السّادسه و السّابعه، التى تلى الولاده أى «الطفوله» و «البلوغ» و «الشّيوخه» (١).

و الجدير بالذكر أنّ ولاده الإنسان- من التراب- كائنا حيّاً، قفزه كبيره، و مراحل الجنين المختلفه قفزات متعاقبه، و ولاده الإنسان من بطن أمه قفزه مهمّه جدّاً، و هكذا البلوغ و الشيوخه.

و تعبیر القرآن عن يوم القيامه بالبعث، قد يكون إشارة إلى مفهوم القفزه ذاتها التى تحدث يوم البعث أيضاً. و ما أجددنا بالانتباه إلى أنّ القرآن تحدّث عن مراحل تكوّن الجنين قبل أن يظهر علم الأجنّه، و حديثه عنها فى ذلك الزمن دليل حىّ على أنّ هذا الكتاب العظيم إنّما هو وحى يوحى من قدره قادره هى التى أبدعت الطبيعه و ما وراءها.

٢- المعاد الجسمانى

مما لا شكّ فيه أنّ القرآن الكريم أينما تحدث عن البعث قصد بعث الإنسان جسماً و روحاً فى العالم الأخرى، و الذين حصروا البعث فى الروح و قالوا ببقائها هى وحدها لم يفقهوا آيات القرآن قطّ.

ص: ٢٨٨

١-١) - الذى يثير الانتباه أنّ تعبیر القرآن ثمّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً عن ولاده الإنسان لم يرد بصيغه الجمع (أطفال) وفقاً للقاعده، إلاّ أنّ هذا التعبير (طفلاً) يمكن أن يكون مصدراً يتساوى فيه المفرد و الجمع، أو أن يكون الهدف بيان النوع. و ليس خصائص الأطفال، فالفرق بين البشر فى هذه المرحله مخفيه تبرز فى المراحل اللاحقه.

فهذه الآيات المباركة كآيئه السابقه تصرّح بالمعاد الجسماني. وإلا فما هو وجه التشابه بين المعاد الروحي، و مراحل الجنين و إحياء الأرض الموات بنمو النباتات؟ و يؤكّد ذلك ختام الآيات التي نحن بصددّها إذ تقول: **وَ أَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ وَ الْقَبْرِ** موضع جسم الإنسان و ليس روحه.

و أساسا فإنّ تعجّب المشركين إنّما هو من البعث الجسماني، فهم يقولون:

كيف يمكن للإنسان أن يعود للحياه ثانيه بعد ما صار ترابا؟ و بقاء الروح لم يكن شيئا عجبا، لأنّه كان موضع قبول و رضى الأقسام الجاهليه.

٣- ما هو «أرذل العمر»؟

«الأرذل» مشتقّه من «رذل» أى المنحطّ و غير المرغوب فيه. و يقصد ب«أرذل العمر» تلك المرحله من عمر الإنسان التي هي أكثر انحطاطا و غير مرغوب فيها لما يفقده فيها الإنسان من القوّه و الذاكره، و لما يغلبه فيها من الضعف و الانفعال، حتّى تراه يفتاظ من أدنى شىء، و يرضى و يفرح لا يسر شىء، و يفقد سعه صدره و صبره، و ربّما قام بحركات طفوليه. مع فارق بينه و بين الطفل و هو أنّ الناس لا يتوقّعون منه ذلك، لأنّه ليس طفلا، مضافا إلى أنّ الطفل يؤمل فى أن يكبر و ينضج جسديا و نفسيا و تزول عنه هذه الحركات الصبانيه، لهذا يتركوا أحرارا فى ممارستها، و ليس كذلك فى الفرد المسنّ، أى أنّ الطفل ليس لديه شىء ليفقده، و لكن المسنّ يفقد رأس مال حياته بذلك. و على هذا فإنّ وضع الشيوخ المعمرين يثير الشفقة و الأسى عند مقارنته بوضع الأطفال.

و جاء فى بعض الأحاديث أنّ أرذل العمر هو الذى يبلغ مائه عام و أكثر (١) و قد تعنى هذه العبارة نوع الأشخاص، و إلا فهناك من يبلغ هذه الحاله و سنّهم أقل من

ص: ٢٨٩

مائة عام. كما أنّ هناك أشخاصا تجاوزت أعمارهم مائة عام و هم بكامل وعيهم و ذكائهم. و تندر مشاهدته من يصابون بهذه الحالة بين العلماء الذين شغلتهم المعارف و البحوث.

و ما أولانا بدعاء الله تعالى أن يحفظنا من هذه الحالة! و ما أجددنا أن ننهي غرورنا و غفلتنا بمجرد الفكر بهذه العاقبة! علينا أن نفكر ماذا كنّا و على ماذا أصبحنا و ماذا سنكون؟

ص : ٢٩٠

إشارة

وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ (٨) ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنَذِيقُهُ
يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ (٩) ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ (١٠)

التفسير

إشارة

الجدال بالباطل مَرَه أُخْرَى:

تتحدث هذه الآيات أيضا عَمَّن يجادلون في المبدأ و المعاد جدالا خاويا لا أساس له، في البدايه يقول القرآن المجيد: وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ .

و عبارته وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ هي ذاتها التي ذكرت في آيه سابقه، و إعادتها تبين لنا أَنَّ العبارة الأولى إشاره إلى مجموعه من الناس، و الثانيه إلى مجموعه أُخْرَى. و بعض المفسرين يرى أَنَّ الفرق بين هاتين المجموعتين من الناس هو أَنَّ الآيه السابقه الذكر دالّه على وضع الأتباع الضالين الغافلين، في

وقت تكون فيه هذه الآيه دالّه على قاده هذه المجموعه الضالّه (١).

و عباره لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ تَبَيَّنَ هَدَفُ هَذِهِ الْمَجْمُوعَةِ، أَلَا وَهُوَ تَضَلُّلُ الْآخِرِينَ، وَ هَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَهُمَا، مِثْلَمَا تَوَضَّحَ هَذَا الْمَعْنَى عِبَارَةً يَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ اتِّبَاعِ الشَّيَاطِينِ.

و لكن ما الفرق بين «العلم» و«الهدى» و«الكتاب المنير»؟ للمفسرين آراء في هذا المجال أقربها إلى العقل هو أن «العلم» إشارة إلى الاستدلال العقلي. و«الهدى» إشارة إلى إرشاد القادة الربانيين. و«الكتاب المنير» إشارة إلى الكتب السماوية، أي أنها تعني الأدلة الثلاثة المعروفة «الكتاب» و«السنة» و«الدليل العقلي». و أما الإجماع فإنه يعود إلى السنة طبقا لدراسات العلماء، و قد جمعت هذه الأدلة الأربعة في هذه العبارة أيضا.

و يحتمل بعض المفسرين أن «الهدى» إشارة إلى الإرشادات المعنوية التي يكتسبها الإنسان في ظلّ بناء الذات و تهذيب النفس و تقواه. «و بالطبع يمكن ضمّ هذا المعنى إلى ما تقدّم آنفاً».

و يمكن أن يكون الجدل العلمي مثمرا إذا استند إلى أحد الأدلة: العقل، أو الكتاب، أو السنة.

ثمّ يتطرّق القرآن المجيد في جملة قصيره عميقه المعنى إلى أحد أسباب ضلال هؤلاء القادة، فيقول: ثَانِي عَطْفِهِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّهُمْ يَرِيدُونَ أَنْ يَضَلُّوا النَّاسَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغُرُورِهِمْ وَ عَدَمِ اهْتِمَامِهِمْ بِكَلَامِ اللَّهِ وَ بِالْأَدْلَةِ الْعَقْلِيَّةِ الْوَاضِحَةِ.

«ثاني» مشتقّه من «ثنى» بمعنى التواء و«عطف» تعني «جانب» فالجملة تعني ثنى الجانب، أي الإعراض عن الشيء و عدم الاهتمام به.

ص: ٢٩٢

١- ١) - تفسير الميزان، و التفسير الكبير للفخر الرازي، في تفسير الآيات موضع البحث.

و يمكن أن تكون عبارته «ليضل» هدف هذا الإعراض، أى إنهم (قاده الضلال) يستخفون بآيات الله و الهدايه الإلهيه لتضليل الناس. و يمكن أن تكون نتيجة لذلك. أى أن محصله الإعراض و عدم الاهتمام هو صدّ الناس عن سبيل الحقّ. و يعقب القرآن ذلك ببيان عقابهم الشديد فى الدنيا و الآخره بهذه الصوره:

لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَ نُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ

و نقول له: ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ يَدَاكَ وَ أَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَامٍ لِلْعَبِيدِ لا يعاقب الله أحدا بلا ذنب، و لا يضاعف عقاب أحد دون سبب، فهو العدل المطلق سبحانه (١).

و هذه الآيه من الآيات التى تنفى مذهب الجبريّه، و تثبت مبدأ العداله فى أفعال الله تعالى. (للمزيد من التفصيل راجع تفسير الآيه (١٨٢) من سوره آل عمران).

ص: ٢٩٣

١ - ١) - «ظلام» صيغه مبالغه تعنى كثير الظلم. و طبيعى أن الله لا يظلم أبدا لا كثيرا و لا قليلا، و يمكن أن يكون استخدام هذا التعبير هنا إشاره إلى أن العقاب دون مبرر من قبل الله تعالى -جلّ عن ذلك و علا علوا كبيرا- مصداق ظلم كبير.

اشاره

وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ عَلَىٰ حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فَتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ
الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ (١١) يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا نُنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٢) يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ
لَبِئْسَ الْمَوْلَىٰ وَ لَبِئْسَ الْعَشِيرُ (١٣) إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا
يُرِيدُ (١٤)

التفسير

اشاره

الواقف على حافه وادى الكفر

تحدّث الآيات السابقه عن مجموعتين: الأتباع الضالّين، و القاده المضلّين.

أمّا هذه الآيات، فتحدّث عن مجموعه ثالثه هم ضعاف الإيمان. قال القرآن المجيد عن هذه المجموعه: وَ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْْبُدُ اللَّهَ
عَلَىٰ حَرْفٍ أَىٰ إِنَّ بَعْضَ النَّاسِ يَعْْبُدُ اللَّهَ بِلِقَلْقَه لِسَانٍ، وَ إِنَّ إِيمَانَه ضَعِيفٌ جَدًّا. وَ لَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ إِلَىٰ قَلْبِهِ.

و عباره «على حرف» ربّما تكون إشاره إلى أنّ إيمانهم باللسان فقط، و أنّ قلوبهم لم تر بصيصا من نوره إلا قليلا، و قد تكون إشاره إلى أنّ هذه المجموعه تحيا على هامش الإيمان و الإسلام و ليس فى عمقه، فأحد معانى «الحرف» هو حافه الجبل و الأشياء الاخرى. و الذى يقف على الحافه لا يمكنه أن يستقرّ. فهو قلق فى موقفه هذا، يمكن أن يقع بهزّه خفيفه، و هكذا ضعاف الإيمان الذين يفقدون إيمانهم بأدنى سبب.

ثم تناول القرآن الكريم عدم ثبات الإيمان لدى هؤلاء الأشخاص فإنّ أصابته خيرٌ أطمأنّ به و إنّ أصابته فتته انقلب على وجهه (١) إنّهم يطمثون إذا ضحكت لهم الدنيا و غمرتهم بخيراتنا! و يعتبرون ذلك دليلا على أحقيّه الإسلام.

إلاّ أنّهم يتغيرون و يتجهون إلى الكفر إن امتحنوا بالمشاكل و القلق و الفقر، فالدين و الإيمان لديهم و سيله للحصول على ما يبتغون فى هذه الدنيا، فإنّ تمّ ما يبتغونه كان الدين حقًا، و إلاّ فلا.

و ذكر «ابن عباس» و مفسّرون قدماء سبب نزول هذه الآيه: «أنّها نزلت فى أعراب كانوا يقدمون على النّبى صلى الله عليه و آله و سلم بالمدينه مهاجرين من باديتهم، فكان أحدهم إذا صحّ بها جسمه و نتجت فرسه مهرا حسنا. و ولدت امرأته غلاما و كثر ماله و ماشيته، رضى به و اطمأنّ إليه، و إن أصابه وجع و ولدت امرأته أنثى أو أجهضت فرسه أو ذهب ماله أو تأخرت عنه الصدقه، أتاه الشيطان و قال له: ما جاءتك هذه الشور إلاّ بسبب هذا الدين. فينقلب عن دينه» (٢).

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن الكريم يعبر عن إقبال الدنيا على هؤلاء الأشخاص بالخير. و عن إدبارها بالفتنه (وسيله الامتحان) و لم يطلق عليها كلمه

ص: ٢٩٥

١ - ١) - كلمه «انقلب» فى جمله «انقلب على وجهه» تعنى التراجع. و يمكن أن تكون إشاره إلى ترك الإيمان تماما، حتّى إنّ لا يعود إليه. فهو غريب عن الإيمان دوما.

٢ - ٢) - تفسير الفخر الرازى، المجلد الثالث و العشرون، ص ١٣، و تفسير القرطبي، المجلد السادس، ص ٤٤٠٩.

الشّر، إشارة إلى أنّ هذه الأحداث غير المرتقبة ليست شرّاً ولا سوءاً وإنما هي وسيلة للامتحان.

ويضيف القرآن المجيد في الختام- خَسِرَ الدُّنْيَا وَ الآخِرَةَ وَ ذَلِكُمْ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ مؤكداً أنّ أفدح الضرر و أفضع الخسران، هو أن يفقد الإنسان دينه و دنياه. و هؤلاء الأشخاص الذين يقيسون الحقّ بإقبال الدنيا عليهم ينظرون إلى الدين وفق مصالحهم الخاصّة، و هذه الفئة موجودة بكثرة في كلّ مجتمع، و إيمانها مزيج بالشرك و عبادة الأصنام، إلا أنّ أصنامهم هي و أزواجهم و أبناؤهم و أموالهم و مواشيهم، و مثل هذا الإيمان أضعف من بيت العنكبوت! و هناك مفسّرون يرون أنّ هذه الآية تشير إلى المنافقين، لكن إذا اعتبرنا أنّ المنافق هو من لا يملك ذرّة من الإيمان، فإنّ ذلك يخالف ظاهر هذه الآية، فعبارته «يعبد الله» و «اطمأنّ به» و «انقلب على وجهه» تبين أنّه ذو إيمان ضعيف قبل هذا.

أمّا إذا قصد بالمنافق من يملك قليلاً من الإيمان، فلا يعارض ما قلناه، و يمكن قبوله.

و تشير الآية التالیه إلى اعتقاد هذه الفئة الخليط بالشرك، خاصه بعد الانحراف عن صراط التوحيد و الإيمان بالله، فتقول: يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِمَّا لَا يَنْفَعُهُمْ أَى إِذَا كَانَ هَذَا الْإِنْسَانُ يَسْعَى إِلَى تَحْقِيقِ مَصَالِحِهِ الْمَادِيَةِ وَ الْإِبْتِعَادِ عَنِ الْخَسَائِرِ وَ يَرَى صَحَّةَ الدِّينِ فِي إِقْبَالِ الدُّنْيَا عَلَيْهِ، وَ بَطْلَانَهُ فِي إِدْبَارِهَا عَنْهُ. فلما ذا يتوجّه إلى أصنام لا يؤمل منها خير، و لا يخاف منها ضرر.

فهى أشياء لا فائده فيها، و لا أثر لها فى مصير البشر؟! أجل ذلك هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ. إنّ هؤلاء ليباعدون عن الصراط المستقيم بعدا حتّى لا ترجى عودتهم إلى الحقّ إلا رجاء ضعيفا جدّا.

و يوسّع القرآن الكريم هذا المعنى فيقول: يَدْعُوا لِمَنْ ضَرُّهُ أَقْرَبُ مِنْ نَفْعِهِ .

لأنّ هذا المعبود المختلق ينزل بفكرهم إلى الحضيض فى هذه الدنيا، و يدفعهم

نحو الخرافات و الجهل، و يدعهم فى الآخرة فى نار جهنم، بل هم كما تقول الآيه ٩٨ من سورة الأنبياء: إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ .

و تضيف الآيه فى الختام لِبئسَ المولى و لبئسَ العشيرُ فما أسوأَ ناصرا و معينا، و ما أسوأَ مؤنسا و معاشرًا.

و هنا يثار سؤال، فالآيه السابقه تنفى كل فائده و نفع من هذه الأصنام و كل ضرر، و هذه الآيه تقول إن ضررها أقرب من نفعها! كيف ينسجم الحكمان؟ فى الجواب عن ذلك نقول: إن ذلك أمر اعتيادى فى المخاطبه، ففى مرحله لا يعتبرون لشيء فائده و تأثير يذكر ثم يترقى إلى الحال فى مرحله أخرى فيعدونه مصدر الضرر. كأن نقول: لا تصادق فلانا، فلا نفع فيه لدينك و لا لدنياك.

و بعدها نتقدم فنقول إنما هو: (أى هذا الصديق) سبب لتعاستك و افتضحك. و هنا تجد إضافة إلى كون الأصنام لا ضرر فيها لأعداء المشركين، لأنها غير قادره على الإضرار بأعدائهم كما يتوقعون منها، و لكنها تتضمن ضررا حتميا لأتباعها.

كما أن صيغه «أفعل التفضيل» فى كلمه «أقرب» كما قلنا سابقا: تعنى عدم اتصاف طرفى المقارنه بصفه معينه. و قد يكون الطرف الأضعف فاقدًا لأيه صفه، كأن نقول: ساعه صبر عن الذنب خير من نار جهنم (و ليس معنى ذلك أن نار جهنم فيها خير، إلا أن الصبر أفضل منها)، و قد اختار هذا الرأى عدد من كبار المفسرين كالشيخ الطوسى فى «التبيان» و الطبرسى فى «مجمع البيان».

و احتمال البعض كالفخر الرازى فى تفسير الآيه بأن كل واحد من هاتين الآيتين إشاره إلى مجموعه من الأصنام، فالآيه الأولى تخص الأصنام الحجرية و الخشبية، و أما الآيه الثانية فتخص الطواغيت و البشر المتعالين أشباه الأصنام.

فالمجموعه الأولى لا تضرّ و لا تنفع، بل هى بالتأكيد خاليه من أيه صفه. أما المجموعه الثانية «أئمه الضلال» فإنهم يضرّون و لا ينفعون. و إذا كان فيهم خير

قليل فضّرهم كبير جدّا، و عباره لِبُسِّ الْمَوْلَى وَ لِبُسِّ الْعَشِيرِ تَوَكَّدَ ذَلِكَ، و عليه فلا تناقض بين الآيتين (١).

□
و ختام الآيه المباركه نلاحظ مقارنة بين الخير و الشرّ كما هو دأب القرآن الكريم لتتضح النتائج بشكل أكبر، فنقول الآيه: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ. فعاقبتهم معلومه و منهج تفكيرهم و سلوكهم واضح فمولاهم هو الله تعالى، و رفاقهم و جلساؤهم فى الآخرة هم الأنبياء و الصالحون و الملائكة، و أنّ الله سبحانه يثيب المؤمنين العاملين للصالحات، جنّات تجرى من تحتها الأنهار، لينعموا بالسعادة و السرور جزاء استقامتهم على الحقّ و استجابتهم له فى الحياه الدنيا إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ .

و ثوابهم يسير عليه -جلّ و علا- يسر عقاب الذين ظلموا أنفسهم بإيثار الباطل على الحقّ، و بعبادتهم الأصنام من دون الله سبحانه. و فى هذه المقارنه نلاحظ طائفه من الناس لم يؤمنوا إلاّ بلسانهم، فهم على جانب من الدين و ينحرفون بأدنى و سوسه، و ليس لهم عمل صالح، أمّا المؤمنون الحقيقيون فإيمانهم راسخ و لا- تزعزعه العواطف و مثر هذا من جهه.. و من جهه أخرى فلئن كان مولى الخاسرين لا ينفع و لا يضرّ، فإنّ مولى الصالحين على كلّ شىء قدير. و لئن خسر الظالمون كلّ شىء، فقد ربح المهتدون خير الدنيا و سعادته الآخرة.

ص: ٢٩٨

١- ١) - بعض المفسرين الأفاضل كمفسر الميزان فسّر عباره «يدعو» بمعنى «يقول» إلا أنّ ذلك لا يطابق ظاهر الآيه.

إشاره

مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمِذُ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ (١٥) وَ
كَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَأَنَّ اللَّهَ يَهْدِيَ مَنْ يُرِيدُ (١٦) إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ
أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١٧)

سبب النزول

روى بعض المفسرين حول سبب نزول الآيه الأولى من هذه الآيات، أنها نزلت فى نفر من أسد و غطفان قالوا: نخاف أن الله لا ينصر محمدًا، فينقطع الذى بيننا و بين حلفائنا من اليهود فلا يمروننا. فحذرتهم هذه الآيه و وبختهم بشده.

و قال آخرون: إنها نزلت فى قوم من المسلمين لشده غيظهم و حنقهم على المشركين، يستبطنون ما وعد الله رسوله من النصر، فنزلت هذه الآيه (١) تلومهم

ص: ٢٩٩

البعث نهايه جميع الخلافات:

بما أنّ الآيات السابقه كانت تتحدّث عن ضعفاء الإيمان، فإنّ الآيات مورد البحث ترسم لنا صورته أخرى عن هؤلاء فتقول: مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لِيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُدْهِبَنَّ كَيْدَهُ مَا يَغِيظُ .

أى من يظنّ أنّ الله لا ينصر نبيّه فى الدنيا والآخرة، وهو غارق فى غضبه، فليعمل ما يشاء، وليشدّد هذا الشخص حبلا من سقف منزله و يعلّق نفسه حتّى ينقطع نفسه و يبلغ حافّه الموت، فهل ينتهى غضبه؟! لقد اختار هذا التفسير عدد كبير من المفسّرين، أو ذكره كاحتمال يستحقّ الاهتمام به (1).

الضمير فى قوله سبحانه: لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ بحسب هذا التفسير يعود إلى النّبي صلى الله عليه وآله و سلّم و«السّماء» تعنى سقف المنزل (لأنّ كلّ شىء فوقنا يطلق عليه سماء). أمّا عبارته «ليقطع» فتعنى قطع النفس و الوصول إلى حافّه الموت.

و احتمال البعض احتمالات أخرى فى تفسير هذه الآيه لا حاجه لذكرها، ما عدا تفسيرين منها يستحقّان الاهتمام، وهما:

١- إنّ السّماء يقصد بها السّماء الحقيقيه، و بناء على هذا الرأى: فإنّ الأشخاص الذين يظنّون أنّ الله لا ينصر نبيّه، ليذهبوا إلى السّماء وليشدّوا بها حبلا- و يعلّقوا أنفسهم بينها و بين الأرض حتّى تنقطع أنفسهم. (أو يقطعوا الجبل الذى تعلّقوا به كى يسقطوا) و لينظروا إلى أنفسهم هل انتهى غضبهم؟!

ص: ٣٠٠

١ - ١) - تراجع تفاسير «مجمع البيان» و«التبيان» و«الميزان» و«الفخر الرازى» و«أبو الفتوح الرازى» و«تفسير الصافى» و«القرطبى» فى تفسير الآيه التى يدور حولها البحث.

٢- إنَّ عود الضمير المذكور إلى هؤلاء الأشخاص (ليس إلى النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ) أى أن الذين يظنون عدم نصر الله لهم، و أنه يقطع رزقهم، عليهم أن يعملوا ما شاءوا، و ليذهبوا إلى السماء و يعلقوا أنفسهم بحبل، ثم ليقطعوا هذا الحبل حتى يقعوا على الأرض، فهل ينهى غضبهم؟ و جميع هذه التفاسير تركّز على ملاحظه نفسيه تخصّ الأشخاص الحادى المزاج. و الضعيفى الإيمان الذين يصابون بالهلع و يرتكبون أعمالا جنونيه كلما بلغت أمورهم طريقا مسدودا فى الظاهر، فيضربون الأبواب و الحيطان تاره، و أخرى يودون أن تبتمعهم الأرض. و قد يصمّون على الانتحار لإخماد نيران غضبهم. فى وقت لا تحلّ فيه هذه الأعمال الجنونيه مشاكلهم، و لو تريثوا قليلا و التزموا بالصبر وسعه الصدر، و نهضوا بعد التوكّل على الله و الاعتماد على النفس فى مواجهه مشاكلهم، لأصبح حلّها مؤكّدا.

و أشارت الآيه التاليه إلى خلاصه الآيات السابقه، فقالت: وَ كَذَلِكَ أَنْزَلْنَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ .

لقد أوضحت الآيات السابقه أدلّه المعاد و البعث، كالمراحل التى يمرّ بها الجنين الإنسانى و نموّ النباتات و إحياء الأرض بعد موتها، و أدلّه أخرى على عدم نفع الأصنام و ضرّها، و عرضت أعمال الذين يجعلون الدين وسيله لبلوغ المنافع التافهه. و لكن هذه الأدلّه الواضحه و البراهين الدامغه لا تكفى لتقبّل الحقّ، بل لا بدّ من استعداد ذاتى لذلك. و لهذا يقول القرآن المجيد فى نهايه الآيه: وَ أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ .

و قد قلنا مرارا: إنَّ إرادته الله ليست بلا حساب، فهو المدبّر الحكيم يهدى من يشاء بآياته البيّنات، خاصّه أولئك المجاهدين فى سبيله، و هم يرجون هدايته

بكلّ مشاعرهم (١).

و أشارت آخر الآيه هنا إلى ستّ فئات، إحداهما مسلمه مؤمنه، وخمس منها غير مسلمه إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّالِحِينَ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا إِنَّ اللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلَيْسَ يَوْمَ الْفَصْلِ مِنْ أَسْمَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ! حيث يفصل الله سبحانه و تعالى، فيه بين الحقّ و الباطل، يوم تبلى فيه السرائر، و تنتهى فيه الخلافات، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ .

بحوث

إشارة

١-ارتباط الآيات

ترتبط هذه الآيه بالآيات التي سبقتها، حيث تناولت الآيه التي قبلها الهدايه الربانيه لمن كان قابلا للهدايه، و لكن بما أنّ قلوب الناس ليست على نمط واحد، بسبب وجود التعقّب و العناد و التقليد الأعمى لا يسمح للقلوب بالاهتداء، لذا يبقى التحزّب و الخلاف إلى يوم القيامة الذي يكشف فيه عن الأسرار و يتجلّى الحقّ للجميع.

مضافا إلى أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن ثلاث فئات: أولاهما تجادل في الله و في يوم البعث بغير دليل، و ثانيها تضلّل الناس، و ثالثها ضعاف الإيمان الذين يميلون كلّ مرّه إلى جهه. لذا فقد أشارت هذه الآيه إلى نماذج من هذه الفئات التي تجابه المؤمنين. ثمّ أنّ الآيات السابقة تضمّنت سؤالاً هو: ما الهدف من المعاد؟ و قد بيّنت الآيه-موضع البحث-أحد أهداف المعاد، و هو إنهاء الخلافات و العوده إلى الوحده.

ص: ٣٠٢

١ - ١) -المبتدأ محذوف في قوله تعالى: أَنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يُرِيدُ و تقديره «الأمر أنّ الله يهدي من يريد»، و يحتمل أيضا أنّ حرف (أنّ) بالفتح بمعنى (إنّ) بالكسر فلا محذوف في البين حينئذ.

جاءت كلمه «المجوس» مرّه واحده فى هذه الآيات بجانب الأديان السماويه الاخرى و فى مقابل المشركين، و هذا دليل على أنّ لهم ديناً و نبياً و كتاباً.

و تطلق كلمه «المجوس» اليوم على أتباع «زرادشت» أو أنّ أتباع زرادشت يشكّلون جزءاً مهمّاً منهم، و حياه «زرادشت» ليست واضحه تماماً، فقد قيل: إنّّه ظهر فى القرآن الحادى عشر قبل الميلاد، و قيل: فى القرن السادس أو السابع (١).

و هذا الاختلاف بخمسه قرون أمر عجيب! يدلّ على الغموض الذى يحيط بتاريخ زرادشت. و المعروف أنّ له كتاباً اسمه «أفستا» تلف إبّان حمله الإسكندر المقدونى على بلاد فارس. ثمّ أعيدت كتابته على عهد أحد ملوك الساسانيين (٢).

و ليس لدينا معلومات كافيه عن عقيدته زرادشت، إلاّ ما اشتهر من اعتقاده بمبدأ الخير و الشرّ و النور و الظلام، فإله الخير و النور عنده «أهورامزدا» و إله الشرّ و الظلام «أهريمن» و يحترم فكره العناصر الأربعة و خاصّه «النار» حتّى اعتبر أتباعه عبده للنار. و أينما كانوا وجد معهم معبد للنار صغير أو كبير.

و يرى البعض أنّ كلمه «مجوس» مشتقّه من «مغ» التى كانت تطلق على قاده و روحانيى هذا الدين. كما أنّ كلمه «مؤيد» التى تطلق حالياً على روحانيى هذا الدين، مشتقّه فى الأصل من «مغود».

و روى أنّهم من أتباع أحد أنبياء الحقّ (إلاّ أنّهم انحرفوا بعد توحيدهم الله، فأصبحوا على عقيدته يخالطها الشرك).

و جاء فى روايه أنّ مشركى مكّه طالبوا النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم بأخذ الجزية من أتباع زرادشت مقابل السماح لهم بالتزام ما يعتقدون به، فبيّن لهم الرّسول صلّى الله عليه و آله و سلّم أنّه لا يأخذ الجزية إلاّ من أهل الكتاب، فقالوا: كيف هذا و قد أخذت الجزية من مجوس

ص: ٣٠٣

١-١) - أعلام القرآن ص ٥٥.

٢-٢) - تفسير الميزان المجلد الرابع عشر صفحه ٣٩٢.

منطقه «هجر»؟! أجاب صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم:

«إنَّ المجوس كان لهم نبي فقتلوه، وكتاب أحرقوه» (١).

و

جاء في حديث آخر عن «الأصبغ» بن نباته «أنَّ عليا قال على المنبر:

سلوني قبل أن تفقدوني، فقام إليه الأشعث «المنافق المعروف»، فقال:

يا أمير المؤمنين كيف تؤخذ الجزية من المجوس و لم ينزل عليهم كتاب و لم يبعث إليهم نبي؟ فقال عليه السَّلام: «بلى يا أشعث قد أنزل الله عليهم كتابا و بعث إليهم نبيا». الحديث (٢).

و

في حديث عن الإمام علي بن الحسين عليه السَّلام قال: «إنَّ رسول الله صَلَّى اللهُ عليه وآله وسلم قال:

سَنُوا بهم سنَّه أهل الكتاب يعنى المجوس» (٣).

و«المجوس» جمع مفرد «مجوسى».

٣- من هم الصابئة؟

يستفاد من الآيه السابقه، و لا- سيّما من ذكر الصابئه بين اليهود و النصارى، أنّ الصابئه أصحاب دين سماوى. و قيل: إنّهم أتباع يحيى بن زكريا عليه السَّلام الذى يسمّيه المسيحيون «يحيى المعمدان» و قيل: إنّ الصابئه مزجوا بين العقيدتين اليهوديه و النصرانيه، فعقيدتهم وسط بين أولئك و هؤلاء.

يهتمّ الصابئه بالماء كثيرا، و لهذا ترى معظمهم يعيشون على ضفاف الأنهر الكبيره، و ذكر أنّهم يقدّسون بعض النجوم، و لهذا اتَّهموا بعباده النجوم. رغم أنّ الآيه السابقه لم تضعهم فى صفّ المشركين (إيضاحا لذلك يراجع التفسير الأمثل فى تفسير الآيه ٦٢ من سوره البقره).

ص: ٣٠٤

١- ١) - وسائل الشيعه المجلد الحادى عشر- أبواب جهاد العدو- الباب ٤٩ صفحہ ٩٦.

٢- ٢) - وسائل الشيعه، المجلد الحادى عشر، ص ٩٨، أبواب جهاد العدو الباب ٤٩، الحديث ٧.

٣- ٣) - المصدر السابق.

أشارت الآيات السابقه إلى خمس فئات منحرفه،يحتمل أن يكون ترتيبها هنا بحسب درجه انحرافها عن أصل التوحيد،فاليهود أقل انحرافا من الآخرين بشأن التوحيد،و الصابئه وسط بين اليهود و النصارى،و يليهم النصارى لقولهم بالتثليث أى تأليههم عيسى و أمه مريم عليهما السلام أيضا،و بذلك إزداد انحرافهم.أمّا المجوس فهم فى مرحله رابعه لتقسيمهم العالم قسمين:الخير و الشرّ،و قولهم بوجود مبدأين منذ الخليقه.أمّا المشركون و عبده الأصنام فهم فى آخر مرحله، لانحرافهم عن التوحيد أكثر من الآخرين.

اشاره

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ (١٨)

التفسير

اشاره

الوجود كله يسجد لله:

بما أنّ الحديث في الآيات السابقة كان عن المبدأ و المعاد، فإنّ الآيه-موضع البحث-بترحها مسأله التوحيد، قد أكملت دائره المبدأ و المعاد، و تخاطب النبي صلى الله عليه و آله و سلم فتقول أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ ثُمَّ تضيف و هؤلاء ليست لهم قيمه عند الله تعالى، و من كان كذلك فهو مهان: وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ .

أى إنّ من يهينه الله لا يكرمه أحد، و ليست له سعاده و لا أجر، حقاً إنّ الله يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ فهو يكرم المؤمنين به، و يذلّ المنكرين له.

١- في كيفية السجود العام!

جاء في القرآن المجيد ذكر «السجود العام» لجميع المخلوقات في العالم، و كذا «التسبيح» و«الحمد» و«الصلاه»، و أكد القرآن الكريم على أنّ هذه العبادات الأربع، لا تختص بالبشر وحدهم، بل يشاركهم فيها حتّى الموجودات التي تبدو عديمه الشعور. و على الرغم من أنّنا بحثنا في ختام الآيه الرّابعه و الأربعين من سوره الإسراء عن حمد الموجودات و تسبيحها بحثا مسهبا، و تناولنا سجود المخلوقات العامّ لله في تفسير الآيه الخامسه عشره من سوره الرعد، نجد الإشاره إلى هذا الحمد و التسبيح الكوني العامّ ضروريه.

إنّ للموجودات مع ملاحظه ما ورد في الآيه-موضع البحث-شكليين من السجود «سجود تكويني» و«سجود تشريعي».

فالسجود التكويني هو الخضوع و التسليم لإرادته الله و نواميس الخلق و النظام المسيطر على هذا العالم دون قيد أو شرط، و هو يشمل ذرّات المخلوقات كلّها، حتّى أنّه يشمل خلايا أدمغه الفراعنه و المنكرين العنودين و ذرّات أجسامهم فالجميع يسجدون لله تعالى تكوينيا.

و حسبما يقوله عدد من الباحثين، فإنّ ذرّات العالم كلّها لها نوع من الإدراك و الشعور، و لذا يسبّحون الله و يحمّدونه و يسجدون له و يصلّون له بلسانهم الخاص (شرحنا ذلك في تفسير الآيه الرّابعه و الأربعين من سوره الإسراء) و إذا رفضنا هذا النوع من الإدراك و الشعور، فلا مجال لإنكار تسليم الكائنات جميعا للقوانين الحاكمه على نظام الوجود كلّه.

أمّا «السجود التشريعي» فهو غايه الخضوع من العقلاء المدركين العارفين لله سبحانه. و هنا يثار سؤال، و هو أنّه إذا كان السجود العامّ يشمل المخلوقات و جميع البشر، فلما ذا خصّصته الآيه المذكوره أعلاه ببعض البشر لا كلّهم؟

لو دققنا في مفهوم السجود في هذه الآية لرأيناها يجمع بين المفهومين التشريعي والتكويني، فتتيسر الإجابة عن هذا السؤال، لأن سجود الشمس والقمر والنجوم والجبال والأشجار والأحياء تكويني، وسجود البشر تشريعي يؤديه ناس ويأباه آخرون، فصدق فيهم القول: كَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ. واستخدام لفظ واحد بمفهوم شامل عام مع الاحتفاظ بمصاديقه لا يضره شيئا، حتى عند الذين لا يجيزون استخدام كلمة واحدة لعدده معان. فكيف بنا ونحن نجيز استعمال كلمة واحدة في معان عدیده؟

٢- هل سجود الملائكة تشريعي؟

مِمَّا لَا شَكَّ فِيهِ أَنَّ عِبَارَةَ يَسْجُدْ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ تَضَمُّنًا لِلْمَلَائِكَةِ، وَسُجُودَهُمْ تَشْرِيْعِي، لِأَنَّهَا عَقْلَاءُ ذَوُو أَحْسَاسٍ وَعِلْمٍ وَإِرَادَةٍ، أَيْ أَنَّ سُجُودَهُمْ عِبَادَةٌ وَخُضُوعٌ عَلَى وَفْقِ إِرَادَتِهِمْ وَعَيْهِمْ، بِدَلَالَةِ مَا قَالَهُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ عَنْهُمْ:

لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ

(١)

أجوبه عن استفسارات

١- لماذا جاءت عبارة كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ بَعْدَ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ الَّتِي تَضَمُّنًا لِلْبَشَرِ كُلِّهِمْ؟ يمكن القول أن هذه العبارة إيضاح لعبارة مَنْ فِي الْأَرْضِ أَيْ أَنَّ أَهْلَ الْأَرْضِ فِتْنَانِ: الْأُولَى مُؤْمِنَةٌ خَاضِعَةٌ لِلَّهِ، وَالْأُخْرَى كَافِرَةٌ مَتَمَرِّدَةٌ عِنْدَهُ.

وقال بعض المفسرين: إنَّ تعبير مَنْ فِي الْأَرْضِ بصيغته العامَّة إشارة إلى السجود التكويني، الذي يشترك فيه جميع الناس بما فيهم الكفرة، حيث تشارك

ص: ٣٠٨

أجزاء أبدانهم في هذا السجود، وإنَّ عبارته كَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَ... إشارة إلى السجود التشريعي الذي يختلف فيه الناس. كما يحتمل أنَّ عبارته مَنْ فِي الْمَأْرُضِ إشارته إلى الملائكة الساكنين في الأرض كعباره مَنْ فِي السَّمَاءِ التي تشير إلى الملائكة الساكنين في السماء، في وقت تتحدَّث فيه عبارته التي تليها عن البشر الساكنين في الأرض.

٢- لماذا تحدَّثت هذه الآية عن أهل السَّماء والأرض، وليس عن السَّماء والأرض ذاتهما! في الجواب نقول: السموات داخله في كلمة «النجوم»، مثلما يقصد «بالجبال» التي تشكِّل جزءاً مهمّاً من الكره الأرضية، الأرض ذاتها.

٣- وأخيراً: لماذا قال سبحانه وتعالى: أَلَمْ تَرَ، أي: ألم تشاهد بعينيك، رغم أنَّ السجود العام من قبل المخلوقات لله تعالى لا يمكن رؤيته؟ ومع ملاحظته أنَّ كلمته «رؤيه» في العربية تعني أحياناً العلم، يتَّضح الجواب.

وإضافته إلى ذلك نعبر أحياناً عن الواضحات جدّاً بكلمته الرؤيه، فنقول: ألم تر فلاناً حسوداً بخيلاً؟ أو: ألم تر فلاناً عالماً وعادلاً؟ (رغم أنَّ هذه الصفات ليست حسية) وإنَّما نقصد بذلك تأكيد الإدراك والعلم بهذه الصفات.

اشاره

هَذَا نِ حَصِيٍّ مَانَ اِخْتَصِيٍّ مَوْا فِي رَبِّهِمْ فَالَّذِينَ كَفَرُوا قَطَّعَتْ لَهُمْ يَبَابٌ مِّنْ نَّارٍ يُصَبُّ مِّنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمْ اَلْحَمِيمُ (١٩) يُضْرَبُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَ اَلْجُلُودُ (٢٠) وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ مِّنْ حَدِيدٍ (٢١) كُلَّمَا اَرَادُوا اَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ اُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ اَلْحَرِيقِ (٢٢) اِنَّ اَللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِيْنَ اٰمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا اَنْهَارٌ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ اَسْوَارٍ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِيَاسٍ لَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٢٣) وَ هُدُوا اِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَ هُدُوا اِلَى صِرَاطٍ اَلْحَمِيدِ (٢٤)

سبب النزول

ذكر عدد من المفسرين من الشيعة و السنه روايات في سبب نزول اول آيه من الآيات السالفه الذكر نلخصها بتركيز: «نزل إلى ساحه الحرب يوم معركه بدر ثلاثه من المسلمين هم (على عليه السلام و حمزه و عبيده بن الحارث بن عبد المطلب)،

فقتلوا بحسب ترتيبهم «الوليد بن عتبة» و«عتبه بن ربيعة» و«شيبه بن ربيعة» فنزلت هذه الآية لتبين مصير الذين اشتركوا في هذه المبارزه.

كما روى أنّ أبا ذر أقسم بأنّ هذه الآية نزلت بحق هؤلاء الرجال (1)، إلا أنّنا نكرّر قولنا ثانية بأنّ سبب النزول الخاصّ بشخص أو جماعه معيّنه لا يمنع أن يكون مضمون الآية عامًا يشمل الجميع.

التفسير

إشاره

خصمان متقابلان!

أشارت الآية السابقه إلى المؤمنين و طوائف مختلفه من الكفار، و حدّدتهم بستّ فئات. أمّا هنا فتقول: هَذَانِ خَصِمَانِ اخْتَصِمُوا فِي رَبِّهِمْ (2) أى أنّ الخصام بين مجموعتين، هما: طوائف الكفار الخمس من جهه، و المؤمنون الحقيقيّون من جهه أخرى. و إذا تفحصنا الأمر وجدنا أساس الخلاف بين الأديان في ذات الله تعالى و صفاته، و هو يمتدّ إلى الخلاف في النبوه و المعاد. لهذا لا ضروره إلى القول بأنّ الناس مختلفين في دين الله. إذ أنّ أساس الخلاف و جذوره يعود إلى الخلاف في توحيدته تعالى فقط. فجميع الأديان قد حرّفت، و الباطل منها قد اختلط بنوع من الشرك، و بدت دلائله في جميع اعتقادات أصحاب هذه الأديان.

ثمّ تبين الآية أربعه أنواع من عقاب الكافرين المنكرين لله تعالى بوعى منهم، و العقاب الأول حول لباسهم، فتقول الآية: فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ قُلُوبُهُمْ مِنْ نَارٍ و يمكن أن تكون هذه العبارة إشارة إلى لباسهم الذي أعدّ لهم من قطع من نار، أو كناية عن إحاطه نار جهنّم بهم من كلّ جانب.

ص: ٣١١

١ - ١) - ذكر ذلك الطبرسي في «مجمع البيان» و الفخر الرازي في «التفسير الكبير» و الألوّسى في «روح المعاني» و السيوطي في «أسباب النزول» و القرطبي في تفسيره.

٢ - ٢) - كلمه «خصمان» مثنى أمّا فعلها «اختصموا» فجاء بصيغه جمع، و السبب يكمن في أنّ هذين ليسا شخصين، بل فئتين، إضافة إلى كون الفئتين ليس في صفتين و إنّما في صفوف مختلفه، و تنهض كلّ مجموعه لمبارزه الآخرين.

ثُمَّ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ (١) أى يصب على رؤوسهم سائل حارق هو حميم النار، وهذا الماء الحارق الفوار ينفذ إلى داخل أبدانهم ليذيب باطنها و ظاهرها يُصَهَّرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَ الْجُلُودُ (٢).

و ثالث نوع من العقاب هو وَ لَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ (٣) أى أعدت لهم أسواط من الحديد المحرق.

و الرابع: كَلِمًا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ أى كلما أرادوا الخروج من جهنم و الخلاص من آلامها و همومها أُعِيدُوا إِلَيْهَا، و قيل لهم ذوقوا عذاب الحريق.

و أوضحت الآيات التاليه وضع المؤمنين الصالحين، مستخدمه أسلوب المقارنه، لتكشف بها عن وضع هاتين المجموعتين، و هنا تستعرض هذه الآيات خمس أنواع من المكافآت للمؤمنين: إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَ عَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ .

فخلافًا للمجموعه الأولى الذين يتقلبون فى نار جهنم، نجد أنّ الذين آمنوا و عملوا الصالحات يتمتعون بنعيم رياض الجنه على ضفاف الأنهر و هذه هى المكافاه الأولى، و أمّا لباسهم و زيتهم فتقول الآية: وَ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَ لُؤْلُؤًا وَ لِبَاسَهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ (٤) .

و هاتان مكافئتان يمنّ الله بهما كذلك على عباده العالمين فى الجنه، يهبهم أفخر الملابس التى حرموا منها فى الدنيا، و يجمّلهم بزينة الأساور التى منعوا عنها فى الحياه الأولى، لأنّها كانت تؤدى إلى إصابتهم بالغرور و الغفله، و تكون سببا لحرمان الآخرين و فقرهم. أمّا فى الجنه فينتهى هذا المنع و يباح للمؤمنين لباس

ص: ٣١٢

١-١) -الحميم: الماء الخارق.

٢-٢) -«يصهر» مشتقّه من «صهر» على وزن «قهر» و تعنى تذويب الشحم. أمّا «الصهر» على وزن «فكر» فتعنى النسيب.

٣-٣) -«المقامع» جمع «مقمع» على وزن «منبر» و تعنى السوط أو العمود الحديدى يضرب به المذنب عقابا له.

٤-٤) -«أساور» جمع «أسوره» على وزن «مشوره» و هى بدورها جمع لكلمه «سوار» على وزن «كتاب» و تعنى المعضد.

الحرير و الحلى و غيرها. و بالطبع ستكون للحياه الاخويه مفاهيم اسمى مما نفكر به فى هذه الدنيا الدنيه، لأن مبادئ الحياه و مدلولها يختلفان فى الدنيا عما هى فى الآخره (فتأملوا جيدا).

و أخيرا الهبه الرابعه و الخامسه التى يهبها الله للمؤمنين الصالحين ذات سمه روحانيه وَ هُيْدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ حديث ينمى الروح. و ألفاظ تثير حيويه الإنسان، و كلمات ملؤها النقاء و الصفاء التى تبلغ بالروح درجه الكمال و تملأ القلب بهجه و سرورا، وَ هُودُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ (1) هكذا يهدون إلى طريق الله الحميد، الجدير بالثناء، طريق معرفه الله و التقرب المعنوى و الروحى إليه، سبيل العشق و العرفان.

حقاً إن الله يهدى المؤمنين إلى هذا الطريق الذى ينتهى إلى أعلى درجات اللذة الروحيه.

و نقرأ فى حديث رواه على بن إبراهيم (المفسر المعروف) فى تفسيره، أن القصد من «الطيب من القول» التوحيد و الإخلاص و يعنى «الصراط الحميد» الولايه و الإقرار بولايه القاده الربانيه (و بالطبع هذا أحد البراهين الواضحه للآيه).

كما يستنتج من التعابير المختلفه الوارده فى الآيات السابقه و فى سبب نزولها أن هناك عذابا عسيرا صعبا ينتظر مجموعه خاصه من الكفار الذين يعاندون الله و يحاولون تضليل الآخرين. إنهم أفراد من قاده الكفر كالذين تقدّموا فى معركة بدر لمبارزه على عليه السلام و حمزه بن عبد المطلب و عبيده بن الحارث.

ص: ٣١٣

١ - ١) - كلمه «الحميد» تعنى المحمود، و تطلق على من يستحق الثناء، و هنا يقصد بها الله تعالى، و على هذا فإن «الصراط الحميد» يعنى السبيل إلى مقام مقرب من الله تعالى. كما قال البعض بأن «الحميد» وصف للصراط يشبهه الإضافه البيانيه، و على هذا يكون المعنى: إن هؤلاء يرشدون، إلى سبيل جدير بالثناء كله. (الآلوسى فى روح البيان)، إلا أن المعنى الأول يبدو أصح.

اشاره

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَا لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٥)

التفسير

اشاره

الذين يصدون عن بيت الله الحرام!

تحدثت الآيات السابقه عن عامه الكفار، وهذه الآيه تشير إلى مجموعه خاصه منهم بائت بمخالفات و ذنوب عظيمه، ذات علاقته بالمسجد الحرام و مراسم الحج العظيم.

تبدأ هذه الآيه ب إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ و كذلك يصدون و يمنعون المؤمنين عن مركز التوحيد العظيم: وَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَا لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَ الْبَادِ أى سواء المقيمون فيه و الذين يقصدونه من مكان بعيد.

وَ مَنْ يُرِدْ فِيهِ بِالْحَادِ بِظُلْمٍ نُدِقُهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ

أى كل من أراد الانحراف فى هذه الأرض المقدسه عن الحق و مارس الظلم و الجور أذقناه عذابا أليما.

و هذه الفئه من الكفار ترتكب ثلاث جرائم كبيره، إضافة إلى إنكارها الحق،

و جرائمها هي:

١- صدّ الناس عن سبيل الله و الإيمان به و الطاعه له.

٢- صدّهم عن حجّ بيت الله الحرام، و توهم أنّ لهم امتيازاً عن الآخرين.

٣- ممارستهم للظلم و ارتكابهم الإثم في هذه الأرض المقدّسه، و الله يعاقب هؤلاء بعذاب أليم.

ملاحظات

إشاره

١- جاء «كفر» هؤلاء في هذه الآيه بصيغه الفعل الماضى، و جاء «الصدّ» عن سبيل الله بصيغه الفعل المضارع، إشاره إلى كونهم كفّاراً من قبل. و إلى أنّ تضليلهم الناس هو عملهم الدائم. و بتعبير آخر: تشير العبارة الأولى إلى اعتقادهم الباطل، و هو أمر ثابت، بينما تشير العبارة الثانيه إلى عملهم الدائم و هو الصدّ عن سبيل الله.

٢- يقصد بالصدّ عن سبيل الله كلّ عمل يحول دون إيمان الناس و دون قيامهم بالأعمال الصالحه، و هذا المفهوم الواسع يشمل البرامج الإعلاميه و العمليه التي تتوخى التضليل عن السبيل السوى و الأعمال الصالحه.

٣- إنّ جميع الناس في هذا المكان العبادى سواء.

و قد وردت لعبارة سواء العاكف فيه و الباد عند المفسّرين معان مختلفه، فذهب بعضهم أنّ المراد هو أنّ الناس سواسيه في هذا المكان الذى يوحد فيه الله، و ليس لأحد الحقّ أن يعرقل حجّ الناس و عبادتهم بجوار بيت الله الحرام.

و أعطى آخرون لهذه العبارة معنى أوسع، و هو أنّ الناس ليسوا سواسيه فقط في أداء الشعائر و إنّما هم كذلك في الاستفادة من الأرض و البيوت المحيطة بالكعبه لاستراحتهم و سائر حاجاتهم الاخرى، لهذا حرّم بعض الفقهاء بيع و شراء

ص: ٣١٥

و إيجار البيوت في مكّه المكرمه، و يتخذون الآيه السابقه دليلا على ما يرون.

كما ذكرت الأحاديث الإسلاميه عدم جواز الحيلولة دون سكنى حجّاج بيت الله الحرام في منازل مكّه، حتّى حرّمه قوم، و رآه آخرون مكروها.

جاء في رساله بعث بها الإمام على عليه السلام إلى قثم بن العباس والى مكّه آنذاك:

«و أمر أهل مكّه أن لا يأخذوا من ساكن أجرا، فإنّ الله سبحانه يقول: سَوَاءٌ الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ فَالْعَاكِفُ الْمُقِيمُ بِهِ، و البادى الذى يحجّ إليه من غير أهله» (1).

و

جاء في حديث آخر عن الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآيه: كانت مكّه ليست على شىء منها باب، و كان أوّل من علّق على بابه المصراعين، معاويه بن أبى سفيان، و ليس ينبغى لأحد أن يمنع الحاج شيئا من الدور و منازلها.

و ذكرت أحاديث أنّ الحجّاج بيت الله الحقّ في استخدام البيوت المحيطة بالكعبه، و يرتبط هذا الحكم بشكل كبير ببحثنا المقبل، و هو: هل يقصد بالمسجد الحرام في هذه الآيه المسجد ذاته أو يشمل مكّه كلّها؟ فإذا سلّمنا بالرأى الأوّل فإنّ الآيه السابقه لا تشمل منازل مكّه، و على فرض شمولها فإنّ قضيه حرمة بيع و شراء و إيجار منازل مكّه بالنسبه للحجّاج تكون مطروحه للبحث، إلّا أنّ هذه القضيه ليست مؤكّده في المصادر الفقهيّه و الأحاديث و التفاسير، فإنّ الحكم بحرمتها أمر صعب. و ما أجدر أهل مكّه بأن يقدّموا جميع التسهيلات الممكنه لحجّاج بيت الله الحرام! و ألا يضعوا لأنفسهم امتيازات على الحجّاج حتّى بالنسبه لمنازلهم، و يبدو أنّ الأحاديث التى وردت في نهج البلاغه و غيره تشير إلى هذه المسأله.

و القول بالتحريم لا يحظى بتأييد واسع من فقهاء الشيعه و السنّه (للاطلاع أوسع بهذا الصدد يراجع المجلّد العشرين من جواهر الكلام الصفحه الثامنه

ص: ٣١٦

و الأربعةين و ما بعدها فى أحكام منى).

و لا يحقّ لأحد باعتبار كونه حامى حرم الله- أو أيّه صفة أخرى- مضايقه حجّاج بيت الله، أو اتّخاذ الحجّ و البيت قاعده لإعلامه و تنفيذ ما ربه.

٤- ما الذى تعنيه هذه الآية بالمسجد الحرام؟

قال بعض: تعنى الكعبة و جميع أجزاء المسجد الحرام. و قال غيره: تشير إلى جميع أنحاء مكّه، بدلاله الآية الأولى من سوره الإسراء التى تخصّ معراج النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم، و مضمون هذه الآية أنّ بدايه المعراج كانت من المسجد الحرام، فى الوقت الذى ذكر المؤرّخون أنّ المعراج بدأ من منزل خديجه أو شعب أبى طالب أو من منزل أم هانئ، و على هذا فإنّ المقصود من المسجد الحرام مكّه كلّها (١).

و لكن بدايه معراج النّبى صلّى الله عليه و آله و سلّم ليست بالتأكيد من خارج المسجد الحرام، و يحتمل أن تكون من المسجد ذاته، فلا دليل لدينا للإعراض عن ظاهر الآية، و عليه فهذه الآية تقصد المسجد الحرام ذاته.

و إذا توضّينا من مطالعه الأحاديث السابقه إلى أنّها تستدلّ بهذه الآية على مساواه الناس فى منازل مكّه، لأنّ ذلك الحكم استجابى، فلا مانع من توسعه موضوعه على ما يناسبه (فتأمّلوا جيدا).

٥- ماذا تعنى عبارته (إلحاد بظلم).

تعنى كلمه «الإلحاد» فى اللغه الانحراف عن حدّ الاعتدال، و لهذا أطلقت على الحفره المجاوره للقبر التى تقع خارج حدّ الوسط كلمه «لحد».

و على هذا فإنّ عبارته (إلحاد بظلم) تعنى الخارجين عن حدّ الاعتدال بممارسه الظلم، فى تكوين المخالفات فى تلك الأرض المقدّسه، و قد حصر البعض

ص: ٣١٧

مفهوم الظلم هنا بالشرك، و قال آخرون: إنه يعنى إباحه المحرّمات، و قال غيرهم:

إنّ الظلم هنا ذو مدلول واسع يشمل كلّ ذنب و عمل حرام، فيدخل فيه حتّى السبّ للأدنى منه، و قالوا: إنّ ارتكاب أى ذنب فى هذه الأرض المقدّسه له عقاب أشدّ.

و

جاء فى حديث للإمام الصادق عليه السّلام جوابا على سؤال لأحد أصحابه حول هذه الآية: «كلّ ظلم يظلم الرجل نفسه بمكّه من سرقه أو ظلم أحد أو شىء من الظلم فإنّى أراه إلحادا، و لذلك كان ينهى أن يسكن الحرم» (١).

و قد رويت أحاديث أخرى تتضمّن هذا المعنى، و تنسجم مع ظاهر الآية.

و على هذا يرى بعض الفقهاء- بالنسبه لمن يرتكب الذنب فى الحرم المكى- وجوب التعزير أو عقاب آخر إضافة إلى الحدّ الذى نصّ عليه الشارع، و يستدلّون على ذلك بعباره نُذِقَهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ (٢).

و يتّضح بذلك أنّ حصر هذه الآية بالنهى عن الاحتكار، أو عدم الدخول إلى منطقه الحرم دون إحرام، لم تكن غايتهم إلاّ بيان مصداق واضح لهذه الآية فقط، و إلاّ فلا دليل لدينا على حصر مفهوم هذه الآية ذات الدلالات الواسعه.

ص: ٣١٨

١- ١) - تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحه ٤٨٢ تفسير الآية.

٢- ٢) - كنز العرفان، المجلد الأوّل، صفحه ٣٣٥.

اشاره

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهَّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨)

التفسير

اشاره

الدعوة العامة للحج!

تناولت الآيه السابقه فضيّه المسجد الحرام و حجّاج بيت الله، أمّا هذه الآيات فتستعرض بناء الكعبه على يد إبراهيم الخليل عليه السلام، و وجوب الحجّ و فلسفته، و بعض أحكام هذه العباده الجليله. و بتعبير آخر: كانت الآيه السابقه مقدّمه للأبحاث المختلفه التي تناولتها الآيات اللاحقه، إذ بدأت بقصّه تجديد بناء الكعبه:

وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ

أى تذكر كيف أعددنا لإبراهيم مكان الكعبه

ليقوم بينهاها.

و كلمه «بؤا» مشتقه من بواء، أى الأرض المسطحة، ثم أطلقت على إعداد المكان مطلقا.

و تقصد هذه الآيه حسبما يراه المفسرون أنّ الله هدى إبراهيم عليه السلام إلى مكان الكعبه بعد أن هدمت بطوفان نوح و خفيت معالمها. إذ حدثت عاصفه فأزالت التراب و كشفت عن أسس البيت، أو بعث الله سبحانه ظللت مكان البيت، أو بأى أسلوب آخر كشف الله لإبراهيم عليه السلام أسس الكعبه، فقام هو و ابنه إسماعيل عليهما السلام بتجديد بناء بيت الله الحرام (١).

و تضيف الآيه الكريمه أنه عند ما تمّ بناء البيت خوطب إبراهيم عليه السلام: **أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَ طَهَّرْ بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَ الْقَائِمِينَ وَ الرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢).**

فهمّه إبراهيم عليه السلام كانت تطهير البيت و ما حوله من أى نجس ظاهر أو باطن، و من أى صنم أو مظهر للشرك، من أجل أن يوجّه عباد الرحمن قلوبهم و أبصارهم إليه تعالى و وحده فى هذا المكان الطاهر، و ليقوموا بأهمّ العبادات فى هذه البقعه المباركه، ألا و هو الطواف و الصلاه فى محيط إيمانى لا يخالطه شرك.

و أشارت الآيه أيضا إلى ثلاثه من الأركان الأساسيه فى الصلاه: القيام، و الركوع، و السجود، بالترتيب، لأنّ الأركان الباقية تستظلّ بها، على الرغم من قول بعض المفسّرين: إنّ «القائمين» تعنى هنا المقيمين بمكّه، و مع ملاحظه مسأله الطواف و الركوع و السجود التى جاءت قبل كلمه القائمين و بعدها يتّضح لنا أنّ القيام هنا يعنى قيام الصلاه و قد اختار هذا المعنى عدد كبير من مفسّرى الشيعه

ص: ٣٢٠

١-١) -يراجع للاطلاع على كيفيه بناء الكعبه تفسير الآيه (١٢٧) من سوره البقره. كما تناولنا ذلك بشرح مسهب فى تفسير الآيه (٩٦) من سوره آل عمران.

٢-٢) -فى هذه الآيه جمله محذوفه تقديرها «أوحينا» و قد أشار إلى ذلك عدد كبير من المفسّرين.

و السنّه أو نقلوه باعتبارّه تفسير لها (١).

و كلمتا «رُكِع» و هي جمع للراكع، و «السجود» و هي جمع ساجد، لم يرد بينهما و او العطف، بل ذكرتا وصفا لتقارب هاتان العبادتان.

و بعد إعداد البيت للعباده، أمر الله تعالى إبراهيم عليه السّلام: **وَ أذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ .**

كلمه «أذن» مشتقه من «الأذان» أي «الإعلان». و «رجال» جمع «راجل» أي «ماشى». و «الضامر» تعنى الحيوان الضعيف. و «الفج» فى الأصل تعنى المسافه بين جبلين، ثم أطلقت على الطرق الواسعه و «العميق» تعنى هنا «البعيد».

جاء فى حديث رواه على بن إبراهيم فى تفسيره: عند ما تسلّم إبراهيم عليه السّلام هذا الأمر الربّانى قال: إن أذانى لا يصل إلى أسمع الناس، فأجابه سبحانه و تعالى (عليك الأذان و علىّ البلاغ)! فصعد إبراهيم عليه السّلام موضع المقام و وضع إصبغيه فى أذنيه و قال: يا أيها الناس كتب عليكم الحجّ إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم. و أبلغ الله عزّ و جلّ نداءه أسمع جميع الناس حتّى الذين فى أصلاب آبائهم و أرحام أمهاتهم، فردّوا: لبيك اللهمّ لبيك! و إنّ جميع الذين يشاركون فى مراسم الحجّ منذ ذلك اليوم و حتّى يوم القيامة، هم من الذين لبّوا دعوه إبراهيم عليه السّلام (٢).

و قد ذكرت الآيه هنا الحجّاج المشاهه أولًا، ثمّ الراكبين، لأنهم أفضل منزله عند الله، بسبب ما يتحمّلون من صعاب السفر أكثر من غيرهم، و لهذا السبب

قال رسول الله صلّى الله عليه و آله و سلّم: «للحاجّ الراكب بكلّ خطوه تخطوها راحلته سبعون حسنه، و للحاجّ الماشى بكلّ خطوه يخطوها سبعمائنه حسنه» (٣).

ص: ٣٢١

١ - ١) - يراجع تفسير الآيه موضع البحث فى تفاسير الميزان، و فى ظلال القرآن، و التبيان، و مجمع البيان، و التفسير الكبير للفخر الرازى.

٢ - ٢) - بتلخيص، عن تفسير على بن إبراهيم حسبما نقله تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، ٤٨٨. و الآلوسى فى روح المعانى، و الفخر الرازى، فى التفسير الكبير فى تفسير الآيه موضع البحث مع بعض الفارق.

٣ - ٣) - تفسير «روح المعانى»، و «مجمع البيان»، و «الفخر الرازى».

أو أنّ هذه المنزله جاءت لتحديد أهمّيه حجّ بيت الله الحرام،الذى يجب أن يتمّ بأى أسلوب و بأيّه إمكانات.و أن لا ينتظر الحاج مركبا له.

أمّا عباره «ضامر»فتعنى الحيوان الضعيف،إشاره إلى أنّ هذا الطريق يجعل الحيوان هزيلا،لأنّه يجتاز صحارى جافه محرقه لا زرع فيها و لا ماء،و استعدادا لتحمل الصعاب فى هذا الطريق.

أو يكون المراد أنّ على الحاج إختيار جواد قوى سريع صابر،رشيق ضامر، متدرّب على السير فى مثل هذه الطرق،و لا فائده ترجى من الحيوان المنعم فى هذا الطريق.(مثلما لا يمكن للرجال المترفين اجتياز هذا الطريق).

أمّا عباره مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ فهى إشاره إلى توجّه الحجاج إلى الكعبه،ليس فقط من الأماكن القريبه،بل يشمل ذلك الحجاج من الأماكن البعيده أيضا.كلمه «كلّ»لا تعنى هنا الاستغراق و الشمول،بل الكثره.

و يذكر المفسّر المشهور أبو الفتوح الرازى فى تفسيره لهذه الآيه حياه مثيره لرجل يدعى «أبو القاسم بشر بن محمّد»فيقول:رأيت حين الطواف شيخا هزيلا بدت عليه آثار السفر،و رسم التعب علائمته على جبينه.تقدّمت إليه و سألته من أين أنت؟ أجاب:من فجّ عميق طال قطعه خمسه أعوام!فأصبحت شيخا هزيلا من شدّه تعب السفر و آلامه،فقلت:و الله لهى مشقّه،إلا أنّها طاعه خالصه و حبّ عميق لله تعالى.

فسره ذلك ثمّ أنشد:

زر من هويت و إن شطت بك الدار

و حال من دونه حجب و أستار!

لا يمنعك بعد من زيارته

إنّ المحبّ لمن يهواه زوّار!

حقّا إنّ جاذبيه بيت الله هى بدرجه تجعل القلوب الطافحه بالإيمان تهوى

إليه من جميع الأنحاء، قربت أم بعدت، تجذب الشاب و الشيخ و الصغير و الكبير، من كل أمه و مكان، بعيدا أم قريبا، الكل يلتون الله يأتونه عشاقا ليروا مظاهر ذات الله الطاهره فى تلك الأرض المقدسه بأعينهم، ويشعروا برحمته التى لا حدود لها من أعماق وجودهم (١).

و تناولت الآية التالية فلسفه الحجّ فى عباره موجزه ذات دلالات عديده فقالت: لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ. أى أنّ على الناس الحجّ إلى هذه الأرض المقدسه، ليروا منافع لهم بأعينهم.

و قد ذكر المفسرون لكلمه المنافع الوارده فى الآية عدّه معان، إلاّ أنّه لا تحديد لمعناها كما يبدو من ظاهر الآية، فهى تشمل جميع المنافع و البركات المعنويه و المكاسب الماديه، و كلّ عائد فردى و اجتماعى و فلسفه سياسيه و اقتصاديه و أخلاقيه. فما أحرى المسلمين أن يتوجّهوا من أنحاء العالم إلى مكّه ليشهدوا هذه المنافع! إنّها لعباره جميله! ما أولاهم أن يجعلهم الله شهودا على منافعهم! ليروا بأعينهم ما سمعوه بأذانهم! و على هذا ذكر

فى كتاب الكافى حديثا عن الإمام الصادق عليه السّلام فى الردّ على استفسار ربيع بن خيثم عن كلمه المنافع...، منافع الدنيا أو منافع الآخره؟ فقال:

«الكل» (٢).

و سنتناول بإسهاب شرح هذه المنافع فى ملاحظتنا على هذه الآية إن شاء الله.

ثمّ تضيف الآية: وَ يَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ

ص: ٣٢٣

١- ١) -يقول العالم الفاضل العلامة الشعرانى رضى الله عنه: إن ذلك ليس عجيبا بالنسبه للذين يأتون إلى مكه من الأندلس أو المغرب أو من أنحاء نائيه فى الصين أو من استراليه. حيث يستغرق سفرهم زمنا طويلا يصل إلى عدّه أشهر نظرا لوسائط النقل التى كانت تستعمل آنذاك و افتقاد الطرق للأمن (إضافه إلى ذلك كان البعض من المتوليهين بيت الله يتعرضون إلى السرقة فى الطريق فيضطرون إلى العمل من أجل إعداد مؤنه باقى الطريق إلى بيت الله الحرام).

٢- ٢) -تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، الصفحه ٤٨٨ نقلا عن كتاب الكافى.

أى أنه على المسلمين أن يحجّوا إلى البيت و يقدموا القرابين من المواشى التى رزقهم الله، و أن يذكروا اسم الله عليها حين الذبح فى أيام محدّده معروفه. و بما أن الاهتمام الأساس فى مراسم الحجّ، ينصب على الحالات التى يرتبط فيها الإنسان برّبّه ليعكس جوهر هذه العباده العظيمه، تقيّد الآيه المذكوره تقديم القران بذكر اسم الله على الاضحيه فقط، و هو أحد الشروط لقبولها من لدن العلى القدير. و هذا الذكر إشاره إلى توجّه الحاج إلى الله كلّ التوجّه عند تقديم الأضحيه، و همّه كسب رضى الله و قبوله القران، كما أن الاستفادة من لحم الضحيه تقع ضمن هذا التوجّه.

و فى الحقيقه يعتبر تقديم الأضاحى رمزا لإعلان الحاج استعداده للتضحيه بنفسه فى سبيل الله، على نحو ما ذكر من قصّه إبراهيم عليه السّلام و محاوله التضحيه بابنه إسماعيل عليه السّلام. إنّ الحجّاج بعملهم هذا يعلنون استعدادهم للإيثار و التضحيه فى سبيل الله حتّى بأنفسهم.

و على كلّ حال فإنّ القرآن بهذا الكلام ينفى أسلوب المشركين الذين كانوا يذكرون أسماء الأصنام التى يعبدونها على أضاحيهم، ليحيلوا هذه المراسم التوحيديه إلى شرك بالله. و جاء فى ختام الآيه: فَكُلُوا مِنْهَا وَ اطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ .

كما يمكن أن تفسّر هذه الآيه بأنّ القصد من ذكر اسم الله فى أيام معلّوماتٍ هو التكبير و الحمد لله ربّ العالمين لما أنعم علينا من نعم لا تعدّ و لا تحصى.

خاصه بما رزقنا من بهيمه الأنعام التى نستفيد فى حياتنا من جميع أجزاء أبدانها (1).

ص: ٣٢٤

١- ١) فى التفسير الأوّل (أى ذكر اسم الله على الأضحيه) تكون «على» هنا للاستعلاء، أمّا فى التفسير الثانى (أى الذكر المطلق لاسم الله تعالى فى هذه الأيام) فإنّ «على» تعنى «من أجل» فالفرق بين هذين التفسيرين كبير، سنشير إليه فى الملاحظات.

١- ما هي الأيام المعلومات؟

يأمرنا الله سبحانه و تعالى في الآيات السابقة- أن نذكره في أيام معلّوماتٍ . و جاء ذلك أيضا في سورة البقره الآيه (٢٠٣) بشكل آخر و اذكروا الله في أيام معدوداتٍ . فما هي الأيام المعلومات؟ و هل تطابق في معناها الأيام المعدودات، أم لا؟ اختلف المفسّرون في هذه الأيام، كما اختلفت الروايات التي ذكرت بهذا الصدد: حيث يرى بعض المفسّرين- و يستندون إلى بعض الأحاديث الإسلاميه- أنه يقصد ب«الأيام المعلومات» الأيام العشره الأولى من ذى الحجه، و أمّا «الأيام المعدودات» فهي «أيام التشريق» أى اليوم الحادى عشر و الثانى عشر و الثالث عشر من ذى الحجه. الأيام التي تشرق فيها القلوب.

أمّا المجموعه الثانيه من المفسّرين فقد استندوا إلى أحاديث أخرى فقالوا:

إنّ العبارتين تشيران إلى أيام التشريق التي تعتبر هي الأيام الثلاثه ذاتها، و أحيانا يضاف إليها اليوم العاشر أى عيد الأضحى.

و عبارته فَمَنْ تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ التي جاءت في سورة البقره، تدلّ على أنّ أيام التشريق ليست أكثر من ثلاثه أيام، لأنّ التعجيل فيها يحدث نقصا في أيامها فتصبح يومين.

و مع ملاحظه أنّ التضحيه جاءت في الآيات-موضع البحث- بعد ذكر الأيام المعلومات. و نعلم أنّ تقديم الأضحى يتم في اليوم العاشر من ذى الحجه، فإنّ ذلك يؤكّد أنّ الأيام المعلومات هي الأيام العشره الأولى من ذى الحجه التي تنتهى بيوم الأضحى. و على هذا يقوى دليل التفسير الأوّل القائل باختلاف معنى الأيام المعلومات و الأيام المعدودات.

و مع الأخذ بوحده المعانى التى تضمّنتها الآيتان، يبدو أنّ الأرجح فى هذه القضية القول بأنّ الآيتين تشيران إلى موضوع واحد، و هدفهما الاهتمام بذكر الله فى أيام معيّنه تبدأ من العاشر من ذى الحجّه و تنتهى بالثالث عشر منه. و من الطبعى أن تكون إحدى الحالات التى يجب ذكر اسم الله فيها، هى حين تقديم الأضحى (١).

٢- ذكر الله فى أرض «منى»

جاء فى روايات عديدة أنّ ذكر الله فى هذه الأيام تكبير خاص يذكر بعد إتمام صلاة ظهر يوم عيد الأضحى، و يستمر ذكر هذا التكبير فى خمس عشره صلاة (أى ينتهى بعد صلاة صبح اليوم الثالث عشر) و هو كما يلى:

«الله أكبر، الله أكبر، لا- إله إلا- الله و الله أكبر، الله أكبر، و لله الحمد، الله أكبر على ما هدانا، و الله أكبر على ما رزقنا من بهيمه الأنعام» (٢).

كما نصّت بعض الأحاديث على أنّ التكبير فى المرّات الخمسه عشر خاص بالذين هم بأرض «منى» فى أيام الحجّ، أمّا من كانوا فى المناطق الاخرى فعليهم ذكر هذا التكبير عقب عشر صلوات (يبدأ من بعد صلاة الظهر من يوم العيد، و ينتهى بصلاه صبح اليوم الثانى عشر) (٣) و الأحاديث الخاصّه بالتكبير دليل آخر على أنّ الذكر فى الآيات السابقه عامّ و ليس محدّدا بتقديم الأضحى. رغم أنّ هذا المفهوم الكلّى يشمل هذا المصداق أيضا.

ص: ٣٢٦

١- ١) - و عليه يزول الخلاف بين هاتين المجموعتين من المفسّرين فى تفسير عبارته «و يذكر اسم الله» حيث خصّصت أولاها ذكر اسم الله بتقديم الأضحى، و الأخرى جعلت مفهومه عامّا، و بهذا يكون التفسير الأوّل مصداقا للتفسير الثانى، و يكون التفسير الثانى ذا مفهوم واسع و عام.

٢- ٢) - ورد الحديث السابق عن الإمام موسى بن جعفر عليه السلام و قد ذكر فى بحار الأنوار، المجلّد ٩٩، صفحته ٣٠٦.

٣- ٣) - بحار الأنوار، المجلّد ٩٩، صفحته ٣٠٧.

إنّ لشعائر الحجّ- كما هو الحال بالنسبه للعبادات الاخرى- بركات كثيره جدًا في نفسيه الفرد و المجتمع الإسلامى. و يمكنها- إن أجريت وفق أسلوب صحيح- أن تحدث في المجتمعات الإسلاميه تبدلًا جديدًا كلّ عام.

و تمتاز هذه المناسك بأربعه أبعاد مهمه:

١- البعد الأخلاقى للحج:

أهمّ جانب فى فلسفه الحجّ التغيّر الأخلاقى نحو الأحسن الذى يحصل عند الناس، فمراسم الإحرام تبعد الإنسان بشكل تامّ عن الأمور الماديه و الامتيازات الظاهريه و الألبسه الفاخره، و مع تحريم الملبّات، و بناء الذات الذى يعتبر من واجبات المحرم يتعد الفرد عن عالم المادّه، و يدخل إلى عالم النور و الصفاء و التسامى الروحى. و ترى الإنسان قد ارتاح فجأه من عبء الامتيازات الموهومه، و الدرجات و الرتب و النياشين.

ثمّ تلى عمليّه الإحرام مراسم الحجّ الاخرى تباعاً، و فيها تتوطّد علاقته الإنسان الروحى مع خالقه- لحظه بعد أخرى- و تتوثق. فينقطع عن ماضيه الأسود المملوء آثاماً و ذنوباً، و يتّصل بمستقبل واضح كلّ نور و صفاء. خاصّه أنّ مراسم الحجّ تثير فى الإنسان اهتماماً كبيراً- فى كلّ خطوه يخطوها- بإبراهيم عليه السّلام محطّم الأصنام، و إسماعيل عليه السّلام ذبيح اللّهِ. و أمّه هاجر عليها السّلام. و يتجلّى للحجّاج جهادهم و تضحياتهم، إضافة إلى كون أرض مكّه عامّه، و المسجد الحرام و بيت الكعبه و محلّ الطواف حولها خاصّه، تذكّر الحاجّ بالرّسول صلّى اللّهُ عليه و آله و سلّم و قاده الإسلام العظام و جهاد المسلمين فى صدر الإسلام، فيتعمّق أثر هذه الثوره الأخلاقيه بدرجه يشاهد فيها الحاجّ فى كلّ زاويه من زوايا المسجد الحرام و أرض مكّه المقدّسه وجه النّبى صلّى اللّهُ عليه و آله و سلّم، و على عليه السّلام، و سائر قاده المسلمين، و يسمع قعقه سيوفهم و صهيل خيولهم.

أجل، إنّ هذه الأمور كلّها تتحد و تتضامن لتمهّد لثوره أخلاقيه فى القلوب

المستعدّه. و بشكل لا يمكن وصفه تفتح في حياه الفرد صفحه جديده. و لهذا نصّت الأحاديث الإسلاميه على أنّ الذى يؤدى الحجّ تاماً صحيحاً

«يخرج من ذنوبه كهيئته يوم ولدته أمّه» (1) ! فالحجّ ولاده ثانيه للمسلم. يستهلّ بها حياه إنسانيه جديده، و لا حاجه هناك لإعاده القول بأنّ هذه البركات و تأثيرها و ما نشير إليه بعد هذا ليست نصيب من اقتنع من مكاسب الحجّ بقشرته و رمى اللب جانباً. كما أنّها ليست نصيب من يعتبر الحجّ سياحه للتنفيس عن الخاطر، أو للتظاهر و الرياء، أو طريقاً للحصول على متاع شخصى دنيوى، و هو فى الحقيقه لم يتوصّل إلى معنى الحجّ الحقيقى، فكان نصيبه ما يستحقّه!

٢- البعد السياسى للحجّ

ذكر أحد كبار فقهاء المسلمين أنّ مراسم الحجّ فى الوقت الذى تستبطن أخلص و أعمق العبادات، هى أكثر الوسائل أثراً فى التقدّم نحو الأهداف السياسيه الإسلاميه. فجوهر العباده التوجّه إلى الله، و جوهر السياسه التوجّه إلى خلق الله، و هذان الأمران امتزجا فى الحجّ بدرجه أصبحا كنسيج واحد.

إنّ الحجّ عامل مؤثّر فى وحده صفوف المسلمين.

الحجّ عامل مهمّ فى مكافحه التعصّب القومى و العنصرى و التقوقع فى حدود جغرافيه.

و الحجّ وسيله لتحطيم الرقابه التى تفرضها الأنظمه الظالمه، و تدمير هذه الأنظمه المتسلّطه على رقاب الشعوب الإسلاميه.

و الحجّ وسيله لنقل الأنباء السياسيه للبلدان الإسلاميه من نقطه إلى أخرى.

ص: ٣٢٨

و أخيرا الحجّ عامل مؤثّر في تحطيم قيود العبوديه و الاستعمار و تحرير المسلمين.

و لهذا السبب كان موسم الحجّ زمن الجبابره كبنى أميه و بنى العباس الذين كانوا يسيطرون على الأراضى الإسلاميه المقدسه، و يراقبون كلّ تحرّك تحرّرى إسلامى ليقمعوه بقوّه، كان الموسم متنفسا للحريه و لالتّصال فئات المجتمع الإسلامى الكبير بعضها مع بعض، لطرح القضايا السياسيه المختلفه التى تهّم كلّ مسلم.

و على هذا الأساس قال أمير المؤمنين على عليه السّلام فى معرض حديثه عن فلسفه الفرائض و العبادات

«الحجّ تقويه للدين» (١).

كما أنّ أحد السياسيين الأجانب المشهورين قال: «الويل للمسلمين إن لم يعرفوا معنى الحجّ، و الويل لأعدائهم إذا أدرك المسلمون معنى الحجّ!» و اعتبرت الأحاديث الإسلاميه الحجّ جهاد الضعفاء، إذ يمكن للشيوخ و النساء الضعيفات المشاركة فى الحجّ ليظهروا عظمه الامه الإسلاميه. و ليدخلوا الرعب فى قلوب أعداء الإسلام بمشاركتهم فى صفوف المصلّين المتراضه فى دوائر تحيط ببيت الله الحرام. و هى توحد الله و تكبره.

٣- البعد الثقافى للحجّ

يمكن أن يؤدّى التقاء المسلمين أيام الحجّ دورا فعّالا- فى التبادل الثقافى فى المجتمع الإسلامى، خاصّه إذا لا حظنا أنّ اجتماع الحجّ العظيم يمثّل بشكل حقيقى فئات المسلمين من أنحاء العالم، حيث لا تصنّع فى المشاركة فى حجّ بيت الله الحرام، فالحجّاج جاؤوا من شتى المجموعات و العناصر و القوميات، و قد اجتمعوا رغم اختلاف ألسنتهم.

ص: ٣٢٩

لهذا ذكرت الأحاديث الإسلامية أنّ من فوائد الحجّ نشر أخبار آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في أنحاء العالم الإسلامي،

يقول «هشام بن الحكم» أحد أصحاب الإمام الصادق عليه السّلام المخلصين نقلا عن هذا الإمام العظيم عليه السّلام أنّه قال حول فلسفه الحجّ و الطواف حول الكعبة: «إنّ الله خلق الخلق... وأمرهم بما يكون من أمر الطاعة في الدين، و مصلحتهم من أمر دنياهم، فجعل فيه الاجتماع من الشرق والغرب، و ليتعارفوا و لينزع كلّ قوم من التجارات من بلد إلى بلد...، و لتعرف آثار رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و تعرف أخباره و يذكر لا ينسى» (١).

و لهذا السبب كان المسلمون يجدون في الحجّ متنفسا من جور الخلفاء و السلاطين الظلمة الذين منعوا المسلمين من نشر هذه الأحكام، لحلّ مشاكلهم بالاجتماع بأئمّه الهدى عليهم السّلام في المدينة المنوّرة و مكّه المكرّمه، و بكبار علماء المسلمين، لينهلوا من مناهل القرآن النقيّه و السنّه النبويّه الشريفه.

و من جهه ثانيه يمكن أن يكون الحجّ مؤتمرا ثقافيا إسلاميا يحضره مفكّرو العالم الإسلامي في أيّام الحجّ في مكّه المكرّمه، ليتحاوروا فيما بينهم و يعرضوا نظرياتهم و أفكارهم على الآخرين.

و قد أصبحت الحدود بين البلدان الإسلاميه-الآن- سببا لتشتت ثقافتهم الأصليه، و اقتصار تفكير مسلمي كلّ بلد بأنفسهم فقط، حتّى تقطعت أواصر المجتمع الإسلامي الموحد. بينما يستطيع الحجّ أن يغيّر هذا الوضع.

و ما أجمل ما

قاله الإمام الصادق عليه السّلام في ختام الحديث السابق الذي رواه هشام بن الحكم: «و لو كان كلّ قوم إنّما يتكلّمون على بلادهم و ما فيها هلكوا، و خربت البلاد، و سقطت الجلب و الأرباح، و عميت الأخبار» (٢).

ص: ٣٣٠

١-١) - وسائل الشيعه، المجلد الثامن، الصفحه ٩.

٢-٢) - المصدر السابق.

خلافًا لما يراه البعض، فإن مؤتمر الحج العظيم يمكن أن يستفاد منه في تقوية أسس الاقتصاد في البلدان الإسلامية. بل إنه وفق أحاديث إسلامية معتبره يشكل البعد الاقتصادي جزءًا مهمًا من فلسفه الحج.

فما المانع من وضع أسس سوق مشتركة إسلامية خلال اجتماع الحج العظيم، ليوسع المسلمون مجال التبادل التجاري فيما بينهم بشكل تعود منافعهم إليهم لا إلى أعدائهم. و من أجل تحرير اقتصادهم من التبعية الأجنبية، وهذا العمل عباده و جهاد في سبيل الله، و لا يمكن أن يكون حبًا للدنيا و طمعا فيها.

و لذا أشار الإمام الصادق عليه السلام في الحديث السابق خلال شرحه فلسفه الحج، إلى هذا الموضوع بصراحه باعتبار أن أحد أهداف الحج، تقوية العلاقات التجاريه بين المسلمين.

و جاء في حديث آخر للإمام الصادق عليه السلام في تفسير الآيه (١٩٨) من سوره البقره لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَبْتَغُوا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ .

قال عليه السلام: «فإذا أحلّ الرجل من إحرامه و قضى فليشتر و لبيع في الموسم» (١).

و كما يبدو فإن هذا العمل لا إشكال فيه، بل فيه ثواب و أجر.

و بهذا المعنى

جاء في نهايه حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السلام لبيان فلسفه الحج بشكل مسهب: (ليشهدوا منافع لهم) (٢).
إشاره إلى المنافع المعنويه و الماديّه. و الأخيره على رأى بعضهم معنويه أيضا.

فالحج باختصار عباده عظيمه لو أستفيد منها بشكل صحيح في تشكيل مؤتمرات متعدده سياسيه و ثقافيه و اقتصاديه، لحلّ مشاكل العالم الإسلامي، و مفتاحا لحلّ معضلات المسلمين، و قد يكون هو المراد من

حديث الإمام الصادق

ص: ٣٣١

١-١) - تفسير العياشي، حسبما جاء في تفسير الميزان، المجلد الثاني، ص ٨٦.

٢-٢) - بحار الأنوار، ج ٩٩، ص ٣٢.

عليه السلام حيث قال: «لا يزال الدين قائما ما قامت الكعبة» (١).

كما

قال الإمام على عليه السلام «اللّٰه في بيت ربّكم، لا تخلوه ما بقيتم فإنّه إن ترك لم تناظروا» (٢) أي لا يمهلكم الله إن تركتم بيت ربّكم خاليا.

ولأهميته هذا الموضوع الذي خصّص له باب في الأحاديث الإسلامية تحت عنوان «وجوب إجبار الوالى الناس على الحجّ» فإذا أراد المسلمون تعطيل الحجّ فى عام من الأعوام، فعلى الحكومات الإسلامية أن ترسلهم بالقوه إلى مكّه (٣).

٤- ما هو مصير لحوم الأضاحى فى عصرنا؟

يستفاد من الآيه السالفه الذكر أنّ الهدف من تقديم الأضحيه، إضافة إلى الجوانب المعنويه و الروحيه و التقرب إلى الله تعالى، يشمل الاستفادة من لحومها و منح قسم منها إلى الفقراء و المحتاجين.

و تحريم الإسراف فى الإسلام ليس خافيا على أحد، فقد أكدّه القرآن و الحديث و الدليل العقلى. و من هذا كلّ نستنتج عدم جواز ترك اللحوم على الأرض فى «منى» و لا- يجوز دفنها، إذ أنّ وجوب تقديم الأضاحى لا يقصد به هذه الأعمال فيجب نقل لحومها إلى مناطق أخرى بحاجه إليها إن لم نجد محتاجين فى «منى» ليستفاد منها على أفضل وجه، و هذا هو مقتضى الجمع بين الأدلّه و البراهين.

و لكننا نجد- و مع الأسف- أنّ الكثير من المسلمين عملوا بالحكم الأوّل، و نسوا العمل بالحكم الثانى، و لذا نشهد فى كلّ عام تلف الآلاف المؤلّفه من لحوم الأضاحى التى بإمكانها أن تكون منبع غذائى مهمّ لشرائح المحرومين فى

ص: ٣٣٢

١-١) - وسائل الشيعه، ج ٨، ص ١٤.

٢-٢) - نهج البلاغه، الوصيه، ٤٧.

٣-٣) - وسائل الشيعه، ج ٨، ص ١٥.

المجتمعات الإسلاميه، و لكنّها تترك في تلك الأرض المقدّسه بحاله سلبيه و مزعجه جدّا. و قد تحدّث لحدّ الآن الكثير من المفكرين و علماء المسلمين حول هذا الموضوع مع المسؤولين في المملكه العريه السعوديه، و حتّى أنّهم تبرّعوا بتكاليف حفظها و نقلها إلى المؤسّسات المختصّه، و لكن جمود و تحجّر رجال الدين الوهابيين من جهه، و عدم اهتمام المسؤولين في الحكومه السعوديه من جهه أخرى كانت مانعا لتنفيذ هذا المشروع.

و مع غصّ النظر عن مسأله حرمه الإسراف التي هي من الثوابت في التفكير الإسلامي، فإنّ منظر المذابح يوم عيد الأضحى في الحجّ حاليا بشع و غير منطقي إلى درجه يثير علامات الاستفهام لدى كلّ ضعيف الإيمان حول شعيره الحجّ بالكامل، و يعطى للأعداء مبرّرا قويّا للطعن و التقييح غافلين عن أنّ هذه المسأله هي نتيجه جهل و إهمال رجال الدين الوهابيين و السلطات السعوديه، فعلى هذا، فإنّ عظمه الإسلام و أصاله مناسك الحجّ توجب على المسلمين من جميع مناطق العالم أن يمارسوا الضغط على المسؤولين في تلك الدوله لإنهاء هذه الحاله الموحشه، و تنفيذ الحكم الإسلامي في هذه المسأله.

و إذا وردت أحاديث إسلاميه في حرمه إخراج لحوم الأضاحي من أرض «منى» أو من «حرم مكّه» فإنّ ذلك يعود إلى زمن كان فيه في مكّه المكرّمه عدد كاف من المستهلكين و المستحقّين.

و لهذا

ورد في حديث صحيح الإسناد عن الإمام الصادق عليه السّلام أنّ أحد أصحابه سأله عن هذا الموضوع، فأجاب: «كنا نقول لا يخرج منها بشيء لحاجه الناس إليه، فأما اليوم فقد كثر الناس فلا بأس بإخراجه» (1).

ص: ٣٣٣

١-١) - وسائل الشيعه، المجلّد العاشر، الصفحه ١٥٠ (أبواب الذبيح الباب ٤٢ الحديث ٥).

اشاره

ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمْ
الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠)

التفسير

اشاره

تتابع هذه الآيات البحث السابق عن مناسك الحج مشيره إلى جانب آخر من هذه المناسك، فنقول أولاً: ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَ لِيُوفُوا نُذُورَهُمْ أى ليطهروا أجسامهم من الأوساخ و التلوث، ثم ليوفوا ما عليهم من نذور. و لِيُطَوِّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ أى يطوفوا بذلك البيت الذى صانه الله عن المصائب و الكوارث و حرره.

و كلمه «تفث» تعنى - كما قال كبار اللغويين و المفسرين - القذاره و ما يلتصق بالجسم و زوائده كالأظافر و الشعر. و يقول البعض: إن أصلها يعنى القذاره التى تحت الأظافر و أمثالها (١). و رغم إنكار بعض اللغويين لوجود مثل هذا الاشتقاق

ص: ٣٣٤

(١ - ١) - عن قاموس اللغة، و مفردات الراغب الاصفهاني، و كنز العرفان، و تفسير مجمع البيان، و تفاسير أخرى.

فى اللغة العربيه، إلا أن الراغب الاصفهانى نقل كلام بدوى قاله بحق أحد الأشخاص القدرين: «ما أتفثك و أدرنك» دليلا على عربيه هذه الكلمه و وجود اشتقاق لها فى اللغة العربيه.

و قد فسّرت لِيُقْضُوا تَفَثُهُمْ فى الأحاديث الإسلاميه بتقليم الأظافر و تطهير البدن و نزع الإحرام. و بتعبير آخر: تشير هذه العبارة إلى برنامج «التقصير» الذى يعدّ من مناسك الحجّ. و جاء فى أحاديث إسلاميه أخرى بمعنى حلاقه الرأس التى تعتبر أحد أساليب «التقصير».

كما جاء فى «كنز العرفان» حديث رواه ابن عباس فى تفسير هذه الآية:

«القصْد إنجاز مشاعر الحجّ كلّها» (١) إلا أنه لا سند لدينا لحديث ابن عباس هذا.

و الذى يلفت النظر فى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام أنه فسّر عبارته لِيُقْضُوا تَفَثُهُمْ بقاء الإمام، و عند ما سأله الراوى عبد الله بن سنان عن توضيح لهذه المسأله

قال: «إنّ للقرآن ظاهرا و باطنا» (٢).

و هذا الحديث ربّما كان إشاره إلى ملاحظه تستحقّ الاهتمام. و هى أنّ حجّاج بيت الله الحرام يتطهّرون عقب مناسك الحجّ ليزيلوا الأوساخ عن أبدانهم، فعليهم أن يطهّروا أرواحهم أيضا بقاء الإمام عليه السّلام، خاصّه و أنّ الخلفاء الجابره كانوا يمنعون لقاء المسلمين لإمامهم فى الظروف العاديه. لهذا تكون أيام الحجّ خير فرصه للقاء الإمام، و بهذا المعنى نقرأ

حديثا للإمام الباقر عليه السّلام قال فيه: «تمام الحجّ لقاء الإمام» (٣).

و كلاهما فى الحقيقه- تطهير، أحدهما تطهير لظاهر البدن من القذاره و الأوساخ، و الآخر تطهير باطنى من الجهل و المفسد الأخلاقية.

ص: ٣٣٥

١- ١) - كنز العرفان، المجلّد الأوّل، ص ٢٧٠.

٢- ٢) - نور الثقلين، المجلّد الثالث، صفح ٤٩٢.

٣- ٣) - وسائل الشيعه المجلّد العاشر، الصفح ٢٥٥ (أبواب المزار الباب الثانى الحديث الثانى عشر).

أما «الوفاء بالنذر» فيعنى أنّ كثيرا من الناس يندرون تقديم أضاحى إضافيه فى الحجّ، أو التصدّق بمال، أو القيام بعمل خيرى فى أيام الحجّ، ولكنهم ينسون و يغفلون عن كلّ ذلك عند وصولهم إلى مكّه، لهذا أكد القرآن عليهم الوفاء بالنذور، و إلاّ يقصّروا فى ذلك (١).

أما لماذا سمّيت الكعبه بالبيت العتيق؟ «العتيق» مشتقّه من «العتق» أى التحرّر من قيود العبوديه، و ربّما كان ذلك لأنّ الكعبه تحرّرت من قيود ملكيه عباد الله، و لم يكن لها مالك إلاّ الله، كما حرّرت من قيد سيطره الجبابره كأبرهه.

و من معانى «العتيق» أيضا الشىء الكريم الثمين، و هذا المعنى يتجسّد فى الكعبه بوضوح. و من المعانى الاخرى للعتيق «القديم» يقول الراغب الاصفهانى:

العتيق المتقدّم فى الزمان أو المكان أو الرتبه. و هذا المعنى أيضا واضح بالنسبه للكعبه، فهى أقدم مكان يوحد فيه الله. و بحسب ما جاء فى القرآن إنّ أوّل بيت وُضِعَ لِلدّاسِ (٢) و على كلّ حال فلا مانع من إطلاق العتيق على بيت الله بعد ملاحظه ما تتضمّنه هذه الكلمه من معان، أشار كلّ مفسّر إلى جانب منها. أو ذكرت الأحاديث المختلفه جوانب أخرى من معانيها.

أما المراد من «الطواف» الوارد فى آخر الآيه المذكور أعلاه فهناك بحث بين المفسّرين (هناك طوفان-بعد مراسم عيد الأضحى فى منى-على الحجّاج أن يقوموا بهما، الطواف الأول يدعى «طواف الزيارة»، و الثّانى «طواف النساء»).

يرى بعض الفقهاء و المفسّرين أنّ مفهوم الطواف عام هنا، لأنّ الآيه لم تتضمّن

ص: ٣٣٦

١-١) -احتمل بعض المفسّرين القصد من النذور القيام بمشاعر الحجّ، إلاّ أنّه بمراجعته حالات استعمال كلمه النذر فى القرآن المجيد، يتّضح لنا أنّه يقصد المعنى المتداول من كلمه النذر، لهذا فإنّ استخدامها فى مناسك الحجّ دون دليل، خلافا لمعناها الظاهر.

٢-٢) -آل عمران، ٩٦.

قيودا أو شرطا ما، فهى تضم طواف الحجّ و طواف النساء، حتّى أنّها تشمل طواف العمرة أيضا (١).

فى وقت يرى مفسّرون آخرون أنّ الآية تقصد طواف الزيارة فقط، الذى يجب على الحاج بعد إحلاله من إحرام الحجّ (٢).

إلا أنّ الأحاديث الواردة عن أهل البيت عليهم السّلام تفيد أنّ القصد هنا طواف النساء،

ففى حديث عن الإمام الصادق عليه السّلام فى تفسير وَ لِيُؤْفُوا نُذُورَهُمْ وَ لِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ قال: «طواف النساء» (٣).

كما روى عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام حديث بهذا المعنى (٤).

و هذا الطواف يسمّى عند أهل السنّة طواف الوداع.

و مع ملاحظه هذه الأحاديث يبدو التفسير الأخير هو الأقوى، خاصّه إذا عبّر بهذا المعنى أيضا فى تفسير ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ. حيث يجب إضافه إلى تطهير البدن من القذاره و الشعر الزائد، استعمال العطر أيضا. و من المعلوم أنّه لا يجوز استعمال العطور فى الحجّ إلاّ بعد إتمام الطواف و السعى، أو عند ما لا يكون طواف بذمّه الحاج إلاّ طواف النساء.

و أشارت الآيه الأخيره إلى خلاصه ما بحثته الآيات السالفه الذكر، حيث تبدأ بكلمه «ذلك» التى لها جملته محذوفه تقديرها «كذلك أمر الحجّ و المناسك» ثمّ تضيف تأكيدا لأهميته الواجبات التى شرحت و مَنْ يُعْظَمُ حُرْمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ .

و المقصود هنا ب«الحرّمات»-طبعاً- أعمال و مناسك الحجّ، و يمكن أن

ص: ٣٣٧

١-١) - كنز العرفان، المجلد الأوّل، الصفحه ٢٧١.

٢-٢) - مجمع البيان نقلها فى تفسير الآيه-موضع البحث- عن بعض المفسّرين لم يذكر أسماءهم.

٣-٣) - وسائل الشيعه المجلد التاسع الصفحه ٣٩٠ أبواب الطواف الباب الثانى.

٤-٤) - المصدر السابق.

يضاف إليها احترام الكعبه خاصه و الحرم المكى عامه. و على هذا فإن تفسير هذه الآيه باختصاصها بالمحرّمات-أى كلّ ما نهى الله عنه-أو جميع الواجبات، مخالف لظاهر الآيه. كما يجب الانتباه إلى أنّ «حرّمات» جمع «حرمه» و هى فى الأصل الشىء الذى يجب أن تحفظ حرّمته، و ألاّ تنتهك هذه الحرمه أبداً.

ثمّ تشير هذه الآيه و تناسباً مع أحكام الإحرام إلى حليه المواشى، حيث تقول: **وَ أُحِلَّتْ لَكُمْ الْبَهِيمَةُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ .**

عبارة **إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ** يمكن أن تكون إشاره إلى تحريم الصيد على المحرم الذى شرع فى سورة المائده الآيه (٩٥) حيث تقول: **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ وَأَنْتُمْ حُرْمٌ .**

كما قد تكون إشاره إلى عبارته جاءت فى نهايه الآيه-موضع البحث-تخصّ تحريم الأضحية التى تذبح للأصنام التى كانت متداوله زمن الجاهليه. لأنّ تذكىه الحيوان يشترط فيها ذكر اسم الله عليه عند الذبح، و لا يجوز ذكر اسم الصنم أو أى اسم آخر عليه.

و فى ختام هذه الآيه ورد أمران يخصّان مراسم الحجّ و مكافحه العادات الجاهليه:

الأوّل يقول: **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَالْأَوْثَانِ** جمع «وثن» على و كـن «كفن» و تعنى الأحجار التى كانت تعبد زمن الجاهليه، و هنا جاءت كلمه الأوثان أيضاً لكلمه «رجس» التى ذكرت فى الآيه، حيث تقول: **فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ**. ثمّ تليها عبارته **مِنَ الْأَوْثَانِ** أى الرجس هو ذاته الأوثان.

كما تجب ملاحظه أنّ عبده الأوثان زمن الجاهليه كانوا يلطّخونها بدماء الأضاحى، فيحصل مشهد تقشّر الأبدان من بشاعته، و قد يكون التعبير السابق إشاره إلى هذا المعنى أيضاً.

و الأمر الثاني هو وَ اجْتَبُوا قَوْلَ الزُّورِ أى الكلام الباطل الذى لا أساس له من الصّحه.

مسأله: ما معنى قَوْلَ الزُّورِ ؟

يرى بعض المفسرين أنه إشارة إلى كيفيه تلبيه المشركين فى مراسم الحجّ فى زمن الجاهليه، لأنهم يلبون بشكل يتضمّن الشرك بعينه، و يبعونه من صورته التوحيديه، فقد كانوا يرددون: «لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك! تملكه و ما ملك!».

حقاً إنه كلام باطل و دليل على قَوْلَ الزُّورِ الذى يعنى فى الأصل: الكلام الكاذب، و الباطل، و البعيد عن حدود الاعتدال.

و مع هذا فإن اهتمام الآيه المذكوره بأعمال المشركين فى مراسم الحجّ على زمن الجاهليه، لا يمنع من تعميمها على بطلان آيه عباده للأصنام بأيه صورته كانت، و اجتناب أى قول باطل مهما كانت صورته.

و لهذا فسّرت بعض الأحاديث الأوثان بلعبه الشطرنج، و قول الزور بالغناء، و الشهاده بالباطل. و فى الحقيقه فإن ذلك بيان لبعض أفراد ذلك الكلّى، و ليس القصد منه حصر معنى الآيه بهذه المصاديق فقط.

جاء فى حديث للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم فى خطبه ألقاها على المسلمين «أيها الناس، عدلت شهاده الزور بالشرك بالله، ثم قرأ فَاجْتَبُوا الرَّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَ اجْتَبُوا قَوْلَ الزُّورِ .

إنّ هذا الحديث أيضا إشارة إلى سعه مفهوم هذه الآيه.

اشاره

حُنْفَاءٌ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوَى بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَ مَنْ يُعْظِمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَىٰ الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٣٣)

التفسير

اشاره

تعظيم شعائر الله دليل على تقوى القلوب:

عُقبَت الآيات هنا المسأله التي أكدها آخر الآيات السابقه، وهى مسأله التوحيد، و اجتناب أى صنم و عباده الأوثان. حيث تقول حُنْفَاءٌ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ (١) أى أقيموا مراسم الحجّ و التلبيه فى حاله تخلصون فيها التيه لله و حده لا يخالطها أى شرك أبدا.

«حنفاء» جمع «حنيف» أى الذى استقام و ابتعد عن الضلال و الانحراف، أو

ص: ٣٤٠

بتعبير آخر: هو الذى سار على الصراط المستقيم، لأن «حنف» على وزن «صدف» تعنى الرغبه، و من رغب عن كل انحراف فقد سار على الصراط المستقيم.

و على هذا فإن الآيه السابقه اعتبرت الإخلاص و قصد القربه إلى الله محرّكا أساسيًا فى الحجّ و العبادات الاخرى، حيث ذكرت ذلك بشكل عام، فالإخلاص أصل العباده. و المراد به الإخلاص الذى لا يخالطه أى نوع من الشرك و عباده غير الله.

جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السّلام أجاب فيه مبيّننا معنى كلمه حنيف: «هى الفطره التى فطر الناس عليها، لا تبديل لخلق الله، قال: فطرهم الله على المعرفة» (١).

إنّ التفسير الذى تضمّنه هذا الحديث، هو فى الواقع إشاره إلى أساس الإخلاص، أى: الفطره التوحيديه التى تكون مصدرا لقصد القربه إلى الله، و تحريكا ذاتيا من الله.

ثمّ ترسم الآيه-موضع البحث- صورته حيه ناطقه عن حال المشركين و سقوطهم و سوء طالعهم، حيث تقول: وَ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٢).

«السّماء» هنا كناية عن التوحيد، و«الشرك» هو السبب فى السقوط من السّماء هذه.

و من الطبيعى أن تكون فى هذه السّماء نجومًا زاهره و شمسًا ساطعه و قمرًا منيرا فطوبى لمن يكون شمسًا أو قمرًا أو فى الأقل نجمًا متألئًا، و لكن الإنسان عند ما يسقط من هذا المكان العالى يتلى بأحد أمرين: فإنّما يصبح طعامًا للطيور الجوارح أثناء سقوطه و قبل وصوله إلى الأرض، و بعبارة أخرى: يتلى بفقدانه هذا

ص: ٣٤١

١- ١) -توحيد الصدوق، حسبما نقله تفسير الصافى.

٢- ٢) -«تخطفه» مشتقّه من «الخطف» على وزن فعل، بمعنى الإمساك بالشىء، أثناء تحرّكه بسرعه و«سحيق» تعنى «البعيد» و تطلق على النخلة العالیه كلمه «سحوق».

المكان السامى بأهوائه النفسية المعانده. حيث تأكل هذه الأهواء جانبا من وجوده.

و إذا نجا بسلام منها، ابتلى بعاصفه هو جاء تدلّه فى إحدى زوايا الأرض بقوّه تفقده سلامته و حياته، و يتناثر بدنه قطعاً صغيره فى أنحاء المعموره، و هذه العاصفه الهوجاء قد تكون كناية عن الشيطان الذى نصب شراكه للإنسان! و ممّا لا شكّ فيه أنّ الذى يسقط من السماء يفقد كلّ قدره على اتّخاذ قرار ما.

و تزداد سرعه سقوطه لحظه بعد أخرى نحو العدم، و يصبح نسيا منسيا.

حقاً أنّ الذى يفقد قاعده السّماء التوحيدية، يفقد القدره على تقرير مصيره بنفسه. و كلّما سار فى هذا الاتجاه إزداد سرعه نحو الهاويه، و فقد كلّ ما لديه.

و لا نجد تشبيها للشرك يضاهى فى هذا التشبيه الرائع.

كما تجب ملاحظه ما تأكّد فى هذا الزمان من حاله انعدام الوزن فى السقوط الحرّ. و لهذا تجرى اختبارات على الفضائيين للاستفاده من هذه الحاله ليعدّوا أنفسهم للسفر إلى الفضاء. لأنّ مسأله انعدام الوزن هى التى تؤدّى للإنسان إلى اضطرابه بشكل خارق أثناء السقوط الحرّ.

و الذى ينتقل من الإيمان إلى الشرك و يفقد قاعدته المطمئنه و أرضه الثابته تبلى روحه بمثل حاله انعدام الوزن، و يسيطر عليه اضطراب خارق للعادة.

و أوجزت الآيه التاليه مسائل الحجّ و تعظيم شعائر الله ثانيه فتقول ذَلِكَ أَى إِنَّ الْمَوْضُوعَ كَمَا قَلْنَا، وَ تَضِيفُ وَ مَنْ يُعْظِمُ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ .

«الشعائر» جمع «شعيه» بمعنى العلامه و الدليل، و على هذا فالشعائر تعنى علامات الله و أدلته، و هى تضمّ عناوين لأحكامه و تعاليمه العاقمه، و أوّل ما يلفت النظر فى هذه المراسم مناسك الحجّ التى تدكّرنا بالله سبحانه و تعالى.

و من البديهي كون مناسك الحجّ من الشعائر التى قصدها هذه الآيه. خاصّه

مسأله الأضحيه التي اعتبرتها الآيه (٣٦) من نفس السوره-و بصراحه-من شعائر الله، إلا أن من الواضح مع كل هذا احتفاظ الآيه بمفهوم شمولي لجميع الشعائر الإسلاميه، و لا دليل على اختصاصها-فقط-بالأضحى، أو جميع مناسك الحجّ.

خاصّه أنّ القرآن يستعمل «من» التي يستفاد منها التفريق في مسأله أضحيه الحجّ، و هذا دليل على أنّ الأضحيه من شعائر الله كالصفا و المروه التي تؤكد الآيه (١٥٨) من سوره البقره على أنّهما من شعائر الله إنّ الصّفا و المروه من شعائر الله .

و يمكن القول: إنّ شعائر الله تشمل جميع الأعمال الدينيه التي تذكّر الإنسان بالله سبحانه و تعالى و عظمته، و إنّ إقامه هذه الأعمال دليل على تقوى القلوب.

كما تجب ملاحظه أنّ المراد من عباره يُعظّم ليس كما قاله بعض المفسّرين من عظمه جثّه الأضحيه و أمثالها، بل حقيقه التعظيم تعنى تسامى مكانه هذه الشعائر في عقول الناس و بواطنهم، و أن يؤدّوا ما تستحقّه هذه الشعائر من تعظيم و احترام.

كما أنّ العلاقه بين هذا العمل و تقوى القلب واضحه أيضا، فالتعظيم رغم أنّه من عناوين القصد و التيه، يحدث كثيرا أن يقوم المنافقون بالتظاهر في تعظيم شعائر الله. إلا- أنّ ذلك لا- قيمه له، لأنّه لا- ينبع من تقوى القلوب. إنّما تجده حقيقه لدى أتقياء القلوب. و نعلم أنّ مركز التقوى و جوهر اجتناب المعاصي و الشعور بالمسؤوليه إزاء التعاليم الإلهيه في قلب الإنسان و روحه، و منه ينفذ إلى الجسد.

لهذا نقول: إنّ تعظيم الشعائر الإلهيه من علامات التقوى القلبيه (١).

و

قد جاء في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم أنّه قال و هو يشير إلى صدره

ص: ٣٤٣

١-١) -بما أنّ هناك ارتباطا بين الشرط و الجزاء، و كلاهما يخصّان موضوعا واحدا، نجد في الآيه السالفه الذكر محذوفا تقديره (و من يعظّم شعائر الله فإنّ تعظيمها من تقوى القلوب). و يمكن أن يكون الجزاء محذوفا فتكون عبارته «فإنّها من تقوى القلوب» علّه نابت عن معلول تقديره: «و من يعظّم شعائر الله فهو خير له فإنّ تعظيمها من تقوى القلوب».

و يستدلّ من بعض الأحاديث أنّ مجموعه من المسلمين كانوا يعتقدون بعدم جواز الركوب على الأضحية (الناقه أو ما شابهها) حين جلبها من موطنهم إلى منى للذبح، كما يرون عدم جواز حلبها أو الاستفادة منها بأى شكل كان، ولكن القرآن نفى هذه العقيدة الخرافية حيث قال: لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى .

و

جاء في حديث نبوي أنّ الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم مرّ برجل يسوق بدنه وهو في جهد، فقال عليه السلام: «اركبها» فقال: يا رسول الله إنّها هدى. فقال صلى الله عليه وآله وسلم «اركبها ويلك» (٢).

كما أكّدت أحاديث عديدة وردتنا عن أهل البيت عليهم السلام هذا الموضوع ومنها

حديث رواه أبو بصير عن الإمام الصادق عليه السلام في قوله عزّ وجلّ: لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعٌ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى قال: «إن احتاج إلى ظهرها ركبها من غير عنف عليها، وإن كان لها لبن حلبها حلاباً لا ينهكها» (٣).

و الحقيقة أنّ الحكم أعلاه معتدل و حدّ وسط بين عملين يتصفان بالإفراط و بعيدين عن المنطق.

فمن جهة كان البعض لا يحتفظ بالأضاحي أبداً حيث يذبحها قبل الوصول إلى «منى» و يستفيد من لحومها. و قد نهى القرآن عن ذلك كما جاء في الآية الثانية من سورة البقره لا تُحَلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَ لَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَ لَا الْهَدَىٰ وَ لَا الْقَلَائِدَ .

و من جهة أخرى كان آخرون يفرطون إلى درجة عدم الاستفادة من الانعام بمجرد تخصيصها للأضحية، فلا- يحلبونها و لا يركبون عليها إن كانت ممّا يركب و إن بعدت المسافه بين موطنهم و مكّه، و قد أجازت الآية موضع البحث ذلك.

ص: ٣٤٤

١-١ - تفسير القرطبي، المجلد السابع، الصفحة ٤٤٨.

٢-٢ - التفسير الكبير للخضر الرازي، المجلد الثالث و العشرين، الصفحة ٣٣.

٣-٣ - نور الثقلين، المجلد الرابع، الصفحة ٤٩٧.

و النقد الوحيد الذى يمكن أن يوجه إلى التفسير السالف الذكر، هو أن الآيات السابقه، لم تتطرق إلى الأضحى، فكيف يعود ضمير الآيه اللاحقه إليها؟ و لكن مع ملاحظه كون حيوان الأضحى من مصاديق «شعائر الله» التى أشير إليها فى الآيه السابقه، و سيأتى ذكرها أيضا بعد هذا، يتضح بذلك الجواب عن هذا الاستفسار (1).

و على كل حال تذكر الآيه فى ختامها نهايه مسار الأضحيه: ثُمَّ مَحَلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ .

و على هذا يمكن الاستفاده من الانعام المخصّصه للأضحيه ما دامت فى الطريق إلى موضع الذبح، و بعد الوصول يجرى ما يلزم و بالطبع فإنّ المفسّرين يقولون بأنّ الذبح يجب أن يتمّ فى منى إن كانت الأضحيه تخصّ الحجّ. أمّا إذا كانت لعمره مفرده ففى أرض مكّه. و بما أنّ الآيات المذكوره تبحث فى مراسم الحجّ، فيجب أن يكون للبيت العتيق (الكعبه) مفهوم واسع ليشمل بذلك أطراف مكّه (أى منى) أيضا.

ص: ٣٤٥

١-١) - ما ذكر أعلاه هو تفسير واضح للآيه موضع البحث، و هنا نذكر تفسيرين آخرين: الأوّل: إنّ ضمير «فيها» يعود إلى المناسك الحجّ جميعا، و هنا يكون تفسيرها «لكم منافع فى جميع مناسك الحجّ حتّى الزمن المحدّد بانتهاء الحجّ أو نهايه العالم، و من ثمّ تقع آخر مراسم الحجّ حيث يخلع الحاج إحرامه و يصبح مجاورا للكعبه ليؤدّى طوافى الحجّ و النساء» و بهذا تكون هذه الآيه شبيهه بالآيه التى فسّرناها سابقا لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ . و التفسير الثانى: أن يعود ضمير «فيها» إلى الشعائر الإلهيه كلّها، إضافة إلى التعاليم الإسلاميه العظيمة، و عندها يكون معنى الآيه «لكم جزاء جميل و منافع كبيره فى مجموع التعاليم الإسلاميه و الشعائر الإلهيه حتّى نهايه العالم، و من ثمّ يجزيكم خالق البيت العتيق». إلا أنّ التفسير الذى ذكرناه فى متن الكتاب أكثر ملاءمه و أقرب معنى إلى سائر الآيات القرآنيه و الأحاديث الإسلاميه و أكثر انسجاما معها.

اشاره

وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيُذَكَّرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَتِهِ الْأَنْعَامَ فَالْتَهُكُمُ إِلَهُ وَإِذْ فَدَّ لَهُمْ أُسْرِيْمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (٣٤)
الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ وَالْمُقِيمِي الصَّلَاةِ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣٥)

التفسير

اشاره

بشر المخبتين:

يمكن أن يتساءل الناس عن الآيات السابقة. و منها التعليمات الواردة بخصوص الاضحيه، كيف شرع الإسلام تقديم القرابين لكسب رضى الله؟ و هل الله سبحانه بحاجة إلى قربان؟ و هل كان ذلك متبعا فى الأديان الاخرى، أو يخص المشركين و حدهم؟ تقول أول آيه-من الآيات موضع البحث-لإيضاح هذا الموضوع أن هذا الأمر لا يختص بكم، بل إن كل أمه لها قرابين: وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيُذَكَّرَ اسْمَ اللَّهِ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَيْمَتِهِ الْأَنْعَامِ .

يقول الراغب الاصفهاني في مفرداته: «النسك» يعنى العباده، و الناسك هو العابد، و مناسك الحجّ تعنى المواقف التى تؤدى فيها هذه العباده، أو إنها عباره عن الأعمال نفسها.

إلا- أنّ العلامة الطبرسى يقول فى «مجمع البيان» و أبو الفتوح الرازى فى «روح الجنان»: «المنسك» (على وزن منصب) يمكن أن يعنى- على وجه التخصيص- الأضحيه، بين عبادات الحجّ الاخرى (1).

□
و لهذا خصّ المنسك- رغم مفهومه العام و شموله أنواع العبادات فى مراسم الحجّ- هنا بتقديم الأضحيه بدلاله لِيُذْكَرُوا اسْمَ اللَّهِ .

و على كلّ حال فإنّ مسأله الأضحيه كانت دوما مثار سؤال، لامتزاج التعبّد بها بخرافات المشركين الذين يتقربون بها إلى أوثانهم على نهج خاصّ بهم.

ذبح حيوان باسم الله و لكسب رضاه يبيّن استعداد الإنسان للتضحيه بنفسه فى سبيل الله، و الاستفاده من لحم الأضحيه و توزيعه على الفقراء أمر منطقي.

و لذا يذكر القرآن فى نهايه هذه الآيه فَأَلْهَكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ و بما أنّه إله واحد فَلَهُ أَسْلِمُوا و بشر الذين يتواضعون لأحكامه الربانيه و بَشَرِ الْمُخْبِتِينَ (2).

ثمّ يوضح القرآن المجيد فى الآيه التاليه صفات المخبّتين (المتواضعين) و هى أربع: اثنتان منها ذات طابع معنوي، و اثنتان ذات طابع جسماني.

□
يقول فى الأوّل: الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ لا يخافون فى غضبه دون سبب و لا يشكّون فى رحمته، بل إنّ خوفهم ناتج عن عظمه المسؤوليات التى بذمتهم، و احتمال تقصيرهم فى أدائها، و ليقينهم بجلال الله سبحانه يقفون بين يديه

ص: ٣٤٧

١-١) - و لهذا السبب يقال: نسكت الشاه، أى ذبحتها.

٢-٢) - «المخبّتين» مشتقّه من «الإخبات» و أصلها «خبت» و هى الأرض المستويه الواسعه التى يمشى الإنسان فيها بكلّ سهوله. كما جاءت بمعنى الاطمئنان و الخضوع، لأنّ السير فى هذه الأرض يلازمه الاطمئنان، و لهذا تكون خاضعه مستسلمه للسائرين عليها.

بكلّ خشوع (١).

و الثّانى: وَ الصّٰبِرِيْنَ عَلٰى مَا اَصَابَهُمْ فِهٖمْ ءِمْرًا لَّيْسَ بِاِذٍ عَلَيْهِمْ وَيَسْتَجِيبُوْنَ لِحُكْمِ رَبِّهِمْ يُؤْتِيهِمْ اَمْْرًا مِّنْ رَّبِّهِمْ يُسَلِّمُوْنَ عَلَيْهِمْ وَلَهُمْ اَجْرٌ عَظِيْمٌ
و الثّالث و الرّابع: وَ الْمُؤْمِيْمِيْنَ الصّٰلِحِيْنَ وَ مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُوْنَ فَمِنْ جِهَةٍ تَوَطَّطَتْ عِلَاقَتُهُمْ بِبَارِئِ الْخَلْقِ وَ اَزْدَادُوا تَقَرُّبًا اِلَيْهِ، وَ مِنْ جِهَةٍ اٰخَرٰى اَشْتَدَّ اِرْتِبَاطُهُمْ بِالْخَلْقِ بِالْاِنْفَاقِ.

و بهذا يتّضح جليًا أنّ الإخبات و التسليم و التواضع التى هى من صفات المؤمنين ليست ذات طابع باطنى فقط، بل تظهر و تبرز فى جميع أعمال المؤمنين.

ص: ٣٤٨

١-١) - بحثنا فى تفسير الآيه الثّانية من سورة الأنفال بإسهاب دوافع الخوف من الله.

اشاره

وَٱلْيَدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ ٱللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافَّ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَٱطْعَمُوا ٱلْقَانِعَ وَ ٱلْمُعْتَرَ كَذَٰلِكَ سَيَخْرُنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٣٦) لَنْ يَدَّٱلَّ ٱللَّهُ لِحُومِهَاۗ وَلَا دِمَآؤُهَاۗ وَ لَكِنْ يَنَالُهُ ٱلتَّقْوَىٰ مِنْكُمْ كَذَٰلِكَ سَيَخْرُهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ وَ بَشِّرِ ٱلْمُحْسِنِينَ (٣٧) إِنَّ ٱللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ ٱلَّذِينَ ٱمَنُوا إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)

التفسير

اشاره

لماذا الأضحيه؟

عاد الحديث عن مراسم الحج و شعائره الإلهيه و الأضحيه ثانيه، ليقول أولاً:

وَٱلْيَدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِّنْ شَعَائِرِ ٱللَّهِ

إن «البدن» و هي الإبل البدينه تعلقت بكم من جهه، و من جهه أخرى هي من شعائر الله و علائمه في هذه العباده العظيمه.

فالاضحيه في الحج من المظاهر الجليله لهذه العباده التي أشرنا إلى فلسفتها من

قبل.

«البدن» على وزن «القدس» جمع لـ «البدنه» على وزن «عجله» و هي الناقة الكبيره و السمينه. وقد أكدها لأنها تناسب إقامه وليمه لإطعام الفقراء و المحتاجين في مراسم الأضحيه، و من المعلوم أنّ سمن الحيوان ليس من الشروط الإلزاميه في الأضحيه. و كلّ ما يلزم هو أن لا يكون ضعيفا.

ثمّ تضيف الآيه: لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فمن جهة تستفيدون من لحومها و تطعمون الآخريين، و من جهة أخرى تستفيدون من آثارها المعنويه بإيثاركهم و سماحكم و عبادتكم الله، و بهذا تتقربون إليه سبحانه و تعالى.

ثمّ تبين الآيه-بعبارة موجزه- كيفيه ذبح الحيوان فأذكروا اسمَ الله عَلَيْهَا صَوَافَّ أى اذكروا اسم الله حين ذبح الحيوان و فى حاله وقوفه مع نظائره فى صفوف.

و ليس لذكر الله حين ذبح الحيوان أو نحر الناقة صيغه خاصه. بل يكفى ذكر اسم من أسماء الله عليها، كما يبدو و من ظاهر الآيه، إلا- أنّ بعض الروايات ذكرت صيغه محدده، و هى فى الواقع من أعمال الإنسان الكامل، حيث روى عن ابن عباس أنّه قال: الله أكبر، لا إله إلا الله و الله أكبر، اللهم منك و لك (١).

إلا أنّه ورد فى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام عبارات أكثر وضوحا فبعد شراء الأضحيه توجهها إلى القبله و تقول حين الذبح:

«وجّهت وجهى للذى فطر السموات و الأرض حنيفا مسلما و ما أنا من المشركين، إنّ صلاتى و نسكى و محياى و مماتى لله ربّ العالمين لا شريك له و بذلك أمرت و أنا من المسلمين، اللهم منك و لك بسم الله و بالله و الله أكبر، اللهم تقبل منى» (٢).

كلمه «صوافّ» جمع «صافّه» بمعنى الحيوان الواقف فى صفّ. و كما ورد فى

ص: ٣٥٠

١-١) -مجمع البيان فى تفسير ختام الآيه، و روح المعانى فى تفسير هذه الآيه باختلاف يسير.

٢-٢) -وسائل الشيعة، المجلد العاشر، صفحه ١٣٨- أبواب الذبح الباب (٣٧).

الأحاديث فإنَّ القصد من ذلك عقل رجلى الناقة الأماميتين معا حين وقوفها من أجل منعها من الحركة الواسعه حين النحر. و طبعي أن أرجل الناقة تضعف حين تنزف مقداراً من الدم، فتتمدد على الأرض، ويقول القرآن المجيد هنا فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِعُوا الْقَانِعَ وَ الْمُعْتَرَّ أَي عند ما تستقر و يهدأ جانبها (كنايه عن لفظ الأنفاس الأخيره). فكلوا منها و أطعموا الفقير القانع و السائل المعتر.

الفرق بين «القانع» و «المعتر» هو أن القانع يطلق على من يقنع بما يعطى و تبدو عليه علائم الرضى و الارتياح و لا يعترض أو يغضب، أما المعتر فهو الفقير السائل الذى يطالبك بالمعونه و لا يقنع بما تعطيه، بل يحتج أيضا.

كلمه «القانع» فمشتقّه من «القناعه»، و «المعتر» مشتقّه من «عرّ» على وزن (شرّ) و هى فى الأصل تعنى الجرب، و هو مرض عارض تظهر علاماته على جلد الإنسان. ثم أطلقت كلمه «المعتر» على السائل الذى يطلب العون و لكن بلسان معترض. و تقديم القانع على المعتر إشارة إلى ضروره الاهتمام أكثر بالمحرومين المتّصفين بالعفّه و عزّه النفس.

و ينبغى الالتفات إلى أن عبارته فَكُلُوا مِنْهَا تُوجب أن يأكل الحجاج من أضحائهم، و لعلّها ترمى إلى مراعاة المساواه بين الحجاج و الفقراء.

و تنتهى الآيه بالقول: كَذَلِكَ سَيَخْرُجُنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. و إنّه لمن العجب أن يستسلم حيوان عظيم الجثّه هائل القوّه لطفل يعقل يديه معا ثم ينحره.

(و طريقه النحر تتمّ بطعنه سكين حادّه فى لثبه الناقه، لتنزف دمها، و ليلفظ هذا الحيوان أنفاسه بسرعه).

و لإيضاح أهميته تسلط الإنسان على الحيوان فى الذبح، فإنّ الله جلّ و علا يسلب أحيانا طاعه هذا الحيوان و انقياده للإنسان، حيث نشاهد هياج البعير و تبدلّه إلى موجود خطر لا يستطيع كبح جماحه عدّه رجال أقوىاء بعد ما كان

مَسْخَرٌ حَتَّى لَصَبِي صَغِيرًا!! و هناك ثَمَّة أسئلته، و هي: ما هي حاجه الله تعالى للأضحيه؟ و ما هي فلسفه الاضحيه؟ و هل لهذا العمل فائده تعود إلى الله سبحانه؟ تجيب الآيه التاليه عن هذه الأسئلة لَنْ يَنْتَالَ اللَّهُ لُحُومَهُمْ وَ لَا دِمَائُهُمْ. إِنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِحَاجِهِ إِلَى لِحُومِ الْأَضْحَايِ، فَمَا هُوَ بِجَسْمٍ، وَ لَا هُوَ بِحَاجِهِ إِلَى شَيْءٍ، وَ إِنَّمَا هُوَ مُوجِدٌ كُلِّ وَجُودٍ وَ مُوجُودٌ. إِنَّ الْغَايَةَ مِنَ الْأَضْحِيَةِ كَمَا تَقُولُ الْآيَةُ: وَ لَكِنْ يَنْتَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ فَالْهَدَفُ هُوَ أَنْ يَجْتَازَ الْمُسْلِمُونَ مَرَاحِلَ التَّقْوَى لِيَبْلُغُوا الْكَمَالَ وَ يَتَقَرَّبُوا إِلَى اللَّهِ.

إِنَّ جَمِيعَ الْعِبَادَاتِ دُرُوسٌ فِي التَّرْبِيَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، فَتَقْدِيمُ الْأَضْحِيَةِ -مَثَلًا- فِيهِ دُرُسٌ الْإِيثَارِ وَ التَّضْحِيَةِ وَ السَّمَاحِ وَ الْإِسْتِعْدَادِ لِلشَّهَادَةِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، وَ فِيهِ دُرْسٌ مُسَاعَدَةِ الْفُقَرَاءِ وَ الْمُحْتَاجِينَ. وَ عِبَارَةٌ لَنْ يَنْتَالَ اللَّهُ لُحُومَهُمْ وَ لَا دِمَائَهُمْ مَعَ أَنَّ دِمَاءَهَا غَيْرُ قَابِلَةٍ لِلِاسْتِفَادَةِ، رَبَّمَا تُشِيرُ إِلَى الْأَعْمَالِ الْقَبِيحَةِ الَّتِي كَانَ يَمَارِسُهَا أَعْرَابُ الْجَاهِلِيَّةِ، الَّذِينَ كَانُوا يَلْطَخُونَ أَصْنَامَهُمْ وَ أحيانًا عَلَى الْكَعْبَةِ بِدِمَاءِ هَذِهِ الْقُرَابِينِ.

وَ قَدْ أَتَّبَعَهُمْ فِي مَمَارَسِهِ هَذَا الْعَمَلِ الْخُرَافِيَّ مُسْلِمُونَ جَاهِلُونَ، حَتَّى نَهَتْهُمْ هَذِهِ الْآيَةُ الْمُبَارَكَةُ (١) وَ مِمَّا يُؤَسِّفُ لَهُ وَجُودَ هَذِهِ الْعَادَاتِ الْجَاهِلِيَّةِ فِي بَعْضِ الْمَنَاطِقِ حَيْثُ يَرشُونَ دِمَاءَ الْأَضْحِيَةِ عَلَى بَابِ وَ جِدْرَانِ مَنْزِلِهِمُ الْجَدِيدِ، حَتَّى أَنَّهُمْ يَمَارِسُونَ هَذَا الْعَمَلِ الْقَبِيحَ الْخُرَافِيَّ فِي الْمَسَاجِدِ الْجَدِيدَةِ الْعِمْرَانِ أَيْضًا.

وَ لَذَا يَجِبُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ الْوَاعِينَ الْوَقُوفَ بِقُوَّةٍ ضِدَّ هَذَا الْعَمَلِ.

ص: ٣٥٢

ثم تشير الآية ثانياً إلى نعمه تسخير الحيوان قائلة: كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَىٰ مَا هَدَاكُمْ .

إنَّ الهدف الأخير هو التعرف على عظمه الخالق جلَّ و علا الذي هداكم بمنهجه التشريعي و التكويني إلى تعلم مناسك الحج و التعاليم الخاصه بطاعته و التعبده له، هذا من جهه.

و من جهه أخرى جعل هذه الحيوانات الضخمه القويه طيعه لكم تقدّمونها أضاحي استجابه لله تعالى، و تعملون عملا طيبا يساعد المحتاجين، و تستفيدون من لحومها في تأمين حياتكم. لهذا تقول الآية في الختام: وَ بَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ أولئك الذين استفادوا من هذه النعم الإلهيه في طاعه الله، و أنجزوا واجباتهم على خير وجه، و لم يقصروا في الإنفاق في سبيل الله أبدا. و فاعلو الخير هؤلاء لم يحسنوا للآخرين فقط، بل شمل إحسانهم أنفسهم على أفضل وجه أيضا.

و قد تؤدى مقاومه خرافات المشركين التي أشارت إليها الآيات السابقه إلى إثارة غضب المتعصبين المعاندين، و وقوع اشتباكات محدوده أو واسعه، لهذا طمأن الله سبحانه و تعالى المؤمنين بنصره إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا .

لتتحد قبائل عرب الجاهليه مع اليهود و النصارى و المشركين في شبه الجزيره العربيه للضغط على المؤمنين كما يحلو لهم، فلن يتمكنوا من بلوغ ما يطمحون إليه، لأنَّ الله وعد المؤمنين بالدفاع عنهم وعدا تجلّى صدقه في دوام الإسلام حتى يوم القيامة، و لا يختص الدفاع الإلهي عن المؤمنين في الصدر الأول للإسلام و حسب، بل هو سارى المفعول أبد الدهر، فإن كنا على نهج الذين آمنوا. فالدفاع الإلهي عنّا أكيد. و من ذا الذى لا يلتمس دفاع الله سبحانه عن عباده الصالحين؟ و فى الختام توضّح هذه الآية موقف المشركين و أتباعهم بين يدي الله بهذه

العباره الصريحه إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ أولئك الذين أشركوا بالله حتى أنهم ذكروا أسماء أوثانهم عن التليه.فثبتت عليهم الخيانه و الكفر لأنعم الله حيث يسمون أوثانهم عند تقديم الأضاحى،و لا يذكرون اسم الله عليها،فكيف يحب الله قوما كهؤلاء الخونه الكفره!؟

ص: ٣٥٤

أشاره

أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَدَّيْتُمْ صَوَامِعَ وَبِيْعَ وَصِيْلَوَاتٍ وَمَسَاجِدُ يُذَكَّرُ فِيهَا إِسْمُ اللَّهِ كَثِيْرًا وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيْزٌ (٤٠) الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَآمَرُوا بِالمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ المُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ (٤١)

التفسير

أشاره

أول حكم بالجهاد:

ذكرت روايات أن المسلمين عند ما كانوا في مكه، كانوا يتعرضون كثيرا لأذى المشركين، فجاء المسلمون إلى رسول الله ما بين مشجوج و مضروب يشكون إليه ما يعانون من قهر و أذى، فكان صلوات الله عليه و آله يقول لهم:

«اصبروا فإني لم أؤمر بالقتال» حتى هاجر، فأنزل الله عليه هذه الآية بالمدينه،

و هي أول آية نزلت في القتال (١).

هناك اختلاف بين المفسرين في كونها أول آية نزلت بالجهاد، فهناك من يؤيد ذلك، وهناك من يرى أن أول آية نزلت في الجهاد هي آية قاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم.. (٢) و عدّ البعض آية إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم... (٣) هي الأولى (٤).

إلا أن أسلوب الآية يناسب هذا الموضوع بشكل أفضل لأنّ تعبير «أذن» جاء بصراحه واضحه فيها، و لم يرد في الآيتين الأخريين، و بتعبير آخر: إن الإذن بالجهاد منحصر في هذه الآية.

و لما وعد الله المؤمنين بالدفاع عنهم في الآية السابقه يتضح جيدا الارتباط بين هذه الآيات.. تقول الآية: إن الله تعالى أذن لمن يتعرض لقتال الأعداء و عدوانهم بالجهاد، و ذلك بسبب أنهم ظلموا: أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ثم أردفت بنصره الله القادر للمؤمنين و إن الله على نصرهم لقدير .

إنّ وعد الله بالنصر جاء مقرونا ب«قدره الله». و هذا قد يكون إشاره إلى قدره الإلهية التي تنجد الناس حينما ينهضون بأنفسهم للدفاع عن الإسلام، لا أن يجلسوا في بيوتهم بأمل مساعده الله تعالى لهم، أو بتعبير آخر: عليكم بالجدّ و العمل بكلّ ما تستطيعون من قدره، و عند ما تستحقّون النصر بإخلاصكم ينجدكم الله و ينصركم على أعدائه، و هذا ما حدث للرسول صلى الله عليه و آله و سلم في جميع حروبه التي كانت تتكلل بالنصر.

ثمّ توضّح هذه الآيات للمظلومين-الذين أذن لهم بالدفاع عن

ص: ٣٥٦

١-١) - تفسير مجمع البيان، و تفسير الفخر الرازي للآية موضع البحث.

٢-٢) - البقره، ١٩٠.

٣-٣) - التوبه، ١١١.

٤-٤) - الميزان، المجلد الرابع عشر، صفحہ ٤١٩.

أنفسهم-بواعث هذا الدفاع، ومنطق الإسلام في هذا القسم من الجهاد فتقول:

الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ

و ذنبهم الوحيد أنهم موحدون: إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ .

و من البديهي أن توحيد الله موضع فخر للمرء و ليس ذنبا يبيح للمشركين إخراج المسلمين من بيوتهم و إجبارهم على الهجره من مكه إلى المدينة، و تعبير الآية جاء لطيفا-يجلّي إدانته الخصم، فنحن على سبيل المثال نقول لناكر الجميل:

لقد أذنبنا عند ما خدمناك، و هذه كناية عن جهل المخاطب الذي يجازى الخير شرًا (1).

ثم تستعرض الآية واحدا من جوانب فلسفه تشريع الجهاد فتقول: وَ لَوْ لَا دَفَعَ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهَيَّجَتْ صَوَامِعُ وَ بِيَعٌ وَ صَلَوَاتٌ وَ مَسَاجِدٌ يُذَكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا أَى إِنَّ اللَّهَ إِنْ لَمْ يَدْفَعْ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ، و يدفع بعض الناس ببعضهم عن طريق الإذن بالجهاد، لهيئت أديره و صوامع و معابد اليهود و النصرى و المساجد التى يذكر فيها اسم الله كثيرا.

و لو تكاسل المؤمنون و غضوا الطرف عن فساد الطواغيت و المستكبرين و منحوهم الطاعة، لما أبقى هؤلاء أثرا لمراكز عباده الله، لأنهم سيجدون الساحة خاليه من العوائق، فيعملون على تخريب المعابد، لأنها تبث الوعى فى الناس، و تعبئ طاقاتهم فى مجابهه الظلم و الكفر. و كلّ دعوه لعباده الله و توحيد مضاذه للجبابره الذين يريدون أن يعبدهم الناس تشبها منهم بالله تعالى، لهذا يهدمون أماكن توحيد الله و عبادته، و هذا من أهداف تشريع الجهاد و الإذن بمقاتله الأعداء.

ص: ٣٥٧

١-١) - و بهذا يتضح أن الاستثناء فى الآية المذكوره متصل غايه الأمر إنه كئائى مع ذكر فرد ادعائى. (فتأمل).

وقد أورد المفسرون معاني متفاوتة لـ «الصوامع» و«البيع» و«الصلوات» و«المساجد» والفرق بينها، وما يبدو صحيحاً منها هو أن:

«الصوامع» جمع «صومعه» وهي عادة مكان خارج المدينة بعيد عن أعين الناس مخصّص لمن ترك الدنيا من الزّهاد و العباد. (و يجب ملاحظه أنّ «الصومعه» في الأصل تعنى البناء المربّع المسقوف، و يبدو أنّها تطلق على المآذن المربّعة القواعد المخصّصه للرهبان.

و«البيع» جمع بيعه بمعنى معبد النصارى، و يطلق عليها كنيسه أيضا.

و«الصلوات» جمع صلاه، بمعنى معبد اليهود، و يرى البعض أنّها معرّبه لكلمه «صلوتا» العبريه، التي تعنى المكان المخصّص بالصلاه.

و أمّا «المساجد» فجمع مسجد، و هو موضع عباده المسلمين.

و الصوامع و البيع رغم أنّها تخصّ النصارى، إلّا أنّ إحداهما معبد عامّ و الاخرى لمن ترك الدنيا، و يرى البعض أنّ «البيع» لفظ مشترك يطلق على معابد اليهود و المسيحيين.

□
و عباره يُذكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَصِفَ خَاصٌ بِمَسَاجِدِ الْمُسْلِمِينَ حَسَبِ الظَّاهِرِ، لِأَنَّهَا أَكْثَرُ ازْدِحَامًا مِنْ جَمِيعِ مَرَاكِزِ الْعِبَادَةِ الْآخَرَى فِي الْعَالَمِ، حَيْثُ تَجْرَى فِيهَا الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ فِي أَيَّامِ السَّنَةِ كُلِّهَا، فِي وَقْتِ نَجْدٍ فِيهِ الْمَعَابِدُ الْآخَرَى لَا تَفْتَحُ أَبْوَابَهَا لِلْمُصَلِّينَ إِلَّا فِي يَوْمٍ وَاحِدٍ مِنَ الْأَسْبُوعِ، أَوْ أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فِي السَّنَةِ.

□
و في الختام أكّدت هذه الآيه ثانيه وعد الله بالنصر وَ لَيُنْصِرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَ لَا شَكَّ فِي إِنْجَازِ هَذَا الْوَعْدِ، لِأَنَّهُ مِنْ رَبِّ الْعِزَّةِ الْقَائِلِ: إِنَّ اللَّهَ لَفَوْيٌّ عَزِيزٌ. من أجل أنّ يتصوّر المدافعون عن خطّ التوحيد أنّهم و وحيدون في ساحه قتال الحقّ للباطل، و مواجهه جموع كثيره من الأعداء الأقوياء.

و بنور من هذا الوعد الإلهي انتصر المدافعون عن سبيل الله على أعدائهم في

معارك ضاربه خاضوها بضاله عدد وعده، ذلك النصر الذي لا يمكن أن يقع إلا بإمداد إلهي.

و آخر آيه تفسير المراد من أنصار الله الذين وعدهم بنصره في الآيه السابقه، و تقول: الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَ آتَوْا الزَّكَاةَ وَ أَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَ نَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ .

إنهم فته لا تلهو و لا تلعب كالجبابره بعد انتصارها، و لا يأخذها الكبر و الغرور، إنما ترى النصر سلماً لارتقاء الفرد و الجماعه. إنها لن تتحوّل إلى طاغوت جديد بعد وصولها إلى السلطه، لارتباطها القويّ بالله، و الصلاه رمز هذا الارتباط بالخالق، و الزكاه رمز للالتحام مع الخلق، و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر دعامتان قويتان لبناء مجتمع سليم. و هذه الصفات الأربع تكفي لتعريف هؤلاء الأفراد، ففي ظلّها تتم ممارسه سائر العبادات و الأعمال الصالحه، و ترسم بذلك خصائص المجتمع المؤمن المتطور (1).

كلمه «مكنا» مشتقه من «التمكين» الذي يعنى إعداد الأجهزة و المعدّات الخاصّه بالعمل، من عدد و آلات ضروريه و علم و وعى كاف و قدره جسميه و ذهنيه.

و تطلق كلمه «المعروف» على الأعمال الجيده و الحقّه، و «المنكر» يعنى العمل القبيح، لأنّ الكلمه الأولى تطلق على الأعمال المعروفه بالفطره، و الكلمه الثانيه على الأعمال المجهوله و المنكره. أو بتعبير آخر: الأولى تعنى الانسجام مع الفطره الإنسانيه، و الثانيه تعنى عدم الانسجام.

و تقول الآيه في ختامها وَ لِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ وَ تعنى أنّ بدايه أى قدره و نصر من الله تعالى، و تعود كلّها في الأخير إليه ثانيه إنا لله وَ إنا إليه راجعون .

ص: ٣٥٩

(١ - ١) - تناولنا أهميه الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و مسائل هذين الواجبين الإسلاميين، و الجواب عن استفسارات في هذا المجال يبحث مسهب في تفسير الآيه (١٠٤) من سوره آل عمران.

١- فلسفه تشريع الجهاد

رغم أننا بحثنا مسأله الجهاد بحثا واسعا (١) قبل هذا، إلا أنه مع ملاحظه احتمال أن تكون الآيات-موضع البحث-أولى الآيات التي أجازت للمسلمين الجهاد، واحتوت إشاره إلى فلسفه هذا الحكم، وجدنا ضروره تناولها بإيجاز.

وقد أشارت هذه الآيات إلى أمرين مهمين في فلسفه الجهاد:

أولهما: جهاد المظلوم للظالم، وهو من حقوقه المؤكده و الطبعيه، التي يؤكد لها عقل الإنسان و فطرته. و ليس له أن يستسلم للظلم، بل عليه أن ينهض و يصرخ و يتسلح ليقطع دابر الظالم و يدفعه.

و ثانيهما: جهاد الطواغيت الذين ينوون محو ذكر الله من القلوب بتهديم المعابد التي هي مراكز لبث الوعي و إيقاظ الناس، فيجب مناهضه هؤلاء لمنعهم من محو ذكر الله بتخديرهم، ثم جعلهم عبيدا لها.

و ممّا يلفت النظر أنّ تخريب المعابد و المساجد لا- يعنى تخريبها ماديا فقط، بل قد يكون بأساليب غير مباشره كثيره، كإشاعه برامج التسليه و الترفيه المقصوده، و بثّ الدعايات المسمومه، و الإعلام المضادّ لحرف الناس عن المساجد، فتحول أماكن العباده إلى خرائب مهجوره.

و في هذا جواب لمن يسأل: لماذا أجاز للمسلمين استخدام القوه و خوض الحرب لتحقيق أهدافهم؟ و لماذا لا يتمّ تحقيق الأهداف الإسلاميه باللجوء إلى التعقل و المنطق؟ و هل يفيد المنطق ذلك الظالم الذي يهجر المسلمين من ديارهم لا لذنب اقترفه سوى اعتقادهم بتوحيد الله. فتراه يستولى على منازلهم و أموالهم،

ص: ٣٦٠

ولا يلتزم بأى قانون و منطق تجاههم؟! فهل يمكن ردع هؤلاء المجانين بغير لغة السلاح و القوّه؟! و هذا ينطبق على من يقول لنا: لماذا لا تساوون الكيان الصهيوني و تفاوضونه؟ الكيان الصهيوني الذى انتهك جميع القوانين الدوليه و قرارات المنظمات الدوليه التى أقرتها شعوب العالم، و سحق و يسحق جميع القوانين البشريه و التعاليم السماويه، هل يعترف بالمنطق؟! الكيان الصهيوني الذى قصف المدارس و المستشفيات بالقنابل المحرقه، فقتل آلاف الأطفال و النساء و الشيوخ الآمنين الأبرياء و جعلهم إربا إربا! كيف يخاطب بالمنطق؟ و هكذا الأمر بالنسبه للذين يرون فى المعبد و المسجد الذى يبثّ الوعى بين الناس و يقود حركه الجماهير، منافسا لمصالحه غير المشروعه؟! و يعملون بما لديهم من قوّه لهدمه! فهل يمكن التفاوض سلميًا معهم؟! و إذا نظرنا إلى المجتمع الإنسانى نظره واقعيه و وضعنا القضايا الفكرية جانبا، فلا نجد مفرًا من اللجوء إلى القوّه و السلاح؟! و ليس هذا عجزا فى منطقنا، بل لعدم استعداد الجبابره لقبول المنطق السليم، و متى وجدنا المنطق فاعلا لجأنا إليه.

٢- من هم الذين وعدهم الله بالنصر؟

إنّه لمن الخطأ الاعتقاد بأنّ نصر الله المؤمنين و وعدهم بالدفاع عنهم-الذى جاء فى الآيات السابقه و من آيات قرآنيه أخرى- بعيد عن سنّه الله فى خلقه و قوانين الحياه! ليس الأمر هكذا، فالله يعدّ بنصره الذين يعبثون جميع طاقاتهم ليدخلوا

ميدان القتال بكلّ قوّه، و لهذا نطالع فى الآيات السالفه: لَوْ لَا دَفَعُ اللَّهُ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ. فلا يدفع الله الظالمين بإمداداته الغيبية و بقدره الصواعق و الزلازل التى يبعثها إلّا- فى حالات استثنائية، إنّما يدفع شرّهم عن المؤمنين بمن يدافع عنهم، أى المؤمنين الحقيقيين.

و عليه فلا يعنى الوعد الإلهى بالنصر رفع المسؤوليه و التكاسل و التواكل بالاعتماد على ما وعد الله للمؤمنين، بل يجب التحرك الواسع لضمان النصر الإلهى و تهيئه مستلزماته.

و الجدير بالذكر أنّ هذه المجموعه من المؤمنين لا يتوجهون إلى الله قبل النصر فقط، بل بعد النصر أيضا، فهم الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ... يُوْطِدُونَ عِلَاقَتَهُمْ مَعَ اللَّهِ. و النصر لديهم وسيله لنشر الحقّ و العدل و مكارم الأخلاق.

و خصّصت بعض الروايات الآيه السابقه بالمهدى (عجل الله فرجه) و أصحابه أو بآل محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم بشكل عامّ،

فقد جاء فى حديث عن الإمام الباقر عليه السلام حين تفسير الآيه الَّذِينَ إِنْ مَكَانَهُمْ فِي الْأَرْضِ... قال: إِنْ هَذِهِ الْآيَةُ الَّذِينَ إِنْ...

نزلت فى آل محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم و المهدى (عج) و أصحابه «يملكهم الله مشارق الأرض و مغاربها، و يظهر الدين و يميت الله به و بأصحابه البدع و الباطل، كما أمت الشقاء الحقّ، حتّى لا يرى أين الظلم، و يأمرن بالمعروف و ينهون عن المنكر» (١).

و قد وردت أحاديث أخرى فى هذا المجال، و هى عباره عن مصاديق بارزه للآيه و لا تمنع عموم الآيه، لا يمكنها منع، فمفهوم الآيه الواسع يشمل جميع المؤمنين و المجاهدين فى سبيل الله.

ص: ٣٦٢

١- ١) - تفسير على بن إبراهيم (حسبما نقله تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ٥٠٦).

٣- «المحسنين»، «المختبين»، «أنصار الله».

و تأمر الآيات المذكوره أعلاه و التي قبلها أحيانا بتبشير «المحسنين»، ثم تعرفهم أنهم من المؤمنين، و ليسوا من الخونه الكفار..
و أحيانا أخرى تتكلم حول «المختبين» (المتواضعين) و تصفهم بأنهم خشع في الصلاة، صابرون على المصائب منفقون مما و هبهم الله.

و تعدد هذه الآيات كذلك ميزات «أنصار الله» الذين لا يطغون عند انتصارهم، بل يقيمون الصلاة و يؤتون الزكاه و يأمرون بالمعروف و ينهون عن المنكر.

و خلاصه هذه الآيات تكشف لنا أن المؤمنين الصادقين لهم جميع هذه الخصائص، فهم من جهة أقوىاء في عقيدتهم و التزامهم المسؤوليه، و من جهة ثانية برهنوا على أنهم أقوىاء و مستقيمون في علاقتهم مع الخالق و الخلق و في مكافحه الفساد.

ص: ٣٦٣

اشاره

وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ (٤٢) وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ (٤٣) وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَىٰ فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (٤٤) فَكَأَيِّنْ مِنْ قَوْمٍ أُهْلِكْنَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَمَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْسَ مَعْطَلَةٌ وَاقْصُرْ مَشِيدِ (٤٥)

التفسير

اشاره

بئس معطلة و قصر مشيد!

لقد صدر أمر الجهاد للمسلمين بعد أن ذاقوا- كما ذكرت الآيات السابقة- مراره المحنه التي فرضها عليهم أعداء الإسلام الذين آذوهم و طردوهم من منازلهم لا لذنوب ارتكبوها، بل لتوحيدهم الله سبحانه و تعالى.

وقد طمأنت الآيات-موضع البحث-الرسول صلى الله عليه و آله و سلم و المؤمنين و خففت عنهم من جهه، و بينت لهم أن العاقبه السيئه تنتظر الكفره من جهه أخرى، فقالت: وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ .

أى إذا كذبتك هؤلاء القوم فلا تبتئس و لا تحزن، فالأقوام السابقه قد كذبت

رسلها أيضا، و أضافت: وَ قَوْمِ إِبْرَاهِيمَ وَ قَوْمِ لُوطٍ .

و كذلك كذب أهالي مدينه «مدين» نبيهم «شعيب»، و كذب فرعون و قومه نبيهم «موسى» وَ أَصْحَابُ مَدْيَنَ وَ كُذِّبَ مُوسَى .

و إنّ هذه المعارضه و التكذيب لن تؤثر فى روحك الطاهره و نفسك المطمئنه، مثلما لم تؤثر فى أنبياء كبار قبلك و لم تعق مسيرتهم التوحيديه و دعوتهم إلى الحقّ و العدل قطّ.

إلاّ أنّ هؤلاء الكفرة الأغبياء يتصوّرون إمكانيه مواصله هذه الأساليب المخزيه. فَأَمَلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ أَجَلًا، أمهل الله الكافرين ليؤدّوا امتحانهم و ليتّم الحجّه عليهم فأغرقهم بنعمته، ثمّ حاسبهم حسابا عسيرا. فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١) و رأيت كيف أنكرت عليهم أعمالهم، و بينت لهم أعمالهم القبيحه، لقد سلبت منهم نعمتى و جعلتهم على أسوأ حال... سلبتهم سعادتهم الدنيويه و عوّضتهم بالموت.

آخر الآيه موضع البحث يبيّن الله تعالى كيفيّة عقاب الكفّار بجمله موجزه ذات دلالة واسعة فَكَايُنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ و أضافت الآيه أنّ سقف بيوتها قد باتت أسفل البناء: فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا .

أى إنّ الواقعه كانت شديده حتّى أنّ السقوف انهارت أوّلا ثمّ الجدران على السقوف وَ بئْرٍ مُعَطَّلَةٍ فَمَا أَكْثَرَ الْآبَارِ الرَّوِيَّةِ بِمِاِهَا الْعَذْبَةِ، و لكنّها غارت فى الأرض بعد هلاك أصحابها فأصبحت معطله لا نفع فيها.

وَ قَصْرِ مَشِيدٍ

(٢)

أجل ما أكثر القصور المشيده التي ارتفعت شاهقه و زينت،

ص: ٣٦٥

١-١) -النكير تعنى الإنكار و هنا تعنى فرض العقاب.

٢-٢) -«المشيد» مشتقّه من «شيد» على وزن «عيد» ذات معنيين: أوّلهما الارتفاع، و الثّانى الجصّ، فتعنى لفظه «قصر مشيد» القصر المرتفع. و المعنى الثّانى القصر الذى بنى على أسس ثابتة قويّه ليصان من حوادث الزمان، و بما أنّ معظم منازل ذلك العصر تبنى من اللبن، فإنّ المنزل الذى يبنى بالجصّ يكون أقوى من هذه البيوت و يكون متميّزا عنها.

إلا- أنها أضحت خرائب بعد أن هلك أصحابها، و النتيجة إنهم تركوا مساكنهم و قصورهم المجلله، و أهملوا مياههم و عيونهم التي كانت مصدر حياتهم و عمران أراضيهم و ذهبوا. و كذلك الآبار الغتية بالماء أصبحت معطله لا ماء فيها.

ملاحظه

مما يلفت النظر التفسير الذي ورد عن أهل البيت عليهم السّلام حيث فسّروا وَ بَثْرٍ مُّعْطَلَةٍ بِالْعِلْمَاءِ الَّذِينَ لَا يَسْتَفِيدُ مِنْهُمْ الْمَجْتَمَعُ، فبقيت علومهم معطله.

فقد روى عن الإمام موسى بن جعفر عليه السّلام في تفسير عبارته وَ بَثْرٍ مُّعْطَلَةٍ وَ قَصْرِ مَشِيدٍ قوله:

«البئر المعطله الإمام الصامت، و القصر المشيد الإمام الناطق» و بهذا المعنى روى أيضا عن الإمام الصادق عليه السّلام (١).

و هذا التفسير نوع من التشبيه (مثلما يشبه المهدي (عج) ناشر العدل في العالم بالماء المعين) أي إنّ الإمام عند ما يستقرّ في دست الحكم يكون كالقصر المشيد، يجلب انتباه الداني و البعيد و يكون ملجأ للجميع. و إذا أبعده عن الحكم و تخلّى الناس عنه، احتلّ مكانه من لا يستحقّه فيكون عندها كبر امتلات ماء، إلا أنّها معطله لا يستفاد منها فلا تروى عطشانا و لا تسقى زرعاً.

ما أحسن ما أنشد الشاعر العربي:

بئر معطله و قصر مشرف

مثل لآل محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم مستطرف

فالقصر مجدهم الذي لا يرتقى

و البئر علمهم الذي لا ينزف (٢)

ص: ٣٦٦

١-١) -تفسير البرهان، المجلد الثالث، صفحہ-٣٠.

٢-٢) -المصدر السابق.

اشاره

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِن تَعْمَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ (٤٦) وَ يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ (٤٧) وَ كَأَيُّنَ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ (٤٨)

التفسير

اشاره

السير في الأرض و العبره:

تحدّث الآيات السابقه عن الأقوام الظالمه التي عاقبها الله على ما اقترفت أيديهم فدمّر أحياءهم، و أكّدت الآيه الأولى هذه القضيه فقالت: أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا .

أجل، تحدّثنا عن خرائب قصور الظلمه، و منازل الجابره المهدمه، و عبده الدنيا، فلكل واحد منها ألف لسان يحكى لنا بسكونه المسيطر عليه ما حدث في

زواياه من ظلم و فسق و جور، و يحدثنا عن ألف حادثه و حادثه.

إن هذه الخرائب كتب ناطقه تتحدث عن ماضى هؤلاء الأقوام، و نتائج أعمالهم و سلوكهم فى الحياه، و عن أعمالهم المشؤومه، و أخيرا عن العقاب الذى صبّه الله عليهم! إن آثار قصور الجباره تبث فى روح الإنسان التفكر و الاعتراض، حيث يعوضنا أحيانا عن مطالعه كتاب ضخيم، و مع أنّ أصل التاريخ يعيد نفسه، فإنّ هذه الآثار تجسّد للإنسان مستقبله أمام عينيه. أجل، إنّ دراسه آثار القدماء تجعل آذاننا صاغيه و أنظارنا ثاقبه. و لهذا السبب يحث القرآن المجيد- فى كثير من آياته- المؤمنين على السياحه، سياحه إلهيه أخلاقيه فيها عبره لأنفسنا و عظه نحصيلها من دراسه إيوان المدائن و قصور الفراعنه. فمرّه نمّر عبر دجله إلى المدائن، و قد نسكب الدمع بغزاره دجله على أرض المدائن، لنسمع نصائح جديده من شقوق خرائب القصور التى كان عمّارها الملوك الجباره، و لناخذ منها الدروس و العبر (١).

و لإيضاح حقيقه هذا الكلام بشكل أفضل قال القرآن المجيد: فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَ لَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ .

إنّ الذين يفقدون بصرهم لا يفقدون بصيرتهم، بل تراهم أحيانا أكثر وعيا من الآخرين. أمّا العمى فهم الذين تعمى قلوبهم، فلا يدركون الحقيقه أبدا! لهذا

يقول الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم: «شّر العمى، عمى القلب! و أعمى العمى عمى القلب» (٢).

و نطالع

حديثا للرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم فى كتاب غوالى اللالى «إذا أراد الله بعبد خيرا فتح عين قلبه فيشاهد بها ما كان غائبا عنه» (٣).

ص: ٣٦٨

١- ١) - شرحنا فى تفسير الآيه (١٣٧) من سوره آل عمران بإسهاب دراسه تاريخ القدماء عن طريق السياحه و السير فى الأرض.

٢- ٢) - نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ٥٠٨.

٣- ٣) - المصدر السابق، ص ٥٠٩.

و هنا يثار سؤال: كيف يقال أنّ القلوب التي في الصدور تدرك الحقائق، في وقت نعلم فيه أنّ القلب مضخّه للدم ليس إلا؟! و قد أجبنا عن هذا في تفسير الآيه السابقه من سوره البقره، و خلاصته أنّ أحد معاني القلب هو العقل، و من معاني الصدر ذات الإنسان.

إضافه إلى أنّ القلب مظهر العواطف، و كلما تأثرت العواطف و الإدراكات الروحيه في الإنسان، فإنّ أوّل أثرها ينعكس على القلب فتزداد نبضاته و يسرع الدم في جريانه، و يمنح الجسم نشاطا و حيويه جديده، فتنسب الظواهر الروحيه إلى القلب، لأنّه أوّل من يتأثر بها في جسم الإنسان. (فتأملوا جيدا).

و ممّا يلفت النظر أنّ الآيه المذكوره أعلاه نسبت سبل إدراك الإنسان إلى القلب (العقل) و الأذنين، إشاره إلى أنّه لا سبيل ثالث لإدراك الأشياء و الحقائق.

فإمّا أن يتفاعل مع الحدث في أعماق روحه و يسعى لتحليل المسائل بنفسه فيصل إلى النتيجة المتوخاه، و إمّا أن يسمع النصيحه من المشفقين الهداه و أنبياء الله و أهل الحقّ، أو يصل إلى الحقائق عن طريق هذين السبيلين (1).

و ترسم الآيه الثانيه -موضع البحث- صورته أخرى لجهل الأغبياء و عديمي الإيمان فتقول: وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ فَرَدَّ عَلَيْهِمُ أَلَّا تَعْجَلُوا وَ لَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ . و «العجول» هو من يخشى فوات الفرصه من يده، و انتهاء إمكاناتها.

أمّا الله القادر على كلّ شيء منذ الأزل، فلا حاجه له بالعجله، فهو قادر دوما على الوفاء بما عد، فلا فرق عنده بين الساعه و اليوم و السنه: وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ .

و سواء أ كان حقّا أم باطلا تكرارهم القول: لماذا لم ينزل الله علينا البلاء.

فليعلموا أنّ العذاب يترقّبهم و سينزل عليهم قريبا. فإن أمهلهم الله، فإنّ ذلك ليعيدوا

ص: ٣٦٩

النظر في أعمالهم، وسيغلق باب التوبة بعد نزول العذاب ولا سبيل للنجاه حينذاك.

و هناك تفاسير أخرى لعباره وَ إِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ غير ما ذكرنا (و هو تساوى اليوم الواحد و الألف سنة بالنسبه إلى قدرته تعالى) منها:

قد يلزم ألف عام لإنجازك عملا ما، و الله تعالى ينجزه فى يوم أو بعض يوم، لهذا فإن عقابه لا يحتاج إلى مقدمات كثيره.

و تفسير آخر يقول: إن يوما من أيام الآخرة كألف عام فى الدنيا، و إن جزاء ربك و عقابه يزداد بهذه النسبه، لهذا نقرأ

فى الحديث التالى: «إنَّ الفقراء يدخلون الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم، خمسمائه عام» (١).

و فى آخر آيه نجد تأكيدا على ما سبق أن ذكرته الآيات الآنفه الذكر من إنذار الكفار المعاندين بأنه ما أكثر القرى و البلاد التى أمهلناها و لم ننزل العذاب عليها ليفيقوا من غفلتهم، و لَمَّا لم يفيقوا و ينتبهوا أمهلناهم مره أخرى ليغرقوا فى النعيم و الرفاهيه، و فجأه نزل عليهم العذاب: وَ كَأَيُّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَمَلَيْتُ لَهَا وَ هِيَ ظَالِمَةٌ لِنَفْسِهَا فَسَاءَ لَهَا يَوْمَ يُنْفَخُ أَصْفَادُ السَّمَاوَاتِ وَ يُنْفَخُ الصُّورُ وَ يَأْتِي السَّاعَةَ بِغَتَابٍ وَ يَأْتِي السَّاعَةَ بِغَتَابٍ وَ يَأْتِي السَّاعَةَ بِغَتَابٍ .

إن أولئك الأقوام كانوا مثلكم يشكون من تأخر العذاب عليهم، و يسخرون من وعيد الأنبياء، و لا يرونه إلا باطلا، إلا أنهم ابتلوا بالعذاب أخيرا و لم ينفعهم صراخهم أبدا وَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ أجل كل الأمور تعود إلى الله، و تبقى جميع الثروات فىكون الله وارثها.

ص : ٣٧٠

اشاره

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٤٩) فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٥٠) وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (٥١)

التفسير

اشاره

الرزق الكريم:

تحدّث الآيات السابق عن تعجيل الكفر و العذاب الإلهي، وإن ذلك ليس من شأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإنما يرتبط بمشيئته الله تعالى، فأول آية من الآيات أعلاه تقول:

قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ

يخاطب سبحانه و تعالى الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم فيأمره أن ينذر الناس بعذاب الله إن تخلفوا عن طاعته.

و ممّا لا شكّ فيه أنّ النبي صلى الله عليه وآله وسلم نذير بشير، و تأكيد الآية هنا لصفه النذير جاء لملاءمه ذلك مع الخاطبين الكفّار المعاندين الذين يستهزئون بعقاب الله.

و ترسم الآيتان التاليتان صورته للبشرى و أخرى للإنذار، لأنّ رحمه الله واسع، فتقدّم على عقاب الله. تتحدّث أولاً عن البشرى
فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا

يتطهرون بماء المغفرة الإلهية أولاً، فتطمئن ضمائرهم، ثم تشملهم نعم الله ورحمته.

عبارة «رزق كريم» (مع ملاحظه أن كلمه «كريم» تطلق على أى موجود شريف و ثمين) ذات مفهوم واسع يضم جميع الأنعم الماديه و المعنويه.

أجل، إنَّ اللهَ الكريمَ يَمَنَّ على عباده المؤمنين الصالحين بأنواع من الرزق الكريم فى تلك المنازل الكريمه، يقول الراغب الاصفهاني فى مفرداته: لا- يقال الكرم إلا فى المحاسن، كمن ينفق مالا فى تجهيز جيش فى سبيل الله، أو تحمّل حماله ترقى دماء قوم. فعلى هذا لا يطلق الكرم على الإحسان الجزئى.

و فسر البعض الرزق الكريم بالرزق الدائم الذى لا عيب و لا نقص فيه.

وقال آخرون: إنَّه الرزق الذى يليق بالمؤمنين الصالحين، و لا- يخفى أن المراد من ذلك شامل و يضم جميع هذه المعانى. و أضافت الآيه السابقه وَ الَّذِينَ سَاءُوا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ أى إنَّ الذين حاولوا تخريب الآيات الإلهيه و محوها، و كانوا يعتقدون بأنَّ لهم القدره على مغالبه إرادته الله المطلقه، فهم أصحاب الجحيم (1).

«جحيم» من مادّه «جحم» بمعنى شدّه توقّد النَّار، و تقال كذلك لشدّه الغضب، فعلى هذا تطلق كلمه (الجحيم) على المكان المشتعل بالنيران، و هى هنا تشير إلى نار الآخره.

ص: ٣٧٢

١ - ١) - «سعوا» مشتقّه من «السعى» و تعنى فى الأساس الهروله، و هنا المحاوله فى تخريب الآيات الإلهيه و محوها. أمّا «المعاجزون» فمشتقّه من «العجز» و تعنى هنا الذى يحاول الغلبه على قدره الله غير المحدوده. و تصوّر بعض المفسّرين أنّ هذا الاحتمال لا- يمكنه أن يكون لأى أحد يريد تعجيز الله و قهر إرادته، و على هذا فإنَّ كلمه «المعاجزين» نسبوا إلى النَّبى و المؤمنين. فى الوقت الذى استخدم هذا التعبير فى آيات قرآنيه أخرى لله، سوره الجن الآيات (١٢) و التوبه الآيه (٢) و (٣) و تعنى عمل شخص يتظاهر بقدرته ليس إلا.

اشاره

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٥٢) لِيَجْعَلَ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ فِتْنَةً لِلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ (٥٣) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٥٤)

التفسير

اشاره

وساوس الشياطين في مساعى الأنبياء:

تناولت الآيات السابقة محاولات المشركين و الكفرة لمحو التعاليم الإلهيه و الاستهزاء بها، أما الآيات موضع البحث فقد تضمنت تحذيرا مهما حيث قالت:

إن هذه المؤامرات ليست جديده، فالشياطين دأبوا منذ البدايه على إلقاء وساوسهم ضد الأنبياء.

فى البداهه تقول الآيه: وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَمْرًا لِّصَالِحِ الدِّينِ وَالْمَجْتَمَعِ وَفَكَرَ فِي خَطِّهِ لِتَطْوِيرِ الْعَمَلِ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمَّتَيْهِ إِلَّا أَنْ اللَّهُ لَمْ يَتْرِكْ نَبِيَّهُ وَحْدَهُ إِزَاءَ إِقَاءَاتِ الشَّيَاطِينِ فَيُنْسِخُ اللَّهُ مَا يُلْقَى الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ .

إنَّ هذا العمل يسير على الله تعالى، لأنه عليم بجميع هذه المؤامرات الدنيئة، و يعرف كيف يحبطها و الله عليم حكيم .

إلا- أنَّ المؤامرات الشيطانية التي كان يحكيها المشركون و الكفرة، كانت تشكل ساحه لامتحان المؤمنين و المتأمرين فى آن واحد، إذ تضيف الآيه ليجعل ما يلقي الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض و القاسية قلوبهم .

وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ

فهم بعيدون عن الحق لشده عداوتهم و عنادهم.

و كذلك الهدف من هذا البرنامج: وَ لِيُعَلِّمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ . و طبعى أن الله لا يترك المؤمنين الواعين المطالبين بحقوقهم و المدافعين عن الحق و حدهم فى هذا الطريق الوعر و إنَّ الله الهاد للذين آمنوا إلى صراطٍ مُسْتَقِيمٍ .

بحوث

اشاره

١- المراد من إلقاءات الشيطان

ما ذكرناه فى تفسير الآيات المذكوره أعلاه كان تنسيقا مع آراء بعض الباحثين، إلا- أنَّ هناك احتمالات أخرى فى تفسير الآيه، منها أنَّ عبارته «تمنى» و «أمنيه» تعنى التلاوه و القراءه، كما جاءت فى أشعار العرب بهذا المعنى. لهذا فإنَّ تفسير آيه و مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ... كان الشياطين (خاصه شياطين

الإنس) يلقون بكلمات خلال قراءه كلام الله على الناس لتشويش الأفكار، و لإبطال أثر القرآن في الهدايه و النجاه. إلا أن الله عزّ وجلّ كان يمحو أثر هذه الإلقاءات و يثبت آياته. و ينسجم هذا التفسير مع عبارته ثمّ يُحكّم الله آياته و كذلك يساير (وفقا لبعض التبريرات) أسطوره الغرائق التي سيرد ذكرها.

و لم تستعمل «تمنى» و أمنيه» بمعنى التلاوه إلا نادرا، و لم ترد في القرآن بهذا المعنى قطّ. «تمنى» مشتقه من «منى» على وزن «مشى» و أصلها تعنى التقدير و الفرض. و سميت نطفه الرجل ب«المنى» لأنّ تقدير كيان الفرد يفرض فيها. و يقال للموت «متيه» لأنّه يحلّ فيه الأجل المقدر للإنسان، و لهذا تستعمل كلمه «تمنى» لما يصوّر الإنسان في مخيلته و التي يطمح إلى تحقّقها. و خلاصه القول: إنّ أصل هذه الكلمه هي التقدير و الفرض و التصرّ، أيما استخدمت.

و يمكن ربط معنى التلاوه بهذه الكلمه، فيقال: التلاوه تشمل التقدير و التصرّ للكلمات، إلا أنّها رابطه بعيده لا أثر لها في كلمات العرب.

أمّا المعنى الذي ذكرناه لتفسير الآيه (برامج الأنبياء و مخططاتهم للوصول إلى الأهداف الإلهيه) فإنّه يناسب المعنى الأصلي للكلمه «تمنى».

و ثالث احتمال في تفسير الآيه أعلاه هو ما ذكره بعض المفسّرين و رأى فيه أنّه إشاره إلى بعض الأخطار و الوسوس الشيطانيه التي تلقى في لحظه عبارته في أذهان الأنبياء الطاهره التيره.

و بما أنّهم معصومون و منصورون بقوّه غيبيه و إمدادات إلهيه، فإنّ الله يمحو أثر هذه الإلقاءات من أفكارهم و يهديهم إلى الصراط المستقيم.

إلا أنّ هذا التفسير لا ينسجم مع الآيتين الثانيه و الثالثه ممّا نحن بصددّه، و القرآن اعتبر هذه الإلقاءات الشيطانيه وسيله إمتحان للكفره و المؤمنين الواعين على السواء، و لا أثر لها في قلوب الأنبياء لما يمحو الله عنها من إلقاءات الشياطين.

و بهذا تتضح ملاءمه التفسير الأول أكثر من غيره، و هي إشارة إلى نشاط الشياطين و ما يلقونه على الأنبياء لتعويق عملهم البناء، غير أن الله يبطل ما يفعلون و يمحو ما يلقون.

٢- أسطورة الغرائق المختلفة!

جاء في بعض كتب السنّة روايه عجيبه تنسب إلى ابن عباس، مفادها أن النبي صلى الله عليه و آله و سلّم كان مشغولا بتلاوه سورة «النجم» في مكّة المكرّمه، و عند ما بلغ الآيات التي جاء فيها ذكر أسماء أصنام المشركين أفرأيتُم اللَّاتَ وَ الْعُزَّى وَ مَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى ألقى الشيطان على النبي هاتين الجملتين و جعلهما على لسانه: (تلك الغرائق العلى و إن شفاعتهن لترتجى!) أى إنهن طيور جميله ذات منزله رفيعه و منها ترتجى الشفاعة (١). و قد فرح المشركون بذلك، و قالوا: إن محمّدا لم يذكر آلهتنا بخير حتى الآن.

فسجد محمّد صلى الله عليه و آله و سلّم و سجدوا هم أيضا، فنزل جبرائيل عليه السّلام على الرّسول صلى الله عليه و آله و سلّم محدّرا من أنّه لم ينزل هاتين الآيتين و أنّهما من إلقاءات الشيطان. و هنا أنزل عليه الآيات موضع البحث و ما أرسلنا من قبلك من رّسولٍ... محدّرا الرّسول صلى الله عليه و آله و سلّم و المؤمنين (٢). و رغم أن عددا من أعداء الإسلام نقلوا هذا الحديث و أضافوا عليه ما يحلو لهم للمساس برسالة النبي صلى الله عليه و آله و سلّم و القرآن، إلاّ أنّه مختلق يبغى النيل من القرآن و أحاديث الرّسول صلى الله عليه و آله و سلّم.

و هناك أدلّه دامغه عديده تؤكّد اختلاق شياطين الإنس لهذا الحديث:

أولا: ذكر الباحثون ضعف روايته و عدم الثقة بهم، و لا دليل على أنّه من روايه

ص: ٣٧٤

١- ١) - «الغرائق» جمع غرنوق، على وزن بهلول، طائر يعيش في الماء أبيض أو أسود اللون، كما جاء بمعان أخرى «قاموس اللغة».

٢- ٢) - جاء ذكر هذا الحديث نقلا عن جماعه من حفاظ أهل السنّة في تفسير الميزان.

ابن عباس. وقد صنّف محمّد بن إسحاق كتابا أكد فيه اختلاق الزنادقة لهذا الحديث (١).

ثانيا: ذكرت الكتب الإسلاميه أحاديث عديده عن نزول سورة النجم و سجود النبي صلى الله عليه و آله و سلم و المسلمين، و لم تذكر شيئا عن هذا الحديث المختلف. و هذا يدلّ على إضافه هذه الجملة إليه فيما بعد (٢).

ثالثا: تنفى آيات مطلع سورة النجم بصراحه هذه الخرافه و مَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ .

كيف تنسجم هذه الاسطوره مع هذه الآيه التي نزهت و عصمت الرسول صلى الله عليه و آله و سلم؟ اربعا: استنكرت الآيات التاليه للآيه التي سمّيت أو ثان المشركين و الأصنام، و بينت قبحها و سخفها، فقد ذكرت بصراحه إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَ مَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَ قد جاءهم من ربهم الهدى، و مع كلّ هذا الذم للأصنام، كيف يمكن مدحها؟! إضافه إلى أنّ القرآن المجيد ذكر بصراحه أنّ الله يحفظه من كلّ تحريف إنا نحن نزلنا الذكر و إنا له لحافظون (٣).

خامسا: إنّ جهاد النبي صلى الله عليه و آله و سلم للأصنام جهاد مستمر طوال حياته و لم يقبل المساومه قطّ.

و قد رفض الرسول صلى الله عليه و آله و سلم الأوثان، و برهنت سيرته المطهره على استنكارها و التصدّي لها، حتّى فى أصعب الظروف، فكيف ينطق بمثل هذه الكلمات؟! سادسا: إنّ الكثير من غير المسلمين الذين لا يعتقدون بأنّ النبي محمّدا صلى الله عليه و آله و سلم

ص: ٣٧٧

١-١) -التفسير الكبير للفخر الرازى، المجلد الثالث و العشرون، صفحه ٥٠.

٢-٢) -المصدر السابق.

٣-٣) -سوره الحجر، ٩.

مرسل من الله، يعترفون بأنه إنسان مفكر واع حقق أعظم الانتصارات. فهل يمكن لمن شعاره الأساس «لا- إله إلا- الله»، و جهاده الرفض لأي نوع من أنواع الشرك و الوثنيه. و حياته برهان على الإباء و رفض الأصنام، يترك فجأه سيرته تلك ليشيد بالأوثان؟! و من كل هذا نستنتج أن اسطوره الغرائق من وضع أعداء سدج و مخالفين لا يخافون الله، اختلقوا هذا الحديث لإضعاف منزله القرآن و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم، لهذا نفى جميع الباحثين الإسلاميين من السنه و الشيعه هذا الحديث بقوه و اعتبروه مختلفا (١).

و ذكر بعض المفسرين تبريرا لهذه الإضافه بالقول: على فرض صحه الحديث، إلا أن النبي صلى الله عليه و آله و سلم كان يتلو سوره النجم و بلغ أفرأيتُم اللات و العزى و مذآه الثآلثه الأخرى استغل بعض المشركين المعاندين هذه الفرصه، فنادى بلحن خاص «تلك الغرائق العلى و إن شفاعتهن لترتجى» فأشكوا على الناس بالتشويش على كلام الرسول صلى الله عليه و آله و سلم. إلا أن الآيات اللاحقه ردتهم بإدانتها الشديده لعباده الأصنام (٢).

و يتضح أن بعضهم وجد فى اسطوره الغرائق نوعا من الرغبه لدى الرسول صلى الله عليه و آله و سلم فى كسب الوثنيين إلى صفوف المسلمين، إلا أن هذا القول يعنى ارتكاب هؤلاء المفسرين خطأ كبيرا، و يدل على أن هؤلاء المسوغين للوثنيه لم يدركوا موقف الرسول صلى الله عليه و آله و سلم إزاءها، رغم أن المشهود تاريخيا هو رفض الرسول صلى الله عليه و آله و سلم العطاء السخى من المشركين مقابل العدول عن رسالته الإسلاميه...

أو أن هؤلاء المبررين يتجاهلون ذلك متعمدين.

ص: ٣٧٨

١ - ١) - مجمع البيان، تفسير الفخر الرازى، القرطبي، فى ظلال القرآن، تفسير الصافى، روح المعانى، و الميزان، و تفاسير أخرى للآيات موضع البحث.

٢ - ٢) - تفسير القرطبي، المجلد السابع، صفحه ٤٤٧- و المرحوم الطبرسى فى مجمع البيان ذكره أيضا كأمر محتمل.

٣- الفرق بين الرسول و النبي!

هناك أقوال كثيره فى الفرق بين «الرسول» و«النبي»، و أكثرها قبولا- أنّ كلمه الرسول تطلق على أنبياء لهم رسالات من الله أمروا بنشرها بين الناس، و ألا يألوا أى جهد فى هذا الطريق، و أن يتحملوا الصعاب و لا يبالوا بالتضحيه بأرواحهم من أجل رسالتهم.

أمّا كلمه «النبي» فقد اشتقت من «نبا» و هو الذى ينبأ بالوحي الإلهى رغم أنه لم يكلف بإبلاغه بشكل واسع. فهو كالطبيب يراجعه المرضى للعلاج و طلب الدواء، و لكلّ نبي مهمه تختلف عن مهمه الآخر، و ذلك بمقتضى الأحوال و البيئه التى يعيشها كل واحد منهم (١).

ص: ٣٧٩

١-١) -تحدّثنا فى هذا أيضا فى تفسير الآيه (١٢٤) من سوره البقره.

اشاره

وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ (٥٥) الْمَلِكُ يَوْمَئِذٍ لِلَّهِ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ (٥٦) وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ (٥٧) وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٥٨) لَيَدْخِلْنَهُمْ مُدْخَلَ بَرٍّ طَيِّبٍ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (٥٩)

التفسير

اشاره

الرزق الحسن:

تحدّث الآيات السابقة عن محاولات المخالفين في محو الآيات الإلهية، أمّا الآيات التي نقف في ضوءها، فأشارت إلى هذه المحاولات من قبل أشخاص متعصّبين قساه.

تقول الآية الأولى: وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي مِرْيَةٍ مِنْهُ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ

بَعْتَهُ أَوْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ يَوْمَ عَقِيمٍ

بديهي أنّ الآية هنا قصدت فئه من الكفار لا الكفار كلهم، لأنّ الكثير منهم أسلموا و التحقوا بالنبي صلى الله عليه وآله و سلم و بصفوف المسلمين.

قصدت الآية زعماء الكفار و المعاندين و المتعصّبين بقوّه و الحاقدين الذين لم يؤمنوا قطّ، و استمروا في عرقه المسيره الإسلاميه.

و تعنى كلمه «مريه» الشكّ و التردد، و تبين لنا الآية أنّ هؤلاء الكفرة لم يكونوا يوما على يقين ببطلان الإسلام و دعوه النبي صلى الله عليه وآله و سلم بالرغم من إظهارهم لذلك في كلماتهم، بل كانوا في شكّ من القرآن و الإسلام، إلا أنّ تعصّبهم كان يحول دون توصلهم إلى الحقيقه.

أمّا «الساعه» فقد ذهب البعض إلى أنّها تعنى الموت و نظيره، إلاّ- أنّ الآيات اللاحقه بينت أنّ القصد ختام العالم و عشيه يوم القيامه، و التي رافقت كلمه «بعته».

و يقصد بَعْدَ عَذَابٍ يَوْمَ عَقِيمٍ عقاب يوم القيامه، و قد وصف يوم القيامه بالعقم لأنّه لا يوم يليه لينهض المرء للقيام بأعمال خيره تعوّض عمّا فاته و تؤثر في مصيره.

ثمّ أشارت الآية التاليه إلى السيادة المطلقه لربّ العالمين يوم القيامه الْمَلِكُ يَوْمَ تَمُوتُ لِلَّهِ و هذا أمر ملازم لله الحاكم الدائم و المالك المطلق، و ليس ليوم القيامه فقط، بل هو على مدى الزمان، و بما أنّ في الدنيا مالكين و حكّاما آخرين رغم محدوديه ملكياتهم و سلطانهم و رغم أنّها ملكيه ظاهريه و سلطان شكلي، إلاّ أنّه قد يولد تصوّرا بأنّ هناك حكّاما ملاكا غير الله. و لكنّ كلّ هذا يزول و تتضح حقيقه وحدانيه المالك و الحاكم يومئذ.

و بتعبير آخر: هناك نوعان من السيادة و الملكيه: السيادة الحقيقيه، و هي للخالق على المخلوق، و السيادة الاعتباريه الناتجه عن اتّفاق بين الناس، و يوجد كلا هذا النوعان في الدنيا، و لكن تزول الحكومات الاعتباريه كلّها يوم القيامه،

و تبقى السيادة الحقيقيه لخالق العالم (١).

و على أى حال، فإنّ الله هو المالك الحقيقى، فهو إذن الحاكم الحقيقى، و تعمّ حكومته على المؤمنين و الكافرين على السواء، و نتيجته ذلك كما يقول القرآن المجيد: فَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ الْجَنَّاتِ الَّتِي تَتَوَفَّرُ فِيهَا جَمِيعُ الْمَوَاهِبِ وَ كُلِّ الْخَيْرَاتِ وَ الْبَرَكَاتِ.

و يضيف القرآن الكريم وَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا فَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ ما أجمل هذا التعبير! عذاب يذلّ الكفره و الذين كذبوا بآيات الله، أولئك الذين عاندوا الله و استكبروا على خلقه يهينهم الله. و قد وصف القرآن العذاب بـ «الأليم» و «العظيم» و «المهين» فى آيات مختلفه، ليلائم كلّ واحد منه الذنب الذى اقترفه المعاندون!.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن المجيد أشار فى حديثه عن المؤمنين إلى أمرين «الإيمان» و «العمل الصالح»، و فى المقابل أشار فى حديثه عن الكافرين إلى «الكفر» و «التكذيب بآيات الله»، و هذا يعنى أنّ كلّ منهما متركّب من إعتقاد داخلى و أثر خارجى يبرز فى عمل الإنسان، حيث إنّ لكلّ عمل إنسانى أساسا فكريا.

و بما أنّ الآيات السابقه تناولت المهاجرين من الذين طردوا من ديارهم و سلبت أموالهم، لأنّهم قالوا: رَبَّنَا اللَّهُ، و دافعوا عن شريعته، فقد اعتبرتهم الآيه التاليه مجموعه ممتازه جديره بالرزق الحسن و قالت: وَ الَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ .

قال بعض المفسّرين: إنّ «الرزق الحسن» هو النعم التى تشدّ نظر الإنسان إليها عند مشاهدته لها فلا يدير طرفه عنها، و إنّ الله وحده هو القادر على أن يمنّ

ص: ٣٨٢

على الإنسان بهذا النوع من الرزق...

ذكر بعض المفسرين سببا لنزول هذه الآية خلاصته: «لَمَّا مات عثمان بن مظعون و أبو سلمه بن عبد الأسد، قال بعض الناس: من قتل في سبيل الله أفضل ممّن مات حتف أنفه، فنزلت هذه الآية مسوّيه بينهم، وإنّ الله يرزق جميعهم رزقا حسنا، و ظاهر الشريعة يدلّ على أنّ المقتول أفضل. و قد قال بعض أهل العلم: إنّ المقتول في سبيل الله و الميّت في سبيل الله شهيد» (١).

و عرضت الآية الأخيره صورته من هذا الرزق الحسن «لَيَدْخِلْنَهُمْ مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ» فإذا طردوا من منازلهم في هذه الدنيا و لاقوا الصعاب، فإنّ الله يأويهم في منازل طيبه في الآخرة ترضيهم من جميع الجهات، و تعوّضهم -على أفضل وجه- عما ضحوا به في سبيل الله.

و تنتهى هذه الآية بعبارته وَ إِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ أَجَلٌ، إنّ الله عالم بما يقوم به عباده، و هو في نفس الوقت حلیم لا يستعجل في عقابهم، من أجل تربيته المؤمنين في ساحه الامتحان هذه، و ليخرجوا منها و قد صلب عودهم و ازدادوا تقربا إلى الله.

ص: ٣٨٣

١- ١) - «الجامع لأحكام القرآن» لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، المجلد ١١-١٢، ص ٨٨.

اشاره

ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُعِيَ عَلَيْهِ لِيُنْصَرَفَ عَنْهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ (٦٠) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٦١) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٦٢)

سبب النزول

روى أن عددا من المشركين من أهل مكه واجهوا المسلمين و لم يبق لانتهاه شهر المحرم إلا يومان. قال المشركون بعضهم لبعض: إن أصحاب محمد صلى الله عليه و آله و سلم لا يحاربون في شهر المحرم. و لهذا بدأوا بمهاجمه المسلمين، و رغم إلحاح المسلمين عليهم بإيقاف القتال، لم يعطوا أذنا صاغيه لهذا الطلب، فاضطرّ المسلمون إلى قتالهم ببطوله فريده فنصرهم الله، و هنا نزلت أول آيه من الآيات المذكوره آنفا (١).

ص: ٣٨٤

من هم المنتصرون؟

حدّثنا الآيات السابقة عن المهاجرين في سبيل الله، وما وعدهم الله من رزق حسن يوم القيامة. و من أجل ألا يتصور المرء أنّ الوعد الإلهي يختصّ بالآخره فحسب، تحدّث الآيه-موضع البحث- في مطلعها عن انتصارهم في ظلّ الرحمة الإلهية في هذا العالم: **ذَلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لِيُنْصِرَهُ اللَّهُ إِشَارَهُ إِلَى أَنَّ الدِّفَاعَ عَنِ النَّفْسِ وَ مَجَابَهَةَ الظُّلْمِ حَقٌّ طَبِيعِيٌّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ.**

و عبارته «بمثل» تأكيد لحقيقته أنّ الدفاع لا يجوز له أن يتعدى حدوده.

عبارته **ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ** هي أيضا إشارة إلى وعد الله بالانتصار لمن يظلم خلال الدفاع عن نفسه، وعلى هذا فالساكت عن الحقّ و الذي يقبل الظلم و يرضخ له، لم يعده الله بالنصر، فوعد الله بالنصر يخصّ الذين يدافعون عن أنفسهم و يجابهون الظالمين و الجائرين، فهم يستعدّون بكلّ ما لديهم من قوه لمجابهة هذا الظلم.

و يجب أن تمتزج الرحمة و السماح بالقصاص و العقاب لتكسب النادمين و التائبين إلى الله، حيث تنتهي الآيه ب **إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوفٌ غَفُورٌ.**

و تطابق هذه الآيه آيه القصاص حيث منحت ولى القتل حقّ القصاص من جهه و أفهمته أنّ العفو فضيله (للجديرين بها) من جهه أخرى.

و بما أنّ الوعد بالنصر الذي يقوى القلب لا بدّ و أن يصدر من مقتدر على ذلك.

لهذا تستعرض الآيه قدره الله في عالم الوجود التي لا تنتهي، فنقول: **ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُوَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَ يُوَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ** فما أن يقل من أحدهما حتّى يزداد في الآخر وفق نظام مدروس.

كلمه «يولج» مشتقه من «الإيلاج» و هو في الأصل من الولوج أى الدخول.

و هذه العبارة- كما قلنا- تشير إلى التغييرات التدريجيّة المنظمه تنظيما تاما،

كمسأله الليل و النهار، فما يقلّ أحدهما إلا ليزداد الآخر على مدى فصول السنه.

و ربّما تكون إشاره إلى شروق الشمس و غروبها الذى لا- يحدث فجأه بسبب الظروف الجويّه الخاصّه (بالهواء المحيط بالأرض) حيث تمتدّ أشعّه الشمس فى البدايه نحو طبقات الهواء العليا، ثمّ تنتقل إلى الطبقات السفلى. و كأنّ النهار يلج فى الليل و يطرد جيش قوى الظلام.

و عكس ذلك ما يقع حين الغروب، حيث تلملم أشعّه الشمس خيوطها من الطبقات السفلى للأرض، فيسودها الظلام تدريجيا حتّى ينتهى آخر خيط من أشعّه الشمس و يسيطر جيش الظلام على الجميع. و لو لا هذه الظاهره، فسيكون الشروق و الغروب على حين غرّه، فيلحق الأذى بالإنسان جسما و روحا، و يحدث هذا التغيير السريع أيضا مشاكل كثيره فى النظام الاجتماعى.

و لا مانع من إشاره الآيه السالفه الذكر إلى هذين التفسيرين.

و تنتهى الآيه ب وَ أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ أَجَلٌ، إِنَّ اللَّهَ يَلْبِى حَاجَةَ الْمُؤْمِنِينَ، و يَطَّلِعُ عَلَى حَالِهِمْ و أَعْمَالِهِمْ، و يعينهم برحمته عند اللزوم. مثلما يَطَّلِعُ عَلَى أَعْمَالٍ و مقاصد أعداء الحقّ.

و آخر آيه من الآيات السالفه الذكر فى الواقع دليل على ما مضى حيث تقول:

ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَ أَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ

إن شاهدتم انتصار الحقّ و هزيمة الباطل، فإنّ ذلك بلطف الله الذى ينجد المؤمنين و يترك الكافرين لوحدهم.

إنّ المؤمنين ينسجمون مع قوانين الوجود العامه، بعكس الكافرين الذين يكون مآلهم إلى الفناء و العدم بمخالفتهم تلك القوانين. و الله حقّ و غيره باطل.

و جميع البشر و المخلوقات التى ترتبط بشكل ما بالله تعالى هى حقّ أيضا. أمّا

غيرها فباطل بمقدار ابتعادها عنه عزّ و جلّ (١).

و كلمه «علّى» مشتقّه من «العلو» بمعنى ذى المنزله الرفيعه، و تطلق أيضا على القادر و القاهر الذى لا تقف أمامه قدره.

أمّا كلمه «الكبير» فهى إشارة إلى سعه علم الله و قدرته، و طبيعى أنّ من يملك هذه الصفات بإمكانه مساعدته أحبائه و تدمير أعدائه، إذن فليطمئن المؤمنون إلى ما وعدهم الله تعالى.

ص: ٣٨٧

١ - ١) - نقرأ فى «الميزان» أنّ إطلاق الحقّ على الله و الباطل على غيره، لأنّ الحقّ الذى لم يختلط بباطل أبدا هو الله سبحانه و تعالى، أو لكونه عزّ و جلّ مستقلا فى حقّانيته و الآخرون تابعين له.

اشاره

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ (٦٣) لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (٦٤) أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَالْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بَإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ (٦٥) وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ (٦٦)

التفسير

اشاره

دلائل الله في ساحه الوجود:

تحدّثت الآيات السابقه عن قدره الله غير المحدوده و أنه الحقّ المطلق، و بينت هذه الآيات الأدلّه المختلفه على هذه القدره الواسعه و الحقّ المطلق و تقول أولًا: أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً .

لقد اخضرت الأرض المرتديه رداء الحزن-من أثر الجفاف-بعد ما نزل

المطر عليها. فأصبحت تسر الناظرين. أجل إنَّ اللهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ. وكلمه «لطيف» مشتقّه من «اللطف» بمعنى العمل الجميل الذى يمتاز برقته. ولهذا يطلق على الرحمه الإلهيه الخاصه لفظ «اللطف». وكلمه «الخير» تعنى المطلع على الأمور الدقيقه.

و بلطف الله تنمو البذره تحت الأرض، ثم ترتفع خلافا لقانون جاذبيه الأرض، و ترى الشمس و تشم نسيم الهواء حتّى تصبح نباتا مثمرا أو شجره باسقه.

و هو الذى أنزل المطر فمنح التربه الجافه لطفا و رقه لتسمح للبذره بالحركه و النمو. و هو خبير بجميع الاحتياجات و المراحل التى تمرّ بها هذه البذره حتّى ترتفع نحو السّماء. يرسل الله المطر بقدره و بخبره منه، فإن زاده صار سيلاً، و إن نقصه كثيرا ساد الجفاف فى الأرض، و تقول الآيه الثامنه عشره من سوره المؤمنين: **وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ (١)**.

الآيه التالیه تعرض علامه أخرى على قدره الله غير المتناهيه، و هو قوله سبحانه و تعالى: **لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَ مَا فِي الْأَرْضِ .**

فهو سبحانه خالق الجميع و مالکهم، و بهذا الدليل يكون قادرا عليهم، لذا فهم يحتاجون إليه جميعاً، و لا يحتاج هو إلى شىء أو إلى أحد.

و يزداد هذا المعنى إشراقاً فى قوله سبحانه: **وَ إِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ** و التحام صفتى الغنى و الحمد جاء فى غايه الإحكام:

أولاً: لأنّ عددا كبيرا من الناس أغنياء، إلا أنّهم بخلاء يستغلّون الآخرين و يعملون لذاتهم فقط، و قد غرقوا فى الغفله و الغرور. و تغلب على أصحاب الثروه الطائله هذه الصفات. أمّا غنى الله سبحانه فهو مزيج من اللطف و السماء و الجود و الكرم، لذا استحقّ الحمد و الثناء من عباده.

ص: ٣٨٩

ثانيا: إِنَّ الْأَغْنِيَاءَ غَيَّرَ اللَّهُ تَعَالَى غَنَاهُمْ ظَاهِرِي، وَإِذَا كَانُوا كَرَمَاءَ فَإِنَّ كَرَمَهُمْ فِي الْوَاقِعِ لَيْسَ مِنْهُمْ، بَلْ مِنْ لَطْفِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَقَدِيمِ إِحْسَانِهِ، فَكُلُّ إِمْكَانَاتِهِمْ إِنَّمَا هِيَ مِنْ أَنْعَمَ اللَّهُ. فَاللَّهُ وَحْدَهُ هُوَ الْغَنَى بِذَاتِهِ وَالْجَدِيرُ بِكُلِّ حَمْدٍ وَثَنَاءٍ.

ثالثا: لِأَنَّ الْأَغْنِيَاءَ يَعْمَلُونَ مَا يَفِيدُهُمْ أَوْ يَتَوَخَّوْنَ فَائِدَتَهُ، أَمَّا رَبُّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فَيَجُودُ وَيَرْحَمُ وَيَعْفُو دُونَ حِسَابٍ، وَلَا ابْتِغَاءَ فَائِدَةٍ، وَلَا سَدَّ حَاجَةٍ، وَإِنَّمَا يَفْعَلُ ذَلِكَ كَرَمًا مِنْهُ وَرَحْمَةً، فَهُوَ أَهْلُ الْحَمْدِ وَالثَّنَاءِ بِلَا شَرِيكَ.

□
و تشير الآيه التاليه إلى نموذج آخر من تسخير الله تعالى الوجود للإنسان أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ تَحْتَ اخْتِيَارِكُمْ جَمِيعَ الْمَوَاهِبِ وَالْإِمْكَانَاتِ فِيهَا لِتَسْتَفِيدُوا مِنْهَا بِأَيِّ صَوْرَةٍ تَرِيدُونَ، وَكَذَلِكَ جَعَلَ الْسُفْنَ وَالْبَوَاقِرَ الَّتِي تَتَحَرَّكُ وَتَمُخِرُ عِبَابَ الْبِحَارِ بِأَمْرِهِ نَحْوَ مَقَاصِدِهَا. أَلْفُلُوكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ إِضَافَةً إِلَى وَ يُمَسِّكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَالْكَوَاكِبُ وَالنُّجُومُ تَسِيرُ فِي مَدَارَاتٍ مَحْدَدَةٍ بِأَمْرِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، كُلُّ ذَلِكَ لِتَسِيرَ فِي فَاصِلِهِ مَحْدَدَةٍ لَهَا عَنِ الْكَوَاكِبِ الْآخَرِي، وَتَمْنَعُ اصْطِدَامَ بَعْضِهَا بِبَعْضٍ.

و خلق الله طبقات جويّه حول الأرض لتحول دون وصول الأحجار السائبه في الفضاء إلى الأرض و إلحاق الضرر بالبشر.

و ذلك من رحمه الله لعباده و لطفه بهم، فقد خلق الأرض آمنه لعباده، فلا تصل إليهم الأحجار السائبه في الفضاء، و لا تصطدم الأجرام الأخرى بالأرض. و هذا ما نلمسه في ختام الآيه المباركه إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرُؤُوفٌ رَحِيمٌ .

و تتناول الآيه الأخيره أهمّ قضيه في الوجود، أي قضيه الحياه و الموت فتقول:

وَ هُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ

أي كنتم ترابا لا- حياه فيه فألبسكم لباس الحياه ثُمَّ يُمِيتُكُمْ و بعد انقضاء دوره حياتكم يميتكم ثُمَّ يُحْيِيكُمْ أي يمنحكم حياه جديده يوم البعث.

و تبين الآيه ميل الإنسان إلى نكران نعم الله عليه قائله: إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ

فرغم كل ما أصدق الله على الإنسان من أنعم في الأرض و السّماء، في الجسم و الروح، لا يحمده و لا يشكره عليها، بل يكفر بكلّ هذه النعم. و مع أنّه يرى كلّ الدلائل الواضحة و البراهين المؤكده لوجود الله تبارك و تعالى، و الشاهده بفضلله عليه و إحسانه إليه ينكر ذلك. فما أظلمه و أجهله!

ملاحظات

إشاره

١- الصفات الخاصه بالله:

بيّنت الآيات السالفه الذكر و الآيتان اللتان سبقتها، أربع عشره صفه من صفات الله (في نهايه كلّ آيه جاء ذكر صفتين من صفات الله) العليم و الحليم - العفو و الغفور - السميع و البصير - العلى و الكبير - اللطيف و الخبير - الغنى و الحميد - الرؤوف و الرحيم. و كلّ صفه تكمل ما يقترن بها. و تنسجم معها و تتناسب مع البحث الذى تناولته الآيه، كما مرّ سابقا.

٢- الآيات تدلّ على توحيد الله و على المعاد

إنّ الآيات السابقه، مثلما هى دليل على قدره الله تعالى و تأكيد لما وعد من نصر لعباده المؤمنين، و شاهد على حقانيته المقدسه التى استندت الآيات السالفه الذكر إليها، فهى دليل على توحيد الله و على المعاد، فإحياء الأرض بالمطر بعد موتها، و نموّ النبات فيها، و كذلك حياه الإنسان و موته شاهد على البعث و النشور.

و معظم الآيات عرضت هذه الأدله فى البرهنه على حقيقه المعاد يوم القيامه.

و قوله تعالى: **إِنَّ الْإِنْسَانَ لَكَفُورٌ** تأكيد على إصرار المعاندين على الكفر، ففى صيغه المبالغه «كفور» دلالة على هذا العناد، فهذا الإنسان منكر لفضل ربّه مع مشاهدته لآياته العظيمه، و مصرّ على الانحراف عن هدايه و نور رحمته الواسعه.

لقد سخّر الله هذه الموجودات للإنسان و ذلكها لمصلحه.(و قد بيّنا هذا الموضوع مفصّلا في تفسير الآيه (١٢) إلى (١٤) من سوره النحل، و في تفسير الآيه الثانيه من سوره الرعد).

و جاء ذكر السفن في البحار و المحيطات بين النعم، لأنها كانت أهمّ و سيله للنقل و التجاره، و لم تحلّ محلّها أيّه و سيله أرخص منها حتّى الآن. و لو توقفت هذه السفن يوما لا ختلّت منافع البشر، فالطرق البريه لا تسدّ حاجه الإنسان إلى النقل و الانتقال، خاصّه في العصر الحاضر الزاخر بالاحتياج إلى النفط المحمول في السن التي لا تفتقر عن الحركة، لتدبير عجله الصناعه في العالم. و لقد تجلّت هذه النعمه اليوم أكثر، فما تعدل عشرات الآلاف من الصهاريج السيّاره في البرّ ناقله نפט عملاقه، و نقل النفط بواسطه الأنابيب النفطيه لا يستوعب إلاّ مناطق محدوده من العالم.

اشاره

لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا هُمْ نَاسِكُوهُ فَلَا يُنَازِعُونَكَ فِي الْأَمْرِ وَادْعُ إِلَىٰ رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ (٦٧) وَإِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ (٦٨) اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٦٩) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٧٠)

التفسير

اشاره

لكل أمة عبادته:

تناولت البحوث السابقة المشركين خاصه، و مخالفى الإسلام عامه، ممن جادلوا فيما أشرق به الإسلام من مبادئ نسخت بعض تعاليم الأديان السابقه.

و كانوا يرون من ذلك ضعفا فى الشريعه الإسلاميه، و قوه فى أديانهم، فى حين أنّ ذلك لا يشكل ضعفا إطلاقا، بل هو نقطه قوه و منهج لتكامل الأديان و لذا جاء الفصل الربانى جليا لكل أمة جعلنا منسكا هُمْ ناسكوه (١).

ص: ٣٩٣

١-١) - يرى بعض المفسرين أنّ هذه الآيات تشير إلى ردّ لما أثاره المشركون من اعتراض قائلين: لماذا لا تأكلون الميتة التى قتلها

«المناسك»- كما قلنا سابقا- جمع «منسك» أى مطلق العبادات، و من الممكن أن تشمل جميع التعاليم الإلهية. لهذا فإن الآيه تبين أن لكل أمه شرعه و منهاجا يفي بمتطلباتها بحسب الأحوال التى تعيشها، لكن ارتقاءها يستوجب تعاليم جديده تلبي مطامحها المترقيه، و هذا ما صدعت به الآيه المباركه و أنارته قائله: **فَلَا يَنَازِعُنَكَ فِي الْأَمْرِ**. فيما تقدم لا ينبغي لهم منازعتك فى هذا الأمر.

وَ اذْعُ إِلَى رَبِّكَ إِنَّكَ لَعَلَىٰ هُدًى مُّسْتَقِيمٍ

.تخاطب الآيه النبى صلى الله عليه و آله و سلم أن يا أيها النبى لا يؤثر هؤلاء فى دعوتك الراشده باعتراضاتهم الضاله، فالمهتدى إلى الصراط المستقيم أقوى من الضارب فى التيه.

فوصف «الهدى» بالاستقامه، إمّا تأكيداً لها، و إمّا إشاره إلى أنها يمكن أن تتحقق بطرق مختلفه، قريبها و بعيدها، مستقيمها و ملتويها، إلا أن الهدايه الإلهيه أقربها و أكثرها استقامه.

ثم أضافت الآيه و **إِنْ جَادَلُوكَ فَقُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَعْمَلُونَ** فلو استمروا فى جدالهم و منازعتهم معك، و لم يؤثر فيهم كلامك. فقل لهم: إن الله أعلم بأعمالكم، و ستحشرون إليه فى يوم يعود الناس فيه إلى التوحيد، و تحل جميع الاختلافات لظهور الحقائق لجميع الناس: **اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** فيما كنتم فيه تختلفون (١).

و بما أن القضاء بين العباد يوم القيامه بحاجه إلى علم واسع بهم و اطلاع دقيق بأعمالهم، ختمت الآيات هاهنا بقوله تعالى: **أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَ الْأَرْضِ وَ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ**.

(١)

الله، فى وقت تأكلون فيه الميتة التى قتلتموها أتم؟ انزلت هذه الآيات لترد عليهم. إلا أنه يستبعد أن تتضمن هذه الآيات ذلك. لأن أكل الميتة لم تسمح به شريعته فى الظاهر-لما فيه من ضرر، حتى يأتى القرآن ليؤيد ذلك و يقول: لكل شريعته تعاليمها.

ص: ٣٩٤

١ - ١) - هذه الآيه قد تخاطب المخالفين للإسلام و النبى صلى الله عليه و آله و سلم، و على هذا فإن عبارته **اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ**... قول الله على لسان نبية صلى الله عليه و آله و سلم، و يمكن أن تخاطب جميع المسلمين و المخالفين، و على هذا تكون هذه الآيه ذات بيان خاص موجه من الله إلى الجميع.

أجل، إنَّ جميع ذلك قد ثبت في كتاب علم الله الذي لا حدود له، كتاب عالم الوجود و عالم العلّه و المعلول، عالم لا يضيع فيه شيء، فهو في تغيير دائم، حتى لو خرجت أمواج صوت ضعيف من حنجره إنسان قبل ألفى عام فإنها لا تنعدم، بل تبقى في هذا الكتاب الجامع لكل شيء بدقه. أى إنَّ كل ما يجرى في هذا الكون مسجّل في لوح محفوظ هو لوح العلم الإلهي، و كل هذه الموجودات حاضره بين يدي الله سبحانه بجميع صفاتها و خصائصها. و هذا من معاني القدره الإلهيه التي نلمسها في قوله تعالى: **إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ .**

اشاره

وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَمْ يَنْزَلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَا لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ (٧١) وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ يَكَادُونَ يَسْمِطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا قُلْ أَفَأَبْتُكُمْ بِشَرِّ مَنْ ذَلِكُمْ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٢) أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاذْكُرُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ (٧٣) مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٧٤)

التفسير

اشاره

معبودات أضعف من ذبابه!

تابعت هذه الآيات الأبحاث السابقة عن التوحيد و الشرك، فتحدثت ثانيه عن المشركين و أفعالهم الخاطئه، فتقول الآيه الأولى: وَ يَعْْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَمْ

و هذا يبيّن بطلان عقيدة الوثنيين الذين كانوا يرون أنّ الله سمح لهم بعباده الأوثان و أنّها تشفع لهم عند الله. و تضيف الآية و ما لَيْسَ لَهُمْ بِهِ عِلْمٌ أى يعبدون عباده لا يملكون دليلاً على صحّتها لا من طريق الوحي الإلهي، و لا من طريق الاستدلال العقلي، و من لا يعمل بدليل يظلم نفسه و غيره، و لا أحد يدافع عنه يوم الحساب، لهذا تقول الآية فى ختامها: و ما لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ .

قال بعض المفسرين: إنّ النصير هنا الدليل و البرهان، لأنّ المعين الحقيقي هو الدليل ذاته (١).

كما يحتمل أن يكون النصير مرشداً و مكّملاً للبحث السابق، أى أنّ المشركين لا يدعمهم دليل إلهي و لا عقلي، و ليس لهم قائد و لا مرشد و لا معلّم يهديهم و يسدّدهم للحقّ الذى فقدوا حمايته و الاستناره به، بظلمهم أنفسهم، و لا خلاف بين هذه التفاسير الثلاثة التى يبدو أنّ أولها أكثر وضوحاً من غيره.

و تشير الآية الثانيه موضع البحث إلى عناد الوثنيين و استكبارهم عن الاستجابة لآيات الله تعالى، فى جملة و جيزه لكنّها ذات دلالات كبيره: و إِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ تَعْرِفُ فِي وُجُوهِ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمُنْكَرَ (٢).

و هنا يسفر التناقض بين المنطق القرآنى القويم و تعصّب الجاهليه الذى لا يرضخ للحقّ و لا يفتح قلبه لندائه الرحيم، فما تليت عليهم آيات ربهم إلاّ ظهرت علائم الاستكبار عنها فى وجوههم حتّى إنّهم يَكَادُونَ يَسْطُونَ بِالَّذِينَ يَتْلُونَ عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا أى كأنّهم يريدون مهاجمه الذين يتلون عليهم آيات الله - عزّ و جلّ - و ضربهم بقبضات أيديهم، تنفيساً عن التكبر البغيض فى قراره أنفسهم.

كلمه «يسطون» مشتقه من «السطوه» أى رفع اليد و مهاجمه الطرف الآخر، و هى فى الأصل - كما قال الراغب الاصفهاني فى مفرداته - قيام الفرس على

١-١) -الميزان، و تفسير الفخر الرازى، فى تفسير الآية موضع البحث.

٢-٢) -«المنكر» مصدر ميمى يعنى الإنكار، و بما أنّ الإنكار أمر باطنى لا يمكن مشاهدته، فالمراد هنا علائمته و نتائجها.

رجليه و رفع يديه، ثم استعملت بالمعنى الذى ذكرناه.

و لو فكر الإنسان منطقياً لما أغضبه حديث لا يرضاه، و لما ثار مقطبا متهيناً للهجوم على محدثه مهما خالفه. بل يحاول رده بيان منطقى.

و انفعال المشركين على النحو المتقدم دليل على انهيار تفكيرهم و غلبه الجهل و الباطل عليهم.

و عباره يَكَاذُونَ يَسْطُونَ التى تتألف من فعلين مضارعين، دليل على استمرار حاله الهجوم و السباب فى ذات المشركين و تأصلها فيهم، فتاره يفعلونه، و أخرى تبدو علائمه على وجوههم حين لا تسمح به الأحوال.

و قد أمر القرآن المجيد الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم أن يجبه هؤلاء المتغطسين هاتفاً قُلْ أَفَأَتَّبِعُكُمْ بِشَرِّ مَن ذَلِكُمْ النَّارُ (١).

أى إن زعمتم أن هذه الآيات البينات شرٌّ، لأنها لا تنسجم مع أفكاركم المنحرفة، فإننى أخبركم بما هو شرٌّ منها، ألا و هو عقاب الله الأليم، النار التى أعدّها الله جزاء و عدها الله الذين كفروا، وَ بِئْسَ الْمَصِيرُ. أجل، إن النار المحرقة لأسوأ مكان للمتشددين الحادى المزاج الذين أحرقت نار عصيبتهم و لجاجهم قلوبهم، لأن العقاب الإلهى يتناسب دائماً مع كيفية الذنب و العصيان.

و ترسم الآية الآتية صورته معبّره لما كان عليه الوثنيون، و ما يعبدونه من أشياء ضعيفه هزيله تكشف عن بطلان آراء المشركين و عقيدتهم، مخاطبه للناس جميعاً خطاباً هادياً أن يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاذْكُرُوا لَهُ و تدبروا فيه جيداً إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَ لَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ .

أجل، لو اجتمعت الأوثان كلّها، و حتى العلماء و المفكرين و المخترعين

ص: ٣٩٨

١ - ١) - إن «النار» هنا خبر لمبتدأ محذوف تقديره: هى النار، و احتمال البعض أن النار مبتدأ و جملة «وعدها الله» خبر لها، إلا أن القول الأوّل هو الأصوب. و فعل «وعد» أخذ هنا مفعولين، الأوّل «الذين كفروا» الذى تأخر و الثانى «الهاء» التى تقدّمت ذلك للتخصيص.

جميعاً، لما استطاعوا خلق ذبابه. فكيف تجعلون أوثانكم شركاء لخالق السموات والأرض و ما فيهنّ من آلاف مؤلفه من أنواع المخلوقات في البرّ والبحر، في الصحارى والغابات، و في أعماق الأرض؟ الله الذى خلق الحياه فى أشكال مختلفه و صور بديعه و متنوّعه بحيث أنّ كلّ مخلوق من المخلوقات يثير فى الإنسان كلّ الإعجاب و التقدير، فأين هذه الآلهه الضعيفه من الله الخالق القادر الحكيم المتعال؟ و تستكمل الآيه البيان عن ضعف الأوثان و عجزها المطلق و أنّها ليست غير قادره على خلق ذبابه فحسب، بل و إنّ يسألهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه كأن الآيه تهتف فيهم: ما الدافع لجعل موجود ضعيف تهزمه الذبابه حاكماً عليكم و حلّالاً لمشاكلكم؟! و يعلو صدى الحقّ فى تقرير ضعف الوثن و عبدته فى قوله تعالى: ضَعْفَ الطَّالِبِ وَ الْمَطْلُوبِ .

و قد ورد فى الرّوايات أنّ الوثنيين من قريش نصبوا أوثانهم حول الكعبه، و أغرقوها بالمسك و العنبر و أحياناً بالزعفران و العسل، و طافوا حولها و هم يردّدون (لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك تملكه و ما ملك!) و الانحياز عن التوحيد واضح فى هذه التلبيه، و الشرك مؤكّد فيها، فقد جعلوا هذه الموجودات التافهه شركاء لله الواحد الأحد، و هم يرون الذباب يحوم عليها و يسرق منها العسل و الزعفران و المسك دون أن تستطيع إعادته ما سلب منها! و قد عرض القرآن المجيد هذه الصوره ليكشف عن ضعف هذه الأوثان، و تفاهه منطلق المشركين فى تسويغ عبادتهم لهذه الأوثان، و ذكرهم بعجز آلهتهم عن استعادته ما سرقه الذباب منها و عدم قدرتها على الدفاع عن نفسها لعلهم يتنبهون على تفاهه ما يعبدون من دون الله تعالى.

أمّا ما المراد من «الطالب» و «المطلوب»؟

الصحيح هو ما سبق أن قلناه من أنّ الطالب هو عبده الأوثان، والمطلوب هو الأوثان ذاتها، وكلاهما لا يقدر على شيء.

وقال البعض: إنّ الطالب هو الذّباب، والمطلوب الأصنام (لأنّ الذباب يجتمع عليها ليسلب منها غذاءه).

وقال الآخرون: الطالب هو الأصنام، والمطلوب هو الذباب (لأنّه لو فكّرت الأصنام في خلق ذبابه واحده لما استطاعت ذلك) وأصحّ هذه التفاسير هو الأوّل.

وبعد أن عرض القرآن الكريم هذه المثل الواضح الدافع، قرّر حقيقه مهمّه، و هي **مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ**.

فالمشركون لو كانوا على أدنى معرفه بالله تعالى لما أنزلوا قدره إلى مستوى هذه الآلهه الضعيفه العاجزه و لما جعلوا مصنوعاتهم شركاء له، تعالى عمّا يفعلون علواً كبيراً، و لو كان لديهم أدنى معرفه بقدره الله لضحكوا من أنفسهم و سخروا من أفكارهم. و تقول الآيه في النهايه: **إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ**.

أجل، إنّ الله قادر على كلّ شيء و لا مثيل لقدرته و لا حدّ، فهو ليس كآلهه المشركين التي لو اجتمعت لما تمكّنت من خلق ذبابه، بل ليس لها القدره على إعادته ما سلبه الذباب منها.

بحث

اشاره

مثال واضح لبيان نقاط الضعف:

يرى عدد من المفسّرين أنّ القرآن جاء بمثل في آياته المذكوره آنفاً، إلاّ أنّه لم يبيّن المثل بصراحه، بل أشار إلى مواضع أخرى في القرآن، أو أنّ المثل هنا جاء لإثبات أمر عجيب، و ليس بمعنى المثل المعروف.

و لا شكّ في أنّ هذا خطأ، لأنّ القرآن دعا عامّه الناس إلى التفكّر في هذا

ص: ٤٠٠

المثل. وهذا المثل هو ضعف الذبابه من ناحيه، وقدرتها على سلب ما لدى الأوثان، وعجز هذه الأوثان عن استرداد ما سلبه الذباب منها، وهذا المثل ضرب للمشركين من العرب، لكنّه يعنى الناس جميعا و لا يخصّ الأصنام، بل يعمّ جميع ما دون الله تعالى، من فراعنه و نمارده، و مطامع و أهواء، و جاه و ثروه. فكلّها ينطبق عليها المثل، فلو تكاتفوا و جمعوا عساكرهم و ما يملكون من وسائل و طاقات، لما تمكّنوا من خلق ذبابه، و لا من استعاده ما سلب الذباب منهم.

سؤال و جواب:

قد يقال: إنّ اختراعات العصر الحديث قد تجاوزت أهميّه خلق ذبابه بمراتب كبيره! فوسائل النقل السريعه التى تسبق الريح و تقطع المسافات الشاسعه فى طرفه عين، و الأدمغه الألكترونيه و أدقّ الأجهزة الحديثه بإمكانها حلّ المعضلات الرياضيه بأسرع وقت ممكن، لا تدع قيمه لهذا المثل فى نظر إنسان العصر.

و جواب ذلك هو أنّ صنع هذه الأجهزة-بلا شكّ-يبهر العقول، و هو دليل على تقدّم الصناعه البشريه تقدّما مدهشا، و لكنّه يهون مقابل خلق كائن حى مهما كان صغيرا، فلو درسنا حياه حشره كالذبابه و نشاطها البيولوجى بدقّه، لرأينا أنّ بناء مخّ الذبابه و شبكه أعصابها و جهاز هضمها أعلى بدرجات من أعقد الطائرات، و أكثر تجهيزا منها، و لا يمكن مقارنتها بها.

و ما زال فى قضيّه الحياه و إحساس و حركه المخلوقات أسرار غامضه على العلماء، و هذه المخلوقات و تركيبها البيولوجى، هى نفسها غوامض لم تحل بعد.

و قد ذكر علماء الطبيعه أنّ عيني هذه المخلوقات الصغيره جدّا، كالحشرات- مثلا- تتركّب من مئات العيون! فالعينان اللتان تبدوان لنا إثنتين لا أكثر، هما مؤلّفتان من مئات العيون الدقيقه جدّا، و يطلق على مجموعها العين المركبه، فلو

فرضنا أن الإنسان صنع موادّ من أجزاء الخليّة التي لا- حياه فيها، فكيف يتمكّن من صنع مئات العيون الصغيره التي لكلّ منها ناظورها الدقيق، و قد رصّت طبقاتها بعضها إلى بعض، و ربطت أعصابها بمخّ الحشره لتنقل المعلومات إليها، و لتقوم برّد فعل مناسب لما يحدث حولها؟ لن يستطيع الإنسان خلق مثل هذا الكائن الذي يبدو تافها مع أنّه عالم مفعم بالأسرار البالغه الغموض. و لو فرضنا أن الإنسان بلغ ذلك، فلا يسمّى إنجازه المفترض خلقاً، لأنّه لم يتعدّ التجميع لأجهزه متوفّره في هذا العالم. فمن يركّب قطع السيّاره لا يسمّى مخترعاً.

اشاره

اللَّهُ يَضِيظُفِي مِّنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (٧٥) يَغْلَمُ مِمَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمِمَّا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٧٦) أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَهُ أَيُّكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٧٨)

سبب النزول

ذكر بعض المفسرين أن المشركين و على رأسهم «الوليد بن المغيرة»، كانوا عند ما بعث الله الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، يقولون مستنكرين: «أ أنزل عليه الذكر من بيننا؟! فنزلت الآيه الأولى من الآيات أعلاه لترد عليهم الله يضيظي من الملائكة رسلًا

التفسير

إشاره

خمسہ تعالیم بناء و مهمہ:

بما أنّ الآيات السابقة تناولت بحث التوحيد و الشرك و آلهه المشركين الوهميه. و بما أنّ بعض الناس قد اتخذوا الملائكه أو بعض الأنبياء آلهه للعباده، فإنّ أول الآيات موضع البحث تقول بأنّ جميع الرسل هم عباد الله و تابعون لأمره:

اللَّهُ يَضْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ

أجل، اختار الله من الملائكه رسلا كجبرئيل، و من البشر رسلا كأنبياء الله الكبار. و «من» هنا للتبعيض، و تدلّ على أنّ جميع ملائكه الله لم يكونوا رسلا إلى البشر، و لا يناقض هذا التعبير الآيه الأولى من سوره فاطر، و هي جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا لَأَنَّ غَايَةَ هَذِهِ الْآيَةِ بيان الجنس لا العموم و الشموليه.

و ختام الآيه إنّ الله سَمِيعٌ بَصِيرٌ أى إنّ الله ليس كالبشر، لا يعلمون أخبار رسلهم فى غيابهم، بل إنّهُ على علم بأخبار رسله لحظه بعد أخرى، يسمع كلامهم و يرى أعمالهم.

و تشير الآيه الثانيه إلى مسئوليّه الأنبياء فى إبلاغ رساله الله من جهه، و مراقبه الله لأعمالهم من جهه أخرى، فتقول: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَ مَا خَلْفَهُمْ إِنَّهُ يَعْلَمُ مَاضِيَهُمْ وَ مُسْتَقْبَلَهُمْ وَ إِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ فَالجميع مسئولون فى ساحه قدسه.

ليعلم الناس أنّ ملائكه الله سبحانه و أنبياءه عليهم السلام عباد مطيعون له مسئولون بين يديه، لا يملكون إلا ما وهبهم من لطفه، و قوله تعالى: يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إِشَارَهُ إِلَى وَاجِبٍ وَ مُسْئُولِيهِ رَسُلِ اللَّهِ وَ مُرَاقِبَتِهِ سَبْحَانَهُ لِأَعْمَالِهِمْ، كما جاء فى

الآيتين (٢٧) و (٢٨) من سورة الجن فَلَا يُظْهِرُ عَلَيَّ غَيْبَهُ أَحَدًا إِلَّا مَنِ ارْتَضَىٰ مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْمَعُ بَيْنَ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا لِيَعْلَمَ أَنْ قَدْ أَبْلَغُوا رَسُولَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ (١).

و قد اتضح بهذا أنّ القصد من عبارة مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ هو الأحداث المستقبلية و مَا خَلْفَهُمْ الأحداث الماضية.

الآيتان التاليتان هما آخر آيات سورة الحج حيث تخاطبان المؤمنين و تبيينان مجموعه من التعاليم الشاملة التي تحفظ دينهم و دنياهم و انتصارهم في جميع الميادين، و بهذه الروعة و الجمال تختتم سورة الحج.

في البدايه تشير الآيه إلى أربعة تعليمات يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَ اسْجُدُوا وَ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَ افْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ و قد بينت الآيه ركنين من أركان الصلاة، الركوع و السجود لأهميتهما الاستثنائية في هذه العبادة العظيمة.

و الأمر بعبادة الله -بعد الأمر بالركوع و السجود- يشمل جميع العبادات.

و لفظ «رَبِّكُمْ» إشارة إلى لياقته للعبادة و عدم لياقه غيره لها، لأنه سبحانه و تعالى مالك عبده و جميع مخلوقاته و مربيهم.

و الأمر بفعل الخير يشمل أعمال الخير دون قيد أو شرط، و ما نقل عن ابن عباس من أنّ هذه الآيه تتناول صله الرحم و مكارم الأخلاق هو بيان مصداق بارز لمفهوم الآيه العام.

ثمّ يصدر الله أمره الخاص بالجهاد بالمعنى الشامل للكلمه، فيقول عزّ من قائل: وَ جَاهِدُوا فِي اللَّهِ .

و معظم المفسرين لم يخصّوا هذه الآيه بالجهاد المسلّح لأعداء الله، بل فسّروها بما هي عليه من معنى لغوى عام، بكلّ نوع من الجهاد في سبيل الله

ص: ٤٠٥

١ - ١) - العلامة الطباطبائي في تفسير الميزان ذيل الآيات موضع البحث، يعتبر جملة يَعْلمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ إشارة إلى عصمه الأنبياء و حمايه الله لهم، و مع ملاحظه ما ذكرناه أعلاه فإنّ هذا التفسير يبدو بعيدا نوعا ما.

و الاستجابة له و ممارسه أعمال البرّ و الجهاد مع النفس (الجهاد الأكبر) و جهاد الأعداء و الظلمه (الجهاد الأصغر).

نقل العلامة الطبرسى رحمه الله فى «مجمع البيان» عن معظم المفسرين قولهم: إنّ القصد من «حق الجهاد» الإخلاص فى التّيه و القيام بالأعمال لله خالصه. و لا- شكّ فى أنّ حقّ الجهاد له معنى واسع يشمل الكيف و النوع و المكان و الزمان و سواها، و لكن مرحله «الإخلاص فى التّيه» هى أصعب مرحله فى جهاد النفس، لهذا أكّدتها الآيه، لأنّ عباد الله المخلصين فقط هم الذين لا تنفذ إلى قلوبهم و أعمالهم الوسوس الشيطانيه، رغم قوّه نفاذها و خفائها.

و القرآن المجيد يبدأ تعليماته الخمسه من الخاصّ إلى العامّ، فبدأ بالركوع فالسجود، و انتهى بالعباده بمعناها العامّ الذى يشمل أعمال الخير و الطاعات و العبادات و غيرها. و فى آخر مرحله تحدّث عن الجهاد و المساعى الفرديّه و الجماعيه باطنا و ظاهرا، فى القول و العمل، و فى الأخلاق و التّيه.

و الاستجابة لهذه التعليمات الربّانيه مدعاه للفلاح.

و لكن قد يثار سؤال هو: كيف يتحمّل الجسم النحيف هذه الأعمال من المسؤوليات و التعليمات الشامله الوسعه؟ و لهذا تجيب بقيد الآيه الشريفه ضمنا عن هذه الاستفهامات، و أنّ هذه التعليمات دليل الألفاف الإلهيّه التى منّها سبحانه و تعالى على المؤمنين لتدلّ على منزلتهم العظيمه عنده سبحانه. فتقول الآيه أوّلا:

هُوَ اجْتِبَاكُمْ

أى حمّلكم هذه المسؤوليات باختياركم من بين خلقه.

و العبارة الاخرى قوله جلّ و علا: وَمَا جَعَلْ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ أَى إذا دققتم جيدا لم تجدوا صعوبه فى التكاليف الربّانيه لانسجامها مع فطرتكم التى فطركم الله عليها، و هى الطريق إلى تكاملكم، و هى الذّ من الشهد، لأنّ كلّ واحده منها له غايه و منافع تعود عليكم.

ص: ٤٠٦

و ثالث عبارہ ملہ اَبْرٰہِیْمَ اِنّ اِطْلَاقَ کَلِمَہِ «اَب» عَلٰی «اِبْرٰہِیْمَ» عَلَیہِ السَّلَامِ، اِمَّا بِسَبَبِ کَوْنِ الْعَرَبِ وَ الْمُسْلِمِیْنَ اَنْذَاکَ مِنْ نَسْلِ اِسْمَاعِیْلِ عَلَیہِ السَّلَامِ غَالِبًا، وَ اِمَّا لِکَوْنِ اِبْرٰہِیْمَ عَلَیہِ السَّلَامِ هُوَ الْاَبُ الرُّوحِیُّ لِلْمُوْحِّیْدِیْنَ جَمِیْعًا عَلٰی الرَّغْمِ مِنْ خَلْطِ الْمُشْرِکِیْنَ دِیْنِہِ الْحَنِیْفِ بِاَنْوَاعِ مِنَ الْخِرَافَاتِ الْجَاهِلِیَہِ اَنْذَاکَ.

وَ یْلِیْہَا تَعْبِیْرُ هُوَ سَمَّاکُمْ الْمُسْلِمِیْنَ مِنْ قَبْلُ وَ فِی هَذَا اٰی هُوَ سَمَّاکُمْ الْمُسْلِمِیْنَ فِی الْکِتَابِ السَّمَاوِیَہِ السَّابِقَہِ، وَ فِی هَذَا الْکِتَابِ السَّمَاوِیَ اٰیضًا (الْقُرْآنَ)، وَ اِنَّ الْمُسْلِمَ لَیْفْتَخِرُ بِاَنِّہُ قَدْ اَسْلَمَ نَفْسَہُ لِلّٰہِ فِی جَمِیْعِ اَوَامِرِہِ وَ نَوَاهِیْہِ.

وَ قَدْ اِخْتَلَفَ الْمُفَسِّرُونَ لِمَنْ یَعُودُ ضَمِیْرُ (هُوَ) فِی الْعِبَارَہِ السَّابِقَہِ، فَقَالَ الْبَعْضُ مِنْہُمْ: اِنَّہُ یَعُودُ اِلٰی اللّٰہِ تَعَالٰی، اٰی اِنَّ اللّٰہَ سَمَّاکُمْ فِی الْکِتَابِ السَّمَاوِیَہِ السَّابِقَہِ وَ الْقُرْآنَ بِهَذَا الْاِسْمِ الَّذِیْ هُوَ مَوْضِعُ فَخْرِکُمْ، وَ یَرٰی آخَرُونَ اَنَّ ضَمِیْرَ (هُوَ) یَعُودُ اِلٰی اِبْرٰہِیْمَ عَلَیہِ السَّلَامِ وَ یَسْتَدْلُونَ بِالْآیَہِ (۱۲۸) مِنْ سُورَہِ الْبَقْرَہِ حِیْثُ نَادٰی اِبْرٰہِیْمَ عَلَیہِ السَّلَامَ رَبِّہُ بَعْدَ اِتْمَامِہِ بِنَاءِ الْکَعْبَہِ قَائِلًا: رَبَّنَا وَ اجْعَلْنَا مُسْلِمِیْنَ لَکَ وَ مِنْ ذُرِّیَّتِنَا اُمَّةً مُسْلِمَةً لَکَ .

وَ نَحْنُ نَرٰی اَنَّ التَّفْسِیْرَ الْاَوَّلَ اَصُوْبٌ، لِاَنِّہُ یَنْسَجِمُ مَعَ اٰخِرِ الْآیَہِ ذَاتِہَا حِیْثُ یَقُوْلُ: هُوَ سَمَّاکُمْ الْمُسْلِمِیْنَ مِنْ قَبْلُ وَ فِی هَذَا اٰی هُوَ سَمَّاکُمْ الْمُسْلِمِیْنَ فِی الْکِتَابِ السَّمَاوِیَہِ السَّابِقَہِ وَ الْقُرْآنَ الْمَجِیْدِ، وَ هَذَا الْقَوْلُ یُنَاسِبُ اللّٰہَ عَزَّ وَ جَلَّ وَ لَا یُنَاسِبُ اِبْرٰہِیْمَ عَلَیہِ السَّلَامَ . (۱)

وَ خَامِسَ عِبَارَہُ خَصَّ بِہَا الْمُسْلِمِیْنَ وَ جَعَلَهُمْ قَدْوَةً لِاَلْمُحْمَدِیِّیْنَ، هِیَ قَوْلُہِ الْمُبَارَکِ: لَیْکُوْنَ الرَّسُوْلُ شَہِیْدًا عَلَیْکُمْ وَ تَکُوْنُوْا شَہِدَاءَ عَلٰی النَّاسِ .

وَ «الشَّہِیْدُ» هُوَ الشَّاهِدُ، وَ هِیَ کَلِمَہُ مُشْتَقَّةٌ مِنْ شَہُوْدٍ، بِمَعْنٰی اِطْلَاعِ الْمَرْءِ عَلٰی

ص: ۴۰۷

(۱ - ۱) - اِنَّ هَذَا الدِّیْنَ سَمَّاهُ الْقُرْآنَ الْمَجِیْدَ بِصِرَاحِہِ وَ اِضْحَاحِ (الْاِسْلَامِ) کَمَا جَاءَ فِی الْآیَہِ الثَّلَاثَہِ مِنْ سُورَہِ الْمَائِدَہِ وَ اَتَمَمْتُ عَلَیْکُمْ نِعْمَتِیْ وَ رَضِیْتُ لَکُمُ الْاِسْلَامَ دِیْنًا . کَمَا ذَكَرْتُ آیَاتٍ عَدِیْدَہُ الرَّسُوْلِ صَلَّى اللّٰہُ عَلَیْہِ وَ اٰلِہٖ وَ سَلَّمَ بِاعْتِبَارِہِ اَوَّلُ الْمُسْلِمِیْنَ الْاَنْعَامِ، ۱۴. الزمر، ۱۲.

أمر أو حدث شهده بنفسه. وكون الرسول صلى الله عليه وآله وسلم شاهدا على جميع المسلمين يعنى اطلاعه على أعمال أمته، وينسجم هذا المفهوم مع حديث (عرض الأعمال) وبعض الآيات القرآنية التي أشارت إلى ذلك، حيث تعرض أعمال أمته محمد صلى الله عليه وآله وسلم عليه في نهايه كل أسبوع فتطلع روحه الطاهره عليها جميعا، فهو شاهد على أمته.

و ذكرت بعض الأحاديث أنّ معصومى هذه الامّه الأئمّه الطاهرين عليهم السّلام هم أيضا شهود على أعمال الناس، نقرأ

في حديث عن الإمام على بن موسى الرضا عليه السّلام قوله: «نحن حجج الله في خلقه و نحن شهداء الله و أعلامه في بريته» (1)

في الحقيقة إنّ المخاطب في عبارته «لتكونوا» و حسب ظاهر الكلمه هو الامّه جميعا، وقد يكون المراد قاده هذه الامّه، فمخاطبه الكلّ و إرادته الجزء أمر متعارف في المحادثه اليوميّه. و مثال ذلك ما جاء في الآيه (٢٠) من سوره المائده وَ جَعَلَكُمْ مَلُوكًا . حيث نعلم أنّ عددا قليلا منهم أصبحوا ملوكا.

و هناك معنى آخر لكلمه شهود، هي «الشهاده العمليه» أى كون أعمال الفرد أنموذجا للآخرين و قدوه لهم، و هكذا يكون جميع المسلمين الحقيقيين شهودا، لأنهم أمّه تقتدى بهم الأمم بما لديهم من دين يمكنهم أن يكونوا مقياسا للسمو و الفضل بين جميع الأمم.

و

جاء في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم: «إذا بعث الله نبيا جعله شهيدا على قومه، و إنّ الله تبارك و تعالى جعل أمّتى شهداء على الخلق، حيث يقول:

ليكون الرسول شهيدا عليكم، و تكونوا شهداء على الناس» (2).

أى كما يكون النّبي صلى الله عليه وآله وسلم قدوه و أسوه حسنه لأمته، تكونون أنتم أيضا أسوه و قدوه للناس، و هذا التفسير لا يناقض الحديث السابق فجميع الامّه شهداء،

ص: ٤٠٨

١ - ١) - كتاب «إكمال الدين» للشيخ الصدوق حسبما نقل عنه تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحه ٥٢٦. كما أكّدت ذلك أحاديث أخرى في هذا المجال.

٢ - ٢) - تفسير البرهان، المجلد الثالث، صفحه ١٠٥.

و الأئمة الطاهرين شهود ممتازون على هذه الأمة (١).

و إعادته الآية في ختامها بشكل مركز الواجبات الخمسة في ثلاث جمل هي فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَ آتُوا الزَّكَاةَ وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ قَائِدُكُمْ وَ نَاصِرُكُمْ وَ مَعِينُكُمْ: هُوَ مَوْلَاكُمْ وَ فِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ .

و الحقيقة أن جملة فِعْمَ الْمَوْلَى وَ نِعْمَ النَّصِيرُ دليل على عبارته وَ اعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ أى إِنَّ اللَّهَ أَمْرُكُمْ بِالاعْتِصَامِ بِهِ لِكُونِهِ خَيْرَ الْمَوَالِي وَ أَجْدَرَ الْأَعْوَانِ.

رَبَّنَا: تفضل علينا بالتوفيق للاعتصام بذاتك المقدسه، و لنكون أسوه في الارتباط بالخالق و الخلق، و قدوه و شاهدا على الآخرين، و وفقنا لإكمال هذا التفسير الجامع و النموذجي لكتابك المنزل.

رَبَّنَا: كما دعوتنا في قرآنك الكريم و في كتبك السماويه الاخرى بالمسلمين، فوقفنا للتسليم لأمرك، و أمحض لنا طاعتك.

رَبَّنَا: انصرنا على أعدائك و أعداء دينك الذين أرادوا بالإسلام و القرآن كيدا، فأنت نعم المولى و نعم النصير.

نهاية سورة الحج

ص: ٤٠٩

١- ١) - شرحنا ذلك بإسهاب في آخر الآية (١٤٣) من سورة البقره، و كذلك في تفسير الآية (٤١) من سورة النساء.

سوره المؤمنین

اشاره

مکیه و عدد آیاتها مائه و ثمانی عشره آیه

ص: ۴۱۱

فضيله سوره المؤمنون:

ذكرت أحاديث مرويه عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم وأئمه أهل البيت عليهم السلام فضائل لهذه السوره.

فعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم «من قرأ سوره المؤمنين، بشرته الملائكه يوم القيامه بالروح والريحان وما تقرّ به عينه عند نزول ملك الموت» (١).

و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام «من قرأ سوره المؤمنين ختم الله له بالسعاده إذا كان يدمن قراءتها في كل جمعه، و كان منزله في الفردوس الأعلى مع النبيين والمرسلين» (٢).

و تؤكد أنّ فضيله السوره، ليست فقط في تلاوتها، وإنما يجب أن يرافق ذلك التمعّن في معانيها والعمل بما أوجبه، لأنّ هذا الكتاب بينى الذات الإنسانية و يربّيها، فهو برنامج عملي لتكامل الإنسان، و لو طابق المرء برنامج العمل مع محتوى هذه السوره- حتى إن طابق مع آياتها الأولى التي تبين صفات المؤمنين- لنال النصيب الأوفر من لدن العليّ القدير.

لهذا ذكر

في روايه عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم أنّه قال حين نزلت الآيات الأولى من هذه السوره: «لقد أنزل إليّ عشر آيات من أقامهنّ دخل الجنّه» (٣).

ص: ٤١٣

١-١) -تفسير مجمع البيان، المجلّد السابع، صفحہ ٩٨.

٢-٢) -روح المعاني، المجلّد الثامن عشر، صفحہ ٢.

٣-٣) -روح المعاني، المجلّد الثامن عشر، صفحہ ٢.

عبارة «أقام» التي ذكرت مكان «قرء» تعبّر عن الحقيقه التي ذكرناها أعلاه، فالهدف تطبيق ما تضمّنته هذه الآيات و ليس تلاوتها فقط.

مضمون سوره المؤمنين:

القسم المهمّ من هذه السوره- كما يبدو من اسمها- تحدّث عن صفات المؤمنين البارزه، ثم تناولت السوره العقيدة و العمل بها، و هي تتمّه لتلك الصفات.

و يمكن إجمالاً تقسيم مواضيع هذه السوره إلى الأقسام التاليه:

القسم الأول: يبدأ بالآيه قدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و ينتهى بعدد من الآيات التي تذكر صفات هي مدعاه لفلاح المؤمنين، و هذه الصفات دقيقه و شامله تغطّي جوانب الحياه المختلفه للفرد و المجتمع.

و بما أنّ أساسها الإيمان و التوحيد، فقد أشار القسم الثاني من هذه المواضيع إلى علائم أخرى للمؤمنين، التوحيد و آيات عظمه الله و جلاله في عالم الوجود، فعدّدت نماذج لذلك العالم العجيب في خلق السماء و الأرض و الإنسان و الحيوان و النبات.

و لإتمام الجوانب العمليّه، شرح القسم الثالث ما حدث لعدد من كبار الأنبياء، كنوح و هود و موسى و عيسى عليهم السلام، و بيّن شرائح من تاريخ حياتهم للعبيره و الموعظه.

و في القسم الرابع وّجه الخطاب سبحانه و تعالى إلى المستكبرين يحذّرهم ببراهين منطقيه تاره، و أخرى بتعابير دافعه عنيفه، ليعيد القلوب إلى طريق الصواب بالعوده إليه عزّ و جلّ.

و بيّن القسم الخامس- في بحث مركز- المعاد.

و تناول القسم السادس سياده الله على عالم الوجود، و إطاعه العالم و لأوامره.

و أخيراً تناول القسم السابع حساب يوم القيامة، و جزاء الخير للمحسنين، و عقاب المذنبين. و ينهى السوره ببيان الغايه من خلق الإنسان.

فالسوره مجموعه من دروس العقيدة و العمل، و قضايا التوعيه و شرح لنهج المؤمنين من البدايه حتّى النهايه.

إنّ هذه السوره- كما سبق أن ذكرنا- نزلت في مكّه، إلا أنّ بعض المفسّرين ذكروا أنّ عدداً من آياتها نزل في المدينه، و كان الدافع لذلك وجود آيه الزكاه فيها، لأنّ الزكاه شرّعت لأوّل مرّه في المدينه اثر نزول الآيه خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صِدَقَةً التوبه (١٠٣)، حيث أمر الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم بجمع الزكاه من المسلمين.

إلاّ أنّه يجب الانتباه إلى أنّ للزكاه مفهومًا واسعًا يشمل الواجب و المستحبّ، و لا يتحدّد معناه بالزكاه الواجب فقط، لهذا نقرأ في الأحاديث أنّ الصلاه و الزكاه مترادفتان (١).

و إضافه إلى ذلك فإنّ بعض المفسّرين يرون أنّ الزكاه كانت واجبه في مكّه أيضاً، غير أنّها كانت بصوره مجمله أوجبت على كلّ مسلم مساعده المحتاجين بمقدار من ماله، ثمّ أصبحت وفق برنامج محدّد و دقيق بعد تشكيل الحكم الإسلامى في المدينه، حيث حدّد نصابها، و عيّن العاملين عليها، و بعثهم الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم إلى المناطق الإسلاميه لجمع الزكاه (٢).

ص: ٤١٥

١-١) - جاء في حديث عن الإمام الباقر و الإمام الصادق عليهما السلام: «فرض الله الزكاه مع الصلاه».

٢-٢) - تفسير روح المعاني، المجلد الثامن عشر، صفحہ ٢.

إشاره

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ (١) الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ (٢) وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ (٣) وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (٤) وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٥) إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ (٦) فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ (٧) وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ (٨) وَالَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ (٩) أُولَٰئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ (١٠) الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (١١)

التفسير

إشاره

صفات المؤمنين البارزه:

إختيار اسم المؤمنين لهذه السوره- كما تقدم- لأنه جاء في بدايتها آيات شرحت بعبارات وجيزه معبره صفات المؤمنين، و مما يلفت النظر أنها أشارت إلى مستقبل المؤمنين السعيد قبل بيان صفاتهم، استناره للشوق في قلوب المسلمين

للوصول إلى هذا الفخر العظيم باكتساب صفه المؤمنين. تقول الآية قد أفلح المؤمنون .

كلمه «أفلح» مشتقه من الفلح و الفلاح، و تعنى فى الأصل الحرث و الشق، ثم أطلقت على أى نوع من النصر و الوصول إلى الهدف و السعاده بشكل عام، و الحقيقه أنّ المنتصرين يزيلون من طريقهم كلّ الموانع و الحواجز لينالوا الفلاح و السعاده، و يشقون طريقهم لتحقيق أهدافهم فى الحياه. و لكلمه الفلاح معنى واسعاً بضمّ الفلاح المادى و المعنوى، و يكون الاثنان للمؤمنين.

فالفلاح الدينوى أن يحيا الإنسان حرّاً مرفوع الرّسول عزيز النفس غير محتاج، و لا يمكن تحقيق كلّ ذلك إلاّ فى ظلال الإيمان و التمسك بالله و برحمته.

أمّا فلاح الآخره فهو الحياه فى نعيم خالد إلى جانب أصدقاء جديرين طاهرين، حياه العزّ و الرفعه.

و يلخص الراغب الاصفهانى خلال شرحه هذه المفرده بأنّ الفلاح الدينوى فى ثلاثه أشياء: البقاء و الغنى و العزّ، و أمّا الفلاح الاخرى ففى أربعة أشياء: بقاء بلا فناء، و غناء بلا فقر، و عزّ بلا ذلّ، و علم بلا جهل.

ثمّ تشرح الآية هذه الصفات فتؤكد قبل كلّ شىء على الصلاه فتقول: الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ .

«خاشعون» مشتقه من خشوع، بمعنى التواضع و حاله التأدب يتخذها الإنسان جسماً و روحاً بين يدي شخصيته كبيره، أو حقيقه مهمه تظهر فى الإنسان و تبدو علاماتها على ظاهر جسمه.

و القرآن اعتبر الخشوع صفه المؤمنين، و ليس إقامه الصلاه، إشاره منه إلى أنّ الصلاه ليست مجرد ألفاظ و حركات لا روح فيها و لا معنى، و إنّما تظهر فى المؤمن حين إقامه الصلاه حاله توجّه إلى الله تفصله عن الغير و تلحقه بالخالق، و يغوص فى ارتباط مع الله، و يدعو بتضرّع فى حاله تسود جسمه كله، فيرى نفسه ذرّه إزاء

الوجود المطلق لذات الله، وقطره في محيط لا نهايه له.

لحظات هذه الصلاه درسا للمؤمن في بناء ذاته و تربيتها، ووسيله لتهديب نفسه و سمو روحه.

و

قد جاء في حديث عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلم حين شاهد رجلا يلهو بلحيته و هو يصلى قوله: «أما لو خشع قلبه لخشعت جوارحه» (١).

إشاره منه صلى الله عليه و آله و سلم إلى أنّ الخشوع الباطنى يؤثّر فى ظاهر الإنسان. و كان كبار قاده المسلمين يؤدّون صلاتهم بخشوع حتّى تحسبهم فى عالم آخر، يذوبون فى الله، حيث نقرأ عنهم

فى حديث عن رسول الله صلى الله عليه و آله و سلم «إنّه كان يرفع بصره إلى السّماء فى صلاته، فلمّا نزلت الآيه طأطأ رأسه و رمى ببصره إلى الأرض» (٢).

و ثانى صفه للمؤمنين بعد الخشوع ممّا تذكره الآيه و الذين هم عن اللغو معروضون حقّا نرى جميع حركات و سكنات المؤمنين تتّجه لهدف واحد مفيد و بناء، لأنّ «اللغو» يعنى الأعمال التافهه غير المفيده، و كما قال بعض المفسّرين فإنّ اللغو كلّ قول أو عمل لا فائده فيه، و إذا فسّر البعض اللغو بالباطل.

و بعض فسّره بالمعاصى كلّها.

و آخر بمعنى الكذب.

و آخر: السباب أو السباب المتقابل.

و البعض الآخر قال: إنّه يعنى الغناء و اللهو و اللعب.

و آخر: إنّه الشرك. فإنّ هذه المعانى مصاديق ذلك المفهوم العام.

و طبيعى أنّ اللغو لا يشمل الأفعال و الكلام التافه فقط، و إنّما يعنى الآراء التافهه التى لا أساس لها، التى تنسى العبد ربّه و تشغله بها دون الأمور المفيده، إذن فاللغو يتضمّن كلّ هذا، و الحقيقه أنّ المؤمنين لم يخلقوا من أجل الانشغال بآراء

ص: ٤١٨

١-١) -تفسير الصافى، و تفسير مجمع البيان، فى تفسير الآيه موضع البحث.

٢-٢) -تفسير مجمع البيان، و تفسير الفخر الرازى، للآيه موضع البحث.

باطله أو كلام تافه، بل هم معرضون عنها، كما قال القرآن الكريم.

و تشير الآية الثالثة إلى ثالث صفة من صفات المؤمنين الحقيقيين، و هي ذات جانب اجتماعي و مالي حيث تقول: وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ (١).

ربّما تكون السورة مكيه، كما قلنا سابقا، نزلت في وقت لم تشرّع فيه الزكاه بعد بمعناها المعروف، لذلك نجد اختلافا بين المفسّرين في تفسير هذه الآية، و لكن الذي يبدو أصوب هو أنّ الزكاه لا تنحصر بالزكاه الواجبه الأداء، و إنّما هناك أنواع كثيره منها مستحبّه، فالزكاه الواجبه شرعت في المدينة، إلا أنّ الزكاه المستحبّه كانت موجوده قبل هذا.

و ذهب مفسّرون آخرون إلى احتمال أن تكون الزكاه واجبه كحكم شرعي في مكّه لكن دون تحديد، حيث كان الواجب على كلّ مسلم مساعده المحتاجين بما يتمكّن، إلا أنّه أصبح للزكاه أسلوبها الخاص عقب تشكيل الحكم الإسلامي و تأسيس بيت مال المسلمين، حيث تحدّدت أنصبتها من كلّ محصول و مال.

و أصبح لها جباه يجوبنها من المسلمين بأمر من الرّسول صلى الله عليه و آله و سلّم.

أمّا ما يراه بعض المفسّرين أمثال الفخر الرازي و الآلوسى في «روح المعاني» و الراغب الاصفهاني في مفرداته من أنّ الزكاه هنا تعنى عمل الخير أو تزكيه المال أو تطهير الروح، فبعيد، لأنّ القرآن المجيد كلّما ذكر الصلاه مع الزكاه يقصد بالزكاه الإنفاق المالي، و لو فسّرناه بغير هذا، فذلك يحتاج إلى قرينه واضحه لا توجد في هذه الآيات.

و رابع صفة من صفات المؤمنين هي الطهاره و العفّه بشكل تامّ، و اجتناب أي معصيه جنسيه، حيث تقول الآية: وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ (٢). يحفظونها

ص: ٤١٩

١ - ١) - الزكاه تعنى هنا أنّ لها مصدرا، و لهذا استعملت عبارته «فاعلون» بعدها. و قال مفسّرون آخرون: إنّهُ يمكن أن تعنى الزكاه ذلك المعنى المعروف عنها، أي مقدار من المال، و لهذا تكون (فاعلون) بمعنى مؤدّون.

٢ - ٢) - «الفروج» جمع فرج، و هو كناية عن الجهاز التناسلي.

مَمَا يَخَالِفُ الْعِفَّةَ إِلَّا عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ .

بما أنّ الغريزة الجنسيه أقوى الغرائز عند الإنسان تمرداً، و لضبط النفس عنها يحتاج المرء إلى التقوى و الإيمان القوى، لهذا أكدّت الآية التاليه على هذه المسأله فَمَنْ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ .

إنّ عباره المحافظه على «الفروج» قد تكون إشاره إلى أنّ فقدان المراقبه المستمره فى هذا المجال تؤدى بالفرد إلى خطر التلوث بالانحرافات الكثيره.

أمّا عباره أَزْوَاجِهِمْ فهى تشمل الزوجين الذكر و الأنثى، رغم أنّ بعض مفسّرى أهل السنّه وقعوا فى خطأ فى تفسير هذه الآية سنشير إليه لاحقاً.

و يمكن أن تكون عباره غَيْرُ مَلُومِينَ إشاره إلى الرأى الخاطئ عند المسيحيين الذى أصبح يشكّل انحرافاً فى عقيدتهم، و هو أنّ أى اتّصال جنسى يعتبر فعلاً غير لائق بالإنسان و تركه فضيله له، حتّى نرى القساوسه الكاثوليك- نساء و رجالاً-ممن طلق الدنيا يحيون عزّاباً و يتصوّرون الزواج بأى شكل كان خلافاً لمنزله الإنسان الروحيه و هذه القضيه شكلية فحسب، حيث يختار هؤلاء لإشباع غرائزهم سبلاً خفيّه متعدده. ذكرتها كتبهم (1).

و على كلّ حال فإنّ الله لم يخلق فى الإنسان غريزه كجزء من مكوناته المثلى، ثمّ يعتبرها تناقض منزله الإنسان عنده.

و كون الزوجات حلاً للأزواج فى علاقتهم الجنسيه باستثناء أيام العاده الشهريه و أمثالها، لا تحتاج إلى شرح. و كذلك كون الجوارى حلالاً عند ما يكرّ على وفق شروط ذكرتها الكتب الفقهيّه و ليس كما يتصوّر البعض أنّ كلّ واحده منهمّ و دون شرط حلّ لمالكها، و فى الحقيقه لهمّ شروط الزوجه فى حالات كثيره.

ص: ٤٢٠

١-١) -يراجع بهذا المورد قصّه الحضاره لويل ديورانت.

و أشارت الآيه الثامنه-موضع البحث-إلى الصفتين الخامسه و السادسه من صفات المؤمنين البارزه، حيث تقول: وَ الَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ إِنَّ الْمُحَافَظَةَ عَلَى «الْأَمَانَةِ» بِالْمَعْنَى الْوَاسِعِ لِلْكَلِمَةِ، وَ كَذَلِكَ الْإِتِّمَامُ بِالْعَهْدِ وَ الْمِيثَاقِ بَيْنَ يَدَى الْخَالِقِ وَ الْخَلْقِ مِنْ صِفَاتِ الْمُؤْمِنِينَ الْبَارِزِينَ. وَ تَعْنَى الْأَمَانَةِ بِمَفْهُومِهَا الْوَاسِعِ أَمَانَةُ اللَّهِ وَ رَسُولِهِ إِضَافَةً إِلَى أَمَانَاتِ النَّاسِ، وَ كَذَلِكَ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَى خَلْقِهِ.

وَ تَضَمَّنَ أَيْضًا أَمَانَةُ اللَّهِ الدِّينَ الْحَقَّ وَ الْكُتُبَ السَّمَاوِيَّةَ وَ تَعَالِيمَ الْأَنْبِيَاءِ الْقَدَمَاءِ، وَ كَذَلِكَ الْأَمْوَالَ وَ الْأَبْنَاءَ وَ الْمَنَاصِبَ جَمِيعَهَا أَمَانَاتُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَ تَعَالَى بِيَدِ الْبَشَرِ، يَسْعَى الْمُؤْمِنُونَ فِي الْمُحَافَظَةِ عَلَيْهَا وَ أَدَاءِ حَقِّهَا. وَ يَحْرُسُونَهَا مَا دَامُوا أَحْيَاءً.

وَ يَرِثُهَا أَبْنَاؤُهُمُ الَّذِينَ تَرَبَّوْا عَلَى أَدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَ الْحِفَافِ عَلَيْهَا.

وَ الدَّلِيلُ عَلَى عُمُومِيَّةِ مَفْهُومِ الْأَمَانَةِ هُنَا، إِضَافَتُهُ إِلَى سَعَةِ الْمَفْهُومِ اللَّغَوِيِّ لِهَذِهِ الْكَلِمَةِ، هُوَ أَحَادِيثٌ عَدِيدَةٌ وَرَدَتْ فِي تَفْسِيرِ الْأَمَانَةِ بِأَنَّهَا (أَمَانَةُ الْأَنْمَةِ الْمُعْصُومِينَ) أَيْ: يَنْقَلِبُ كُلُّ إِمَامٍ إِلَى وَارِثِهِ (١).

وَ أَحْيَانًا تَفْسِيرُ الْأَمَانَةِ بِأَنَّهَا الْوَلَايَةُ بِشَكْلِ عَامٍّ.

وَ مِمَّا يَلْفَتُ النَّظَرَ رَوَايَةُ زُرَّارَةَ أَحَدِ تَلَامِيذِ الْإِمَامِ الْبَاقِرِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَ الْإِمَامِ الصَّادِقِ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا (٢) «أَدُّوا الْوَلَايَةَ إِلَىٰ أَهْلِهَا...» (٣).

وَ هَكَذَا يَكْشِفُ عَنْ أَنَّ الْحُكُومَةَ وَدِيْعَهُ إِلَهِيَّةٌ مَهْمَةٌ جَدًّا يَجِبُ إِيدَاعُهَا بِيَدِ مَنْ هُوَ أَهْلُهَا.

وَ هُنَاكَ تَعَابِيرٌ قُرْآنِيَّةٌ عَدِيدَةٌ تَدُلُّ عَلَى عُمُومِيَّةِ وَ شَمُولِيَّةِ الْعَهْدِ، مِنْهَا: وَ أَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ (٤).

ص: ٤٢١

١-١) -تفسير البرهان، المجلد الأول، صفحہ ٣٨٠.

٢-٢) -سورة النساء، ٥٨.

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) -النحل، ٩١.

و الجدير بالملاحظة أنّ بعض آيات القرآن عبّرت عن ذلك العهد بأداء الأمانة و عدم خيانتها و المحافظه عليها، و«رعايه الأمانة» التي استعملت في الآيه السابقه تضمّ معنى الأداء و المحافظه.

فعلى هذا فإنّ التفسير في المحافظه على الأمانة و الذي يؤدّي إلى وقوع ضرر أو تعرّضها للخطر، يوجب على الأمين إصلاحها(و بهذا تترتّب ثلاثه واجبات على الأمين: الأداء، و المحافظه، و الإصلاح) فلا بدّ أن يكون الالتزام بما تعهّد به المرء و المحافظه عليه.

و أداء الأمانة من أهمّ القواعد في النظام الاجتماعي، و دون ذلك يسود التخبط في المجتمع. و لهذا السبب نرى شعوبا لا تتمسك عامتها بالدين، إلا أنّها- سعيها منها لمنع الاضطراب- تفرض على نفسها رعايه العهد و الأمانة، و تعتبر نفسها مسئوله أمام هذين المبدئين- في أقلّ تقدير- في القضايا الاجتماعيه العامه (و قد بيّنا بإسهاب أهميه الأمانة في تفسير الآيه (٥٨) من سوره النساء. و في تفسير الآيه (٢٧) من سوره الأنفال، و شرحنا الوفاء بالعهد في تفسير الآيه الأولى من سوره المائده و في تفسير الآيه (٩١) من سوره النحل).

و بيّنت الآيه التاسعه من الآيات موضع البحث آخر صفه من صفات المؤمنين حيث تقول: **وَ الَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ .**

و ممّا يلفت النظر أنّ أوّل صفه للمؤمنين كانت الخشوع في الصلاه، و آخرها المحافظه عليها، بدأت بالصلاه و انتهت به. لماذا؟ لأنّ الصلاه أهمّ رابطة بين الخالق و المخلوق، و أغنى مدرسه للتربيه الإنسانيه.

الصلاه و سيله ليقلّظه الإنسان و خير وقايه من الذنوب.

و الخلاصه، إنّ الصلاه إن أقيمت على وفق آدابها اللازمه، أصبحت أرضيه أمينه لأعمال الخير جميعا.

و جدير بالذكر إلى أنّ الآيتين الأولى و الأخيره تضمّنت كلّ واحده منها

موضوعا يختلف عن الآخر، فالآية الأولى تضمّنت الصلاة بصوره مفرده، و الأخيره بصوره جماعيه. الأولى تضمّنت الخشوع و التوجّه الباطنى إلى الله. هذا الخشوع الذى يعتبر جوهر الصلاة، لأنّ له تأثيرا فى جميع أعضاء جسم الإنسان، و الآيه الأخيره أشارت إلى آداب و شروط صحّه الصلاة من حيث الزمان و المكان و العدد، فأوضحت للمؤمنين الحقيقين ضروره مراعاة هذه الآداب و الشروط فى صلاتهم.

و قد شرحنا أهمّيّه الصلاة فى المجلدات المختلفه لهذا التفسير. فليراجع تفسير الآيه (١١٤) من سوره هود و كذلك تفسير الآيه (١٠٣) من سوره النساء و فى تفسير الآيه (١٤) من سوره طه.

بعد بيان هذه الصفات الحميده، بينت الآيه التاليه حصيله هذه الصفات فقالت:

أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ

أُولَئِكَ الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ .

«الفردوس» -على قول- هى مفرده روميه. و ذهب آخرون إلى أنّها عربيّه، و قيل فارسيه بمعنى «البستان». أو بستان خاص اجتمعت فيه جميع تسميتها بالجنّه العالیه، و أفضل البساتين.

و يمكن أن تكون عباره «يرثون» إشاره إلى نيل المؤمنين لها دون تعب مثلما يحصل الوارث الإيرث دون تعب. و صحيح أنّ الإنسان يبذل جهودا واسعه و يضحى بوقته و يسلب راحته فى بناء ذاته و التقرب إلى الله، إلا أنّ هذا الجزاء الجميل أكثر بكثير من قدر هذه الأعمال البسيطه، و كأنّ المؤمن ينال الفردوس دون تعب و مشقّه.

كما يجب ملاحظه حديث

روى عن النبى الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم «ما منكم من أحد إلا و له منزلان: منزل فى الجنّه، و منزل فى النار، فإن مات و دخل النار ورث أهل

كما يمكن أن تكون عبارته «يرثون» في الآيه السابقه إشاره إلى حصيله عمل المؤمنين، فهى كالميراث يرثونه فى الختام، و على كلّ حال فإنّ هذه المنزله العالیه -حسب ظاهر الآيات المذكوره أعلاه- خاصّه بالمؤمنين الذين لهم هذه الصفات، و نجد أهل الجَنَّة الآخرين فى منازل أقلّ أهميّه من هؤلاء المؤمنين.

ملاحظات

إشاره

١- إختيار الفعل الماضى «أفلح» لنجاح المؤمنين، تأكيد أقوى

أى إنّ نجاحهم طبيعى و كأنه تحقّق من قبل. و جاءت كلمه (قد) أيضا لتأكيد هذا الموضوع ثانيه. و جاءت عبارات (خاشعون) و (معرضون) و (راعون) و (يحافظون) بصيغه اسم فاعل أو فعل مضارع دليلا على أنّ هذه الصفات البارزه ليست مؤقته فى المؤمنين الحقيقين، بل هى دائمه فيهم.

٢- الزوجه الدائمه و المؤقته

يستفاد من الآيات المذكوره أعلاه على أنّ هناك نوعين من النساء يجوز الدخول بهما: الأولى الزوجات، و الثانيه الجوارى (بشروط خاصّه)، لهذا استندت الكتب الفقهيّه على هذه الآيه فى مواضع عديده خلال بحث النكاح.

و لكن بعض المفسرين و الفقهاء من أهل السنّه حاولوا الاستفاده من هذه الآيه فى إثبات حرمه الزواج المؤقت.

و مع ملاحظه هذه الحقيقه، و هى أنّ من الثابت المسلّم به هو أنّ الزواج المؤقت (المتعه) كان حلالا على عهد الرّسول صلى الله عليه و آله و سلّم و لم ينكره أحد من المسلمين، إلا أنّ البعض يرى أنّه كان فى صدر الإسلام و عمل به الكثير من الصحابه، إلاّ أنّه

نسخ، و قال آخرون: إنَّ عمر بن الخطاب منعه.

و مفهوم كلام هذه المجموعه من المفسِّرين السنَّه-بعد ملاحظه هذه الحقائق- هو أنَّ النَّبى صلى الله عليه و آله و سلَّم (و العياذ بالله) أجاز الزنا فى أقلِّ تقدير لفته محدَّده، و هذا غير صحيح أبداً.

□
إضافه إلى أنَّ «المتعّه» خلافاً لتصوُّر هؤلاء، هى نوع من الزواج المؤقت بعظم شروط الزواج الدائم، و على هذا فإنَّ عبارته: **إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ** هى بالتأكيد تتضمنه. و لهذا السبب تستخدم صيغ الزواج الدائم (أنكحت و زوّجت) مع ذكر مدّه الزواج عند قراءة صيغه الزواج المؤقت، و هذا خير دليل على كون المتعه زواجا.

و قد بيّنا بالتفصيل الأمور المتعلّقه بالزواج المؤقت و أدلّته الشرعيّه فى الإسلام، و عدم نسخ هذا الحكم الإلهى، و كذلك فلسفته الاجتماعيه، فى تفسير الآيه (٢٤) من سوره النساء.

٣- الخشوع روح الصلاه

إذا اعتبر الركوع و السجود و القراءه و التسبيح جسم الصلاه، فالتوجّه الباطنى إلى حقيقه الصلاه، و إلى من يناجيه المصلّى، هو روح الصلاه. و الخشوع ما هو إلاّ توجّه باطنى مع تواضع. و على هذا يتبيّن أنّ المؤمنين لا ينظرون إلى الصلاه كجسم بلا روح، بل إنّ جميع توجّههم إلى حقيقه الصلاه و باطنها.

و هناك عدد كبير من الناس يودّ بشوق بالغ أن يكون خاشعا فى صلاته، إلاّ أنّه لا يتمكّن من تحقيق ذلك.

و لتحقيق الخشوع و التوجّه التامّ إلى الله فى الصلاه و فى سائر العبادات، أوصى بما يلى:

١- نيل معرفه تجعل الدنيا فى عين المرء صغيره تافهه، و تجعل الله كبيراً

عظيما، حتى لا تشغله الدنيا بما فيها عن الذوبان في الله عند مناجاته و عبادته.

٢- الاهتمام بالأمر المختلفه يمنع الإنسان من تركيز أفكاره و حواسه، و كلما تمكن الإنسان من التخلص من مشاغله حصل على توجه إلى الله في العباده.

٣- إختيار مكان الصلاه و سائر العبادات له أثر كبير في هذه المسأله، لهذا فإن الصلاه مع انشغال البال بغيرها تعدّ مكروهه، و كذلك في موضع مرور الناس أو قبال المرآه و صورته، و لهذا الأسباب تكون المساجد الإسلاميه أفضل إن كانت أبسط بناء و أقل زخرفه و أبهه، ليكون التوجه كله لله فاطر السموات و الأرض.

٤- اجتناب المعاصي عامل مؤثر في التوجه إلى الله، لأن المعصيه و الذنب تبعد الشقه بين قلب المسلم و خالقه.

٥- معرفه معنى الصلاه و فلسفه حركاتها و الذكر عامل مؤثر كبير على ذلك.

٦- و يساعد على ذلك أداء المستحبات، سواء كانت قبل الدخول في الصلاه أو في أثنائها.

٧- و على كل حال فإن هذا العمل هو كبقية الأعمال الأخرى يحتاج إلى تمرين متواصل، و يحدث كثيرا أن يحصل الإنسان على قدره التركيز الفكرى في لحظه من لحظات الصلاه، و بمواصله هذا العمل و متابعتة يحصل على قدره ذاتيه يمكنه بها إغلاق أبواب فكره في أثناء الصلاه إلا على خالقه (فتأملوا جيدا).

إشاره

وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا
الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ (١٤) ثُمَّ إِنَّكُمْ بِعَيْدِ ذَلِكَ لَمَشِيتُونَ (١٥) ثُمَّ
إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ (١٦)

التفسير

إشاره

مراحل تكامل الجنين في الرحم:

إن ذكر الآيات السابقة أوصاف المؤمنين الحقيقيين، و ما يمنحهم الله من جزاء عظيم يبعث في القلوب الشوق للالتحاق
بصفوفهم، لكن بأي طريق؟ تبين الآيات موضع البحث- و قسم من الآيات التاليه لها- السبيل لكسب الإيمان و المعرفة، حيث
يمسك القرآن بيد الإنسان ليأخذه إلى «عالم النفس» و ليكشف له أسرار باطنه و هو «السير الأنفسى»، و تثير الآيات التاليه لها انتباه
الإنسان إلى عالم الظاهر و المخلوقات المدهشه في عالم الوجود و سبر عالم الآفاق، و هو «السير الآفاقي».

تقول الآيات أولاً: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١).

أجل، إن هذه الخطوه الأولى التي خلق الله فيها الإنسان بكلّ عظمته و استعداده و جدارته و الذي يعتبر أفضل مخلوقاته من تراب مهين لا قدر و لا قيمة له، و هكذا تجلّت قدرته سبحانه و تعالى في هذا الخلق البديع.

و تضيف الآية التاليه ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ .

و في الواقع فإنّ الآية الأولى تشير إلى بدايه وجود جمع البشر من آدم و أبناؤه و أنّهم خلقوا جميعا من التراب، إلا أنّ الآية التاليه تشير إلى تداوم و استمراريه نسل الإنسان بواسطه تركيب نطفه الذكر ببويضه الأنثى في الرحم.

و هذا البحث يشبه ما جاء في الآيتين السابعه و الثامنه من سوره السجده وَ بَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ .

و التعبير عن الرحم ب«قرار مكين»، أى القرار الآمن، إشاره إلى أهميه الرحم في الجسم، حيث يقع في مكان أمين محفوظ من جميع الجهات، يحفظه العمود الفقري من جهه، و عظم الحوض القوي من جهه أخرى، و أغشيه البطن العديده من جهه ثالثه، و دفاع اليدين يشكّل حرزا رابعا له. و كلّ ذلك شواهد على موضع الرحم الآمن.

ثمّ تشير الآيه الثالثه إلى المراحل المدهشه و المثيره لتدرّج النطفه في مراحلها المختلفه، و اتّخاذها شكلا معينا في كلّ منها في ذلك القرار المكين، حيث تقول: إِنَّا جَعَلْنَا مِنْ تَلْكَ النُّطْفَةِ عَلَى شَكْلِ قِطْعَةٍ مِنْ دَمٍ مُتَخَيَّرٍ (علقه) ثُمَّ بَدَّلْنَاهَا عَلَى شَكْلِ قِطْعَةٍ مِنْ لَحْمٍ مَمْضُوعٍ (مضغه)، ثمّ جعلنا من هذه المضغه عظاما، و أخيرا ألبسنا هذه العظام لحما: ثُمَّ خَلَقْنَا النَّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا .

ص: ٤٢٨

١ - ١) - «السلاله» على وزن «عصاره» تعنى الشىء الذى يستخلص من شىء آخر، و هى فى الحقيقه خلاصه و نتيجه منه (مجمع البيان حول الآيه موضع البحث).

هذه المراحل الأربعة المختلفه مضافا إلى مرحله النطفه تشكّل خمس مراحل، كلّ منها عالم عجيب بذاته ملئ بالعجائب بحث بدقه في على الجنين، و ألفت بصدها كتب و بحوث عميقه في عصرنا، إلا أنّ القرآن تكلم عن هذه المراحل المختلفه لجنين الإنسان، و بين عجائبه يوم لم يولد هذا العلم و لا يكن له أثر.

و في الختام أشارت الآيه إلى آخر مرحله و التي تعتبر في الحقيقه -أهمّ مرحله في خلق البشر، بعباره عميقه و ذات معنى كبير ثمّ أَنشأناه خَلْقًا آخَرَ وَفَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ .

مرحبا بهذه القدره الفريده، التي خلقت في ظلمات الرحم هذه الصوره البديعه، و صاغت من قطره ماء كلّ هذه الأمور المدهشه.

طوبى لهذا العلم و الحكمه و التدبير، الذي خلق في هذا الموجود البسيط كلّ هذه القابليات و الجداره. تعالى الله فقد تجلّت قدرته فيما خلق.

و جدير بالذكر أنّ كلمه «الخالق» مشتقه من «الخلق» و تعنى بالأصل التقدير (1)، حيث تطلق هذه الكلمه عند ما يراد تقطيع قطعه من الجلد فينبغي على الشخص أن يقيس أبعاد القطعه المطلوبه ثمّ يقطعها، فيستخدم لفظ «الخلق» بمعنى التقدير، لأهميته تقدير أبعاد الشئ، قبل قطعه.

أمّا بعباره أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ فتشير هذا التساؤل: هل يوجد خالق غير الله؟! و وضع بعض المفسرين تبريرات لهذه الآيه في وقت لا حاجه فيه لهذه التبريرات، لأنّ كلمه «الخلق» بمعنى التقدير و الصنع، و يصحّ ذلك بالنسبه لغير الله، إلا أنّ هناك اختلافا جوهريا بين الخلقين...

يخلق الله المواد و صورها، بينما يصنع الإنسان أشياء مما خلق الله، فهو يغير

ص: ٢٢٩

صورها. كمن يبنى دارا حيث يستخدم موادا أوليه كالجصّ و الآجر، أو يصنع من الحديد سياره أو ماكنه.

و من جهه أخرى لا حدود لخلق الله الله خالق كل شئٍ سورة الرعد الآيه (١٦) فى وقت نجد ما صنعه الإنسان محدودا جدًا، و فى كثير من الأحيان يجد الإنسان فيما خلقه هو نقصا يجب سدّه فيما بعد، إلا أنّ الله يبدع الخلق دون أى نقص أو عيب.

ثمّ إنّ قدره الإنسان على صنع الأشياء جاءت بإذن من الله، حيث كلّ شئٍ فى العالم يتحرّك بإذن الله، حتّى الورق على الشجر، كما نقرأ فى سورة المائده الآيه (١١٠) عن المسيح عليه السلام وَ إِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي .

و تنتقل الآيه التاليه من تناول مسأله التوحيد و معرفه المبدأ-بشكل دقيق و جميل-إلى مسأله المعاد حيث تقول: ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ .

و من أجل أن لا- يعتقد المرء بأنّ الموت نهايه كلّ شئٍ، تقول الآيه: ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ أى إنّ خلقكم بهذه الصوره المدهشه لم يكن عبثا أو لتعيشوا أياما معدودات، فتضيف الآيه أنّكم ستبعثون يوم القيامه فى مستوى أعلى و فى عالم أوسع.

بحوث

اشاره

١- أتباع المبدأ و المعاد بدليل واحد

استخدمت الآيات المذكوره أعلاه لإثبات وجود الله و قدرته و عظمته نفس الدليل الذى استخدمته سورة الحج لإثبات المعاد، و هو مسأله المراحل المختلفه لخلق الإنسان فى علام الجنين.

كما انتقلت آخر هذه الآيات إلى بحث مسأله المعاد (١).

أجل، يمكن أن تعرف عظمه الله في خلق الإنسان في ظلمات الرحم، و اتخذاه في كلّ مرحله صورته جديده مدهشه، و كأنّ عشرات الأشخاص من رَسَّامين و صَنَّاع مبدعين التّفوّا حول هذه القطره من الماء، و عملوا ليل نهار ليخرجوها بهذه الصوره البديعه، و لتمرّ من صورته إلى أخرى أبداع، حتّى تمرّ في مختلف مراحل الحياه.

و إذا تمكّنا من تصوير مراحل نمو الجنين بشكل كامل في فيلم سينمائي، و عرضناها لفهمنا مدى العجائب التي تكمن في هذا العمل. و بتقدّم علم الجنين في عصرنا و دراسات العلماء و تجاربهم المختبريه على هذا الأمر، اتّضحت الكثير من الغوامض التي عند ما يطّلع عليها المرء يصرخ دون إرادته فَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ هذا من جهه.

و من جهه ثانيه نلاحظ الخلق المتعاقب و اتخذاه صورته جديده في كلّ مرحله، و بالتالي ظهور إنسان للوجود كامل الخلق من تلك القطره الصغيره من الماء... كلّ ذلك يدلّ على قدره الله على بعث الإنسان ثانيه إلى الحياه. و بهذا يمكن البرهنه بدليل واحد على مسألتين (٢).

٢- آخر مرحله في تكامل جنين الإنسان في الرحم

مِمّا يلفت النظر استخدام الآيات السابقه لمراحل الجنين الخمسه تعبير «الخلق»، في حين استخدمت كلمه «الإنشاء» لآخر مرحله، و كما ذكر اللغويون فإنّ كلمه «الإنشاء» تعني (خلق الشيء مع تربيته) و هذا التعبير يدلّ على اختلاف

ص: ٤٣١

١ - ١) - تناولنا في بدايه سوره الحجّ خلال البحث الآيتين الخامسه و السابعه أدلّه المعاد و منها استعراض مراحل الجنين في الرحم.

٢ - ٢) - شرحنا مراحل الجنين و عظمه الخلق فيها في تفسير الآيه السادسه من سوره آل عمران هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ (في الأَرْحَامِ) كَيْفَ يَشَاءُ .

هذه المرحلة عن المراحل السابقة (مرحلة النطفه و العلقه و المضغه و اللحم و العظم) اختلافاً بيننا. مرحله ذكرها القرآن في عبارته مؤجزه ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ و يعقب ذلك مباشرة بالقول: فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .

ما هذه المرحلة التي تمتاز بهذه الأهميه؟ إنها مرحله يدخل فيها الجنين مرحله الحياه الإنسانيه، يكون له إحساس و حركه، و بتعبير الأحاديث الإسلاميه «نفخ الروح».

هنا يترك الإنسان حياته النباتيه بقفزه واحده ليدخل عالم الحيوان، و منه إلى عالم الإنسانيه، و تتباعد الشقه مع مرحله السابقه بدرجة استخدمت الآيه لها عبارته (ثم أنشأنا) لأن عبارته (ثم خلقنا) لم تعد كافيه. حيث يتخذ الإنسان في هذه مرحله شكلاً خاصاً يرفعه عن المخلوقات الأخرى، ليكون جديراً بخلافه الله في الأرض، و ليحمل الأمانه التي تخلت عنها الجبال و السموات، لعدم استطاعتها حملها.

و هنا انطوى «العالم الكبير» في «الجرم الصغير» بكلّ عجائبه، فيكون جديراً حقاً بعبارته فَبَارَكُ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ .

٣- كساء اللحم فوق العظام

ذكر مفسّر (في ضلال القرآن) عند تفسير هذه الآيه جمله مدهشه هي أنّ الجنين بعد قطعه مرحله «العلقه» و «المضغه» تتبدل خلاياه إلى خلايا عظميّه، ثم تكتسى بالتدرّج بالعضلات و اللحم. لهذا فإنّ عبارته فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا معجزه علميه تكشف سرّاً لم يكن يعلم به أى شخص حتى ذلك الزمن. لأنّ القرآن لم يقل: أبذلنا المضغه عظماً و لحماً، بل قال: فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا أى تبدلت المضغه إلى عظام أولاً، ثم اكتست باللحم.

٤- اللباس صيانه للعظام!

إنّ استخدام اللباس للتعبير عن العضلات و اللحم يكشف لنا حقيقه قباحه شكل الإنسان إن فقد هذا اللباس الذى يكسوا العظام(فيصبح هيكل عظميا مرعبا كما شاهدناه جميعا أو شاهدنا صورته)إضافه إلى ذلك فإنّ اللباس يحمى الجسم، و هكذا اللحم و العضلات تحمى العظام، و بفقدانها تتلقّى العظام ضربات تؤدّى إلى كسرها، و يؤدّى اللحم وظيفه اللباس بالنسبه للعظام فى المحافظه عليها من الحرّ و البرد. و هذا كلّه يبيّن لنا قوه التعبير القرآنى و دقّته.

ص: ٤٣٣

اشاره

وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ (١٧) وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكِنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ (١٨) فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (١٩) وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذُّهْنِ وَصَبْغٍ لِللَّكْلِينَ (٢٠) وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٢١) وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (٢٢)

التفسير

اشاره

مزه أخرى مع علائم التوحيد:

قلنا: إن القرآن تناول سبل كسب الإيمان بعد ذكر صفات المؤمنين، كما تحدّثت الآيات السابقة عن الآيات الله العظيمه في وجودنا، و تناولت هذه الآيات بعدها عالم الظاهر و آفاق الكون، و عظمه خلق الأرض و السموات، حيث قالت

الآية الأولى: وَ لَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ .

و«الطرائق» جمع «طريقه» بمعنى سبيل أو طبقه، و لو أجزنا المعنى الأوّل للطرائق، يصبح معنى الآية، أننا خلقنا فوقكم سبلا سبعة، و يمكن أن تفسّر بأنّها سبل مرور الملائكة، كما يمكن أن تكون مدارات لنجوم السّماء، و بحسب المعنى الثّانى للطرائق، فإنّ الآية تعنى طبقات السّماء السبع.

و قد تحدّثنا عن السماوات السبع قبل هذا كثيرا، و إذا كان القصد من العدد «سبعة» الكثرة، فيكون معنى الآية أننا خلقنا فوقكم عوالم كثيرة من النجوم و الكواكب و السيارات، و عباره الطبقة لا تعنى نظريه «بطلميوس» الذى صوّرها و كأنّها قشره بصل الواحده فوق الأخرى. فإنّ القرآن لم يقصد هذا المعنى أبدا، بل يقصد بالطرائق و الطبقات العوالم التى تحيط بالأرض بفواصل محدّده، و هى بالنسبه لنا الواحده فوق الأخرى، بعضها قريب و البعض الآخر بعيد عنّا. و إذا كان العدد «سبعة» قد استخدم فى الآية للتعداد، فتعنى الآية أننا خلقنا ستّ عوالم فوقكم إضافة إلى عالمكم الذى ترونه (مجموعه الثوابت و السيارات و المجزّات).

و هذه العوالم لم يبلغها الإنسان حتّى الآن.

و لو دققنا بخارطه المنظومه الشمسيه. و تفحصنا مواقع السيارات المختلفه حول الشمس، لعثرنا على تفسير آخر لهذه الآية، هو أنّ من هذه السيارات التسع التى تدور حول الشمس، اثنان هما عطارد و الزهره لهما مداران تحت مدار الأرض، فى الوقت الذى تتخذ فيه السيارات الست الأخرى مداراتها خارج مدار الأرض، و هى تشبه طبقات ستّ إحداها فوق الأخرى، و إضافة إلى مدار القمر الذى يدور حول الأرض تصبح المدارات سبعة، و كأنّها طبقات سبع (1).

و ربّما يتوهّم أنّ العالم بهذه السعه و العظمه ألا يوجب أن يغفل الله تعالى عن

ص: ٤٣٥

(١ - ١) - للاطلاع على السماوات السبع راجع تفسير الآية (٢٩) من سوره البقره.

إدارته؟ فتجيب الآيه مباشرة و﴿ مَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ . إِنَّ الاسْتِنَادَ هُنَا إِلَى مَسْأَلَةِ الْخَلْقِ، إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ قَضِيَّةَ خَلْقِ الْكَوْنِ بِنَفْسِهَا دَلِيلٌ عَلَى عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى بِمَخْلُوقَاتِهِ وَتَوَجُّهُهُ إِلَيْهَا: فَهَلْ يُمْكِنُ أَنْ يَغْفَلَ الْخَالِقُ عَنْ مَخْلُوقَاتِهِ؟! وَ يُمْكِنُ أَنْ تَقْصِدَ الْآيَةُ أَنَّ نَمْلَكَ سِبْلاً كَثِيرَةً لَتَرْتَدَّ الْمَلَائِكَةُ مِنْ فَوْقِكُمْ، وَ لَسْنَا غَافِلِينَ عَنْكُمْ، كَمَا أَنَّ مَلَائِكَتَنَا مُشْرِفَةٌ عَلَيْكُمْ وَ تَشْهَدُ أَعْمَالَكُمْ .

و أشارت الآيه التاليه إلى أحد مظاهر القدره الإلهيه،الذى يعتبر من بركات السموات و الأرض، ألا و هو المطر،حيث تقول: وَ أَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ .

أنزلنا المطر بقدر لا- يغرق الأرض من كثرته،و ليس قليلا- بحيث لا- يكفى لرى النباتات و الحيوانات.أجل لو انتقلنا من البحث حول السيماء إلى الأرض لوجدنا الماء من أهم الهبات الإلهيه،و أصل حياه جميع المخلوقات،و بهذا الصدد أشارت الآيه إلى قضيه أكثر أهميه،هى قضيه احتياطى المياه الجوفيه فتقول: فَأَسْكِنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَ إِنَّا عَلَيَّ ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ .

نحن نعلم أنّ القشره السطحيه من الأرض تتكوّن من طبقتين مختلفتين:

إحداهما نفوذيه و أخرى غير نفوذيه.و لو كانت القشره الأرضيه جميعا نفوذيه لنفذ المطر إلى جوف الأرض فورا،ثم يظهر الجفاف بعد هطول المطر و إن استغرق مدّه طويله...حيث لا نعثر على ذرّه من الماء! و لو كان سطح الأرض من طين أحمر لبقى المطر فوق سطح الأرض و تلوّث و تعفّن و شدّه الخناق على الإنسان،و أصبح سببا لموت الإنسان فى الوقت الذى هو أصل الحياه.

إلا أنّ الله الرحيم جعل القشره الأولى من سطح الأرض نافذه،و تليها قشره غير نافذه تحافظ على المياه الجوفيه،فتكون احتياطا للبشر يستخرجها عند الحاجه عن طريق الآبار،أو تخرج بذاتها عن طريق العيون،دون أن تفسد أو

توجّه للإنسان أقلّ أذى (١).

و يحتمل أن يكون هذا الماء الذى نرتوى به بعد إخراجه من أعماق الأرض من قطرات مطر نزل قبل آلاف السنين و خزن فى أعماق الأرض حتى اليوم،دون أن يتعرّض لتلوث أو فساد.

و على كلّ حال فإنّ الذى خلق الإنسان ليحيا،و جعل الماء أساسا لحياته،بل أكثرها أهميته،خلق له مصادر كثيرة من هذه المادّه الحيويه و خزنها له قبل أن يخلقه!و بالطبع هناك احتياطي من هذه المادّه الحيويه فوق قمم الجبال(على شكل ثلوج).تراه يذوب خلال السنه و ينحدر إلى السهول،و قسم آخر لا زال فوق قمم الجبال منذ مئات بل آلاف السنين،ينتظر الأمر بالذوبان على أثر تغيير حراره الجو لينحدر إلى السهول و الوديان ليروى الأرض و يزل العطش عنها.

و بملاحظه حرف الجر «فى»فى عبارته «فى الأرض»يبدو لنا أنّ الآيه تشير إلى مصادر المياه الجوفيه و ليس السطحيه.

و تشير الآيه التاليه إلى الخير و البركه فى نعمه المطر،أى المحاصيل الزراعيه الناتجه عنه فتقول: فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. فمضافا إلى التمر و العنب اللذين يعتبران أهمّ المحاصيل الزراعيه فإنّ فيها أنواع أخرى من الفواكه كثيره.

و لعلّ عبارته وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ إشاره إلى أنّ محاصيل هذه الجنّات ذات الخيرات الواسعه لا تنحصر بالفواكه المأكوله فقط،و أنّ المأكولات تشكّل قسما من خيراتها،فهذه البساتين(و منها بساتين النخيل)لها فوائد كثيره أخرى لحياه الإنسان،حيث يصنع الإنسان أوراقها حصرا يجلس عليها،و أحيانا يصنع منها لباسا لنفسه،و يعمل من أخشابها منازل لسكناه.و يستخرج دواءه من بعض

ص: ٤٣٧

(١- ١) -و يجب ملاحظه أنّ الماء الملوّث يصفى عند مروره من القشره النافذه فى معظم الأوقات!

جذورها و أوراقها و فاكهتها. كما يستخدم الكثير منها كعلف لحيواناته، و من أخشابها مادّة للوقود.

و يعطى الفخر الرازى فى تفسيره احتمال قصد الآيه مِنْهَا تَأْكُلُونَ أَنَّ حَيَاتِكُمْ و معيشتكم تعتمد على هذه البساتين، مثلما أَنَّ فلانا يعتاش على العمل الفلانى، أى إِنَّ حَيَاتِهِ تعتمد على ذلك العمل (١).

و مِمَّا يلفت النظر من الآيات أعلاه أَنَّ منشأ حياه الإنسان فى ماء النطفه، و منشأ حياه النبات من ماء المطر، و فى الحقيقه ينبع هذان النموذجان للحياه من الماء. أجل إِنَّ حكم الله و قانونه واحد فى كلّ شىء.

ثمّ تشير الآيه التاليه إلى شجره مباركه أخرى نمت من ماء المطر، إضافة إلى بساتين النخيل و الكروم و الأشجار و الفاكهه الاخرى وَ شَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَ صَبِغٍ لِلآكِلِينَ (٢).

ماذا يقصد ب طُورِ سَيْنَاءَ ؟ ذكر المفسّرون لهذه الكلمه احتمالين: الأول: أنّها إشارة إلى جبل الطور المعروف فى صحراء سيناء. و إذا وصف القرآن المجيد شجره الزيتون باعتبارها الشجره التى تنمو فى جبل الطور، لأنّ عرب الحجاز كانوا يمزون بهذه الأشجار المباركه عند ما كانوا يتوجّهون إلى الشمال، حيث تقع منطقه الطور فى جنوب صحراء سيناء كما يدلّ على ذلك موقعها الجغرافى بوضوح.

و الاحتمال الثّانى: طور سيناء ذات جانب و صفى يعنى الجبل ذى الخيرات، أو الجبل ذى الأشجار الكثيره، أو الجبل الجميل (لأنّ «الطور» يعنى الجبل، و «سيناء» تعنى ذات البركه و الجمال و الشجر).

و كلمه «صبغ» تعنى فى الأصل اللون، و بما أَنَّ الإنسان يلوّن خبزه مع المرق،

ص: ٤٣٨

١- ١) - إنَّ «من» فى التفسير الأوّل «تبعيضيّه»، و فى التفسير الثّانى «نشويه».

٢- ٢) - صبغ الآكلين، غذاء يؤكل مع الخبز.

لهذا أطلق على جميع أنواع المرق اسم الصنغ. و على كلِّ حال فكلمه «الصنغ» ربّما تكون إشارة إلى زيت الزيتون الذى يؤكل مع الخبز، أو أنواع الخبز مع المرق الذى يحضر من أشجار أخرى.

و هنا يواجهنا سؤال: لماذا أكّدت على ثلاث فواكه هي: التمر و العنب و الزيتون؟ فى الجواب على ذلك لا بدّ من الاهتمام بمسأله علميّه، هي أنّ علماء التغذية أكّدوا أنّه من النادر أن نجد فاكهه مفيده لجسم الإنسان بقدر فائده هذه الفواكه الثلاثه.

فلزيت الزيتون أهميّه فائقه فى إنتاج الطاقه و بناء الجسم، لأنّ الحراره الناتجه عن تناوله كبيره، و هو صديق حميم للكبد، و يزيل أمراض الكليه و يحميها، و يقوّى الأعصاب، و أخيرا يعتبر إكسير السلامه.

أمّا التمور فقد و صفت بدرجة لا يسعها هذا الموجز، فسكّرها من أفضل أنواع السكر و أسلمها، و يرى عدد كبير من خبراء التغذية أنّ التمور من الأسباب التى تحول دون الإصابة بالأمراض السرطانيه، حيث كشف العلماء فى التمور ثلاث عشره مادّه حيويه، و خمسه أنواع من الفيتامينات، و بهذا تعتبر مصدرا غنيّا بالمواد الغذائيه.

أمّا الأعناب فتعتبر - كما يراه بعض العلماء - صيدليه طبيعيه، فخواصها تشبه حليب الامّ، و تولّد طاقه حراريه فى الجسم تعادل ضعف ما تولده اللحوم، و تصفّى الدم، و تدفع السموم عن البدن، و تمنح فيتاميناته الإنسان قوّه و طاقه مثلى (١).

بعد بيان جانب من أنعم الله فى عالم النبات التى تنمو على المطر، يلي ذلك بحث جانب مهمّ من أنعم الله و هباته فى عالم الحيوان وَ إِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً (٢).

ص: ٤٣٩

١- ١) - للاستزاده فى الاطلاع على فوائد هذه الفواكه الثلاثه الحيويه يراجع تفسير الآيه (١١) من سوره النحل.

٢- ٢) - استخدمت «عبره» هنا بصيغه نكره إشارة إلى عظمتها.

ثمّ تشريح الآيه «العبره» فتقول: نُسِّقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا. أجل إنّ الحيوان يدرّ حليباً لذيذاً يعتبر غذاءً كاملاً، و يمنح الجسم حراره كبيره، و يخرج الحليب من بين الدم على شكل دفعات كما ينزف الدم، لتعلموا قدره الله حيث يتمكن بها من خلق غذاء طاهر لذيذ من بين أشياء تبدو ملوثة.

ثمّ تضيف الآيه وَ لَكُمْ فِيهَا مَدَائِعٌ كَثِيرَةٌ وَ مِنْهَا تَأْكُلُونَ إضافة إلى اللحم الذى يعتبر من أجزاء الغذاء الرئيسيّ التى يحتاجها الجسم، يستفاد من جلود الحيوان فى صنع اللباس و الخيم القويّه ذات العمر الطويل. كما يستفاد من صوفها فى صنع الملابس و الفرش و الأغطيه. و يصنع من أجزاء بدنها الدواء، و يستفاد حتّى من روثها لتسميد الأشجار و النباتات.

كما يستفاد من الحيوانات فى الركوب فى البرّ، و السفن فى البحر وَ عَلَيْهَا وَ عَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ (١).

كلّ هذه الخصائص و الفوائد فى الحيوان تعتبر حقاً -عبره لنا، تعرف الإنسان على ما خلق الله من أنعم، كما تثير فيه الشعور بالشكر و الثناء على الله (٢).

السؤال الوحيد المتبقّى هو: كيف أصبحت الدواب و السفن فى مستوى واحد؟ إذا لا حظنا مسأله واحده فسيكون الردّ واضحاً، و هى أنّ الإنسان بحاجة إلى مركب فى حياته، مرّه فى البرّ، و أخرى فى البحر و هى السفن.

و هذا التعبير هو ذاته الذى استخدم فى الآيه (٧٠) من سوره الإسراء حين ذكر ما وهبه الله بنى آدم وَ حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبُرِّ وَ الْبَحْرِ.

ص: ٤٤٠

١-١) -تناولنا بالبحث الاستفاده من الحيوان بشكل مسهب فى تفسير الآيه (٨٠) من سوره النحل.

٢-٢) -بحثنا فى تفسير الآيه (١٤) من سوره النحل و كذلك من تفسير الآيه (٦٥) من سوره الحجّ، أهميّه السفن و ميزات المواد المختلفه التى تدخل فى استخدام السفن.

اشاره

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٢٣) فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ (٢٤) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جَنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ (٢٥)

التفسير

اشاره

منطق الجبناء المغرورين:

تحدّث الآيات السابقه عن التوحيد و معرفه الله و أسباب عظمته في عالم الخلقه،أمّا الآيات-موضوع البحث و الآيات المقبله- فقد تناولت نفس الموضوع على لسان كبار الأنبياء و من خلال تاريخ حياتهم.

حيث بدأت بأول الأنبياء أولى العزم و المنادى بالتوحيد«نوح»عليه السلام و لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنِّ إِلَهٍ غَيْرُهُ و أَفَلَا تَتَّقُونَ أى مع هذا البيان الواضح كيف لا تجتنبون عباده الأوثان؟ أمّا الأشراف الأثرياء و المغرورون و الملاء من الناس،و هم اللذين يملأون

العين فى ظاهرهم، و الفارغون فى واقعهم من قوم نوح عليه السلام فَقَالَ الْمَلَأَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُرِيدُ أَنْ يَتَفَضَّلَ عَلَيْكُمْ .

و بهذا اعتبروا أول عيب له كونه إنسانا فاتهموه بالسلطويه، و حديثه عن الله و التوحيد و الدين و العقيدة مؤامره لتحقيق أهدافه، ثم أضافوا و لَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَنْزَلَ مَلَائِكَتَهُ وَ لِاتِمَامِ هَذَا الاستدلال الخاوى قالوا: مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ .

إلا أن هذا الكلام الفارغ لم يؤثر فى معنويات هذا النبى الكبير، حيث واصل دعوته إلى الله، و لم يكن فى عمله دليل على رغبته فى الحصول على امتياز على الآخرين، أو أن يتسلط عليهم، لهذا لجأوا إلى توجيه تهمه أخرى إليه، هى الجنون الذى كان يتهم به جميع أنبياء الله عبر التاريخ، حيث قالوا:

إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ بِهِ جِنَّةٌ فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ

و استخدم المشركون تعبير به جِنَّةٌ ضدَّ هذا النبى المرسل أى به (نوع من أنواع الجنون) ليغطوا على حقيقه واضحه، فكلام نوح عليه السلام خير دليل على رجحان علمه و عقله، و كانوا يبعثون فى الحقيقه- أن يقولوا: كل هذه الأمور صحيحه، إلا أن الجنون فنون له صورا متباينه قد يقترن أحدها بالعقل!! أما عبارته فَتَرَبَّصُوا بِهِ حَتَّىٰ حِينٍ فقد تكون إشاره إلى انتظار موت نوح عليه السلام من قبل المخالفين الذين ترقبوا موته لحظه بعد أخرى ليربحوا أنفسهم، و يمكن أن تعنى تأكيداً منهم لجنونه، فقالوا: انتظروا حتى يشفى من هذا المرض (١).

و على كل حال فإنَّ المخالفين و جهوا إلى نوح عليه السلام ثلاثة اتهامات واهيه متناقضه، و اعتبروا كل واحد منها دليلاً ينفى رسالته:

الأول: إنَّ ادعاء البشر بأنهم رسل الله ادعاء كاذب، حيث لم يحدث مثل هذا فى السابق، و لو شاء الله ذلك لبعث ملائكته رسلا إلى الناس!

ص: ٤٤٢

١ - ١) - كما قال البعض: إنَّ هذه العبارة تشير إلى قولهم: ارموه فى السجن زمنا و قال آخرون: إنَّهم قصدوا أن يتركوه لحاله الآن. إلا أن هذين التفسيرين لا يبدوان صحيحين.

و الثانی: إنّه رجل سلطوی، و کلامه ادعاء لتحقيق هدفه! و الثالث: إنّه لا یملک عقلا سلیمًا، و کلّ ما یقولہ هو کلام عابر! و بما أنّ جواب هذه الاتّهامات الواهیة أمر واضح جدّا، و قد جاء فی آیات قرآنیة أخرى، لهذا لم یطرّق إلى ردّها فی هذه الآيات. لأنّه من المؤکّد-من جهة -أن یكون قائد الناس أحدهم و من جنسهم، لیكون علی علم بمشاكلهم و یحسّ بالامهم، إضافة إلى ذلك فإنّ جمیع الأنبياء كانوا من البشر. و من جهة أخرى یتّضح لنا خلال تصفّح تاریخ الأنبياء و استعراض حياتهم، أنّ قضیة الاخوة و التواضع، تنفی أيّ صفة سلطویة عنهم، كما ثبت رجحان عقلهم و تدبيرهم حتّى عند أعدائهم، حیث نجدهم یعترفون بذلك خلال أقوالهم.

اشاره

قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٢٦) فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعْ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحَيْنَا فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ وَلَا تُخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ (٢٧) فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَمَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلِّ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢٨) وَقُلْ رَبِّ انزِلْنِي مُنزلاً مباركاً وَأَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ (٢٩) إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ (٣٠)

التفسير

اشاره

خاتمه حياه قوم معاندين:

أطلعنا من الآيات السابقه على التهم التي وجهها أعداء نوح عليه السلام إليه. إلا أنه يستدل من آيات قرآنيه أخرى -بشكل واضح- أن أذى القوم المعاندين لنوح عليه السلام لم يتحدد بهذه الأمور، بل شمل كل وسيلة يمكن بها إيذاؤه، في حين بدل -سلام الله عليه- جميع ما في وسعه في سبيل هدايتهم و إنقاذهم من براثن الشرك و الكفر.

و عند ما يش منهم حيث لم يؤمن بما جاء به إلا مجموعته صغيره، دعا الله ليعينه، حيث نقرأ في الآيه الأولى **قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ (١)**.

هنا نزل الوحي الإلهي، من أجل التمهيد لإنقاذ نوح عليه السّلام و أصحابه القلّه و هلاك المشركين المعاندين **فَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِ أَنْ اصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَ وَحِينَا**.

إنّ عبارته «بأعيننا» إشاره إلى أنّ سعيك في هذا السبيل سيكون تحت حمايتنا، فاعمل باطمئنان و راحه بال و لا تخف من أى شىء.

و استعمال عبارته «و حيناً» يكشف لنا أنّ نوحا عليه السّلام تعلّم صنع السفينه بالوحي الإلهي، لأنّ التاريخ لم يذكر أنّ الإنسان استطاع صنع مثل هذه الوسيله حتّى ذلك الوقت. و لهذا السبب صنع نوح عليه السّلام السفينه بشكل يناسب غايته فى صنعها، و لتكون فى غايه الكمال! ثمّ تواصل الآيه بأنّه إذا جاء أمر الله، و علامه ذلك فوران الماء فى التنور، فاعلم أنّه قد اقترب وقت الطوفان، فاختر من كلّ نوع من الحيوانات زوجاً (ذكر و أنثى) و اصعد به إلى السفينه: **فَإِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَ فَارَ التَّنُّورُ فَاسْلُكْ فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَ أَهْلَكَ إِلَّا مَنْ سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ مِنْهُمْ** إشاره إلى زوج نوح عليه السّلام و أحد أبنائه، ثمّ أضافت الآيه:

وَ لَا تَخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُعْرَقُونَ

و هذا التحذير جاء حتّى لا يقع نوح عليه السّلام تحت تأثير العاطفه الإنسانيه، عاطفه الابوه، أو عاطفته نحو زوجته ليشفع لهما، فى وقت افتقدا فيه لحقّ الشفاعة.

و تقول الآيه التاليه: **فَإِذَا اسْتَوَيْتَ أَنْتَ وَ مَنْ مَعَكَ عَلَى الْفُلْكِ فَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي نَجَّانَا مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ**.

و بعد الحمد و الثناء عليه تعالى على هذه النعمه العظيمه، نعمه النجاه من مخالف الظلمه، ادعوه هكذا **وَ قُلِ رَبِّ انزِلْنِي مُنزَلاً مُبَارَكاً وَ أَنْتَ خَيْرُ الْمُنزِلِينَ**.

ص: ٤٤٥

١-١) -الباء فى «بما كذّبون» ربّما كانت سببىه أو للمقابله. و أمّا «ما» فيمكن أن تكون مصدرية أو موصوله، و يختلف معنى كلّ منهما. إلا أنّ هذا الاختلاف ليس مهمّاً (فتأمّلوا جيداً).

كلمه «منزل» ربّما كانت اسم مكان، أى: بعد الطوفان ندعو الله لينزلنا فى أرض ذات خيرات واسع، لنحيا فيها بسعاده و هدوء.

كما يمكن أن تكون مصدرا ميميّا أى: أنزلنا بشكل لائق، لأنّ هناك أخطارا تهدّد ركّاب هذه السفينه بعد رسوها فى ختام الطوفان، كعدم مكان للسكن، أو النقص فى الغذاء، أو التعرّض للأمراض، لهذا دعا نوح عليه السّلام ربّه لينزله منزلا مباركا.

وقد أشارت الآيه الأخيره-من الآيات موضع البحث-إلى مجمل هذه القصّه فقالت: **إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ** ففى هذه الحوادث التى جرت على نوح عليه السّلام و انتصاره على أعدائه الظالمين، و نزول أشدّ أنواع العقاب عليهم-آيات و دلائل لأصحاب العقول السليمه.

وَإِنْ كُنَّا لَمُبْتَلِينَ

أى إنّنا نمتحن الجميع بشكل قاطع. و قد تكون هذه الجملة إشاره إلى إمتحان الله لقوم نوح مرارا، و عند ما أخفقوا فى الامتحان أهلكهم إلاّ المؤمنين.

كما قد تكون إشاره إلى امتحان الله لجميع البشر فى كلّ زمان و مكان، و ما جاء فى هذه الآيات لم يكن خاصا بالناس فى زمن نوح عليه السّلام، بل يشمل الناس فى جميع الدهور. فيهلك من كان عائقا فى طريق تكامل البشريه و ليواصل الأخيار سيرهم الطبيعى.

و اكتفت الآيات هنا بقضيّه بناء السفينه و دخول نوح عليه السّلام و أصحابه إليها، إلاّ أنّها لم تشر إلى مصير المذنبين، و لم تتحدّث عنهم بالتفصيل، و إنّما اكتفت بالقول بأنّهم لقوا ما وعدهم الله **إِنَّهُمْ مُّعْرَقُونَ** لأنّ هذا الوعد مؤكّد لا يقبل النقص.

و لا بدّ من القول بأنّ هناك حديثا واسعا عن قوم نوح و موقفهم إزاء هذا النّبي الكبير، و مصيرهم المؤلم، و قصّه السفينه، و فوران الماء من التنور، و حدوث الطوفان، و غرق ابن نوح عليه السّلام. و قد بيّنا قسما كبيرا منه فى تفسير سوره هود، و سنذكر قسما آخر فى تفسير سوره نوح إن شاء الله.

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ (٣١) فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٣٢) وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِإِيمَانِ الْآخِرَةِ وَأُتِرْتُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ (٣٣) وَلَئِنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ (٣٤) أَيْعِدْكُمْ أَنْكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنْتُمْ تُرَابًا وَعِظَامًا أَنْكُمْ مُخْرَجُونَ (٣٥) هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ (٣٦) إِنَّ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٣٧) إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ (٣٨) قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبْتَنِي (٣٩) قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لِيُصِيبَهُ نَدِيمٌ (٤٠) فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٤١)

المصير المؤلم لقوم ثمود:

تحدّث هذه الآيات عن أقوام آخرين جاؤوا بعد قوم نوح عليه السّلام. و منطقتهم يتناغم و منطق الكفار السابقين، كما شرحت مصيرهم الأليم، فأكملت بذلك ما بحثته الآيات السابقة.

فهى تقول أولاً: **ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَوْمًا آخَرِينَ .**

«القرن» مشتقّ من الاقتران، بمعنى القرب، لهذا يطلق على الجماعة التى تعيش فى عصر واحد، كما تطلق هذه الكلمه على عصر هؤلاء، و قياس زمن القرن بثلاثين أو مائه سنه يتبع ما تعارفته الأقوام المختلفه.

و بما أنّ البشر لا يمكن أن يعيشوا دون قائد ربّانى، فقد بعث الله أنبياءه يدعون إلى توحيدهِ و يقيمون عدالته بين الناس، حيث تقول الآيه التاليه:

فَأَرْسَلْنَا فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ .

و هذه هى الركيزه الأساسيه لدعوه الأنبياء، إنّها نداء التوحيد، اسّ جميع الإصلاحات الفرديه و الاجتماعيه، و بعدها أكد رسل الله لهم القول: إنّكم و بعد هذه الدعوه الصريحه ألا تتركون الشرك و عباده الأوثان: **أَفَلَا تَتَّقُونَ .**

أما أى قوم كان هؤلاء؟ و من هو نبيهم؟ قال المفسرون بعد دراسه الآيات المشابهه لهذه الآيه: هناك احتمالان:

الأول: أنّهم قوم ثمود الذين عاشوا شمال الحجاز، و بعث الله النبى «صالح» عليه السّلام لهدايتهم، إلا أنّهم كفروا و طغوا فأهلكهم الله بالصيحه السماويه (الصاعقه القاتله) و شاهد هذا التفسير و دليله هو الصيحه التى ذكرت فى ختام الآيات موضع البحث، و التى جاءت فى سوره هود الآيه (٦٧) حيث خصّت قوم صالح عليه السّلام.

و الاحتمال الثانى: خصها بقوم «عاد» الذين كان نبيهم «هود» عليه السّلام، و قد

ذكرتهم آيات قرآنيه مباشره بعد سرد قصه نوح عليه السلام، و هذا دليل على صحه هذا التفسير (١)، إلا أن عقاب قوم عاد كما جاء فى الآيتين السادسه و السابعه من سوره «الحاقه»، كان ريحا شديدًا استمرّ سبعة أيام فدمرهم عن بكره أبيهم، إذن فالتفسير الأوّل هو الأصحّ.

و لننظر الآن ماذا كان ردّ فعل هؤلاء القوم المعاندين إزاء التوحيد الذى أعلنه هذا النبىّ الكبير؟ يقول القرآن فى الآيه التاليه: وَ قَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا وَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ الْآخِرَةِ وَ اتَّرفَنَاهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا مَا هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَ يَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ .

أجل إن القوم الذين عاشوا فى رفاه مطلق دعاهم القرآن باسم الملاء (ترى ظاهرهم يملأ العين، إلا أن باطنهم خاو من النور).

و بما أنهم كانوا يرون فى دعوه نبى الله خلافا لأهوائهم و منافسه لمصالحهم العدوانيه و تسلطهم الذى لا مبرر له، و قد أترفوا فبعدوا عن ذكر الله، و أنكروا الآخره، فجادلوا نبىهم بنفس منطق المعاندين من قوم نوح، فقد رأوا فى بشريه القاده الربائين و تناولهم الطعام كباقي الناس دليلا على بطلان نبوه هؤلاء، فى حين أن هذا الأمر بحد ذاته مؤيد على كون هؤلاء الرجال العظام حملة رساله من الله إلى الناس، و لأنهم نهضوا من بين جماهير الناس بعد أن شعروا بالأمهم و عملوا بما يحتاجونه بشكل جيّد.

ثم قال بعضهم للبعض الآخر: وَ لئنْ أَطَعْتُمْ بَشَرًا مِثْلُكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَخَاسِرُونَ .

هؤلاء الحمقى لم يلتفتوا إلى هذه الحقيقه، و هى أنهم يريدون من الناس بهذه الوسوس الشيطانيه أن ينقادوا له فى محاربه الأنبياء، فى الوقت الذى يعييون فيه

ص: ٤٤٩

على الذين يتبعون من كان يستمدّ العون من مركز الوحي وقد ملئ قلبه نورا و علما إلهيا. و يرون في هذا العمل تقييد لحرية الإنسان.

و من ثم أنكروا المعاد،الذى كان دوما سدا منيعا لاتباع الشهوات و أرباب اللذات،و قالوا: أ يَعِدُكُمْ أَنْتُمْ إِذَا مِتُّمْ وَ كُنْتُمْ تُرَاباً وَ عِظَاماً أَنْتُمْ مُخْرَجُونَ لتعيشون حياه جديده هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ فقد تسائل الكفار:هل يمكن البعث و الناس قد أصبحوا ترابا و تبعثرت ذراتهم هنا و هناك؟إن ذلك مستحيل!! و بهذا الكلام ازدادوا إصرارا على إنكار المعاد قائلين:إننا نشاهد باستمرار موت مجموعه و ولاده مجموعه أخرى لتحل محلهم،و لا حياه بعد الموت إن هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

و أخيرا لخصوا التهم التى وجهوها إلى نبيهم فقالوا: إِنَّ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً وَ مَا نَحْنُ لَهُ بِمُؤْمِنِينَ فلا رساله إلهيه،و لا بعث،و لا برنامج سماوى، و عليه لا يتسنّى لعاقل الإيمان به.

و عند ما طغى عناد الكفار،و زالت آخر قطره من الحياء منهم،فتجاسروا على الله،و أنكروا رسالته إليهم،و أنكروا معاجز أنبيائه بكل صلافة،و قد أتم الله حجته عليهم،عندها توجه هذا النبى الكبير إلى الله سبحانه و تعالى و قَالَ رَبِّ انصُرْنِي بِمَا كَذَّبُونِ رَبَّاه:انصرنى فقد هتكوا الحرمات،و اتهمونى بما شاؤوا و كذبوا دعوتى.

فأجابه الله عزّ و جلّ كما ذكرت الآيه قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ أَلَا إِنَّهُمْ سِيندمون يوم لا ينفع الندم.

و هكذا جرى فأخذتْهُمْ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ حيث نزلت عليهم صاعقه الموت برعبها الهائل و دمارها الماحق،و قلبت مساكنهم و نثرتها حطاما، و كانت سريعه خاطفه إلى درجه لم تسمح لهم بالفرار،فدفنوا فى منازلهم كما بينت الآيه

الكريمه فَجَعَلْنَا هُمْ عِثَاءً أَى جَعَلْنَا هُمْ كَهَشِيمِ النَّبَاتِ يَحْمَلُهُ السَّبِيلُ فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ .

تعليقات:

اشاره

١- الحياه المترفه و أثرها المشؤوم

بيّنت الآيات السابقه العلاقه بين «الترف» (حياه الأشراف المتعمين) و بين «الكفر و إنكار لقاء الله» و هذه هى الحقيقه بعينها. فالذين يعيشون مترفين يطلقون العنان لشهواتهم الحيوانيه. فمن الواضح أنّهم لا يقبلون برقابه إلهيه، و لا يعترفون بيوم البعث حيث تنتظرهم محكمه العدل الإلهي، و الإقرار بذلك يؤنّب ضمائرهم و يثير الناس عليهم، لهذا فإن هؤلاء الأشخاص لا يقرون بالعبوديه لله، و ينكرون المبدأ و المعاد، و يرون الحياه كما ذكرت الآيات السابقه إنّ هى إلاً حَيَاتِنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَ نَحْيَا وَ مَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ .

هذا هو شعارهم المعبر عن فتنهم و ضلالهم الصارخ: فلنغتنم هذه الفرصه فلا- خبر جاء و لا وحى نزل، و من يدعى ذلك فهو كاذب! و عصفور فى اليد خير من عشره على الشجره... هكذا كانوا يبزون إنكارهم ليوم البعث.

إضافه إلى ذلك فتحقيق مثل هذه الحياه المترفه لا تتم بدأ إلا بسلب حقوق الآخرين و ظلمهم، و هذا لا يكون إلا بإنكار رساله الأنبياء و القيامه و لهذا نرى الذين عاشوا فى بدخ مترف يحتقرون كلّ القيم السماويه و ينكرون كلّ شىء إلهي.

هؤلاء الحمقى أصبحوا أسرى لأهوائهم النفسيه، فخرجوا عن طاعه الله و أصبحوا عبيدا لأهوائهم و شهواتهم، بل أصبحوا عبيدا لعبيد آخرين، بنفسيه و ضيعه، و قلوب سوداء قاتمته، و مستقبل موحش، على الرغم من أنّ البعض يتصوّر أنّهم متنعمون و سيقون كذلك، غير أنّ القلق الذى يسيطر عليهم من عقاب الله و زوال نعمته و الخوف من الموت لا يدع لهم راحه.

٢- «التراب» و«العظام»

يتفسخ جسم الإنسان بعد موته حتّى يتحوّل إلى تراب، إلّا أنّ الآية السابقة قدّمت التراب على العظام، لماذا؟ قد يكون ذلك إشارة إلى القسمين المهمّين من مكوّنات الجسم (اللحم و العظم) فاللحم يتفسخ أولاً و يصبح تراباً، و تبقى العظام لسنين عديدة ثمّ تبلى أخيراً و تصبح تراباً أيضاً.

و ربّما كان التراب هنا إشارة إلى الأجداد القدماء جدّاً الذين أصبحوا تراباً، و العظام إشارة إلى الآباء الذين تفسّخت أجسامهم، و بقيت العظام لم تتحوّل إلى تراب (١).

٣- ما معنى الغناء؟

أطلعنا على مصير قوم ثمود و هو- كما ذكرته الآيات السابقة- أنّهم قد أصبحوا «غناء». و الغناء، يعنى النباتات الجافّة المتراكمة، و الطافيه على مياه السيول، كما يطلق الغناء على الزبد المتراكم على ماء القدر حين الغليان، و تشبيه الأجسام الميتة بالغناء دليل على منتهى ضعفها و انكسارها و تفاهتها، لأنّ هشيم النبات فوق مياه السيول تافه لا قيمه له، و لا أثر له بعد انتهاء السيول (و قد شرحنا بإسهاب الصحيحه السماويه فى تفسير الآيه ٦٧ من سوره هود) هذا و لم يكن هذا العقاب خاصّاً- فقط- بقوم ثمود، حيث هناك أقوام أخرى أهلكت به. و قد تمّ شرحه فى حينه.

ص: ٤٥٢

وَمِمَّا يَلْفُتُ النَّظْرَ أَنَّ آخِرَ عِبَارِهِ فِي الْآيَاتِ-مَوْضِعِ الْبَحْثِ-أَخْرَجَتْ الْقَضِيَّةَ مِنْ إِطَارِهَا وَجَعَلَتْهَا قَانُونًا عَامًّا، حَيْثُ تَقُولُ: فَجَبَّيْدًا
لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وَهَذَا اسْتِنْتَاجٌ نِهَائِيٌّ مِنْ كُلِّ هَذِهِ الْآيَاتِ، فَمَا قِيلَ بِصَدْدِ انْكَارٍ وَتَكْذِيبِ الْآيَاتِ الْإِلَهِيَّةِ وَالْمَعَادِ وَالْعَاقِبَةِ الْمُؤَلَّمَةِ
وَالنَّهَائِيَّةِ السَّيِّئَةِ لَا تَخْتَصُّ بِجَمَاعَةٍ مَعَيَّنَةٍ، بَلْ تَشْمَلُ جَمِيعَ الظَّالِمِينَ عِبْرَ التَّارِيخِ.

اشاره

ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ (٤٢) مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّه أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٤٣) ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا كُلِّ مَآ جَاءَ أُمَّه رَسُولًا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَكْحَادًا لِأَقْوَامٍ لَا يُؤْمِنُونَ (٤٤)

التفسير

اشاره

هلاک الأقبام المعاندين الواحد بعد الآخر:

بعد أن تحدت القرآن عن قصه قوم نوح، أشار إلى أقوام أخرى جاءت بعدهم، وقبل النبي موسى عليه السلام حيث يقول: ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ لَأَنَّ هَذَا أَمْرُ اللَّهِ وَسُنَّتُهُ فِي خَلْقِهِ، فَالْفَيْضُ الْإِلَهِيُّ لَا يَنْقَطِعُ عَنْ عِبَادِهِ فَلَوْ سَعَى جَمَاعَةٌ لِلْوُقُوفِ فِي وَجْهِ مَسِيرِهِ التَّكَامِلِ الْإِنْسَانِيِّ لِلْبَشَرِيَّةِ لِمَحَقَّتِهِمْ وَدَفَعُ هَذِهِ الْمَسِيرَةَ إِلَى أَمَامٍ.

و لهذه الأقبام تاريخ معين و أجل محدود مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّه أَجْلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ فلو صدر الأمر الحتمي بنهايه حياتهم فسيهلكوا فوراً، دون تأخير لحظه أو تقديم لحظه.

«الأجل» بمعنى العمر و مدّه الشيء، كأن نقول: أجل هذا الصكّ ثلاثة أشهر، أى أنّ مدّته تنتهى بعد ثلاثة أشهر، أو إلى أجل مسمى أى إلى تاريخ محدد.

و كما قلنا سابقا فالأجل نوعان: «المحتم» و«المشروط»، فالأجل المحتم انتهاء عمر الإنسان أو عمر قوم ما، و لا تغيير فيه. أمّا الأجل المشروط فيمكن أن يتغير حسب تغيير الظروف فيزداد أو ينقص، و قد تحدّثنا عن ذلك سابقا بإسهاب (1).

و على كلّ حال، فإنّ الآية السابقة تشير إلى «الأجل المحتم».

و تكشف الآية التاليه حقيقه استمرار بعث الأنبياء عبر التاريخ بالدعوه إلى الله حيث تقول: ثُمَّ أَرْسَلْنَا رَسُولًا تَتْرًا .

كلمه «تترا» مشتقّه من «الوتر» بمعنى التعاقب، و«تواتر الأخبار» تعنى وصولها الواحد بعد الآخر، و من مجموعها يتيقن الإنسان بصدقها، و هذه الكلمه مشتقّه فى الأصل من «الوتر» بمعنى جبل القوس حيث يتصل الجبل بالقوس من جهتيه و يقع خلفه ليقرب رأس القوس (و من حيث التركيب فإنّ كلمه «تترا» فى الأصل «وترا» تبدلت الواو فيه تاء).

و على كلّ حال فإنّ معلّمى السّماء، كانوا يتعاقبون فى إرشاد الناس، إلّا أنّ الأقوام المعانده كانوا يواصلون الكفر و الإنكار، فإنّه: كُلُّ مَا جَاءَ أُمَّةً رَسُولُهَا كَذَّبُوهُ .

و عند ما تجاوز هذا الكفر و التكذيب حدّه و تمّت الحجّه عليهم. فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا .

أى أهلكتنا الأمم المعانده الواحده بعد الاخرى و محوناهم من الوجود.

و قد تمّ محوهم بحيث لم يبق منهم سوى أخبارهم يتداول الناس

ص: ٤٥٥

(١ - ١) - للاستزاده يراجع تفسير الآية الثانيه من سوره الأنعام.

إشاره إلى أنّ كلّ أمّه تتعرّض للهلاك، و يبقى منهم بعض الأفراد و الآثار هنا و هناك، و أحيانا لا يبقى منهم أى أثر. و هذه الأمم المعانده و الطاغيه كانت ضمن المجموعه الثانيه (1).

و تقول الآيه في الختام، كما ذكرت الآيات السابقه فَبَعِيدًا لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ أَجَلًا، إنّ هذا المصير نتيجه لعدم الإيمان بالله، فكلّ مجموعه لا إيمان لها، معانده و ظالمه، تبلى بهذا المصير، فتمحق بشكل لا يبقى إلا ذكرها في التاريخ و أحاديث الناس.

و هؤلاء لم يكونوا بعيدين عن رحمه الله في هذه الدنيا فحسب، بل بعيدون عن هذه الرحمه في الآخره أيضا، لأنّ تعبير الآيه جاء عامًا يشمل الجميع.

ص: ٤٥٦

١-١) - «الأحاديث» جمع حديث، و تفسيرها كما مرّ أعلاه، إلا أنّ البعض احتمل أن تكون جمع «أحدوثه» و تعنى الأخبار المدهشه التي يتحدّث الناس عنها. (تفسير الفخر الرازي حول الآيه موضع البحث).

اشاره

ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَ أَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ (٤٥) إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ فَاسْتَكْبَرُوا وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ (٤٦) فَقَالُوا أَ نُنْمِنُ لِبَشَرَيْنِ مِثْلِنَا وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (٤٧) فَكَذَّبُوهُمَا فَكَانُوا مِنَ الْمُهْلَكِينَ (٤٨) وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ (٤٩)

التفسير

اشاره

قيام موسى و هلاك الفراعنه:

كان الحديث حتى الآن عن أقوام بعث الله لهم رسلا قبل موسى عليه السلام، و هلكوا.

أما الآيات موضع البحث فقد تحدّث باختصار جدّا عن انتفاضه موسى و هارون على الفراعنه، و مصير هؤلاء القوم المستكبرين فقالت: ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَ أَخَاهُ هَارُونَ بِآيَاتِنَا وَ سُلْطَانٍ مُّبِينٍ .

و هناك تفاسير عديده لما تقصده كلمه «الآيات» و عباره سُلْطَانٍ مُّبِينٍ و ما الفرق بينهما؟ ١- قال بعض المفسرين: إنّ «الآيات» تعنى المعجزات التي أعطها الله

لموسى بن عمران (الآيات التسع). و تقصد عبارته «سلطان مبین» المنطق القوی و البرهان الدافع لموسى عليه السلام أمام الفراعنه.

٢- التفسير الثانى أن «الآيات» تعنى جميع معاجز موسى عليه السلام، و يقصد بعبارته سُلطانٌ مُبينٌ بعض معاجز موسى المهمه كعصاه و اليد البيضاء، لأن لهما خصائص ساعدت موسى على الانتصار على الفراعنه.

٣- و احتمال البعض أن كلمه «الآيات» أشارت إلى آيات «التوراه»، و بيان التعاليم و ما شاكل ذلك، و عبارته «سلطان مبین» إشارة إلى معجزات موسى عليه السلام.

إلا- أنه لو لا- حظنا استعمالات عبارته «سلطان مبین» فى القرآن المجيد لوجدنا التفسير الأول أقرب إلى الصواب، لأن كلمه «سلطان» أو «سلطان مبین» وردت فى القرآن بمعنى الدليل و المنطق الواضح (١).

أجل بعثنا موسى و أخاه هارون بهذه الآيات و سلطان مبین إلى فِرْعَوْنَ وَ مَلَائِهِ. لماذا تتحدث الآيه فقط عن المملأ (المجتمع المترف المعاند أو ما يسمى بطبقه الأشراف). و لم تقل أن رسالتهم إلى شعب مصر كله.

لعل ذلك إشارة إلى أن الفراعنه هم أساس الفساد، و إن صلحوا فالباقون أمرهم سهل. إضافة إلى كونهم قاده البلد، و لا يصلح أى بلد إلا- بصلاح قاده. إلا- أنهم فاسدٌ تكبروا لأنهم لم يرضوا لآيات الحق و السلطان المبین و الفراعنه كانوا- أساسا- مستكبرين طاغين، كما تقول الآيه وَ كَانُوا قَوْمًا عَالِينَ. و الفرق بين العبارتين فاسدٌ تكبروا و كانوا قَوْمًا عَالِينَ أن العباره الأولى قد تكون إشارة إلى استكبارهم عن دعوه موسى عليه السلام، و العباره الثانیه تشير إلى أن الاستكبار يشكل دوما برنامجهم و بناءهم الفكرى و الروحى.

و يحتمل أيضا أن تكون العباره الأولى إشارة إلى تكبر الفراعنه، و الثانیه إلى أنهم كانوا يتمتعون بقدره متعالیه و حياه متميزه. و هذا سبب استكبارهم.

ص: ٤٥٨

١- ١) - نقرأ فى سورة النمل الآيه (٢١): لَأَعِذَّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ و فى الآيه (٢٣) من سورة النجم نقرأ إن هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَ آبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ .

و من الدلائل الواضحه على إحساسهم بالاستعلاء، قولهم: **فَقَالُوا أُنزِلْنَا مِن لَّبَشْرَيْنِ مِثْلِنَا وَ قَوْمُهُمَا لَنَا عَابِدُونَ (١)** فلم يكتفوا بالقول إننا لا ينبغي لنا اتباع موسى و هارون، بل لا بد أن يكون موسى و هارون عبيدين دائمين لهم. فهؤلاء الذين اتهموا الأنبياء عليهم السلام بالتسلط في وقت هم أسوأ من كل متسلط، و كلامهم يشهد على ذلك.

و على كل حال فقد تصدوا لموسى و أخيه هارون بهذه الأدله الخاويه، مخالفه منهم للحق فكذبواهما فكانوا من المهلكين .

و هكذا انتهى أعداء بنى إسرائيل الذين كانوا سدا مانعا لدعوه موسى و هارون إلى الله سبحانه.

و بدأت بعدها مرحله تعليم و تربيه بنى إسرائيل، فأنزل الله في هذه المرحله «التوراه» على موسى، الذى دعا بنى إسرائيل للاهتداء بهذا الكتاب و تطبيقه على ما ذكرته الآيه الأخيره هنا و لقد آتينا موسى الكتاب لعلهم يهتدون .

و الآيات السابقه تحدثت فى مرحله موسى و هارون عن الفراعنه مستعمله الضمير المثنى، و هنا تكلمت عن نزول الكتاب السماوى (التوراه) فخصصه صت الحديث بموسى عليه السلام. لأنه النبى المرسل و صاحب الكتاب و الشريعه. إضافة إلى أن (موسى) كان يتعبد فى جبل الطور حين نزول التوراه، بينما كان هارون بين جموع بنى إسرائيل (٢) .

ص: ٤٥٩

١ - ١) - يطلق على الإنسان «البشر»، لأن بشرته و جلده عاريه. خلافا لما عليه الحيوانات من لباس طبيعى خاص بكل نوع منهما. و ذلك لعدم قدرتها على إعداد وسائل الحياه فمنح الله ذلك لها بشكل طبيعى. أما بالنسبه للإنسان فقد أكل ذلك إلى ذكائه و عقله،

٢ - ٢) - بحثنا بالتفصيل حول موسى عليه السلام و كيفيه مبعثه و جهاده مع الفراعنه فى تفسير الآيات (١٠٣) إلى (١٦٢) من سوره الأعراف و فى تفسير الآيات (٨) إلى (٩٧) من سوره طه.

إشاره

وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً وَآوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ (٥٠)

التفسير

إشاره

آيه أخرى من آيات الله:

أشارت الآية في آخر مرحله من شرحها لحياه الأنبياء إلى السيد المسيح عليه السلام و أمه مريم، فقالت: وَ جَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً. و قد استعملت «الآيه» عباره «ابن مريم» بدلا من ذكر اسم عيسى عليه السلام، لجلب الانتباه إلى حقيقه ولادته من أم دون أب بأمر من الله، وهذه الولاده هي بذاتها من آيات الله الكبيره.

و حمل مريم عليهما السلام من غير أن يمسيها بشر، و انجابها عيسى عليه السلام و جهان لحقيقه واحده تشهد بعظمه الله سبحانه المبدعه و قدرته.

ثم أشارت الآية إلى الأنعم الكبيره التي أسبغها الله على هذه الامم الزكيه و ابنها فتقول: وَ آوَيْنَاهُمَا إِلَى رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ .

«الربوه» مشتقّه من «الربا» بمعنى الزيادة و النمو. و تعنى هنا المكان المرتفع.

و «المعين» مشتقّ من «المعن» على وزن «شأن» بمعنى جريان الماء، فالماء

المعين هو الماء الجارى. و يرى البعض أنّ «المعين» مشتق من «العين» أى نبع الماء الظاهر الذى يمكن مشاهدته بالعين المجردة (1).

و فى هذا إشاره مجمله إلى المكان الآمن الوارف البركات و الخيرات،الذى منّ الله عزّ و جلّ به على هذه الامّ و ابنها و جعلهما فى أمان من شرّ الأعداء، يؤدّيان واجباتهما باطمئنان.

و اختلف المفسّرون فى هذا المكان،فبعض يرى أنّ مولد السيّد المسيح عليه السّلام كان فى «الناصره»(من مدن الشام).و قد جعله الله و أمّه فى مكان آمن ذى خيرات،و حافظ عليه من شرّ الأعداء الذين أرادوا أن يكيدوا بعد علمهم بولادته و مستقبله.

و يرى آخرون أنّ هذا المكان الآمن هو «مصر»،لأنّ مريم عليها السّلام و ابنها السيّد المسيح عليه السّلام عاشا فتره من حياتهما فى مصر طلبا للنجاه من شرّ الأعداء.

و قال غيرهم: إنّ المسيح عليه السّلام ولد فى «دمشق»،و ذهب سواهم إلى أنّه فى «الرملة»فى الشمال الشرقى من القدس،حيث عاش المسيح و أمّه عليهما السّلام فى كلّ من هذه المناطق فتره من حياتهما.و يحتمل أن يكون مولد السيّد المسيح عليه السّلام فى صحراء القدس،و قد جعله الله أمنا لهذه الامّ و الوليد، و فجرّ لهما ماء معيناً و رزقهم من النخل الجافّ رطبا جليئا.

و على كلّ حال،فقد كانت الآيه دليلا على حمايه الله تعالى الدائمه لرسله و لمن يدافع عنهم.و تأكيدا على أنّ إرادته الله هى الأقوى،فلو أراد الملاء كلّهم قتل رسوله دون إذنه لما تمكّنوا.فالوحده و قلّه الأنصار و الأتباع لا تكون سببا لهزيمتهم إطلاقا.

ص: ٤٦١

١ - ١) - فى الحاله الأولى تكون الميم جزءا من الكلمه،و هى على وزن «فعليل»،و فى الثانيه الميم زائده و هى على وزن مفعول «مثل مبيع».

إشارة

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ (٥١) وَإِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ (٥٢)
فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ زُبُرًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ (٥٣) فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ (٥٤)

التفسير

إشارة

جميع الامة يد واحده:

تحدثت الآيات السابقة عن ماضى الأنبياء و أممهم، أما هذه الآيات فخاطبت الجميع فقالت: يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ .

الفرق بينكم أيها الأنبياء و بين سواكم من البشر، ليس فى أنكم لا تتصفون بصفاتهم كالحاجه إلى الطعام و الشراب و النوم و الراحة، و إنما بسموكم، فقيما يتهافت الناس على إشباع شهواتهم بما طاب و خبث و قد جعلوا من الأكل هدفهم النهائى، زكت أنفسكم، و اختارت الطيبات و صالح الأعمال.

بين عبارتى كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ اعْمَلُوا صَالِحًا ارتباط واضح، فلنوع

الغذاء أثر في نفس الإنسان و عقله و سلوكه. و قد ذكرت الأحاديث الإسلاميه أنّ تناول الغذاء الحرام يمنع استجابته الدعاء.

و

روى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه و آله و سلّم قوله لرجل سأله عن استجابته دعائه «طَهَّرْ مَا كَلَّكَ و لا تدخل بطنك الحرام» (١) و (٢).

و قوله تعالى: إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ بنفسه دليل مستقبل على وجوب القيام بالعمل الصالح، لأنّ الإنسان عند ما يعلم بأنّ الله يراقب أعماله، و لا يخفى عليه شيء و سوف نحاسبه بدقّه على ذلك، فلا شكّ في أنّ الالتفات إلى هذا الأمر يساعد في إصلاح عمله.

مضافا إلى أنّ تعابير الآيه هذه تبعث في الإنسان الشعور بضروره تقديم الشكر لله على ما أنعم عليه من الطيبات، و بذلك تؤثر في عمله أيضا.

و بهذا بينت الآيه ثلاثه مؤثرات في العمل الصالح:

الأول: طيب الغذاء الذي يورث صفاء القلب و نقاوته.

و الثاني: شكر الله تعالى على ما أنعم به من رحمته.

الثالث: الشعور اليقظ بمراقبه الله سبحانه للأعمال كلّها.

أمّا كلمه «الطيب» فهي كما قلنا تعنى كلّ شيء نظيف و طاهر. و هي نقيض كلمه «الخبيث» قال الراغب الاصفهاني في مفرداته: الطيب يعنى: كلّ ما يسرّ الإنسان حسيا و روحيا، أمّا من الناحيه الشرعيه فهو الحلال الطاهر.

و القرآن المجيد ذكر الطيب و الطيبات في كثير من الموارد:

يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ

(٣)

.ثمّ لا يقصر الأمر على الرسل، بل:

ص: ٤٦٣

١- ١) - وسائل الشيعه، المجلد الرابع، الدعاء الباب (٦٧) الحديث (٤).

٢- ٢) - تناولنا شرح ذلك في تفسير الآيه (١٨٦) من سوره البقره.

٣- ٣) - المؤمنون، ٥١.

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ

(١)

بل إن ما يصل إلى مقام القرب هو الطيب من الأعمال والأقوال:

إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ

(٢)

و أحد امتيازات الإنسان الكبيره على سائر الموجودات أن الله تعالى رزقه من الطيبات: وَ لَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَ حَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَ الْبَحْرِ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَ فَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا (٣).

كما

جاء في حديث موجز ثر المعنى عن الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله و سلم عرض لهذه الحقيقه «يا أيها الناس، إن الله طيب لا يقبل إلا طيباً» (٤).

ثم دعت الآيه جميع الأنبياء و أتباعهم إلى توحيد الله و التزام تقواه وَ إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً فالاختلافات الموجوده بينكم، و كذلك بين أنبيائكم ليست دليلا على التعدديه إطلاقا. وَ أَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ .

فنحن بين يدى دعوه و اعيه إلى وحده الجماعه و القضاء على ما يثير التفرقه، ليعيش الناس أمة واحدة، كما أن الله ربهم واحد أحد.

و لهذا يجب أن ينتهج الناس ما نهجه الأنبياء عليهم السلام إذ دعوا إلى اتباع تعاليم موحدّه، ذات أساس واحد في كل مكان «توحيد الله و معرفه الحق، الاهتمام بالمعاد و التكامل فى الحياه، و الاستفادة من الطيبات و القيام بالأعمال الصالحه.

و الدفاع عن العدل و المبادئ الإنسانيّه».

و يرى بعض المفسرين أن كلمه «أمة» تعنى هنا الدين و العقيدته. و ليس المجتمع. إلا أن ضمير الجمع فى جملة أَنَا رَبُّكُمْ دليل على أن (الامة) تعنى

ص: ٤٦٤

٢-٢) - فاطر، ١٠.

٣-٣) - الإسراء، ٧٠.

٤-٤) - تفسير القرطبي، المجلد السابع، صفحہ ٤٥١٩ (حول الآيه موضع البحث).

الناس جميعاً.

وقد وردت كلمه «الأمه» فى القرآن المجيد بمعنى «الجماعه» غالباً، و ندر ورودها بمعنى «الدين» مثل **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّهٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ (١)**.

و ممّا يلفت النظر أنّ هذا المعنى تضمّنته الآيه ٩٢ من سوره الأنبياء مع فارق بسيط إنّ هذه أُمَّتِكُمْ أُمَّهٌ وَاحِدَةٌ وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ. فى وقت شرحت الآيات السابقه لهذه الآيه حياه كثير من الأنبياء، و«هذه» فى الحقيقه إشاره إلى أمم الأنبياء السابقين، الذين كانوا يشكّلون أُمَّه واحده بحسب التعاليم الإلهيه، حيث تحرّكوا جميعاً لتحقيق هدف واحد.

وقد حدّرت الآيه التاليه البشر من الفرقه و الاختلاف، بعد أن تمّت فى الآيه السابقه دعوتهم إلى التمسك بالواحد فقالت: **فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا وَمِمَّا يَثِيرُ الدَّهْشَةَ أَنَّ كُلَّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ.** «الزبر» جمع «زبره» على وزن «لقمه» تعنى بعض شعر الحيوان خلف رأسه.

يجمعه الراعى ليفصله عن باقى الشعر. ثمّ أطلقت هذه الكلمه على كلّ شىء ينفصل عن أصله، فتقول الآيه: **فَتَقَطَّعُوا أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا.** إشاره منها إلى تفرّق الامه إلى مجموعات و فئات مختلفه.

و احتمال البعض الآخر أنّ الزبر جمع «زبور» بمعنى كتاب، و تعنى أنّ كلّ فئه منهم كانت تمسك بكتاب منزل و تنفى ما عداه من الكتب السماويه، مع أنّ مصدرها واحد. و لكن عباره **كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ** تدعم التفسير الأول، فكلّ حزب يتحدّث بما تشتهى نفسه، و يصرّ على رأيه.

تستعرض الآيه حقيقه نفسيه و اجتماعيه هى أنّ التعصّب الجاهلى للأحزاب

ص: ٤٦٥

(١-١) - الزخرف، ٢٣.

و الفئات يمنع وصولها إلى الحقيقه الآن كلاً منها قد اتخذ سبيلا خاصاً به، و أصبح في وقوعه لا تسمح لنور جديد بالدخول إلى قلبه، و لا بنسيم معنوى يهبّ على روحه ليكشف لها حقيقه من الحقائق.

و هذه الحاله نتجت عن حبّ الذات المفرط و العناد، و هما أكبر عدوّ للحقيقه، و لوحده الامّه. إنّ الاعتزاز بالنمط الذى تعيشه كلّ فئه و احتقار سواه يجعل الإنسان يصمّ أذنيه عن كلّ صوت يخالف ما اعتقده. و يغطّي رأسه بثوبه، أو يلجأ إلى الفرار خوفاً من تجلّى حقيقه على خلاف ما اعتاد عليه كما يذكر القرآن المجيد عن حال المشركون زمن نوح عليه السّلام و على لسان هذا النّبى المرسل: **وَإِنِّي كَلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِيَتَغَفَّرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَ اسْتَعْشَوْا لِئَابَهُمْ وَ أَصْرُوا وَ اسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَاراً (١).**

و لا يمكن للإنسان النجاه بنفسه و الوصول إلى الحقّ إلاّ بالتخلّص من هذه الحاله و إنهاء عناده.

و لهذا تقول الآيه الأخيره هنا: **فَدَرَّوْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ** أي اتركهم على حالهم حتّى يأتى أجلهم، أو يأتيهم الله بعذاب منه، فليس لهم سوى هذا، لأنّهم أصروا على البقاء في جهلهم و متاهتهم.

و كلمه «حين» قد تكون إشاره إلى وقت الموت، أو نزول العذاب، أو كليهما.

و أمّا «الغمره» على وزن «ضربه» فهى بالأصل من «غمر» أي إتلاف كلّ شيء. ثمّ أطلق غمر و غامر على الماء الكثير الذى يزيل كلّ شيء يواجهه و يواصل جريانه، ثمّ أطلق على الجهل و البلايا التى يفرق فيها الإنسان. كما استعملته الآيه السابقه بمعنى الغفله و الضياع و الجهل و الضلال.

ص: ٤٦٦

اشاره

أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ (٥٥) نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ (٥٦) إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ حَشِيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ (٥٧) وَالَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ (٥٨) وَالَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ (٥٩) وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ (٦٠) أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ (٦١)

التفسير

اشاره

المسارعون في الخيرات:

تعرض ما سبق من الآيات المباركه للأحزاب و المجموعات المعانده التي غلب عليها التعصب و حب الذات، و تمسكوا بأفكارهم الضالّه و فرحوا بما لديهم.

بينما أشارت الآيات موضع البحث إلى بعض تصوراتهم الأنانيه: أَيْحَسِبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَ هُوَ مِنْ أَجْلِ أَنَّا: نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ .

فهل يتصورون أنّ أموالهم الوافره و كثره أولادهم دليل على أنّهم على حقّ،

و دليل على قرب منزلتهم من الله؟ بَلْ لَّا- يَشْعُرُونَ أَنَّ كثره أموالهم و أولادهم نوع من العذاب، أو مقدّمه للعذاب و لعقاب الله، إنهم لا- يدركون أَنَّ ما أصدق عليهم ربهم من نعم إنما هو من أجل أن يتورّطوا فى العقاب الإلهى. و يمسى عقابهم أشدّ ألما، لأنّ الإنسان إذا أغلقت دونه أبواب النعمه ثمّ حلّ به العذاب، فقد لا يكون بتلك الدرجه موجعا و مؤلما أمّا الذين يعيشون فى أوساط مرفّهه ثمّ يلقى بهم فى دهاليز السجون و الزنانات المرعبه، فسيكون ألم ذلك شديدا عليهم جدّا.

كما أنّ زياده النعمه من شأنها أن تزيد حجب الغفله و الغرور عليهم فتمنعهم من العوده إلى طريق الصواب.

و هذا هو ما أشارت إليه معظم آيات القرآن فى قضيه (الاستدراج فى النعم) (١).

و كلمه «نمدّ» مشتقه من «الإمداد» و هو إتمام النقص و الحيلولة دون القطع، و إيصال الشىء إلى نهايته.

و بعد نفى تصورات هؤلاء الغافلين، تستعرض هذه الآيات وضع المؤمنين و المسارعين فى الخيرات، و تبيّن صفاتهم الرئيسيه، فتقول: إِنَّ الَّذِينَ هُمْ مِنْ خَشْيَةِ رَبِّهِمْ مُشْفِقُونَ. و الخشيه لا- تعنى مطلقا الخوف، بل تعنى الخوف المقترن بالتعظيم و التقديس.

و كلمه «المشفق» مشتقه من «الإشفاق» و من أصل: الشفق، أى: الضياء المخالط للظلمه، و تعنى الخوف الممزوج بالمحبّه و الإجلال.

و لكون الخشيه ذات جانب عاطفى، و الإشفاق ذا جانب عملى، ذكرنا معا إيضا للعلّه و المعلول فى الآيه. فهى تعنى أنّ الخوف المخلوط بتعظيم الله قد استقرّ فى قلوبهم، و قد بدت علائمهم فى أعمالهم و التزامهم بالتعاليم الإلهيه. أى أنّ

ص: ٤٦٨

١- ١) - للاطلاع بشكل أوسع على موضوع الاستدراج يراجع تفسير الآيه ١٨٢ من سوره الأعراف.

الإشفاق مرحله تكاملية للخشيه، و هو ما يؤثر في عمل الإنسان فيجنيه ارتكاب الذنوب، و يدفعه إلى القيام بمسؤولياته.

ثم تضيف الآية وَ الَّذِينَ هُمْ بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ .

و تأتي بعد مرحله الإيمان بآيات الله، مرحله تنزيهه عن كل شبهه و شريك، فتقول الآية: وَ الَّذِينَ هُمْ بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ .

و نفى الشرك جاء نتيجة للإيمان بآيات الله تعالى، و هو معلول الإيمان، أى أنّ الإيمان بالله يشير إلى صفاته تعالى الثبوتيه، و نفى الشرك يشير إلى صفاته تعالى السلبيه. و على كل حال فقد تضمنت هذه العبارة نفى أنواع الشرك، سواء كانت جليته أم خفيته.

بعد هذا تأتي مرحله الإيمان بالمعاد و البعث، و الاهتمام الخاص الذى يوليه المؤمنون الحقيقيون لهذه القضية، التى تساعدهم عمليا فى السيطرة على أعمالهم و أقوالهم، فتقول الآية: وَ الَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ .

إنهم ليسوا كالشخص الكسول الدنىء الهمة الذى يأتى بأقل الأعمال ثم يتصور أنه من المقربين عند الله. و يتملكه العجب و الغرور بحيث يرى الآخريين صغار و حقراء، بل إنّ هؤلاء لا يطمئنون و لا يبتهجون بأكبر عمل مهما زكا و سما، بل و ينجزون الأعمال الصالحة التى تعادل عباده الثقلين. و مع كل هذا يقولون: آه من قلبه الزاد و بعد السفر! و بعد شرح الآيات السابقه لهذه الصفات الأربعة تقول الآية: أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَ الْأَعْمَالِ الْحَسَنَةِ، و السعاده الحقيقيه ليست كما يتصورها المترفون الغافلون المغرورون بالحياه الدنيا. إنّما هى فى إنجاز الأعمال الصالحة قربه إلى الله كما يفعل المؤمنون الصادقون، المتصفون بالخصائص الإيمانيه و الأخلاقيه السالفه الذكر الذين يسارعون فى الخيرات.

وقد رسمت الآيات السابقة صورته واضحه لصفات هذه القدوه من المؤمنين، فبدأت أولاً بالخوف الممتزج بتعظيم الله، وهو الدافع إلى الإيمان به و نفى الشرك عنه. و انتهت بالإيمان بالمعاد حيث محكمه العدل الإلهي، الذي يشكّل الشعور بالمسؤوليه. و يدفع الإنسان إلى كلّ عمل طيّب. فهي تبيّن أربع خصال للمؤمنين و نتيجته واحده. (فتأملوا جيداً).

قوله «يسارعون» من باب «مفاعله» و تعنى «التسابق»، و هو تعبير جميل يصوّر حال المؤمنين و هم يتسابقون إلى هدف كبير سام. كما يبيّن تنافسهم في إنجاز الأعمال الصالحه دون ملل و كلل.

اشاره

وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَ لِمَدِينَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ (٦٢) بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرِهِ مِنْ هَذَا وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ (٦٣) حَتَّى إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِمْ بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجْأَرُونَ (٦٤) لَا تَجْأَرُوا الْيَوْمَ إِنَّكُمْ مِنَّا لَا تُنصِرُونَ (٦٥) قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَىٰ آعْقَابِكُمْ تَنكِبُونَ (٦٦) مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ سَامِرًا تَهْجُرُونَ (٦٧)

التفسير

اشاره

قلوب في الجهل مغموره!:

بما أنّ خصال المؤمنين هي سبب القيام بالأعمال الخيره التي أشارت إليها الآيات السابقة، فهنا يثار هذا التساؤل بأن هذه الخصال و القيام بهذه الأعمال لا تيسر لكل أحد.

فتجيب أول آيه-من الآيات موضع البحث- عن ذلك فتقول: وَلَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَ كُلِّ إنسان يكلف حسب عقله و طاقته.

و هذه إشاره إلى أن الواجبات الشرعيه هي في حدود طاقه الإنسان. و أنها تسقط عنه إذا تجاوزت هذه الحدود، و كما يقول علماء أصول الفقه: إن هذه القاعده حاكمه على جميع الواجبات الشرعيه و مقدمه عليها.

و قد يسأل: كيف يحاسب كل البشر على أعمالهم كلها صغيرها و كبيرها؟ فتجيب الآيه و لَمَدِينًا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ فهناك صحيفه أعمال الإنسان المحفوظه لدى الله العلي القدير. و هي تنطق بالحق عما اقترفه الإنسان من ذنوب، فلا يمكنه إنكارها (١).

و ربّما كان القصد من الكتاب الذي لدى الله هو اللوح المحفوظ. و لفظ «لدينا» يؤكد هذا التفسير.

و الخلاصه أن الآيه المذكوره آنفا تؤكد حفظ الأعمال على أهلها من خير أو شر، فهي مسجله بدقه، و الإيمان بهذه الحقيقه يشجع الصالحين على القيام بأعمال الخير، و اجتناب الأعمال السيئه.

و تعبير يَنْطِقُ بِالْحَقِّ الذي وصف صحيفه أعمال البشر تشبه القول: إن الرساله الفلانيه ذات تعبير واضح، أى: لا يحتاج إلى شرح. و كأنها ناطقه بذاتها، فهي تجلّي الحقيقه.

و عباره وَ هُمْ لَا يُظْلَمُونَ تبين أنه لا ظلم و لا جور و لا غفله يوم الحساب، فكل شيء في سجل معلوم.

و لكون هذه الحقائق مؤثره في الواعين من الناس فحسب، أضافت الآيه التاليه بأن هؤلاء الكفار المعاندين غارقون في دوامه الجهل و الغفله لدرجه أنهم غافلون عما ينتظرهم من الوعيد: بَلْ قُلُوبُهُمْ فِي غَمْرَةٍ مِنْ هَذَا (٢).

ص: ٤٧٢

١ - ١) - لقد شرحنا بإسهاب صحيفه أعمال الإنسان و حقيقتها في التفسير الأمثل حين تفسير الآيه (١٣) من سوره الإسراء و كذلك حين تفسير الآيه (٤٩) من سوره الكهف.

٢ - ٢) - يمكن أن تكون كلمه «هذا» إشاره إلى صحيفه الأعمال و يوم الحساب، أو القرآن المجيد، أو أعمال الصالحين التي أشارت

و هذا الانغمار فى الجهل لا يسمح بمعرفه هذه الحقائق، و يمنع الضالين من العوده إلى أنفسهم و إلى الله تعالى.

و تضيف هذه الآيه وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ هُمْ لَهَا عَامِلُونَ، و قد أورد المفسرون تفاسير لقوله سبحانه: وَ لَهُمْ أَعْمَالٌ مِنْ دُونِ ذَلِكَ فبعضهم قال: إنها تعنى الأعمال السيئه التى يقترفها الناس عن جهاله (فعلى هذا تكون «ذلك» إشاره إلى جهلهم)، و الأعمال هى الذنوب التى يرتكبها الإنسان عن غير علم و وعى و قال آخرون: إن المراد هو أنهم إضافه إلى كفرهم ارتكبوا أنواعا من الأعمال السيئه.

و احتمال آخرون اختلاف برنامج الكفره عن برنامج المؤمنين اختلافًا كبيرًا.

و نحن نرى عدم اختلاف هذه التفاسير فيما بينها فى نهايه الأمر، و يمكن الجمع بينها، المهم هو الانتباه إلى أن مصدر الأعمال الشريره يكمن فى انغمار القلوب فى الجهاله.

و لكن هؤلاء المترفين يبقون فى هذه الغفله ما داموا فى نعيمهم، فإذا جاءهم العذاب فهم يصرخون كالوحوش من شدّه العذاب الإلهى، كما تقول الآيه: حَتَّىٰ إِذَا أَخَذْنَا مُتْرَفِيهِم بِالْعَذَابِ إِذَا هُمْ يَجَارُونَ .

فيخاطبون لا تجأروا اليوم إنكم منا لا تنصرون .

أمّا لماذا ورد ذكر «المترفين» هنا فحسب مع أن المذنبين لا يختصون بهم؟ السبب هو إمّا لكونهم قادة للضالين، أو لأنّ عذابهم شديد جدًا.

ثمّ إنّ هذا العذاب يحتمل أن يكون دنيويًا أو اخرويًا أو كليهما. حيث يصيبهم العذاب فى هذه الدنيا أو فى الآخرة فيرتفع صراخهم، و يستغيثون فلا يغاثون.

و تكشف الآيه التاليه عن سبب هذا المصير المشؤوم

(٢)

الآيات السابقه إليها.

ص: ٤٧٣

قَدْ كَانَتْ آيَاتِي تُثَلَّى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ عَلَيَّ أَعْقَابِكُمْ تَنكُصُونَ

بدلا من الاستفادة منها و الانتباه للواقع.

كلمه «تنكصون» مشتقه من النكوص، بمعنى السير بشكل معاكس.

و«أعقاب» جمع «عقب» على وزن «فعل» و تعنى عقب القدم.

و هذه الجملة كناية عن شخص يسمع كلاما غير مرغوب فيه، فيرتعب لدرجه يسير فيها القهقري على عقبى قدميه.

ثم إنه لا يرجع إلى الورا لمجرد سماعه آيات الله، وإنما يصبح ممن وصفتهم الآية مُسْتَكْبِرِينَ بِهِ (١).

و إضافة إلى ذلك سَامِرًا تَهْجُرُونَ أى يتسامرون فى لياليهم و يتحدثون عن النبى و القرآن بالباطل.

و كلمه «سامرا» مشتقه من «سمر» على وزن «نصر» بمعنى التحدث ليلا.

و قال البعض: إنها تعنى ظلّ القمر فى الليل حيث يختلط السواد مع البياض فيه، و بما أنّ المشركين من العرب كانوا يتسامرون حول الكعبه فى الليالى المقمره، و جلّ حديثهم يتناول النبى صلى الله عليه و آله و سلّم بالباطل، فوردت هذه الكلمه لهذا الغرض. و يقال «سمراء» لمن اختلط بياضها بشيء من السواد.

و تَهْجُرُونَ مشتقه من «هجر» و تعنى بالأصل الابتعاد و الانفصال، و قد وردت بمعنى الهذيان الصادر من المريض. لأنّ كلامه فى تلك الحاله غير سليم.

و يبعث على النفور. كما أنّ الهجر (على وزن كفر) يعنى السباب، و هو أيضا يبعث على الابتعاد و القطيعه.

و قد جاءت كلمه «تهجرون» فى الآية بالمعنى الأخير. فتقول: إنّ المشركين

ص: ٤٧٤

١ - ١) - هناك اختلاف بين المفسرين فى من يعود إليه الضمير فى (به). فذهب بعض أنه يعود إلى المسجد الحرام و الحرم المكى، لأنّ سدنه الكعبه استكبروا لاعتبارهم أنفسهم أصحاب الحرم المكى، و هذا الاحتمال ضعيف لأنّ الآيات السابقه لم تتناول الكعبه و الحرم. و يبدو أنّ هذا الضمير يعود إلى القرآن المجيد و النبى صلى الله عليه و آله و سلّم، فيكون معنى الآية: إنكم استكبرتم إزاء القرآن و نبى الإسلام. أو أنّها تشير إلى سيرهم المعاكس، فهم استكبروا و لم يهتموا به.

من العرب كانوا يتسامرون حتى ساعات متأخرة من الليل، وهم يهدون و يكيلون السباب و الشتائم كالمرضى.

و هذا الأسلوب أسلوب الجبناء و ضعاف النفوس، الذين يلجأون إلى ظلمه الليل، ليكيلوا السباب، حيث يفتقدون المنطق السليم الذى يمكنهم من التحدّث برجوله فى وضوح النهار. إنهم اختاروا ظلام الليل بعيدين عن أنظار الناس، ليصلوا إلى أهدافهم المشئومه، فلجأوا إلى السباب و الباطل من أجل التنفيس عن أحقادهم الجاهليه. يقول القرآن الكريم: إنَّ سبب تعاستكم و ما ستنالون من عذاب الله الأليم هو أنّكم استكبرتم عن قبول الحقّ. و لم ترضخوا بتواضع لآيات الله. كما لم يكن تعاملكم مع النّبي بشكل منطقي صحيح. و لولا ذلك لاهتديتم إلى طريق الحقّ و السعاده.

ص: ٤٧٥

إشاره

أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ (٦٨) أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٦٩) أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلْ جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ (٧٠) وَ لَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهِنَّ بَلِ أُنزِلَتْ إِلَيْهِمْ آيَاتُ رَبِّهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (٧١) أَمْ تَسْأَلُهُمْ خُرُوجًا فَقَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٧٢) وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٧٣) وَ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصُّرَاطِ لَنَا كَبِيرٌ (٧٤)

التفسير

إشاره

أعذار المنكرين المختلفه:

تحدّث الآيات السابقه عن إعراض الكفار و استكبارهم إزاء الرسول الأعظم صلى الله عليه و آله و سلم. و تناولت هذه الآيات أعذارهم فى هذا المجال و الرد عليهم، و شرحت الدوافع الحقيقيه لإعراض المشركين عن القرآن و الرسول صلى الله عليه و آله و سلم،

و يمكن تلخيصها في خمس مراحل:

الأول: أ فَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ .

فأول سبب لتعاستهم هو تعطيل التفكير في مضمون دعوه النبي صلى الله عليه وآله وسلم و لو تفكروا مليا لما بقيت مشكله لديهم.

و فى المرحلة الثانيه تقول الآيه: أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . سألت الآيه مستنكره: أ كانت الدعوه إلى التوحيد و المعاد، و الهدى إلى الأعمال الصالحه مختصه بهم دون آباءهم الأولين، ليحتجوا بأنها بدعوه، و يقولوا: لماذا لم يبعثه الله للأولين، و هو لطيف بعباده؟ ليس لهم ذلك، لأن الإسلام من حيث المبادئ له مضمون سائر الرسالات التى حملها الأنبياء عليهم السلام فهذا التبرير غير منطقي و لا معنى له! و فى المرحلة الثالثه تقول الآيه: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ .

أى إذا كانت هذه الدعوه صادرة من شخص مجهول و مشكوك، فيحتمل أن يقولوا بأن كلامه حق، إلا أن هذا الرجل مشكوك و غير معروف لدينا، نخدع بكلامه. و لكنهم يعرفون ماضيك جيدا، و كانوا يدعونك محمدا الأمين، و يعترفون بعقلك و علمك و أمانك، و يعرفون جيدا و الديقك و قبيلتك، فلا- حججه لهم! و فى المرحلة الرابعه تقول الآيه: أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ أَى أَنَّهُ مجنون، فبعد اعترافهم بأنك لست مجهولا بالنسبه لهم، إلا أنهم يشككون فى سلامه عقلك و ينسبونك إلى الجنون، لأن ما تدعو إليه لا ينسجم مع عقائدهم، فلذلك اتخذوا هذا دليلا على جنونك.

يقول القرآن المجيد لنفى هذه الحججه: بَلْ جَاءَهُم بِالْحَقِّ وَ كَلَامِهِ شَاهِدٌ عَلَىٰ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ، وَ يَضِيفُ وَ أَكْثَرُهُمْ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ .

أجل، إن كلمات الرسول راشده حكيمة، إلا أنهم ينكرونها لعدم انسجامها مع أهوائهم النفسية. فألصقوا به تهمة الجنون! فى الوقت الذى لا ضروره فى توافقه

الحق مع رغبات الناس و لو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السماوات و الأرض و من فيهن .

لأنه لا يوجد مقياس يحدّد أهواء الناس، مضافا إلى أنّها تميل إلى الشرّ و الفساد غالبا، و لو اتّبعها قوانين الوجود لعمّت الفوضى في الكون و لفسد العالم.

و تأكيداً لذلك تقول الآية: **بَلْ أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ فَهُمْ عَنْ ذِكْرِهِمْ مُعْرِضُونَ (١)** أى منحناهم القرآن الذى هو أساس للذكر و التوجّه إلى الله، و سبب لرفعتهم و شرفهم، إلا أنّهم أعرضوا عن هذا المنار الذى يضىء لهم درب السعادة و الشرف.

و فى المرحلة الخامسة تقول الآية: هل أنّ عذرهم فى فرارهم من الحقّ هو أنّك تريد منهم أجرا على دعوتك: **أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجاً فَخَرَّاجٌ رَبِّكَ خَيْرٌ وَ هُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (٢)**.

فلو طلب قائد دينى أجرا من الناس مقابل و عظهم و دعوتهم إلى الحقّ لأعطى المتعذّرين ذريعه للإعراض عنه و الطعن عليه، فيعرضون عنه بحجّه عدم قدرتهم الماليه، و يتّهمونه بأنّه ما دعاهم إلا ابتغاء منافع خاصّه به.

مضافا إلى أنّ البشر ما يملك من شىء ليمنحه؟ أليس الله سبحانه و تعالى رزاق العباد؟ و القرآن الكريم يوضح هذه المراحل الخمس برهن على أنّ هؤلاء الحمقى (المشركين) لا يرضخون للحقّ، و أنّ أعدارهم فى إنكار الحقّ أعدار واهيه.

و جاءت الآية التاليه باستنتاج عام لكلّ ما مضى: **وَ إِنَّكَ لَتَدْعُوهُمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ** دلائله واضحه و استقامته معلومه، فالطريق

ص: ٤٧٨

١ - ١) - يمكن أن تفسّر عبارته «ذكرهم» بمعنى تذكّرهم و توقظهم، و يمكن أن تفسر بمعنى شرفهم و حيثيتهم فى المجتمع البشرى، و فى الوقت ذاته لا تناقض بين هذين المفهومين، و قد استفدنا من كليهما فى تفسير الآية.

٢ - ٢) - الخرج و الخراج مشتق من الخروج، و يعنى الشىء الذى يستخرج من المال أو من حاصل الأرض الزراعيه. إلا أنّ الخرج ذو معنى أوسع من الخراج. و كما يقول الراغب الاصفهانى فى مفرداته: الخرج أعمّ من الخراج، و جعل الخرج بإزاء الدخل، و قال تعالى: **فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً وَ الخرج مختصّ فى الغالب بالضريبه على الأرض أو أجرتها.**

المستقيم أقصر الطرق بين نقطتين، وهو طريق واحد، والطريق الملتوي على يساره و يمينه غير متناهي.

و رغم أنّ الزوايات الإسلاميه تفسّر الصراط المستقيم بولايه على عليه السلام (١) إلا أنّها تكشف- كما قلنا مرارا- عن المصداق الأكمل لذلك، ولا تتنافى مع المصدايق الاخرى كالقرآن و الإيمان بالمبدأ و المعاد و التقوى و الجهاد و العدل.

و تستعرض الآيه التاليه النتيجة الطبيعيه لهذا الموضوع، فتقول: **وَإِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كِبُونَ**.

كلمه «ناكب» مشتقه من «النكب» و «النكوب» أى الانحراف عن الطريق. و «نكبت الدنيا» تقع فى مقابل إقبال الدنيا، و تعنى إدبار الدنيا و إعراضها عن المرء.

و من الواضح أنّ الصراط يقصد به هنا ما فى الآيه السابقه، و بديهي أنّ الذى ينحرف عنه فى الآخره فمكانه النار و بئس المصير، لأنّ المرء يثاب فى الآخره على أعماله فى هذه الدنيا.

و عدم إيمان المرء بالآخره مرتبط بانحرافه عن طريق الحقّ الناجم عن عدم شعوره بالمسؤوليه،

فقد روى عن أمير المؤمنين على عليه السلام: «إِنَّ اللَّهَ جَعَلَنَا أَبْوَابَهُ وَ صِرَاطَهُ وَ سَبِيلَهُ وَ الْوَجْهَ الَّذِى يُؤْتَى مِنْهُ، فَمَنْ عَدَلَ عَنْ وِلَايَتِنَا أَوْ فَضَلَ عَلَيْنَا غَيْرِنَا فَإِنَّهُمْ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَا كِبُونَ» (٢).

بحوث

إشارة

١- التمسك بالحقّ أو بالأهواء النفسيه

أشارت الآيات السابقه- بشكل عابر- إلى التناقض بين التمسك بالحقّ و بين الأهواء النفسيه، و هى إشاره ذات مدلول كبير، حيث تقول:

ص: ٤٧٩

١- ١) - تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث صفحه ٥٤٨.

٢- ٢) - أصول الكافي (وفق ما نقله تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، صفحه ٥٤٩).

وَلَوْ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ

و. تفسير هذه المسأله ليس صعبا للأسباب الآتية:

الف- لا شك في أنّ أهواء الناس متفاوتة، وقد ينقض بعضها بعضا، حتّى بالنسبه لشخص واحد فقد تتناقض أهواؤه.

و لو استسلم الحقّ لهذه الأهواء لتتج عن ذلك الفساد و عمّت الفوضى. لماذا؟ لأنّ كلّ فرد له صنم و معبود، فلو حكمت هذه الآلهه الكثيره و المتضاده هذا العالم المترامى الأطراف، لظهر الفساد و تعمّ الفوضى من جرّاء ذلك، و هذا لا يخفى على أحد.

ب- إنّ أهواء الناس مع قطع النظر عن تناقضها، فهى تميل نحو الفساد و الشرّ و لو سادت الوجود و المجتمع البشرى، فالنتيجه لا تكون سوى الفساد و الشرّ.

ج- إنّ الميول و الأهواء ذات بعد واحد، و لا تنظر إلى الأمور إلّا من زاويه واحده و تغفل عن بقيه الأبعاد، و من المعلوم أنّ أحد العوامل المهمه فى الفساد و الخراب هو المنهج ذو البعد الواحد الذى يغفل عن الأبعاد الاخرى.

و الآيه محلّ البحث تشبه من بعض جوانبها ما ورد فى الآيه الثّانيه و العشرين من سوره الأنبياء لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا .

و بديهى أنّ الحقّ كالصراط المستقيم واحد لا نظير له، بينما الأهواء النفسيه متعدده كأوثان المشركين. فأيّما نتبع الحقّ أم الهوى؟ أ نتبع الهوى الذى هو مصدر الفساد فى السّماء و الأرض و فى جميع الموجودات، أم الحقّ الذى هو رمز الواحده، و التوحيد و النظام و الانسجام؟ الجواب فى غايه الوضوح و الإشراق.

٢- صفات القائد

أوضحت الآيات السابقه عددا من صفات القاده إلى طريق الحقّ، فهم

المعروفون بالصلاح و الاستقامه، فلم يبق الله للمشركين ذريعه فى هذا الصدد إذ قال سبحانه: أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ .

فلو كان الرسل مجهولين لتذرع المنافقون بذلك، ولأنكروا الرسالات السماويه.

و الأمر الآخر أنّ الرسل لا يستسلمون أبدا لأهواء الناس. و لا يقزّون الناس على ما اعتادوه من انحراف، مثلما نشاهده اليوم حيث التأيد المطلق لكلّ الرغبات العامه (رغم انحراف الكثير منها). و على هذا كان الرسل يواصلون عملهم بإصرار دائم لنشر العقيدة الحقه رغم رفض عدد كبير من الناس لهم و حقدهم عليهم.

و الصفه الاخرى للأنبياء أنّهم لم يطلبوا أجرا من الناس، و لم يأخذوا منهم شيئا فى مقابل نشر الحقّ، فهم لا يرجون غير الله، و ظلّوا يتجرّعون الفقر و البأساء دون أن يكون لأحد عليهم منّة قطّ، ليقفوا أحرارا طليقين فى نشر دعوتهم بين الناس.

٣- لماذا لا يميل أكثر الناس إلى الحقّ؟

لقد استنكرت آيات القرآن الكريم- كآيات السابقه- «الأكثرية» من الناس، فى حين نرى أنّ «الأكثرية» يقزّرون اليوم صلاح الشىء أو عدمه فهم معيار الحسن و القبح فى المجتمع، و هذا يثير علامه استفهام كبيره: و ليس الكلام فى الآيات التى تذكر الأكثرية مع إضافه ضمير (هم) حيث يكون المراد منها أكثر الكافرين و المشركين و أمثالهم، بل الكلام حول الآيات التى تذكر عنوان (أكثر الناس) من قبيل: **وَ لَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ (١)**.

ص: ٤٨١

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ

(١)

وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ

(٢)

وَمَا أَكْثَرَ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ

(٣)

فَأَبَىٰ أَكْثَرَ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا

(٤)

وَإِنْ تُطِغْ أَكْثَرَ مَنْ فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ

(٥)

و من جهة أخرى اهتمت بعض آيات القرآن بمنهج أكثرية المؤمنين باعتباره معياراً صحيحاً للآخرين، فقد جاء في الآية الخامسة عشرة بعد المائة من سورة النساء: «وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصِّهِ إِلَيْهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا» و نجد في الروايات الإسلامية لدى تعارض الروايات أن أحد المعايير للترجيح هو الشهرة بين أصحاب أئمة الهدى و أنصارهم و أتباعهم، كما

يقول الإمام الصادق عليه السلام: «ينظر إلى ما كان من روايتهما عنّا في ذلك الذي حكما به المجمع عليه عند أصحابك، فيؤخذ به من حكما و يترك الشاذ الذي ليس بمشهور عند أصحابك فإن المجمع عليه لا ريب فيه» (٤).

فِي نَهْجِ الْبَلَاغَةِ: «و الزموا السواد الأعظم، فَإِنَّ يَدَ اللَّهِ مَعَ الْجَمَاعَةِ، و إِيَّاكُمْ و الْفِرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّاذَّ مِنَ النَّاسِ لِلشَّيْطَانِ، كَمَا أَنَّ الشَّاذَّ مِنَ الْغَنَمِ لِلذَّنْبِ» (٧).

ص: ٤٨٢

١-١) - الأعراف، ١٨٧.

٢-٢) - هود، ١٧.

٣-٣) - يوسف، ١٠٣.

٤-٤) - الإسراء، ٨٩.

٥-٥) - الأنعام، ١١٦.

٦-٦) - وسائل الشيعة، المجلد الثامن عشر، صفحة ٧٢ (كتاب القضاء الباب التاسع من أبواب صفات القاضي).

٧-٧) - نهج البلاغة، الخطبه ١٢٧.

فى نهج البلاغه: «و الزموا ما عقد عليه جبل الجماعه» (١).

و على هذا قد يترأى للبعض تناقض بين هاتين المجموعتين من الآيات و الأحاديث.

و من جهه أخرى يمكن أن يتصور مخالفه الإسلام للديمقراطيه التى تعتمد على آراء أكثر الناس، و هذا ما رفضه القرآن بشده.

و لكن بالتدقيق فى الآيات و الأحاديث السابقه و مقارنه بعضها ببعض يتضح المفهوم الحقيقى، و هو أن الأكثرية لو كانت من المؤمنين الواعين الذين ينتهجون الحق و يرفضون الباطل، لا لاستحقوا الاحترام، و حظى رأيهم بالتقدير و القبول.

أمّا إذا كانوا فئه جاهله أو واعيه لكنّها مستسلمه لرغباتها و شهواتها على علم منها، فلا طاعه لها و لا رأى. لأنّ أتباعها يؤدى إلى الضلاله و الضياع، كما يقول القرآن المجيد.

و على هذا الأساس فلو أردنا تحقيق «ديمقراطيه سليمه» لوجب السعى أولاً لتوعيه الناس و تكوين جماعه مؤمنه واعيه، ثم الاستناد على رأى أكثريتهم كميّار لسلامه الأهداف الاجتماعيه، و إلا فإنّ ديمقراطيه الأكثرية الضّاله لا تنتج سوى ضلال المجتمع و جرّه إلى جهنّم.

و من الضرورى التنبيه إلى أنّنا نعتقد أنّ رأى الأ-كثريه الواعيه المؤمنه إنّما يكون محترما و مقبولا فيما إذا لم يخالف الكتاب و السنّه و الأحكام الإلهيه.

و لجوء الأمم و الشعوب فى هذا العصر إلى رأى الأكثرية مبعثه انعدام المعيار الموثوق به فى قياس ما ينفع المصلحه العامه و ما يضرّها، فهذه المجتمعات لا تستنير بكتاب ربّانى و لا تلتزم رساله نبي كريم، و ليس لديها سوى الرجوع إلى

رأى العامه. و بما أن المتسلطين لا يسعون لتوعيه رعاياهم، بل يجتهدون في استدامه غفله الناس و ضآله اطلاعهم على ما ينهض بتقدمهم و ازدهار حياتهم، ليتسنى لهؤلاء الاستمرار في الهيمنه على الناس و العبث بمصيرهم، لذلك جعلوا الأكتريه الكميّه معيارا لإسكات الأصوات المعترضه.

و لو دققنا في وضع المجتمعات المعاصره و القوانين و الأنظمه السائده، لوجدنا أكثر مصائبهم نابعه من اللجوء إلى ما يسمّى رأى الأكتريه.

فما أسوأ القوانين و أقبح المقررات التي جعلتها «الأكتريه»، و ما أكثر الفتن و الحروب التي اندلعت بسبب رأى الأكتريه الجاهله، و ما أعظم المظالم و أشكال العدوان التي قرّرت الأكتريه صحتّها و مشروعيتها!!

ص: ٤٨٤

اشاره

وَ لَوْ رَحِمْنَا هُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِهِنَّ مِنْ ضُرِّ اللَّجْوِ فِي طَعْنِ بَنِي إِسْرَائِيلَ بِهِنَّ يَوْمَ يَوْمِئِذٍ وَ لَقَدْ أَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَعَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ (٧٦) حَتَّى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٧٧) وَ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ (٧٨) وَ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٩) وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ (٨٠)

التفسير

اشاره

طرق التوعيه الإلهيه المختلفه:

عرضت الآيات السابقه الحجج التي يتذرع بها منكرو الحق في رفض الرسالات و إيذاء الأنبياء عليهم السلام. و تناولت هذه الآيات إتمام الحجّه عليهم من قبل الله تعالى و توعيتهم.

فتقول أولًا: إننا تاره نشلهم برعايتنا و نرزقهم من و فير النعمه لينتبهوا،

و لكن: وَ لَوْ رَحِمْنَا هُمْ وَ كَشَفْنَا مَا بِيَهُمْ مِنْ ضُرِّ اللَّجْوَا فِي طُغْيَانِهِمْ يَغْمَهُونَ .

و الله تعالى يبتليهم لعلمهم يعون حين لا تجدى بهم رحمته سبحانه، لكن طائفه غالبه منهم لم يستيقظوا حتى بالبلاء المذلّ و لقد أَخَذْنَا هُمْ بِالْعَذَابِ فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَ مَا يَتَضَرَّعُونَ (١) .

«التضرّع»- كما أسلفنا- مشتقّه من الضرع بمعنى الثدى، فالتضرّع يعنى الحلب، ثم استعملت بمعنى التسليم المخالط بالتواضع و الخضوع.

و تعنى هذه الآيه أنّ المشركين لم يتخلّوا عن غرورهم و عنادهم و تكبرهم، و لم يستسلموا للحقّ حتى و هم يواجهون أشدّ النكبات عسفا بهم.

و إذا ما فسّر التضرّع فى الروايات بأنه رفع اليدين نحو السماء للدعاء، فهو أحد مصاديق هذا المعنى الواسع.

فالله تعالى يواصل هذه الرحمه و النعمه و العقوبات، و المشركون يواصلون طغيانهم و عنادهم حتى إِذَا فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا ذَا عَذَابٍ شَدِيدٍ إِذَا هُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (٢) .

الواقع، أنّ نوعين من العقاب الإلهي: أولهما «عقاب الابتلاء»، و ثانيهما «عقاب الاستيصال» و الاقتلاع من الجذور، و الهدف من العقاب الأول وضع الناس فى صعوبات و آلام ليدرّكوا مدى ضعفهم و ليتركوا مركب الغرور.

أمّا هدف العقاب الثّانى الذى ينزل بالمعاندين المستكبرين فهو إزالتهم عن مجرى الحياه، و تطهيرها من عراقيلهم، لأنّه لم يبق لهم حقّ الحياه فى نظام الحقّ،

ص: ٤٨٦

١ - ١) - «استكانوا» مشتقّه من السكون، بمعنى الصمت فى حاله الخضوع و الخشوع، و بهذه الصوره ستكون من باب «افتعال» التى كانت فى الأصل استكنوا. أشبعت فتحه الكاف و بدّلت إلى ألف. فأصبحت استكانوا. و قال البعض: إنّها مشتقّه من كون، و من باب «استفعال» أى طلب الإقامه فى مكان بخضوع و خشوع. و على كلّ حال فإنّها تبين حاله العبد الخاضع لربّه، و قد اعتبرها البعض بمعنى الدعاء بسبب كونه أحد مصاديق الخضوع و التواضع. أمّا الاحتمال الثالث، فهى مشتقّه عن «الكين» على وزن «عين» و من باب الاستفعال، لأنّها تعنى الخضوع أيضا. و جميع هذه المعانى متقاربه.

٢ - ٢) - «المبلس» كلمه مشتقّه من «الإبلاس». بمعنى الألم الشديد الناتج عن شدّه أثر الحادثه. و تدفع بالإنسان إلى الصمت و الحيره و اليأس.

و لهذا يستوجب اقتلاع هذه الأشواك من طريق تكامل البشر.

و بين المفسرين اختلاف في قصد الآية من عبارته **بَابًا** **ذَا** **عَذَابٍ** **شَدِيدٍ** .

فالكثيرون يرون أنه الموت، ثم العذاب و عقاب يوم القيامة.

و آخرون يرونه القحط الشديد الذى واجه المشركين سنين عديده بدعاء من النبى صلى الله عليه و آله و سلم، فأصبحوا لا يجدون ما يأكلون، حتى تناولوا ما تشمئز منه الأنفس.

و غيرهم يرونه العقاب الأليم الذى نزل على المشركين بضربات سيوف جند الإسلام فى معركة بدر.

و هناك احتمال أن الآية لا تختص بفئة معينه، بل هى استعراض لقانون شامل عام للعقوبات الإلهيه، يبدأ من الرحمه، فالتنبيه و العقاب التربوى، و ينتهى بعذاب الاقتلاع من الجذور و الدمار (1).

ثم تناول القرآن المجيد القضييه من باب آخر، فعدّد النعم الإلهيه لدفع الناس إلى الشكر و هو الذى **أَنْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَ الْأَبْصَارَ وَ الْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا** **مَّا تَشْكُرُونَ** و التأكيد على (الأذن و العين و العقل) لأنها الأجهزه التى بها يتعرّف الإنسان على المحسوسات و القضايا، فالأشياء الحسيه يبلغها بالعين و الأذن، و القضايا غير الحسيه يدركها بالعقل.

و معرفه أهميه حاستى النظر و السمع يكفى لتصور حاله الإنسان الذى يفقدهما، إذ تظلم الدنيا بعينه. و بفقدان هاتين الحاستين بالولاده تفقد حواس أخرى عملها. فالأصم بالولاده يكون بالبدهه أبكم، فانطلاق اللسان مرتبط بسمع الإنسان و بفقدهما يفقد الإنسان وسيله ارتباطه مع الآخرين.

و بعد هاتين الحاستين اللتين هما مفتاح الإدراك لعالم الماده، يأتى العقل الذى ينتزع الأفكار ممّا تمونه به الحواس، و يجتاز الطبيعه إلى ما وراءها، و مهمته

ص: ٤٨٧

(١ - ١) - الآية إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ التى ذكرت قبل هذه الآيات تؤيد هذا التفسير.

النقد و الاستنتاج و الترتيب و التعميم و تحليل محصله حاستى البصر و السمع و سواهما، أ فلا يستحقّ الذين لا يشكرونه على هذه الأدوات الثلاث للمعرفه الذمّ و اللوم؟ ألا يكفى التدقيق فى تفاصيلها دليلا على معرفه الخالق و عظيم إحسانه للعباد؟ و تقديم ذكر الاذن و العين على العقل فى الآيه المذكوره له ما يسوّغه. و لكن لماذا تقدّم السمع على البصر؟ يحتمل - كما يقول العلماء - أنّ أذن الوليد تعمل أولاً ثمّ عينه، فالعينان مغلقتان فى عالم الرحم و ليست لديهما أى استعداد و قابليه على مشاهدته أمواج النور، و لذلك تبقيان هكذا بعد الولاده قليلا، ثمّ تتعودان النور تدريجيا.

و ليست الأذنان هكذا، حتّى أنّ بعضهم يرى أنّها قادره على السماع حتّى فى الرحم (١). فهى تسمع صوت دقات قلب الامّ.

إنّ بيان المواهب الثلاث أعلاه يشكّل دافعا لمعرفه واهب هذه النعم، و هو المنعم الوحيد حقّا (مثلا يرى علماء العقائد فى بعث شكر المنعم أساسا لوجوب معرفه الله عقلا).

و تناولت الآيه اللاحقه خلق الله سبحانه للإنسان من التراب، فتقول: وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ (٢).

و بما أنّه - جلّ اسمه - خلقكم من الأرض، لذلك ستعودون إليها مرّه ثانيه، ثمّ يبعثكم: وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ .

و لو فكّرتم فى خلقكم من تراب لا قيمه له، لذلكم على خالق الوجود سبحانه، و عزّفكم على كريم لطفه بكم و إحسانه إليكم، و قادكم إلى الإيمان به

ص: ٤٨٨

١- ١) - تحدّثنا عن أجهزه التعرّف الثلاثه فى تفسير الآيه (٧٨) من سوره النحل.

٢- ٢) - «ذرا» مشتقّه من الذرء (على وزن زرع). و هى فى الأصل بمعنى الخلق و الإيجاد و الإظهار، إلا أنّ كلمه (ذرو) و هى أيضا على وزن فعل بمعنى البعثره. الآيه الأولى من النوع الأوّل.

و بالمعاد.

و بعد ذكر خلق الإنسان، تناولت الآيه المذكوره آنفا دلائل أخرى من بديع صنع الله تعالى وَ هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَ يُمِيتُ وَ لَهُ
اِخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَ النَّهَارِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ .

و بهذا الترتيب بدأ البيان القرآنى من الدافع لاستيقاظ القلب و انبعائه على معرفه ربّه سبحانه و انتهى بذكر بعض أهم الآيات
الأنفسيه و الآفاقية، فالقول المبارك استعرض مسيره الإنسان منذ الولاده حتى الموت و العوده إلى الله تعالى، التى تتم مراحلها
جميعا بإرادته الله العزيز الحكيم.

و ممّا يلفت النظر جعل الله الموت و الحياه إلى جانب اختلاف الليل و النهار، و ذلك لكون النور و الظلام فى عالم الوجود
كالموت و الحياه للكائنات، فمثلا يجد الخلق حرته و نشاطه بين أفواج النور، و يستخفى بين أستار الظلام، كذلك تبدأ الأحياء
حركتها و نشاطها فى نور الحياه، و تستخفى فى ظلمه الموت، و لكليهما صفة التدرج.

و سبق أن قلنا بأن «اختلاف» الليل و النهار قد يعنى تواليهما حيث يخلف الليل النهار، و يخلف النهار الليل. و قد يعنى اختلافهما و
تفاوتهما التدريجى الذى يوجد الفصول الأربعة، و يقود دوره الحياه فى عالم النبات فى ظلّ نظام دقيق.

و كلّ هذه المسائل يمكن أن تكون السبيل إلى معرفه الله، إذا انتبه لها الإنسان و تأملها بفضنه.

و لهذا تقول الآيه فى النهايه: أَ فَلا تَعْقِلُونَ !؟

ص: ٤٨٩

اشاره

بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ (٨١) قَالُوا أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَإِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (٨٢) لَقَدْ وَعَدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٨٣) قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٤) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ (٨٥) قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ (٨٧) قُلْ مَنْ يَدِينُ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨٨) سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ (٨٩) بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٩٠)

التفسير

اشاره

القرآن يدعو الضمائر إلى التحكيم:

دعت الآيات السابقة منكرى الله و المعاد إلى التفكير فى خلق عالم الوجود و آيات الآفاق و الأنفس، و أضافت هذه الآيات أن هؤلاء تركوا عقولهم و اتبعوا

أسلافهم وقلدوهم تقليدا أعمى: بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ .

ثم إن هؤلاء ملكهم التعجب و: قَالُوا أَ إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَ إِنَّا لَمَبْعُوثُونَ (١) .

إن ذلك لا- يصدق! لقد وعدنا نحن و آبائنا هذا من قبل فكانت وعودا كاذبه، وإن هذا إلا أساطير الأولين فإعادة الخلق أسطوره، و الحساب و الكتاب أساطير أخرى، و كذا الجنة و النار.

و لكون الكفار و المشركين أشدّ خوفا من اليوم الآخر و ما فيه من هول الحساب و عدل الكتاب، تذرّعوا بالأوهام لتسويغ إعراضهم عن الحقّ و تمسكهم بالباطل.

و لهذا سدّدت الآيات موضع البحث ضربه قويه إلى هذا المنطق الواهي من ثلاث طرق: بتذكيرها الإنسان بمالكيه الله لعالم الوجود المترامي الأطراف، و ربوبيته له، و سيادته عليه. و تستنتج- من جميع الأبحاث- قدره الله و سهوله المعاد عليه سبحانه، و أنّ عدالته و حكمته تستلزمان أن يعقب هذا العالم عالم آخر و حياه أخرى.

و ممّا يلفت النظر أنّ القرآن يأخذ من المشركين اعترافا بكلّ مسأله، فيعيد كلامهم ليثبت إقرارهم.

يقول أولا: قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَ مَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

ثمّ تضيف الآيه أنّهم يؤمنون بالله خالق الوجود وفق نداء الفطره التابع من ذاتهم، و سيجيبونك و: سَيَقُولُونَ لِلّهِ فَأَجِبْهُمْ: قُلْ أَ فَلَا تَذَكَّرُونَ كيف تتصوّرون استحاله إحياء الموتى بعد اعترافكم الصريح؟ ثم يأمر رسوله مرّه ثانيه أن يسألهم: قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ .

ص: ٤٩١

١- ١) -تقديم التراب على العظام إما لعوده التراب إلى الحياه الأولى هي أعجب من عوده العظام، و إما لأن الأجداد أصبحوا ترابا و الآباء عظاما نخره، و إما لصيروره لحم الإنسان ترابا قبل العظام، ثم تتحول العظام إلى تراب.

فيأتي الجواب نابعا من الفطره التي فطره الله الناس عليها، وهي الاعتراف بربوبيته تعالى سَيَقُولُونَ لِلَّهِ و بعد هذا الاعتراف الواضح فلما ذا لا تخافون الله، و لا تعترفون بالمعاد و بعث الإنسان مرّه ثانيه: قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ .

و اسألهم مرّه أخرى عن سياده الله على السماوات و الأرض قُلْ مَنْ يَبْدِيهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ . و من الذي يجير اللاجئين و جميع المحرومين و لا يحتاج إلى اللجوء إلى أحد: وَ هُوَ يُجِيرُ وَ لَا يُجَارُ عَلَيْهِ ، إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ .

فيعترفون بأنّ العالم و مالكيته و حكومته و إجاره الآخرين يعود لله فقط سَيَقُولُونَ لِلَّهِ .

قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ

أى: كيف تقولون: إنّ الرسول صلى الله عليه و آله و سلّم سحركم رغم كلّ هذا الاعتراف و الإقرار منكم؟! إنّها لحقائق اعترفتم بها في كلّ مرحله، فقد أقرتم بأنّه سبحانه مالك الوجود و خالقه، و أنّه المدير و المدبّر و الحاكم و الملجأ، فكيف لا يستطيع من له كلّ هذه القدره و الحكم و الحكمه، إعادة الإنسان إلى تراب و بعثه ثانيه كما خلقه أوّل مرّه؟ لماذا تفرون من الخضوع للحقيقه؟ و لماذا تتهمون النّبي الأكرم بالسحر و قلوبكم تعترف بهذه الحقائق؟! و أخيرا يقول القرآن في عبارته مختصره ذات دلالة كبيره بأنّه ليس سحرا و لا شعوزه و لا شيء آخر: بَلْ أَتَيْنَاهُمْ بِالْحَقِّ وَ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ .

لقد بيّن الله الحقائق للناس بإرساله الأنبياء و الرسل إليهم و لكنّهم عصوا أمره، و لم يستجيبوا له فيما يحييهم من عبادته و إقامه أحكامه الهاديه لكلّ خير، المنقذه من كلّ شرّ.

١- معنى عدد من الكلمات

«الأساطير» جمع «أسطورة» قال بعض اللغويين: إنها مشتقة من «السطر» بمعنى الصف، فيطلق على الكلمات التي اصطفت في خط واحد لفظ السطر.

فالأسطوره: الكتابه أو السطور التي تركها لنا الآخرون، ولأن كتابات القدماء تحتوي على أساطير خرافيه، تطلق الأساطير على الحكايات و القصص الخرافيه الكاذبه. وقد تركزت كلمه الأساطير فى القرآن المجيد تسع مرّات. و جميعها جاء على لسان الكفار لتوجيه مخالفتهم لأنبياء الله تعالى.

«الرب» تعنى - كما قلنا فى تفسير سوره الحمد- المالك المصلح، و لهذا لا يطلق على كل مالك، و إنما يختص بالمالك الذى يسعى لإصلاح و حفظ و إداره ملكه حفظاً جيداً، و تطلق كلمه «رب» أحياناً على المرّبي و المعلم أيضاً.

«الملكوت» مشتقة من «الملك» (على وزن كفر)، بمعنى الحكومه و المالكيه، و إضافه الواو و التاء للتأكيد و المبالغه.

«العرش» يعنى السرير ذا القوائم العاليه، و يطلق أحياناً على السقف و شبهه.

و عند ما تتعلّق هذه الكلمه بالله سبحانه، فإنّها تعنى عالم الوجود كلّ، فهو كلّ دون جلاله المقدّس و حكمه الحكيم.

و قد تطلق أحياناً على عالم ما وراء الطبيعه (ميتافيزيقيا) مقابل «الكرسى» الذى يعنى عالم الطبيعه و المادّه، مثال ذلك وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضَ (١) (٢).

ص: ٤٩٣

١- ١) - بحثنا موضوع العرش بإسهاب فى تفسير الآيه (٥٤) من سوره الأعراف.

٢- ٢) - البقره، ٢٥٥.

٢- تأكيد المعاد بالاستناد إلى قدره الله الشامله

يستنتج من آيات القرآن أنّ معظم مخالفيه المنكرين للمعاد يدور حول مسأله المعاد الجسماني، ودهشتهم من عوده الروح و الحياه ثانيه إلى الإنسان بعد أن يصير ترابا، من هنا عدّدت الآيات معالم قدره الله في عالم الوجود، و أكدّت خلقه لكلّ شيء من عدم، ليؤمنوا بالحياه بعد الموت، و تزول استحالتها من تصوّرهم.

و بحثت هذه الآيات هذه المسأله من خلال بيان قدره الله على الأرض و سكاّنها. و قدرته على السموات و العرش العظيم، و قدرته على إداره عالم الخلق و النشر، و هذه السبل الثلاثه مصاديق لمفهوم واحد. و يحتمل أيضا أنّ كلا من هذه الأبحاث الثلاثه يشير إلى وجهه نظر المنكرين للمعاد، فلو كان إنكاركم للمعاد يعود إلى أنّ العظام الباليه قد خرجت من دائره حكومه الله و ملكيته، فهذا خطأ، لأنكم تعترفون أنّ الله تعالى هو مالك الأرض و من عليها.

و إنّ كان إنكاركم لأنّ بعث الأموات يحتاج إلى إله مقتدر، فأنتم تعترفون بأنّ الله ربّ السموات و العرش.

و إن كان جحودكم أنّكم في شكّ من تدبير العالم بعد الحياه الجديده و بعد بعث الأموات، فهو أيضا في غير مورده، لأنكم قبلتم تدبيره و اعترفتم بقدرته على إداره عالم الوجود، و جوار من لا جار له (أى كلّ الموجودات) حيث يتكفّل برعايتها و تدبير أمورها، فعلى هذا لا مجال لإنكاركم أيضا. و إجابته الكفّار في الحالات الثلاث بشكل منسجم موحد سَيَقُولُونَ لِيهِ تَوَكَّدَ التَّفْسِيرِ الْأَوَّلِ.

٣- اختلاف نهايات الآيات

و الجدير بالاهتمام هو أنّه بعد السؤال الأوّل و إجابته جاءت عبارته:

أَفَلَا تَذَكَّرُونَ

و بعد السؤال الثّاني و إجابته جاءت عبارته أَفَلَا تَتَّقُونَ .

و بعد السؤال الثالث و إجابته جاءت عبارته فَأَنَّى تُسْحَرُونَ .

و هذه عبارات تنبيه شديده للكفّار و استنكار لما هم عليه من باطل بشكل متدرّج و مرحله بعد أخرى، و هو أسلوب متعارف ينسجم مع الأساليب المعروفة فى التعليم و التربه المنطقيه. فإذا احتاج المرّبى إلى إدانته شخص، يبدأ أولاً بتنبيهه بلطف، ثمّ بحزم، و بعد ذلك يعنّفه!

ص: ٤٩٥

اشاره

مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَمَذَهُمْ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١)
عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٩٢)

التفسير

اشاره

الشرك يجز العالم نحو الدمار:

تناولت الآيات السابقة بحوثاً في المعاد و الملك و الحكم و الربوبيه، أمّا هذه الآيات فقد تناولت نفى الشرك، و استعرضت جانباً من انحرافات المشركين.

وردتها عليهم بالأدلة الساطعه، قائله: مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ .

إنّ الاعتقاد بوجود ابن لله لا ينحصر في المسيحيين الذين يرون النبي عيسى عليه السلام ابناً حقيقياً له! فقد كان المشركون يرون الملائكة بنات لله، و لعلّ المسيحيين أخذوا هذه الفكرة من المشركين القدماء، و على أساس أنّ الولد جزء من الأب، فلذلك اعتقدوا بأنّ الملائكة أو المسيح عليه السلام لهم حصّه من الالهيه، و هذا أوضح مظهر للشرك.

ثم بيّنت الآيه بطلان الشرك: أنه لو كان هناك آلهه متعدده تحكم العالم، فسيكون لكل إله مخلوقاته الخاصه به يحكم عليها و يدبر أمورها.

و سيكون تبعاً لذلك أنظمه متعدده للعالم، لأن كل واحد من الآلهه يدير منطقته بنظام خاص إذاً لذهب كل إله بما خلق و هذا ينافى وحده النظام الحاكم فى هذا العالم.

وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ

و هذه نتيجة محتومه لكل صراع، إذ يسعى كل طرف فيه لغلبه الآخرين و الهيمنه عليهم، و هذا سيكون بذاته سبباً آخر لتفكك النظام الموحد السائد فى العالم.

و جاء فى ختام الآيه تقديس لله سبحانه سُبحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ .

و زبده الكلام ما نجده بوضوح من سياده نظام موحد لساحه الوجود كله.

فالقوانين السائده لهذا العالم فى أرضه و سمائه واحده، و النظام الحاكم لذره واحده هو ذاته يحكم المجموعه الشمسيه المنظومات الكبيره، و لو أتاحت لنا صوره مكبره لذره واحده لحصلنا على شكل المنظومه الشمسيه، و العكس صحيح.

و قد برهن العلماء فى تجاربهم فى مختلف العلوم، باستخدام أدق الأجهزة و أحدثها على وحده النظام السائد لهذا العالم كله. هذا من جهه.

و من جهه أخرى إن الاختلاف و التباين يلازمان التعدد دوماً. فلو تشابهت صفات شيئين تمام التشابه لكانا شيئاً واحداً، إذ لا معنى لثنائيتهما عندئذ، و لو فرضنا لهذا العالم آلهه عديده لوقع أثر هذا التعدد على مخلوقات العالم و النظام الحاكم له، و لانتفت وحده نظام الخلق.

مضافاً إلى أن كل موجود لا بد أن يسعى لاستكمال وجوده إلاّ الوجود الكامل من كل جهه فلا معنى للتكامل فى وجوده حينئذ، فلو فرضنا وجود مناطق خاصه لكل إله من هذه الآلهه المزعومه، و طبعاً لا يكون لكل منها كمال مطلق،

و من الطبيعي أيضا أنها سوف تسعى لاستكمال ذاتها، و تحاول ضمّ بقيه المناطق إلى حوزتها، و هذا السعي للتكامل و التنافس في الاقتدار مدعاه لوقوع العالم فريسه بين مخالب الناقصين الباحثين عن السيطرة على غيرهم، و النتيجة هي فساد العالم و دماره.

و بهذا تكون كلتا الجملتين في الآيه إشاره إلى دليل منطقي واحد، و لا تصل النوبه إلى حصر الجملة في جهه إقناعيه و ليست منطقيه.

السؤال الوحيد الباقي في هذا المورد هو أنّ البرهان المذكور يصحّ فيما لو فرضنا أنّ الآلهه تسعى للتغلب و السيطرة المطلقه، أمّا لو فرضناها حكيمه و عالمه، فما المانع من أنّ تدير العالم بالتشاور فيما بينها؟ لقد أجبنا عن هذا السؤال في تفسيرنا للآيه الثانيه و العشرين من سوره النساء، في بحث برهان التمانع، و لا حاجه لتكراره هاهنا.

و الآيه التاليه تردّ على المشركين المغالطين فتقول: **عَالِمِ الْغَيْبِ وَ الشَّهَادَةِ** أَي إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ ظَاهِرَ الْأَشْيَاءِ وَ بَاطِنَهَا، فكيف تصوّرون وجود إله آخر تعرفونه أنتم و لا يعرفه الربّ الذي خلقكم و الذي يعلم الغيب و الشهاده في هذا العالم؟ هذا البيان يشبه ما ورد في الآيه الثامنه عشره من سوره يونس **قُلْ أَتَنْبِئُونَ اللَّهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَ لَا فِي الْأَرْضِ؟! وَ** بهذه العبارة يبطل تصوراتهم الخرافيه: **فَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**.

و ختام هذه الآيه يشبه ختام الآيه الثامنه عشره من سوره يونس و هو **سُبْحَانَكَ وَ تَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ**. و هذا يدلّ على وحدّه الموضوع.

كما أنّ هذه العبارة تهديد موجه للمشركين بأنّ الله الذي يعلم السرّ و العلن، يعلم ما تقولونه. و سيحاسبكم عليه يوم القيامه في محكمته العادله.

اشاره

قُلْ رَبِّ إِذَا تُرِيتُنِي مَا يُوعَدُونَ (٩٣) رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٩٤) وَإِنَّا عَلَيَّ أَنْ تُرِيكَ مَا نَعِدُهُمْ لِقَادِرُونَ (٩٥) اذْفَعْ بِأَلْتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّبِيَّة نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونَ (٩٨)

التفسير

اشاره

تعوذوا بالله من همزات الشياطين:

مع مخاطبه هذه الآيات للرسول الأكرم صلى الله عليه وآله وسلم، واصلت مقاصد الآيات السابقه فى تهديد الكفار و المشركين المعاندين بأنواع العذاب الإلهي قُلْ رَبِّ إِذَا تُرِيتُنِي مَا يُوعَدُونَ (١).

رَبِّ فَلَا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ

هاهنا دعاء بالنجاه من الهلاك، و الانفصال من الظالمين الذين ينتظرهم سوء العذاب، و لا شكَّ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آله وَ سَلَّمَ لم

ص: ٤٩٩

١ - ١) - «إِذَا» فى الآية أعلاه مرَّبه من «إِنَّ» الشرطيه و «مَا» الزائده. و قد استعملت هنا للتأكيد. و من أجل أن ترد (إِنَّ الشرطيه) على الفعل المقرون بنون التأكيد يجب أن تفصل بينهما «مَا».

يعمل ما يعرضه للعذاب، وليس من العدل الإلهي أن يأخذ البريء بالمدنّب، بل لو أنّ رجلاً كان يعبد الله في قوم لأنقذه الله سبحانه ممّا يعمّمهم به من البلاء.

فهذا الدعاء من الرسول صلى الله عليه وآله وسلم إنّما كان بأمر من الله تعالى، لهدفين: ليحذّر الكفّار والمشرّكين من سوء المنقلب الذى يتوجّب أن يسلمّ الرسول الأ-عظم صلى الله عليه وآله وسلم نفسه إلى الله جلّ وعلا- و يطلب منه النجاه، والآخر: ليعلم أصحابه وأتباعه جميعاً التسليم إلى الحقّ، والأ يتصوّروا أنّهم فى مأمن من عذابه.

أمّا ماذا يقصد بهذا العذاب؟ يرى معظم المفسّرين أنّه العقاب الدنيوى الذى ابتلى الله به المشركين، ومنه الهزيمة المرّه التى ألحقها بهم فى معركة بدر (١) ومع التوجّه إلى أنّ سورة «المؤمنون» مكّيه نزلت يوم مواجهه المؤمنين لضغوط كبيره. لهذا كانت هذه الآيات بلسم لجراحهم وتسلية لخواطريهم (و جاء بهذا المعنى أيضا فى سورة يونس الآية ٤٦).

إلا أنّ بعض المفسّرين احتملوا أنّه يشمل العذاب الدنيوى والآخرى معا (٢).

و يبدو التفسير الأول أقرب لمراد الآية.

و تأكيداً لهذا الموضوع و لنفى كلّ شكّ لدى الأعداء، و لتسلية خاطر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و المؤمنين، أضافت الآية اللاحقه وَ إِنَّا عَلِيمٌ بِمَا تُرِيكَ مَا نَعْدُهُمْ لِقَادِرُونَ .

و لقد تجلّت قدره الله سبحانه فى ساحات مختلفه بعد ذلك- و منها معركة بدر -حيث غلبت قلّه من المؤمنين جموع الأعداء الغفيره بقوّه الإيمان و بنصر من الله

ص: ٥٠٠

١- ١) -يراجع تفاسير مجمع البيان، و الميزان، و فى ظلال القرآن، و أبو الفتوح الرازى، و روح المعانى، فى تفسير الآيات موضع البحث.

٢- ٢) -التفسير الكبير للفخر الرازى، فى تفسير الآيات موضع البحث.

ثمّ يأمر الله الرّسول صلى الله عليه وآله و سلّم باتباع سياسه اللين فى الدعوه إلى الهدى و دين الحقّ اذفّع بالتي هي أحسنُ السّيئه أى اذفع عدوانهم و سيئاتهم بالعفو و الصفح و الإحسان، و كلامهم البدىء بالكلام المنطقى الموزون: نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ .

و الله يعلم أنّ أعمالهم القبيحه و كلامهم البدىء و أذاهم القاسى يؤلم الرّسول صلى الله عليه وآله و سلّم، إلاّ أنّه عزّ و جلّ يدعو إلى عدم الرّد بالمثل، بل يوجب أن يكون الرّد بالتي هي أحسن. و هذا خير سبيل لإيقاظ الغافلين و المخدوعين.

ثمّ نقرأ أمرا ربّانيا بالاستعاذه بالله من مكائد الشيطان و قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ . إنّهُ دعاء بالإنفاذ من تربص الشيطان و مكره الخفى، و لا يقف الدعاء عند همزات الشياطين بل يستمرّ فى الاستعاذه من حضورهم عنده و أَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ أَى حضور الشياطين فى اجتماعات النّبى صلى الله عليه وآله و سلّم الذى يؤدى إلى إغفال المجتمعين و إضلالهم.

ملاحظتان

اشاره

١- ما معنى همزات الشياطين؟

«الهمزات» جمع «همزه» بمعنى التحريك بقوّه، و قد أطلقت هذه التسميه على حرف الهمزه، لأنّها تؤدى إلى حركه قوّيه فى نهايه الحلق.

و قال بعض المفسّرين: إنّ «الهمز» و «الغمز» و «الرمز» بمعنى واحد. إلاّ أنّ الرمز ذو مرحله خفيفه، و الغمز أشدّ منها. و الهمز، نهايتها فى الشدّه (١).

و بما أنّ الشياطين صيغه جمع، فهى تضمّ شياطين الجنّ و الإنس، ظاهرها و خفيها. و نقرأ فى تفسير على بن إبراهيم أنّ الإمام عليه السلام قال فى معنى الآية: قُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ :

هو ما يقع فى قلبك من وسوسه

ص: ٥٠١

فإذا كان الرسول صلى الله عليه وآله وسلم مع عصمته و منزلته الساميه عند الله، يدعو سبحانه بهذا الدعاء، فما بالك بمسؤوليه الآخريين؟ يجب أن يدعوا الله ألا يكلمهم إلى أنفسهم طرفه عين. و ليس فقط ألا يقعوا تحت تأثير همزات الشياطين، بل ألا يحضرهم الشياطين في مجالسهم. فعلى محبى الحق و الذابين عنه و ناشديه أن يفوضوا أمرهم إلى الله، ليحفظهم من وساوس الشياطين و مكائدهم.

٢-رد السيئه بالحسنه

من أبرز السبل المؤثره فى مكافحه الأعداء الأشداء و المعاندين رد السيئه بالحسنه، فذلك يوقظ مشاعرهم، فيحاسبون أنفسهم على ما اقترفوه من أعمال سيئه، و يعودون للصواب غالباً. و نجد فى سيره الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و أئمه الهدى عليهم السلام هذا المنهج بشكل واضح، حيث يردون سيئات الجنازه بالإحسان إليهم و الإنعام عليهم، فيكسبون ودهم، و يفجرون فى جوارحهم استجابته للحق، و رفضاً للباطل.

و قد ذكر القرآن المجيد هذه السيره للمسلمين مرارا باعتبارها مبدأ أساسياً لاقتلاع السيئات، فى الآيه الرابعه و الثلاثين من سوره فضلت نقرأ فإذا الذى بينك و بينه عداوه كأنه لى حميم .

و الجدير بالذكر أن هذا الأمر خاص بحالات لا يسىء العدو الاستفاده من هذا المبدأ، و يرى إحسانهم إليه أو عفوه عن ضعفهم، فيزداد جراه على العدوان و الظلم.

و هذه السيره لا تعنى مساومه الأعداء أو التسليم لهم. و هذا قد يكون السبب فى أن الله عزّ و جلّ أمر الرسول صلى الله عليه وآله وسلم بعد ذكر هذه التوصيه مباشره بالتعوذ به من همزات الشياطين و حضورهم حوله.

ص: ٥٠٢

اشاره

حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ (٩٩) لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (١٠٠)

التفسير

اشاره

طلب المستحيل:

تابعت هاتان الآيتان ما تناولته الآيات السابقة من عناد المشركين و المذنبين و تمسكهم بالباطل، فتناولت حالهم الوخيم حين الموت. و أنهم يستمرّون في باطلهم: حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ (١).

حينما يجبر المذنب و المشرك على ترك الدنيا لينتقل إلى عالم آخر، تزول عنه حجب الغفلة و الغرور، فيرى بأم عينه مصيره المؤلم، فلا مال و لا جاه، فقد عاد كل ما يعنيه هباء في هباء، و هو يشاهد اليوم عاقبه أمره، و ما ارتكبه من ذنوب

ص: ٥٠٣

١ - ١) - «حَتَّىٰ» هي في الواقع غايه لجمله محذوفه، و يفهم من العبارات السابقه أن تقديرها: إنهم يستمرّون على هذا الحال حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ، و يستدلّ على ذلك من عبارته «نحن أعلم بما يصفون» التي استفيد منها في الآيتين السابقتين (فتأملوا جيدا).

و معاص، فيرتفع صراخه و عويله قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ .

ارجعنى يا رب لعلى اعمل صالحا فيما تركت . و لكن قانون الخلق العادل لا يسمح بمثل هذه العوده، لا يسمح بعوده الصالح و لا الطالح، فيأتيه النداء الدامغ كلاً .

إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا

.كلام لم يصدر من أعماقه. لم يصدر بإرادته، إنه يشبه كلام امرئ مسيء يردد إذا أحس بالعقاب، أو كلام قاتل حين إعدامه. و متى هدأت العاصفه بوجههم عادوا لسابق أعمالهم القبيحه. و هذا يشبه ما ورد فى الآيه الثامنه و العشرين من سوره الأنعام وَ لَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ .

و تشير الآيه فى نهايتها إلى عالم البرزخ الغامض بعباره قصيره ذات دلالة كبيره وَ مِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ .

بحوث

اشاره

١- من هو المخاطب فى قوله تعالى: رَبِّ ارْجِعُونِ ؟

بملاحظه كلمه «رب» التى هى مخفف «ربى» بمعنى إلهى، تشير بدايه الجمله إلى أَنَّ المخاطب هو الله سبحانه و تعالى، إلاّ أنّ مجيء «ارجعون» بصيغه الجمع يمنع أن يكون المخاطب هو الله عزّ و جلّ. و هذا التعبيران فى الجمله السابقه يثيران سؤالاً و تساؤلاً.

يرى عدد من المفسرين أنّ المخاطب هو الله، و صيغه الجمع هنا للاحترام و التعظيم. و لكن استعمال صيغه الجمع فى مخاطبه المفرد ليس مألوفاً فى العربيه، خاصّه فيما مضى، و لا نظير له فى القرآن المجيد، و بهذا يتضح ضعف هذا

ص: ٥٠٤

وقال عدد آخر من المفسرين: إنَّ المخاطب هم الملائكة المكلفون بقبض الأرواح. وكلمه «رب» نوع من الاستعانه بالله، وهذا مألوف في حياتنا اليوميّه حيث يستغيث المرء بالله في الشدائد، ثم يستنجد الناس و يصرخ: «يا رب! يا رب! انقذوني، عجلوا بمساعدتي» ويبدو هذا التفسير أقرب إلى الصواب.

٢- تفسير عبارته فيما تركت

قرأنا في الآيات السابقة أنّ الكفار يستنجدون بالله ليرجعهم إلى الدنيا ليعملوا صالحا فيما تركوا من الأعمال.

و يرى البعض في قوله تعالى: **فِيمَا تَرَكْتُ** إشارة إلى أموال تركوها، لاستعمال تعبير «تركة الميت» بصوره اعتياديّه.

و

روى حديث عن الإمام الصادق عليه السلام يؤكّد هذا المعنى إذ يقول: «من منع قيراطا من الزكاه فليس بمؤمن ولا مسلم، وهو قوله تعالى: رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ (٢)».

بينما يرى آخرون أنّ لها معنى أوسع، هو إشارة إلى جميع الأعمال الصالحة التي تركها الإنسان. فيكون المعنى: رباه! أرجعني لاعوّض ما تركته من عمل صالح.

ولا يناقض الحديث السابق مع هذا التفسير الشامل وهو مصداق واضح له، علما بأن هؤلاء الأشخاص يندمون على ما فاتهم من فرص، لهذا يرغبون في الرجوع إلى الحياه ليستفيدوا منها في العمل الصالح.

ص: ٥٠٥

١-١- يرى بعض المفسرين في الآية التاسعه من سوره القصص في عبارته زوجه فرعون قُرَّتْ عَيْنِي لِي وَ لَمَكَّ لَا- تَقْتُلُوهُ التي نطقت بها حين أخرج موسى من الماء نموذجا لهذا التعبير، حيث في البدايه كان المخاطب فرعون و آخر العبارة خاطبت حاشيه فرعون و جنوده الذين كلّفوا بقتل أبناء بني إسرائيل.

٢-٢- الكافي، و ثواب الأعمال، و من لا يحضره الفقيه (حسبما نقله تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ٥٥٢).

و يبدو أنّ التفسير الثاني أقرب إلى الصواب، وكلمه «لعلّي» الواردة في جملة لَعَلِّي أَعْمَلُ لِلصَّالِحِ يمكن أن تكون علامه على عدم اطمئنان هؤلاء المنحرفين من مستقبلهم، وأنّ الندامة نتيجه لظروف خاصه، تظهر حين موتهم، و لو عادوا إلى الدنيا لواصلوا أعمالهم ذاتها. وهذا هو عين الحقيقه.

٣- ما الذي تنفيه «كلاً»؟

تأتي «كلاً» في العربية بمعنى الحيلولة، و إبطال أثر أقوال المخاطب. و تقابل بالضبط كلمه «أى» التي تستخدم لتصديق الكلام.

و في الجواب عن السؤال الوارد آنفا، قال البعض: إنّ «كلاً» تنفى طلب الكفّار الرجوع إلى الحياه الدنيا، أى إنّ طريق العوده، مغلق، و لا يمكنكم العوده أبداً.

و قال البعض الآخر: إنّ هذه الكلمه جاءت لنفى ادعاءاتهم القائله: لو عدنا إلى الدنيا لعوّضنا ما فاتنا من أعمال صالحه، فيقال لهم: ما هذا إلا ادعاء باطل، و لو عدتم لواصلتم العمل بنفس نهجكم السابق.

و لا- ضير في أن تكون هذه الكلمه- في الوقت ذاته- إشاره إلى نفى إثنتين من المعانى. كما يجب ملاحظه أنّ هذا الطلب- رغم وروده في الآيه محل البحث من قبل المشركين فقط- ليس خاصاً بهم، بل هو طلب جميع المذنبين و الظالمين و المنحرفين، إذ يندمون على ما فاتهم لحظه موتهم، حين يرون مصيرهم الأليم ماثلاً لأعينهم، فيرجون الله ليعيدهم إلى الحياه الدنيا، إلا أنّ الله يزرهم بقوله:

«كلاً».

٤- ما هو عالم البرزخ؟

و أين هو؟ و ما هو الدليل لإثبات وجود هذا العالم بين الدنيا و الآخره؟ و هل يكون البرزخ للجميع، أم لمجموعه معينه؟

ص: ٥٠٦

و أخيراً ماذا سيكون وضع المؤمنين و الصالحين و الكفار و المسيئين فيه؟ هذه أسئلة أشارت الآيات و الأحاديث السابقة إليها، لهذا نجيب عنها حسبما يسمح به وضع هذا الكتاب.

تعنى كلمه «البرزخ» فى الأصل الشىء الذى يقع حائلا بين شيئين، ثم استعملت لكل ما يقع بين أمرين. و لهذا أتت كلمه البرزخ للدلاله على عالم يقع بين عالم الدنيا و الآخره.

و الدليل على وجود عالم البرزخ، أو عالم القبر، أو عالم الأرواح، نجده فى الأدله النقليه، فقد دلّ عليه صريح آيات القرآن أحيانا و ظاهرها أحيانا أخرى.

و الآيه موضع البحث و مِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ظاهره فى وجود عالم البرزخ. رغم أنّ البعث رغب فى القول بأنّ كلمه «البرزخ» فى هذه الآيه تعنى العائق و المانع من العوده إلى الدنيا، غير أنّ هذا المعنى يبدو غريبا، لأنّ عبارته إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ دليل على وقوع عالم البرزخ بين الدنيا و الآخره، و ليس بين الإنسان و الدنيا.

و من الآيات التى تصرّح بوجود مثل هذا العالم، الآيات الخاصه بحياه الشهداء، مثل وَ لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ الآيه (١٦٩) من سوره آل عمران، و الخطاب فيها موجه إلى النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم. أمّا الآيه (١٥٤) من سوره البقره فإنّها خطاب لجميع المؤمنين: وَ لَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْواتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَ لَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ .

و عالم «البرزخ» ليس للمؤمنين ذوى الدرجه الرفيعه كالشهداء فقط، بل للكفار الطغاه كفرعون و أعوانه أيضا، و هذا ما صرّحت به الآيه (٤٦) من سوره المؤمن النارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَ عَشِيًّا وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ .

و ذكرت آيات أخرى عالم البرزخ و لكن لا تصل إلى صراحه و ظهور الآيات

و ما يجب الانتباه إليه في موضع البرزخ هو أنّ الآيات- باستثناء الآية التي نحن بصددّها و التي ذكرته بشكل عامّ- استعرضت البرزخ بشكل خاصّ، كما في ذكره عن الشهداء أو آل فرعون.

إلّا أنّ الواضح أنّه لا- خصوصيّة لآل فرعون لأنّ في العالم الكثير من أمثالهم، و لا للشهداء، لأنّ القرآن الكريم اعتبر النّبیین و الصّدّيقین و الصالحین مع الشهداء، كما جاء في الآية (٦٩) من سورة النساء فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَ الصُّدِّيقِينَ وَ الشُّهَدَاءِ وَ الصَّالِحِينَ .

و لنا حديث عن كون البرزخ لعامة الناس أو لفئة منهم، سنورده في ختام هذا البحث إن شاء الله.

أمّا الروايات: فهناك أحاديث كثيرة في كتب الفريقين الشيعة و السنّة تتحدّث بعبارات مختلفة عن عالم البرزخ، و عالم القبر، و عالم الأرواح. أي تتحدّث عن العالم الذي يفصل بين الدنيا و الآخرة، و منها:

-١

جاء في حديث معروف ذكر في الكلمات القصار في نهج البلاغة أنّ عليّاً عليه السّلام حينما وصل إلى جبانة الكوفة عند عودته من حرب صفين، توجّه إلى القبور و نادى الأموات قائلاً: «يا أهل الديار الموحشه و المحال المقفرة و القبور المظلمة! يا أهل التربة! يا أهل القربة! يا أهل الوحده! يا أهل الوحشه! أنتم لنا فرط سابق و نحن لكم تبع لا حق! أمّا الدور فقد سكنت، و أمّا الأزواج فقد نكحت، و أمّا الأموال فقد قسيمت، هذا خبر ما عندنا فما خبر ما عندكم؟» ثمّ التفت إلى أصحابه فقال: «أمّا لو اذن لهم في الكلام لأخبروكم أنّ خير الزاد التقوى» (١).

ص: ٥٠٨

و بهذا يتضح عدم إمكان حمل هذه العبارات على المجاز و الكنايه، بل هي تخبرنا عن حقيقه وجود حياه البرزخ بعد الموت، و تمكن الموتى- لو سمح لهم- من الحديث إلينا.

٢- و نقرأ حديثاً آخر

رواه الأصمغ بن نباته يذكر فيه أمير المؤمنين على عليه السلام أنه خرج من الكوفه، و مرّ حتّى أتى الغريين فجازه، فلحقناه و هو مستلق على الأرض بجسده، ليس تحته ثوب.

فقال له: قنبر: يا أمير المؤمنين ألا أبسط ثوبى تحتك؟ قال: لا، هل هي إلا ترابه مؤمن أو مزاحمته في مجلسه؟ قال الأصمغ: فقلت: يا أمير المؤمنين، ترابه مؤمن قد عرفناه كانت أو تكون.

فما مزاحمته في مجلسه؟ فقال: «يا ابن نباته، لو كشف لكم لرأيتهم (في المختصر المطبوع ص ٤: لألفيتهم) أرواح في هذا الظهر حلقا يتزاورون و يتحدثون، إنّ في هذا الظهر روح كل مؤمن، و بوادى برهوت نسمة كل كافر» (١).

٣- و

جاء في حديث آخر عن الإمام على بن الحسين عليه السلام قوله: «إنّ القبر إمّا روضه من رياض الجنّه أو حفره من حفر النار» (٢).

٤- و

روى عن الإمام الصادق عليه السلام: «البرزخ القبر و هو الثواب و العقاب بين الدنيا و الآخرة... و الله ما نخاف عليكم إلا البرزخ» (٣).

٥- و

جاء في كتاب الكافي أنه سئل الإمام: و ما البرزخ؟ فأجاب: «القبر من حين موته إلى يوم القيامة» (٤).

ص: ٥٠٩

١-١) -بحار الأنوار، المجلد السادس، صفحہ ٢٤٣.

٢-٢) -تفسير نور الثقلين، المجلد الثاني، صفحہ ٥٥٣.

٣-٣) -المصدر السابق.

٤-٤) -المصدر السابق، صفحہ ٥٥٤.

روى الشيخ الكليني رحمه الله في الكافي عن علي بن إبراهيم، عن أبيه، عن الحسن بن محبوب، عن أبي ولاد الحنّاط، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال: قلت له:

جعلت فداك، يروون أنّ أرواح المؤمنين في حواصل طيور خضر حول العرش، فقال: «لأء المؤمن أكرم على الله من أن يجعل روحه في حوصله طير، ولكن في أبدان كأبدانهم» (١).

هذا الحديث يشير إلى مصير روح الإنسان، فهي من جهة تشبه هذا الجسم المادى، إلا أنه يمتلك نوعاً من التجرد البرزخى.

٧- كما نقرأ

في حديث آخر جاء في كتاب الكافي عن الإمام الصادق عليه السلام:

سألته عن أرواح المؤمنين فأجاب: «في حجرات في الجنة، يأكلون من طعامها و يشربون من شرابها. و يقولون ربنا أقم لنا الساعة و أنجز لنا ما وعدتنا» (٢).

٨-

روى صاحب الكافي عن سهل بن زياد، عن إسماعيل بن مهران، عن درست بن أبي منصور، عن ابن مسكان، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام، قال:

«إنّ الأرواح في صفة الأجساد في شجره في الجنة تعارف، فإذا تساءل قدمت الروح على الأرواح تقول: دعوها فإنها قد أفلتت من هول عظيم، ثم يسألونها: ما فعل فلان؟ و ما فعل فلان؟ فإن قالت لهم: تركته حياً ارتجوه، و إن قالت لهم: قد هلك، قالوا: قد هوى هوى» (٣).

تقصد الأحاديث أعلاه بالجنة و النار البرزخيتين، و ليس العائدين ليوم القيامة، و الفرق بينهما كبير.

و الأحاديث في هذا المجال عديدة، و قد رتبت في أبواب مختلفه تشير إلى قسم منها:

ص: ٥١٠

١- ١) - كتاب الكافي، حسبما نقله بحار الأنوار، المجلد السادس، صفحہ ٢٦٨.

٢- ٢) - بحار الأنوار، المجلد السادس، صفحہ ٢٦٩.

٣- ٣) - المصدر السابق.

أحاديث تتحدّث عن سؤال القبر و عذابه.

و أحاديث تتناول اتّصال الأرواح مع أسرها و مشاهدته وضعهم.

أحاديث تتحدّث عن ليله المعراج و اتّصال النّبي صلى الله عليه و آله و سلّم مع أرواح الأنبياء و المرسلين.

أحاديث تنصّ على ابتلاء الإنسان بنتائج أعماله سواء كانت طيّبه أم سيّئه.

بعد موته... و أمثالها (١).

البرزخ و الاتّصال بعالم الأرواح

رغم أنّ الكثير ممّن يدّعون بأنّهم على اتّصال بعالم الأرواح كاذبون، أو أنّهم يعانون نوعا من الوهم و الخيال، لكن ثبت أنّ الاتّصال بعالم الأرواح ممكن، و قد تحقّق فعلا لبعض العلماء، حتّى أنّهم توصلوا إلى بعض الحقائق عن طريق الأرواح.

و هذه القضية بذاتها دليل واضح على وجود عالم البرزخ و حقيقته، فهى تبيّن أنّ بعد عالم الدنيا و الموت و قبل القيامه فى الآخره، هناك عالم آخر قائم بذاته (٢).

كما أنّ الأدلّه العقليّه لإثبات تجرّد الروح و بقائها بعد فناء الجسم بنفسها دليل آخر على وجود عالم البرزخ (فتأمّلوا جيدا).

صوره عن عالم البرزخ

يتفق علماء الإسلام على أصل وجود البرزخ و ما يقع فيه من نعمه و نقمه مع بعض اختلافات جزئيه بين هؤلاء العلماء، و يتفق علماء السنّه و الشيعه على وجود البرزخ باستثناء عدد قليل غير ملحوظ.

ص: ٥١١

١-١) - جمع هذه الأحاديث المرحوم السيّد عبد الله شبر فى كتاب سماه «تسليه الفوائد فى بيان الموت و المعاد».

٢-٢) - للاطلاع أكثر بهذا الصدد، راجع مسأله الاتّصال بالأرواح فى كتاب (عوده الروح و الاتّصال بها) و كتاب (العالم بعد الموت).

و الدليل على الاتفاق بين هؤلاء العلماء واضح، و هو تصريح الآيات القرآنية بوجود البرزخ و ما فيه من نعمه و عذاب، كما أسلفنا. و منها ما صرّح بذلك فى الحديث عن الشهداء: **وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزُقُونَ فَرِحِينَ** **بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَ يَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ** (١) و ليس فقط هذه المجموعه من الصالحين قد أنعم الله عليها، بل إن مجموعته من أسوأ الطغاه و المجرمين يعذبهم الله، كما أن تعذيب آل فرعون بعد الموت و قبل القيامة قد أشارت إليه الآية ٤٦ من سوره غافر (المؤمن).

و الأحاديث متواتره بهذا الصدد، فلا نقاش فى وجود عالم البرزخ أساسا، و المهم أن نعرف حياه البرزخ و شكلها، فقد ذكرت له صورته مختلفه، أوضحها أن أرواح البشر بعد ترك هذه الدنيا، تدخل أجساما لطيفه ساميه عن آثار هذه الماده القدره، إلا أنها على شكل أجسامنا، و يقال لكل منها (الجسم المثالى) و هو ليس مجردا تمام التجريه، و لا - هو ماديا محضا. إنه يمتاز بتجرّد برزخى معيّن، و شبّه بعضهم بما عليه الروح فى أثناء ما يراه النائم، إذ تسرّ الروح رؤيه النعم، و تعذبها مشاهده المناظر المؤلمه، و لذلك أثر فى جسمنا هذا، إذ نبكى عند رؤيه حلم مزعج، و نفزع مذعورين من هول ما نرى، أو نضحك من أعماقنا من طرافه ما نحلم به فى نومنا.

و يرى جماعه أن الروح تقوم بنشاط فى الجسم المثالى، بل يرون أكثر من ذلك، ألا و هو قدره الأرواح القويّه على اكتساب حاله التجرد البرزخى فى يقظه الإنسان أيضا. أى تفصل الروح عن الجسم. و تتحرّك فى الجسم المثالى برغبتها أو بالتنويم المغناطيسى، تتحرّك فى العالم لتطلع على بعض القضايا (٢).

ص: ٥١٢

١-١) - سوره آل عمران، ١٦٩ و ١٧٠.

٢-٢) - يصرّح العلّامه المجلسى فى تناوله هذا الموضوع فى بحار الأنوار: إن تشبيه البرزخ بالحلم و ما يتراءى للإنسان وارد فى

بل إنَّ البعض قال بوجود الجسم المثالي في جسم كلِّ إنسان، وإنَّه ينفصل عنه في بدايه الحياه البرزخيه،و يمكن أن يقع ذلك كما قلنا في هذه الدنيا.

و إذا رفضنا جميع هذه الصفات للجسم المثالي،فلا يمكن نفى الموضوع أصلا،بسبب إشاره أحاديث عديده إليه،و لانعدام المانع العقلي منه.

و بهذا يتّضح جواب الاعتراض القائل بأنَّ الإعتقاد بالجسم المثالي يستوجب الإعتقاد بالتناسخ،الذى يعنى انتقال الروح من جسم إلى آخر.

لقد ردّ الشيخ البهائى هذا الإحتجاج بوضوح،فقال:إنَّ التناسخ الذى يرى بطلانه جميع المسلمين،هو عوده الروح بعد تفسّخ الجسم الذى كانت فيه إلى جسم آخر فى هذه الدنيا.

أمّا اختصاص الروح بالجسم المثالى فى عالم البرزخ حتّى يوم القيامة،ثمّ عودتها إلى الجسم الأول بأمر من الله تعالى لا علاقه له بالتناسخ،و السبب أنّنا نفى التناسخ بشدّه و نكفّر الذى يعتقد به،هو قولهم بأزليه الأرواح و انتقالها الدائمي من جسم إلى آخر،و إنكارهم المعاد الجسمانى فى عالم الآخرة (١).

و القول بوجود الجسم المثالى فى باطن الجسم المادى يجلى الجواب عن هذا الإشكال،إذ لا تنتقل الروح من جسم إلى آخر،بل تترك بعض قواها، و تستمرّ فى قالب آخر فى حياتها البرزخيه.

و السؤال الآخر هو أنّه يفهم من آيات قرآنيه أن لا- حياه برزخيه لمجموعه من الناس،كما جاء فى الآيه الخامسه و الخمسين و السادسه و الخمسين من سوره الروم! يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ، وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَ الْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَ لَكِنَّا كُنَّا لَا تَعْلَمُونَ .

(٢)

أكثر من الروايات،و يمكن أن تكون للنفوس القويه الساميه عدّه أجسام مثاليه،و بهذا تفسر الأحاديث القائله بحضور الأئمه الميامين لدى المحتضرين حين نزعمهم الأخير.(بحار الأنوار،المجلد السادس،صفحه ٢٦١).

ص: ٥١٣

و جواب هذا الاعتراض، جاء في أحاديث فحواها أنّ الناس ثلاث فئات:

فئة مؤمنة مخلصه في إيمانها، و فئة مخلصه في كفرها، و فئة متوسطة و مستضعفه.

و إنّ عالم البرزخ خاص بالفئتين الأولى و الثانية، أما الثالثة فتعبر عالم البرزخ في حاله من عدم الاطلاع (لاطلاع أوسع على هذه الأحاديث يراجع المجلد السادس من بحار الأنوار، بحث أحوال البرزخ و القبر).

ص: ٥١٤

اشاره

فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ (١٠١) فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٢) وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ (١٠٣) تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارُ وَ هُمْ فِيهَا كَالِحُونَ (١٠٤)

التفسير

اشاره

جانب من عقاب المسيئين:

تحدّث الآيات السابقه عن عالم البرزخ، و أعقبها آيات تناولت القيامه بالبحث، و تناولت كذلك جانبا من وضع المذنبين في عالم الآخره.

فهى تقول أولًا: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ من المعلوم-بالاستناد إلى آيات القرآن الكريم-أنّ النفخ في الصور يجرى مرتين. أولاهما في نهايه هذا العالم، حيث يموت من في الأرض و السماوات.

و في ثانيتهما يبدأ بعث من في القبور، ليعودوا لحياه جديده، و ليستعدّوا للحساب و الجزاء.

«النفخ في الصور» يعنى النفخ في البوق، إلا أن هذه العبارة لها مفهوم خاص سنبيّنه إن شاء الله في شرح الآية ٦٨ من سورة الزمر.

و على كلّ حال، فإنّ الآيه السابقه أشارت إلى ظاهرتين من ظواهر يوم القيامة:

أولاهما: انتهاء مسأله النسب، لأنّ رابطه الاسره و القبيله التى تسود حياه الناس فى هذا العالم تؤدّى فى كثير من الحالات إلى نجاه المذنبين من العقاب، إذ يستنجدون بأقربائهم فى حلّ مشاكلهم. أمّا الوضع يوم القيامة فيختلف، حيث كلّ إنسان و عمله، فلا معين له، و لا نفع فى ولده، أو أخيه، أو والده.

و ثانيتهما: سيطره الخوف على الجميع، فلا يسأل أحد عن حال غيره بسبب الخوف الشديد من العقاب الإلهى، هو يوم كما أطلعنا عليه فى مطلع سورة الحجّ:

يَوْمَ تَرُؤْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَ تَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَ تَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَ مَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ كَمَا يَحْتَمِلُ أَنْ تَقْصِدَ عِبَارَهُ وَ لَا يَتَسَاءَلُونَ عَدَمَ طَلَبِ أَحَدِهِمُ الْعَوْنَ مِنَ الْآخِرِ، لِأَنَّهُمْ جَمِيعًا يَعْرِفُونَ عَدَمَ جَدْوَىٰ ذَلِكَ.

و قال بعض المفسّرين: إنّ المراد من هذه العبارة هى عدم السؤال عن الأنساب فهى تأكيد لقوله تعالى: فَلَا أُنْسَابَ بَيْنَهُمْ .

و يبدو التفسير الأول أوضح من غيره، رغم عدم التناقض فيما بينها، و يمكن أن تشير العبارة السابقه إلى هذه المعانى كلّها.

و رأى مفسّرون آخرون أنّه يستفاد من عدّه آيات تساؤل الناس يوم القيامة، كما جاء فى الآية (٢٧) من سورة الصفات، حيث تساءل المذنبون لدى مواجهه النار و أقبلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . كما تحدّثت هذه السوره فى الآية الخمسين عن أهل الجنّه ساعه استقرارهم فى الجنّه متقابلين، فقالت: فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ إِنَّهُمْ تَسَاءَلُوا عَنْ رِفَاقِ لَهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا انحرّفوا

عن السبيل السوي فاقْتيدوا إلى النار.

كما جاء نظير هذا المعنى في الآية (٢٥) من سورة الطور، فكيف تنسجم هذه الآيات مع الآية موضع البحث، وهي تنصّ على عدم تساؤل الناس يوم القيامة؟.

لو دققنا ملياً في مضمون الآيات محلّ البحث لا تضح لنا جواب هذا السؤال، فالآيات الخاصّة بإثبات سؤال بعضهم للآخر إنّما تتحدّث في حاله استقرارهم في الجنّة، أو في النار. في وقت تنفى الآيات محلّ البحث تساؤل الناس حين البعث، حيث يسيطر الرعب على الجميع. حتّى أنّ الناس ينسون جميع من حولهم و يذهلون عنهم من هول الحشر. و بتعبير آخر: للقيامة مواقف و لكلّ موقف شأن معيّن، و الإشكال المذكور نجم عن عدم تشخيص هذه المواقف.

و بعد وقوع القيامة تبدأ مرحلة الحساب و قياس الأعمال بميزان خاصّ بيوم القيامة: **فَمَنْ ثَقَلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** .

«الموازن» جمع «ميزان» و هو وسيلة للقياس. و كما قلنا سابقاً: إنّ الميزان لا يعنى ما نعرفه في هذه الدنيا لوزن المواد، إنّ الميزان في هذه الآيه يعنى وسيلة ملائمته لقياس قيمه أعمال الإنسان، أى: للميزان مفهوم واسع يشمل جميع وسائل القياس. و كما ورد في الأحاديث المختلفه أنّه ميزان تقاس به الأعمال و الناس، و هم قادة الإسلام الكبار،

في الحديث: «إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ وَ الْأَئِمَّةَ مِنْ ذُرِّيَّتِهِ هُمُ الْمَوَازِينُ» (١).

و على هذا فإنّ الرسل و أوصياءهم هم الذين يقاس الناس و أعمالهم بهم، ليتبيّن إلى أى درجه يشبهونهم. و بهذا يتميّز الناس ثقيلهم من خفيفهم، و ثمينهم من تافههم، و عالمهم من جاهلهم. كما يتّضح لنا سرّ ذكر الموازين بصيغته الجمع، لأنّ قادة الناس الكبار في السابق - و هم موازين القياس - قد تعدّدوا في التاريخ.

ص: ٥١٧

و يمكن أن يكون الأنبياء و الأئمة و عباد الله المخلصون قدوه في مجال معين أو أكثر على وفق الظروف التي مرّوا بها، فاشتهروا ببعض الصفات دون أخرى، فواحدهم ميزان بما اشتهر به من حسنات و خصال حميده.

وَ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ

و هم الذين فقدوا الإيمان و العمل الصالح، فوزنهم خفيف يوم القيامة، لأنهم خسروا رأسمال وجودهم: فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ عبارته خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ تصريح بحقيقته خسران المذنبين لأكبر رأسمال لهم - أي وجودهم - في سوق تجاره الدنيا دون أن يحصلوا على مقابل.

و تشرح الآيات التالية عذابهم الأليم تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ ألسنه النار و لهيبها المحرق تضرب و جوههم كضرب السيف وَ هُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ وَ هُمْ مِنْ شِدَّةِ أَلْمِ وَ عَذَابِ النَّارِ، في عبوس و اكفهار.

و كلمه «تلفح» مشتقه من «لفح» على وزن «فتح» و تعنى في الأصل ضربه السيف، و قد وردت هنا كناية، لأن لهيب النار، أو نور الشمس المحرقة، و ریح السموم، تضرب وجه الإنسان كضرب السيف.

و أما كلمه «كالح» فإنها مشتقه من «كلوح» على وزن «فعلول» بمعنى التعيس و اكفهار الوجه. و قد فسره عدد كبير من المفسرين بتقلص في جلد الوجه بحيث يبقى الشجر مفتوحا لا يمكن إغلاقه (1).

ص: ٥١٨

(١ - ١) - تفسير القرطبي، و تفسير الفخر الرازي، و تفسير مجمع البيان، و تفسير الميزان، الآيات موضع البحث.

١- اليوم الذي لا يعتنى فيه بالأنساب:

المفاهيم التي تسود حياة الإنسان المادي في هذا العالم، ستتغير في عالم الآخرة، ومنها العلاقات الودية، والأواصر الأسرية التي تحلّ مشاكل كثيرة في هذه الحياة، وأحياناً تشكّل النظام الذي يسيطر على سائر العلاقات الاجتماعية.

وإذا كان الانتساب للقبائل والأسر في الدنيا لا يعارض الإيمان بالله تعالى والعمل الصالح، فإنه ينتفى يوم القيامة، فلا انتساب لشخص أو طائفة أو قبيلة. وإذا كان الناس هاهنا يساعد أحدهم الآخر، ويحلّ له مشاكله و ينتصر له و يفخر به، فإنهم ليسوا كذلك يوم القيامة، فلا خبر عن الأموال الكثيره، ولا عن الأولاد يوم لا ينفع مالٌ ولا بنونٌ إلا من أتى الله بقلب سليم (١).

حتى من ينتسبون إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاضعون لهذا الحكم، ولهذا نلاحظ أنّ الرسول صلى الله عليه وآله وسلم والأئمة الأطهار طردوا عنهم من كان من المقرّبين في النسب الهاشمي، إمّا لعدم إيمانه، أو لانحرافه عن الإسلام الأصيل، وأظهروا تنفّرهم و براءتهم منه. رغم أنّه

روى عن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قوله: «كل حسب (٢) و نسب منقطع يوم القيامة إلا حسبي و نسبي» (٣).

يقول العلامة الطباطبائي (رضوان الله عليه) في الميزان: إنّ هذا الحديث هو نفسه الذي رواه بعض محدّثي أهل السنّة في كتبهم، مرّه عن عبد الله بن عمر، و أخرى عن عمر بن الخطاب، وأحياناً عن صحابه آخرين للرسول صلى الله عليه وآله وسلم.

في الوقت الذي نرى أنّ الآيه-موضع البحث- ذات طابع عام، فهي تتحدّث

ص: ٥١٩

١-١ (١) -الشعراء، ٨٩.

٢-٢ (٢) -الحسب: كلّ فخر للإنسان، بالآباء والأجداد. ويعنى أحياناً الخلق السليم للشخص ذاته، وهنا قصد المعنى الأوّل. (يراجع لسان العرب في كلمه حسب).

٣-٣ (٣) -مجمع البيان آخر الآيه موضع البحث.

عن انقطاع جميع الأنساب يوم القيامة، وهذا ما توازره المبادئ القرآنية و سيره النبي صلى الله عليه وآله وسلم في معاملته المنحرفين التي تفيد أنه لا فرق بين الناس في هذا المجال.

لهذا نقرأ في حديث رواه ابن شهر آشوب في كتابه المناقب عن طاووس اليماني

عن الإمام زين العابدين عليه السلام أنه قال: «خلق الله الجنة لمن أطاع و أحسن و لو كان عبدا حبشيا، و خلق النار لمن عصاه و لو كان سيدا قرشيا» (١).

و ما ذكر لا ينفي احترام الساده المتقين من آل الرسول صلى الله عليه وآله وسلم، فهذا الاحترام في حقيقته احترام للرسول صلى الله عليه وآله وسلم، و ما جاء في القرآن و الحديث في فضلهم و منزلتهم ناظر حسب الظاهر إلى هذا المعنى.

٢- حكاية الأصمعي المؤثره:

و من المناسب هنا ذكر حكاية نقلها «الغزالي» في كتابه «بحر المحجبه» عن الأصمعي، تؤيد ما ذهبنا إليه و ذات مسائل جديره بالاهتمام.

يقول الأصمعي «كنت أطوف حول الكعبه في ليله مقمره، فسمعت صوتا حنونا لرجل يناجي ربه. بحثت عن صاحبه و إذا به شاب جميل رشيق القامه يبدو عليه الطيب. و قد تعلق بأستار الكعبه، و كان يقول في مناجاته:

يا سيدي و مولاي، نامت العيون و غابت النجوم، و أنت ملك حتى قيوم، لا تأخذك سنه و لا نوم، غلقت الملوكة أبوابها، و أقامت عليها حراسها و حجابها، و قد خلا- كل حبيب بحبيبه، و بابك مفتوح للسائلين، فها أنا سائلك ببابك مذب فقير، خاطئ مسكين، جئتك أرجو رحمتك يا رحيم، و أن تنظر إلي بلطفك يا كريم! ثم أنشد:

ص: ٥٢٠

(١-١) مناقب ابن شهر آشوب (وفق ما نقله تفسير نور الثقلين، المجلد الثالث، ص ٥٦٤).

يا من يجيب دعا المضطر في الظلم*يا كاشف الكرب و البلوى مع السقم قد نام وفدك حول البيت و انتبهوا*و عين جودك يا قيوم لم تنم إن كان جودك لا يرجوه ذو سرف*فمن يجود على العاصين بالنعيم هب لى بجودك فضل العفو عن سرف*يا من أشار إليه الخلق فى الحرم ثم رفع رأسه إلى السماء و ناجى:

إلهى سيدي و مولاي!إن أطعتك بعلمي و معرفتى فلك الحمد و المنة على، و إن عصيتك بجهلى فلك الحجة على.

و رفع رأسه ثانياه إلى السماء مناجيا بأعلى صوته:يا إلهى و سيدي و مولاي، ما طابت الدنيا إلا بذكرك،و ما طابت العقبي إلا بعفوك،و ما طابت الأيام إلا بطاعتك،و ما طابت القلوب إلا بمحبتك،و ما طاب النعيم إلا بمغفرتك.

يضيف الأصمعى أن هذا الشاب واصل مناجاه ربه حتى أغمى عليه،فدنوت منه و تأملت فى محياه فإذا هو على بن الحسين زين العابدين،فأخذت رأسه فى حجرى و بكيت له كثيرا،فأعادته إلى و عيه قطرات دمع سكبت على و جنتيه،فتح عينيه و قال:من الذى شغلنى عن ذكر مولاي؟قلت:إنك من بيت النبوه و معدن الرساله. ألم تنزل فيكم آيه التطهير؟ ألم يقل الله فيكم: إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً .

نهض الإمام السجّاد و قال:يا أصمعى!هيهات هيهات!خلق الله الجنه لمن أطاع و أحسن و لو كان عبدا حبشيا،و خلق النار لمن عصاه و لو كان سيّدا قرشيا.

ألم تقرأ القرآن؟ ألم تسمع كلام الله: فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَ لَا

يقول الأصمعي: عند ما وجدته على هذا الحال، تركته و مضيت لسبيلي (١).

٣- تناسب العقاب مع الذنب

أشرنا سابقا إلى العذاب الإلهي في القيامة، و إلى أنّ الذنوب التي ترتكب تتناسب مع العقاب بدقّه، و قد ذكرت الآيات السابقه احتراق الوجوه الشديد بلهيب النار المحرقة، حتّى تكون الوجوه معبسه و الشغور مفتّحه. كلّ ذلك عقاب للذين خفّت موازينهم و انعدم إيمانهم. و مع التوجّه لهذا المعنى، و هو أنّ هؤلاء كانوا يعبسون حين سماع الآيات الإلهيه و أحيانا يسخرون بها. و يجلسون يتحدّثون باستهزاء و تهكّم، فإنّ هذا العذاب يناسب أعمالهم هذه.

ص: ٥٢٢

(١-١) - بحر المحبّه- للغزالي، صفحہ ٤١ إلى ٤٤ (مع التلخيص)

إشاره

أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١٠٥) قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ (١٠٦) رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ (١٠٧) قَالَ إِحْسُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ (١٠٨) إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَإِرْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١٠٩) فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِحْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُم ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ (١١٠) إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ (١١١)

التفسير

إشاره

لا تكلمون!

تحدّث الآيات السابقه عن العذاب الأليم لأهل النار، و تناولت الآيات- موضع البحث- استعراض جانب من كلام الله مع أهل النار، إذ خاطبهم سبحانه و تعالى بعتاب أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ (١).
ص: ٥٢٣

(١- ١) - إن هذه الجملة في الحقيقة فيها محذوف تقديره (يقول الله تعالى ألم تكن...).

ألم أرسل إليكم آيات و أدلّه واضحه بواسطه رسلى! ألم أتم حجّتى عليكم! و مع كلّ هذا واصلتم تكذيبكم و إنكاركم.

و بملاحظه كون فعلى «تتلى» و «تكذبون» مضارعان و هما دليل على الاستمرار، فإنّه يتّضح لنا استمرار تلاوه الآيات الإلهيه عليهم، و كذلك هم يواصلون التكذيب!

و هم يعترفون فى ردّهم قالوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَ كُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ .

«الشقوه» و «الشقاوه» نقيض السعاده، و تعنى توفر وسائل العقاب و البلاء. أو بتعبير آخر: هى الشرّ و البلاء الذى يصيب الإنسان، بينما تعنى السعاده توفر ظروف النعمه و الطيب.

و الشقاوه و السعاده ليستا إلاّ نتيجه لأعمالنا و أقوالنا و مقاصدنا، و الاعتقاد بأنّ السعاده أو الشقاوه ذاتيه للإنسان منذ الولاده، ما هو إلاّ تصوّر يذكر لتسويغ الفرار من عبء المسؤوليه و الاعتذار من الأعمال المخالفه للحقّ، أو هو تفسير لأعمال الجهل.

و لهذا نرى المذنبين أهل النار يعترفون بصراحه أنّ الله أتمّ عليهم الحجّه، و أنّهم كانوا السبب فى تعاسه أنفسهم، لأنّهم قوم ضالّون.

و لعلمهم فى اعترافهم هذا يودّون نيل رضى الله و رحمته، لهذا يضيفون مباشره رَبَّنَا أَخْرَجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ يقولون ذلك و كأنّهم لا يعلمون أنّ القيامه دار جزاء، و ليست دار عمل، و أنّ العوده إلى الدنيا أمر محال.

لهذا يردّهم الله سبحانه و تعالى بقوه قَالَ احْسَبُوا فِيهَا وَ لَا تُكَلِّمُونِ و عباره «احسبوا» التى هى فعل أمر، تستعمل لطرده الكلاب، فمتى ما استخدمت للإنسان فإنّها تعنى تحقيره و معاقبته.

ثمّ يبيّن الله عزّ و جلّ دليل ذلك بقوله: هل نسيتم: إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَ ارْحَمْنَا وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . و لكنكم كنتم تستهزئون

بهم إلى درجة أن كثره الاستهزاء و السخرية منهم أنساكم ذكرى:

فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوَكُمُ ذِكْرِي وَ كُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ

على أعمالهم و عقائدهم و أخلاقهم إني جزيتهم اليوم بما صبروا أنهم هم الفائزون .

و أما أنتم فقد ابتليتكم بأسوأ حاله، و بأكثر العذاب ألماً، و لا ينجدكم أحد من مصيركم الذي تستحقونه.

و بهذا بينت الآيات الأربع الأخيره السبب الرئيسي لتعاسه أهل النار، و سبب انتصار و فلاح أهل الجنه بشكل صريح.

الفئه الضالّه هي التي كانت وراء تعاستها، فقد هانت حتى لم تخاطب يوم القيامة إلا بما يخاطب به الكلب، لاستهزائهم بأهل الحق و الاستهانه بمعتقداتهم الساميه، فما أجدر المستهزئين بالمؤمنين بهذا المصير! و أما الفئه الصالحه فقد نالت خير جزاء من الله بصبرها و استقامتها في مواجهه العدو المعاند المغرور المتعنت، و مواصلتهم الطريق إلى الله يا خلاص.

اشاره

قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ (١١٢) قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمِ فَسِئَلِ الْعَادِّينَ (١١٣) قَالَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (١١٤) أَفَحَسِبْتُمْ أَنْتُمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنْتُمْ عَلِيمَاتُ مَا أَنْتُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَا يَخْلَقُ إِلَّا رِجْسًا وَمِمَّا كَفَرَ الْأَكْثَرُونَ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦)

التفسير

اشاره

الدنيا، و عمرها القصير:

بما أنّ الآيات السابقة تناولت جانبا من عذاب أهل النار الأليم، عقبّت الآيات-موضع البحث- ذلك بذكر نوع آخر من العذاب، هو العذاب النفسى الموجه من قبل الله تعالى لأهل النار للاستهان به.

تقول الآية الأولى: قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ يخاطبهم سبحانه و تعالى يوم القيامة قائلا: كم سنه عشتم فوق الأرض؟ كلمة «الأرض» فى هذه الآية و كذلك القرائن التى سوف تأتى لا-حقا تدلّ على أنّ السؤال هو عن مقدار عمرهم فى الدنيا بالمقارنه مع أيام الآخرة.

فما ذهب إليه بعض المفسرين: من أن المراد من هذا الاستفسار هو عن السؤال مقدار انتظارهم في عالم البرزخ، بعيد حسب الظاهر، رغم وجود شواهد قليلة على ذلك في آيات أخرى (١).

إلا أنهم يرون في هذه المقارنه أن الدنيا قصيره جدًا جدًا قالوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ .

و الحقيقة أن الأعمار الطويله في الدنيا كسحابه صيف لو قارناها بحياه الآخره، حيث النعم الخالده و العقاب غير المحدود.

و للتأكيد أو للردّ بدقه قالوا فَسَيَلِّ الْعَادِّينَ أَي: ربّاه اسأل الذين يعرفون أن يعدّوا الأعداد و يحسبوا بدقه حين مقارنه بعضها مع بعض، و يمكن أن يكون القصد من كلمه «العادّين» الملائكه الذين يحسبون أعمار الناس و أعمالهم بدقه، لأن هؤلاء يجيدون الحساب أفضل من غيرهم.

و هنا يؤنبهم الله و يستهزئ بهم قالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ فسوف يدركون يوم القيامة مدى قصر عمر الدنيا المحدود بالنسبه لعمر الآخره الممدود، فالعمر الأول ما هو إلا كلمه بصر، و لكنهم كانوا يتصوّرونه خالداً، لأنّ حجب الغفله و آثارها قد أسدلت على قلوبهم، فحجبتها عن رؤيه الحقّ، فاستهانوا بالآخره و حسبوها وعدا آجلا بعيدا، لهذا قال لهم الله عزّ و جلّ: لو أنّكم كنتم تعلمون لأدرّكنم هذه الحقيقة التي توصلتم إليها يوم القيامة في دنياكم (٢).

ص: ٥٢٧

١-١) -نقرأ في سورة الروم الآية (٥٥) و(٥٦): وَ يَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ، وَ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبُعْثِ، فَهَذَا يَوْمُ الْبُعْثِ، وَ لَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ تبيين هاتان الآيتان أنّ الاستفسار و الردّ خاص بالتوقّف في البرزخ، و إذا جعلناه دليلا على الآيات موضع البحث، فمفهومها سيكون أيضا التوقّف في البرزخ، إلاّ أنّه كما قلنا: إنّ الدلائل الموجوده-في الآيات موضع البحث-مقدمه عليها، و إنّها تبيين أنّ الاستفسار و جوابه يخصّ التوقّف في الدنيا.

٢-٢) -إن «لو» في الآية السابقه شرطيه كما قلنا سابقا. و هناك جملة تقديرية محذوفه فتكون «لو أنّكم كنتم تعلمون» لعلمتم

و استعملت الآيه أسلوبا مؤثرا آخر لإيقاظ هذه الفئة و تعليمها أ فَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ هذه العبارة الموجزة و العميقة تبين واحدا من أقوى الأدلة على البعث و حساب الأعمال و الجزاء، و تعنى أن الحياة الدنيا تصيح عبثا إن لم تكن القيامة و المعاد. فالدنيا بما فيها من مشاكل و ما وضع فيها الله من مناهج و مسئوليات و برامج، تكون عبثا و بلا معنى إن كانت لأيام معدودات فقط، كما سنشرح ذلك في المسائل الآتية.

و بما أن عدم بثية الخلق أمر مهم يحتاج إلى دليل رصين، أضافت الآيه فتعالى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ .

فإن الذى يقوم بعمل تافه- فى الواقع- هو الجاهل غير الواعى أو الضعيف غير القادر، أو من هو بالذات تافه خاو.

أما «الله» الذى جمع الكمال فى صفاته.

و هو «الملك» الذى يملك جميع الكائنات و يحكم عليها و هو «الحق» الذى لا يصدر منه غير الحق، فكيف يخلق الوجود عبثا بلا غاية.

و لو توهم أحد الأشخاص بأنه يمكن أن يوجد من يمنعه من الوصول إلى هدفه، فإن عبارة لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ تنفى ذلك و تؤكد ربوبيته و مفهومها أن هذا المالك مصلح و هادف فى خلقه للعالم.

و باختصار نقول: إنه إضافه إلى ذكر كلمه «الله» التى هى إشاره إلى صفاته الكماليه فى ذاته، ذكرت الآيه أربع صفات بشكل صريح: مالكيه و حاكميه الله، ثم حقايتيه وجوده، و كذلك عدم وجود شريك له، و أخيرا مقام ربوبيته. و هذا كله دليل على أنه تعالى لا يقوم بعمل عبثا، كما أنه لم يخلق البشر عبثا.

كلمه «العرش» كما أشرنا سابقا، هى إشاره إلى أن عالم الوجود كله الخاضع

(٢)

أنكم ما لبثتم إلا قليلا، و قال بعض المفسرين أن «لو» تعنى هنا «ليت» و بهذا تكون الجملة بهذا الشكل «ليتكم علمتم بهذا الموضوع فى دنياكم»

ص: ٥٢٨

لحكم الله (لأنَّ العرش في اللغة يعنى السرير ذى الأرجل العاليه و الخاصَّ بالحكام، و هذه كنايه عن حكم الله المطلق). و للاطلاع أوسع على معنى العرش في القرآن المجيد يراجع التفسير الأمثل تفسير الآيه ٥٤ من سوره الأعراف.

و سبب توصيف العرش بالكريم، هو أنَّ كلمه «الكريم» تعنى بالأصل الشريف و المفيد و الجيد، و بما أنَّ عرش الله سبحانه و تعالى له هذه الصفات، فقد سمى بالكريم.

و لا- بدَّ من القول بأنَّ صفه الكريم لا- تخصَّ العاقل فقط، بل تطلق على غيره في اللغة العربيه. كما نشاهد ذلك في سوره الحج الآيه ٥٠ الخاصه بالمؤمنين الصالحين لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَ رِزْقٌ كَرِيمٌ أى رزق ذو بركه. و كما يقول الراغب الاصفهاني في مفرداته: الكرم لا يقال إلاَّ في المحاسن الكبيره، كمن ينفق مالا في تجهيز جيش في سبيل الله، أو تحمّل حماله ترقى دماء قوم.

بحث

اشاره

الموت ليس نهايه الحياه:

قلنا: إنَّ من بين الأدلّه المطروحه لإثبات المعاد و العالم الآخر هي «مطالعه نظام هذا العالم» أو بتعبير آخر: إنَّ دراسه «النشأه الأولى» شاهد على وجود «النشأه الاخرى».

و من الضروري إيضاح ذلك بنحو أوسع هنا.

فمن جهه نرى عالم الوجود بهذه السعه و العظمه و التنظيم المدهش، حتّى اعترف كبار العلماء بأنَّ أسرار العالم بقدر يقف الإنسان عاجزا إزاءها، فإنَّ معلوماته مهما كانت لا تشكّل سوى صفحه من كتاب كبير جدّا. بل إنَّ معلوماتنا عن هذا الوجود ما هي إلاَّ «ألفباء» لهذا الكتاب العظيم التأليف و الأسرار.

فكل واحد من هذه المجزّات العظيمه تضمّ مليارات من الكواكب، و عدد المجرات و الفواصل بينها كبير بدرجة تثير الدهشه حين حساب المسافه بينها بسرعه الضوء، علما بأنّ سرعه الضوء تبلغ ثلاثمائه ألف كيلومترا فى الثانيه.

و الدقه المستخدمه فى بناء أصغر وحده من هذا العالم هى ذاتها التى استخدمت فى أوسع بناء فيه.

و الإنسان-بحسب علمنا- أكمل المخلوقات التى نعرفها فى الوجود، و هو أسمى نتاج لهذا العالم، و من جهه أخرى يلاقى الآلام و المشاكل الكثيره خلال عمره القصير حتّى يبلغ أشده! فما يكاد ينهى مرحله الطفوله بالأمها و مشاكلها و يتنفس الصعداء منها حتّى يدخل مرحله الصبا و الشباب بتقلباتها الشديده المدمره.

و ما يكاد يثبت قدميه بعد فى هذه المرحله حتّى تدهمه مرحله جديده مفعمه بألوان الأذى و أنواع المصاعب، هى مرحله الكهوله و الشيخوخه، فيتضح له مدى ضعفه و عجزه.

فهل يصدق أن يكون هدف هذا الكائن العظيم الأعجوبه فى الخلق، الذى يسمّى الإنسان، يأتى هو أن إلى هذا العالم ليقضى عددا من السنين، و ليمرّ بكلّ هذه المراحل بما فيها من آلام و مصاعب، و ليأكل مقدارا من الطعام و يلبس لباسا و ينام و ينهض ثم يموت و ينتهى كلّ شىء. و إذا كانت هذه هى الحقيقه، ألا يعنى هذا عبثا؟ أ تكون كلّ هذه التشكيلات العظيمه من أجل غايه دينيه كالأكل و الشرب و النوم؟ افرضوا بقاء نوع الإنسان ملايين السنين فى هذه الدنيا، و تتعاقب الأجيال، و ترتقى العلوم الماديّه فتوفّر أفضل المأكل و الملبس و المسكن و أعلى مستوى من الرفاهيه للبشر، أ تكون تشكيلات الوجود كلّ من أجل هذه المقاصد الدنيا؟

و على هذا فإنّ دراسه هذا العالم العظيم لوحده دليل على كونه مقدّمه لعالم أوسع يمتاز بالدوام الخالد، و يعطى الإيمان به حياتنا معناها اللائق بها، و يخلصها من التفاهات. و لهذا لا نستغرب من تصوّر الفلاسفه الماديّين الذين لا يعتقدون بالقيامه و الآخره أنّ هذا العالم تافه لا هدف له. و لو كنّا نحن نعتقد بمثل هذا فحسب لا تتجهنا نفس اتّجاههم. و لهذا نؤكّد أنّه إذا كان الموت نقطه النهايه فخلق الوجود يصبح أمرا تافها، لهذا نقرأ فى الآيه (٦٦) من سوره الواقعه وَ لَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ!؟

ص: ٥٣١

إشارة

وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ (١١٧) وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ (١١٨)

التفسير

إشارة

المفلحون والخائبون:

بما أنّ الآيات السابقة تحدّثت عن قضيه المعاد، واستعرضت الصفات الإلهيه، فإنّ الآيه الأولى أعلاه تناولت التوحيد نافيه الشرك مؤكده للمبدأ و المعاد.

في قوله تعالى: وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ (١).

أجل، إنّ المشركين يستندون إلى الأوهام، فلا دليل على ما يدعون سوى أنّهم كاللبغاء يقلدون آباءهم في التمسك بالخرافات و الأساطير-التي لا أساس

ص: ٥٣٢

١ - ١) - و اعتبر بعض المفسرين عبارته «فإنّما حسابه عند ربّه» جواب الشرط لعباره «من يدع مع الله» و يعتبر جملة «لا- برهان له به» جملة اعتراضيه جاءت بين سؤال الشرط و جوابه. و هي لتأكيد الهدف النهائي. إلّا- أنّ البعض الآخر يرى أنّ عبارته «لا برهان له» جواب الشرط و جملة «فإنّما حسابه»... فرع عنها، لكنّ هذا الاحتمال لا ينسجم مع الأدب العربي، إذ يستوجب أن يقترن جواب الشرط بالفاء. أي «فلا برهان له، و ذهب آخرون إلى أنّ هذه الجملة صفة أو حالاً. إلّا أنّ الاحتمال الأوّل يبدو أقرب إلى الصواب رغم أنّه لا فرق في المعنى يستحقّ الملاحظه».

لها من الصَّحَّة-و من هنا ينكرون المعاد على الرغم من وضوح أدلته و إشراق حقيقته،و يقبلون الشرك من غير دليل صحيح عليه.و من الطبيعي أن يعاقب مثل هؤلاء الذين داسوا حكم العقل بأقدامهم،و أتجهوا فى دروب الكفر و الشرك المظلمه بوعى منهم.

و فى النهايه تقول الآيه: إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ مَا أَجْمَلُ بَدَايِهِ هَذِهِ السُّورَةُ قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ! و ما أجمل نهايتها المؤكده لبدايتها لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ! هذه هى صورته جامعته لحياه المؤمنين و الكافرين من البدايه إلى النهايه.

و ختمت السوره بهذه الآيه الشريفه كاستنتاج عام بأن وَّجَّهَتِ الْكَلَامَ إِلَى الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَ آلِهِ وَ سَلَّمَ: وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَ ارْحَمْ وَ أَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ .

و الآذن و قد اختارت فنه الشرك سييلا،و جارت فنه أخرى و ظلمت،فأنت- أيها الرسول و من معك تدعون الله ربكم أن يغفر لكم و يرحمكم بلطفه الواسع الكريم.

و لا شكّ فى أنّ هذا الأمر بالدعاء شامل لجميع المؤمنين،رغم كون المخاطب به هو النبي بذاته.

و روى«أنّ أول سورة قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و آخرها من كنوز العرش،و من عمل بثلاث آيات من أولها،و اتعظ بأربع من آخرها فقد نجا و أفلح (١)».

و يحتمل أنّه يقصد الآيات الثلاث التى تلت عبارته قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ و التى تدعو إحداها إلى الخشوع فى الصلاه،و تدعو الأخرى إلى اجتناب اللغو و تدعو الثالثه إلى الزكاه.فإحداها تنظّم علاقه الإنسان بربه،و الاخرى تنظّم هذه العلاقه مع الناس،و الثالثه مع النفس.

و القصد من الآيات الأربع الأخيره،هى الآيه ١١٥ و ما يليها التى تحدّثت

ص: ٥٣٣

١-١) -تفسير الفخر الرازى فى آخر الآيات موضع البحث المجلد ٢٣ و ٢٤ مطبعه البهيه المصريه-القاهره-ص ١٢٨.

عن غائبه الخلق، و المعاد، و التوحيد، و أخيرا الانقطاع إلى الله و التوجه إليه.

ربّاه! ندعوك بحقّ المؤمنين الذين وعدتهم في هذه السوره بالفلاح. و في طليعتهم الرّسول صلى الله عليه و آله و سلّم و أهل بيته عليهم السّلام أن تحشرنا مع هذه الفئه الصالحه و أن تكتبنا مع المفلحين.

ربّاه! منّ علينا برحمتك و غفرانك إنك أرحم الراحمين.

إلهي! اجعل خاتمه أعمالنا خيرا. و احفظنا من كلّ خطأ و انحراف، إنك على كلّ شيء قدير.

ختام تفسير سوره المؤمنين نهايه المجلّد العاشر

ص: ٥٣٤

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ

الزمر: ٩

المقدمة:

تأسس مركز القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان بإشراف آية الله الحاج السيد حسن فقيه الإمامي عام ١٤٢٦ الهجرى في المجالات الدينية والثقافية والعلمية معتمداً على النشاطات الخالصة والدؤوبة لجمع من الإخصائيين والمثقفين في الجامعات والحوزات العلمية.

إجراءات المؤسسة:

نظراً لقلّة المراكز القائمية بتوفير المصادر في العلوم الإسلامية وتبعثها في أنحاء البلاد وصعوبة الحصول على مصادرها أحياناً، تهدف مؤسسة القائمية للدراسات الكمبيوترية في أصفهان إلى التوفير الأسهل والأسرع للمعلومات ووصولها إلى الباحثين في العلوم الإسلامية وتقديم المؤسسة مجاناً مجموعةً إلكترونيةً من الكتب والمقالات العلمية والدراسات المفيدة وهي منظمة في برامج إلكترونية وجاهزة في مختلف اللغات عرضاً للباحثين والمثقفين والراغبين فيها. وتحاول المؤسسة تقديم الخدمة معتمدةً على النظرة العلمية البحتة البعيدة من التعصبات الشخصية والاجتماعية والسياسية والقومية وعلى أساس خطة تنوى تنظيم الأعمال والمنشورات الصادرة من جميع مراكز الشيعة.

الأهداف:

نشر الثقافة الإسلامية وتعاليم القرآن وآل بيت النبي عليهم السلام
تحفيز الناس خصوصاً الشباب على دراسة أدق في المسائل الدينية
تنزيل البرامج المفيدة في الهواتف والحاسوبات واللابتوب
الخدمة للباحثين والمحققين في الحوزات العلمية والجامعات
توسيع عام لفكرة المطالعة
تهميد الأرضية لتحريض المنشورات والكتّاب على تقديم آثارهم لتنظيمها في ملفات إلكترونية

السياسات:

مراعاة القوانين والعمل حسب المعايير القانونية
إنشاء العلاقات المترابطة مع المراكز المرتبطة
الاجتناب عن الروتين وتكرار المحاولات السابقة
العرض العلمي البحت للمصادر والمعلومات

الالتزام بذكر المصادر والمآخذ في نشر المعلومات
من الواضح أن يتحمل المؤلف مسؤولية العمل.

نشاطات المؤسسة:

طبع الكتب والملزمات والدوريات

إقامة المسابقات في مطالعة الكتب

إقامة المعارض الالكترونية: المعارض الثلاثية الأبعاد، أفلام بانوراما في الأمكنة الدينية والسياحية

إنتاج الأفلام الكرتونية والألعاب الكمبيوترية

افتتاح موقع القائمة الانترنتى بعنوان : www.ghaemiyeh.com

إنتاج الأفلام الثقافية وأقراص المحاضرات و...

الإطلاق والدعم العلمى لنظام استلام الأسئلة والاستفسارات الدينية والأخلاقية والاعتقادية والردّ عليها

تصميم الأجهزة الخاصة بالمحاسبة، الجوال، بلوتوث Bluetooth، ويب كيوسك kiosk، الرسالة القصيرة (sms)

إقامة الدورات التعليمية الالكترونية لعموم الناس

إقامة الدورات الالكترونية لتدريب المعلمين

إنتاج آلاف برامج فى البحث والدراسة وتطبيقها فى أنواع من اللابتوب والحاسوب والهاتف ويمكن تحميلها على ٨ أنظمة؛

JAVA.١

ANDROID.٢

EPUB.٣

CHM.٤

PDF.٥

HTML.٦

CHM.٧

GHB.٨

إعداد ٤ الأسواق الإلكترونية للكتاب على موقع القائمة ويمكن تحميلها على الأنظمة التالية

ANDROID.١

IOS.٢

WINDOWS PHONE.٣

WINDOWS.٤

وتقدّم مجاناً فى الموقع بثلاث اللغات منها العربية والانجليزية والفارسية

الكلمة الأخيرة

نتقدم بكلمة الشكر والتقدير إلى مكاتب مراجع التقليد منظمات والمراكز، المنشورات، المؤسسات، الكتاب وكل من قدم لنا المساعدة في تحقيق أهدافنا وعرض المعلومات علينا.

عنوان المكتب المركزي

أصفهان، شارع عبد الرزاق، سوق حاج محمد جعفر آواده اي، زقاق الشهيد محمد حسن التوكلي، الرقم ١٢٩، الطبقة الأولى.

عنوان الموقع : : www.ghbook.ir

البريد الإلكتروني : Info@ghbook.ir

هاتف المكتب المركزي ٠٣١٣٤٤٩٠١٢٥

هاتف المكتب في طهران ٠٢١ - ٨٨٣١٨٧٢٢

قسم البيع ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩ شؤون المستخدمين ٠٩١٣٢٠٠٠١٠٩.

مركز
للبحوث والتحريرات الكمبيوترية
الغمامة اصحمان



للحصول على المكتبات الخاصة الاخرى
ارجعوا الى عنوان المركز من فضلكم

www.Ghaemiyeh.com

www.Ghaemiyeh.net

www.Ghaemiyeh.org

www.Ghaemiyeh.ir

و للايحاء من فضلكم

٠٩١٣ ٢٠٠٠ ١٥٩